مجلة اسلامية علمية

تصدر بعد كل شهرين
وتبحث فى الدين والثقافة والتاريخ والآداب

ربيعان الأول والثاني ١٤٠٢هـ   يناير فبراير ١٩٨٢م

مجمع البحوث الاسلامية

الجامعة الاسلامية

اسلام آباد - الباكستان

الدراسات الإسلامية

مجلة مجمع البحوث الاسلامية

الجامعة الاسلامية

اسلام آباد - الباكستان

العدد الأول　　　المجلد السابع عشر

ربيعان الأول والثانى ١٤٠٢هـ　　　يناير وفبراير ١٩٨٢ م

هيئة التحـــريــــر

المحتـــوى

ضيـــوف العـــــدد

★ الدكتو ر محمد حمدى ابراهيم ★

استاذ بقسم اللغة الاغريقية بجامعة القاهرة . جمهورية مصر العربية

★ الدكتو ر سمير عبدالحميد ابراهيم ★

قسم اللغة الاردوية بجامعة القاهرة صاحب مؤلفات عديدة عن محمد اقبال وشعره وفكره وعن آداب اللغة الاردوية والثقافة الباكستانية .

★العـلامة الدكتو ر مصطفى أحمد الزرقاء ★

أحد كبار الفقهاء وأهل العلم فى العالم الاسلامى المعاصر الذين يفتخر بهم العالم الاسـلامى ، استاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة دمشق سابقا ، وزيـر العـدل السورى سابقا ، أستاذ القانون المدنى بجامعة الأردن ، عضو المجمع الفقهى التابع لرابطة العالم الاسـلامى ، مكة المكرمة ، صاحب مؤلفات عديدة ورائعة فى الفقة الاسـلامى . ويعتبر كتابه القيم : الفقه الاسـلامى فى ثوبه الجديد خطوة هامة فى سبيل تحديد الفقه الاسـلامى

ليس من الضرورى ان تتفق اداره المجمع مع جميع الآراء والبحوث التي ينشرها الكتاب فى هذه المجلة

كلمـــة العـــدد

ان الهدف الرئيسى الذى يعمل من أجل تحقيقه مجمع البحوث الاسلامية منذ تأسيسه قبل عشرين عاما هو العمل لتجديد بناء المجتمع الباكستانى نظاما وسلوكا على دعائم اسلامية صالحة ، واعادة تشكيله حكومة وشعبا فى ضوء تعاليم الاسلام . ولايمكن تحقيق هذا الهدف الجبار الا بوسيلة حركة علمية فكرية عميقة شاملة تقوم بايجاد تغيير ثورى فى منهج التفكير ، تغيير ثورى فى نظام التعليم و تغيير ثورى فى سير التاليف .

ولعل المغفورله محمد اقبال كان أول من تنبه لحاجة التغيير الثورى الجذرى فى تفكير المسلمين ووضع خطوطا وقواعد لهذا التغيير المطلوب . فركز جهوده العلمية على نقد الفكر الغربى على محك الاسلام والاشارة الى جوانب الضعف فى الثقافة والحضارة الغربية ، فانتقدها بكل صراحة وشجاعة ، ودعا الى نبذ هذه الثقافة الالحادية العلمانية والاعتصام بالكتاب والسنة واعتبار كل شئ ورد الينا من الخارج كالمواد الخام ، نأخذ منها ما صفا وندع منها ما كدر ، لنستعمل الجزء الصافى الملائم لحاجاتنا ونستفيد من تجارب الأمم الحية الراقية فى بناء مجتمع اسلامى حديث .

فلا بد لهذا الأخذ والرد من حركة علمية شاملة عميقة دائمة التنبه واليقظة ، تنتقد كل علم و فكر ورأى على أساس الكتاب والسنة وتقوم على حد الاسلوب القرآنى بالهيمنة على العلوم . وأشار محمد اقبال الى أهمية هذه العملية المستمرة قائلا : „ ان واجبنا نحن هو أن نراقب تطور الفكر البشرى بكل يقظة وانتباه و نحتفظ بوجهة نظر حرة انتقادية تجاه هذا التطور » .

* * *

هذا هو الهدف الأسمى الذى يكافح مجمع البحوث الاسلامية من أجل تحقيقه على مستوى بسيط متواضع . ومما ترتاح اليه نفوس العاملين بالمجمع أن العالم الاسلامى بدأ يشعر بأهمية هذا العمل الضخم الجبار على نطاق أوسع وأشمل ، وبدأت المجامع العلمية والمؤسسات التعليمية باتخاذ الخطوات اللازمة فى هذا الاتجاه .

وتبنت الجامعة الاسلامية الحديدة باسلام آباد هذا الهدف منذ تأسيسها فى غرة القرن الهجرى الجديد . فينص المرسوم الرئاسى الذى أصدره رئيس الجمهورية الباكستانى لاقامة هذه الجامعة أن الجامعة سوف تعمل لتطوير نظام تعليمى اسلامى يجمع بين الاصالة الاسلامية الحقيقية وبين مقتضيات العصر الحديث ليؤدى حاجات الأمة الاسلامية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفنية والطبيعية والفكرية والجمالية فى ضوء تعاليم الاسلام الحقة وأحكام الشريعة الغراء . وسوف تعمل هذه الجامعة لتجديد بناء الفكر البشرى بكل انواعه على أسس اسلامية صحيحة .

فبدأت الجامعة الاسلامية ومعها مجمع البحوث الاسلامية (الذى أصبح الآن جزءا من الجامعة وفق المرسوم الرئاسى) تتخذ خطوات موفقة

لنيل هذا الهدف فقـرر مجلس امناء الجامعة أن تعقد ندوة دولية بالتعاون مع المعهد الدولى للفكر الاســلامى الذى يرأسه الدكتور اسمعيل راجى الفاروقى للبحث فى أساليب توجيه المعرفة والعلوم الحديثة وجهة اسـلامية وتدوينها من جديد على أساس الاســلام .

وانعقدت الجلسة الافتتاحية للندوة فى الرابع من يناير ١٩٨٢ م تحت رعاية الرئيس الباكستانى محمد ضياء الحق الذى ألقى خطبته الافتتاحية ، وأشار فيها الى أهمية هذا العمل فى المسيرة التى بدأتها باكستان لتطبيق الشريعة الاســلامية . وبعد أن بدأت الجلسة بتلاوة آي من الذكر الحكيم تقدم العالم التربوى الباكستانى الشهير والمؤرخ الكبير الدكتور نبى بخش بلوش مدير الجامعة الاســلامية وعميد معهد التاريخ والثقافة والحضارة الاســلامية بالجامعة وألقى خطبة الترحيب . وبعـد أن ذكر فيهـا بعض الخطوات الهامة التى اتخذتها باكستان فى سبيل تطبيق الاسـلام خلال السنوات العديدة الفائتة ، قال : ان جميع النتائج المطلوبة لهذه الخطوات لاتظهر الا بعد أن نحدث تغييرا جذريا فى تفكير المثقفين ووجهة نظرهم ، ولئن كانت النتائج التى ظهرت لهذه الخطوات المباركة جديرة بالـذكر والشكر ولكن المنشود أكبر بكبير من الموجود .

وقال : أن الشعور بأهمية تطبيق النظام التعليمـى الاســلامـى هى الخطوة الاساسية التى سوف تضمن نجاح الخطوات الأخرى . والعالم الاسـلامى بدأ ، والحمد لله ، سيره السريع المدروس نحو هذا الهدف . وكان للمؤتمر العالمى للتعليم الاســلامى الاول المنعقد فى مكة المكرمة دور رائد فى بدء هذه المسيرة المباركة . وبرزت فى هذا المؤتمر كثير من المسائل والقضايا المتعلقه بهذه العملية الجبارة . وشعر المشتركون فى هذا المؤتمرأن الخطوة اللازمة لتطوير نظام تعليمى اسـلامى منشود هى اسـلامية

العلوم واسلامية المعرفة . وهذه الأزمة التعليمية التى يعانى منها العالم الاســلامى كله هى النتيجة المنطقية لسيطرة العلم العلمانى المنهـج والمعرفة الالحادية المحتوى . وأكد هذا الشعور المؤتمر العالمى الثانى للتعليم الاســلامى المنعقد فى مارس ١٩٨٠ م باسلام آباد ــ باكستان ــ تحت اشراف جامعة القائد الأعظم.

ثم تقدم الدكتوراسمعيل‌راجى الفاروقى ، رئيس المعهد الدولى للفكر الاســلامى وألقى كلمته الرائعة التى ذكر فيهااستراتيجيته المقترحة للبدء فى هذا العمل الضخم ، أى اســلامية العلـوم وتوجيـه المعـرفة وجهة اســلامية ، وشرح فيها تسع خطوات ، وخمسة مشاريع لانجاح هذه المهمة الصعبة ، وأعد ميزانية لمدة خمس سنوات ، ولاشک أن كلمة الدكتـور الفاروقى كانت من أهم بحوث الندوة .

ثم تقدم السيد الله بخش بروهى رئيس الجامعة الاســلامية وأحد كبار رجال القانون فى العالم المعاصر ، وألقى خطبته القيمة التـى اعتبـرت أساسا لجميع المباحثات والمناقشات فى هذه الندوة . وركز السيد بروهى كلامه على الفرق بين علم الحق وعلم الباطل وبين العلم النافع والعلم الضار ، فان العلم المطلوب المستحسن فى الاســلام هو علم الحق والعلم النافع وعلم حقائق الأشياء كماهى ، وليس المطلوب علم الباطل والعلم الضار وعلم طواهر الاشياء فقط ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب دائماعلمـا نافعا واستعاذ بربه من علم لاينفع ، فماظنک فى علم ضار .

وعالج رئيس الجامعة الاســلامية قضية العلوم الغـربية والمذاهـب الـفـلسـفية التـى ظهــرت فى أوربا على مر العصور ، وقـال ان هذه العلوم والمذاهب الفلسفية تطورت فى بيئة الحادية ، وتحتوى على آراء وأفكار تصطدم مع الاســلام اصطداما ظاهرا وتخـالف تعاليـم الشـريعة

المطهرة مخالفة بديهية ، وذكر بالتفصيل آراء داروين و فرويد وكارل ماركس ، وأشار الى جوانب الضعف فى هذه المذاهب الفكرية وركز على النواحى التى تختلف فيها مع الاسلام .

استمرت أعمال هذه الندوة لمدة خمسة أيام ، واشترك فيها حوالى أربعين عالما و باحثا واستاذا جامعيا . ووزعت أعمال الندوة وبرامجها على أربعة عشر جلسة ، خصصت كل واحدة من هذه الجلسات لموضوع معين أو مجموعة علوم معينة ، وكانت هذه الموضوعات تشتمل على مايأتى: الجامعة الاسلامية ،مبادئها وأهدافها ، العلوم المتعلقة بالتاريخ ، العلوم القانونية والحقوقية ، العلوم الانسانية وعلم الاجتماع وعلم البشر (الانتروبولوجيا) ، العلم والمعرفة ومستقبل الأمة ، العلوم النفسية ، تقرير الأولويات فى مهمة أسلمة العلوم وخطة العمل واستراتيجيتها ، العلوم المتعلقة بالطبيعة والرياضيات ، الاقتصاديات ، علوم السياسة ، وخصصت الجلسة الأخيرة للقرارات وتقرير المبادئ والقواعد العامة لهذا العمل .

نرجو أن تكون لهذه الندوة العالمية تأثير عميق فى تفكير المسلمين ، وتكون مقدمة لثورة علمية فكرية كبرى فى عالمنا الاسلامى المعاصر . فان ظهور الروح الانتقادية فى المفكر الاسلامى المعاصر ومعاملته مع الثقافة الغربية معاملة الجوهرى الخبير مع الأحجار والمعادن هو فاتحة خير وبشرى للعالم الاسلامى كله . وندعوالله تعالى أن يوفق العلماء المسلمين وعلى الخصوص الذين تثقفوا منهم بالثقافة الغربية أن يرفضوا قيادة الغرب الفكرية ويحطموا امامته العلمية والحضارية ويثبتوا بالادلة القويمة والبراهين القاطعة أن انظمة الغرب الفكرية كلها فاسدة وباطلة ، وأن الفكر الاسلامى والثقافة الاسلامية والحضارة الاسلامية هى التى توفر وتضمن للبشرية مثلها العليا المنشودة وتهدى الانسان الضال

الحائر على مفترق الطرق الى الصراط المستقيم والطريق القويم .

★ ★ ★ ★

بهذا العدد دخلت مجلتكم المتواضعة « الدراسات الاسلامية » فى عامها الثامن عشر . فقد صدر العدد الأول منها فى مارس ١٩٦٥ م ، وتولى رئاسة تحريرها قبل كاتب هذه السطور كبار الكتاب وعلماء العربية فى هذه البلاد . وكان الهدف من اصدار هذه المجلة هو القيام بالخدمة المتواضعة فى سبيل غاية عظيمة ، وهى تقديم البحوث الاسلامية والدراسات العلمية فى مختلف فروع الشريعة ونواحيها للمساهمة فى اعادة بناء المجتمع الباكستانى على أساس اسلامى صحيح .

وأعلنت هذه المجلة سياستها فى أول عددها ، وقالت ان جميع مواقفها مبنية على الايمان العميق بالاسلام وبالحقائق الخالدة التى جاء بها الاسلام ، الحقائق التى لاتزال باقية خالدة على مرالعصور وكر الدهور ، والتى تجدها البشرية أغنى وأصلح من قبل كلما مرت بتجارب حديدة . وهذا الايمان العميق يفرض على المسلمين كافة أن ينظروا الى ماضيهم المجيد وتاريخهم الزاهر بثقة واعتماد و شجاعة وصراحة وفخر واعتزاز ، وأن لايلجأوا الى الدفاع السلبى واتخاذ الموقف الاعتذارى ، بل يسيروا الى المستقبل سير الشجاع المقدام الذى يريد البناء والتعمير ، فان الموقف السلبى والاعتذارى لايسمن ولا يغنى من جوع .

وأعلنت المجلة أنها تريد أن تنشر مقالات علمية وفكرية تكون نتيجة بحث جدى وموضوعى وخلاصة تفكير عميق أو تفسير للوقائع واقعى وذى مغزى أو تجمع بين الامرين . ونترك هذا الأمر الى القراء الكرام ، ليحكموا على مدى نجاح هذه المجلة بالقيام بخدمة هذه الغاية المباركة واتخاذ هذا المنهج .

كانت هذه المجلة حتى الآن فصلية تصدر بعد كل ثلاثة أشهر . ولكن سوف تصدر ابتداءا من هذا العام بعد كل شهرين . ونحن نأمل من القراء الكرام أن يشاركونا فى خدمة هذه الغاية المنشودة ، غاية كل مومن يؤمن بصلاحية الاســـلام وشريعته دستوراً ونظاما وسلوكا ومنهجا وعقيدة لكل عصر ولكل جيل .فان العلاقة بيننا وبين قراءنا الكرام ليست علاقة البائع بالمشترى أو علاقة ناسرى المجلة بقارئيها ، بل علاقاتنا أوسع وأعمق وأسمل وأقدس من هذه العلاقة المادية . نحن جنود فى جند الله وحزبه ، نقاتل فى سبيله ، ونجاهد من أجل دينه ، ونكافح لاعلاء كلمته . فعلاقتنا علاقة الأخوة والوحدة والايمان والتضامن .

وندعوا الله تعالى أن يأخذ بأيدينا ويسـدد خطانا ويوفقنا لما فيه مرضاته انه سميع مجيب . وبهذه الكلمة الموجزة ندخل فى عهد جديد لهذه المجلة ، فبسم الله مجريها ومرساها .

محمود أحمد غازى

التأثيرات اليونانية علــــى
منطقة وادى السنـــــد

د . محمد حمــــدى ابراهيم

د . سمير عبدالحميد ابراهيم

رغم أن العرب والفرس قد تركوا تأثيرا له أهميته على منطقة وادى السند[1] ، كما لو كانوا قد غرسوا شجيرات ورود فى وادى السند . فأينعت وازدهرت حينا طويلا . الا أن اليونانيين بدورهم ابان عصر الاسكندر الأكبر[2] قد وضعوا بذورا نبتت فيما بعد ، وغدت أزهارا شذية الأريج ، توضح بجلاء مدى التأثير اليونانى ومعالمه التى تتميز قطعا عن معالم التأثيرات العربية الفارسية

اجتاح الاسكندر الأكبر هذه المنطقة القاصية من العالم القديم كالعاصفة ثم ذهب عنها سريعا ، ورغم ذلك فقد كان لقدومه عليها آثارا بعيدة المدى ، فلم يكن الاسكندر الأكبر قائدا عسكريا عظيما فحسب ، ولكنه حطم بفتوحاته السد المنيع الذى كان يفصل بين الشرق والغرب ، وساعد على امتزاج الحضارات وقيام التأثيرات بينها . وبعد رحيل الاسكندر الأكبر عاش قواده فى وادى السند زمنا[3] ، وساعدوا على نشأة حضارة جديدة تحمل بين طياتها سمات مميزة لكل من فكر الشرق والغرب وتمثل فى الوقت نفسه نموذ جا رائعا لامتزاج علوم وفنون الشرق مع علوم وفنون الغرب .

انشأ الاسكندر الأكبر أثناء الفترة القصيرة التى قضاها فى وادى السند (عام ٣٢٦ ق . م) عددا من المعسكرات لسكنى جنوده ، هذا فضلا عن الجنود الذين أقاموا فى مناطق أخرى متفرقة بعد أن عينهم الاسكندر

الأكبر عمالا على هذه المناطق . وبطبيعة الحال كان جنود الاسكندر الأكبر من اليونانيين يتحدثون بلغتهم اليونانية ، الا انهم فى أحيان كثيرة كانوا مضطرين الى معرفة وربما لاستخدام اللغة المحلية لتلك المناطق ، وذلك لتعاملهم المستمر مع سكان المنطقة الأصليين .

ومن ناحية أخرى كان على الطبقة التى تتعامل مع اليونانيين أن تتعلم قدرا من اللغة اليونانية كضرورة تفرضها ظروف التعامل المستمر بين المغلوبين على أمرهم وبين الغزاة الحاكمين .

وكان محالا أن تظل لغة وادى السند بمنأى عن هذه التأثيرات ، حقا لم يتغير هيكل اللغة الموجودة تغيرا جوهريا ، ولكن هناك تغييرات لغوية طرأت على لغة الوادى ما فى ذلك شك ، اذا استطاع ,,جندر كبت موريه(٤) بعد فترة زمنية قصيرة أن يؤسس حكومة محلية أنهى بها السيطرة اليونانية على السند ، فقد ظلت اللغة اليونانية متفوقة لفترة طويلة دامت حوالى ٢٥٠ عاما منذ هجوم ,,ديمتريوس Δημήτριος سنة ١٩٥ ق .م حتى نهاية عهد هرمائيس Ἑρμαῖος عام ٥٠ م . وكانت اللغتان اليونانية والمحلية تستخدمان فى العصر الهندى اليونانى داخل البلاط وفى المعاملات الرسمية ، ويستدل على هذا من الكتابات الموجودة على وجه العملات النقدية (٥) ، التى ترجع الى ذلك العصر حيث نجد على وجه Recto احدى قطع العملة كتابة باللغة اليونانية وعلى ظهرها Verso كتابة باللغة المحلية بالخط ,,الخروشتى" . ورغم ذلك فلم تستطع هذه اللغة المحلية أن تحرز مكانة داخل البلاط أو تصبح لغة رسمية يتعامل بها الحكام : ففى الهند الهندوكية كانت لغة البلاط الملكى هى اللغة السنسكريتية (٦) بينما كانت لغة الشعب تحتوى على عدد كبير من الألفاظ التى تنتمى الى لهجات مختلفة .

وحين قدم المسلمون الى تلك البلاد (٧) راجت كل من العربية والفارسية وأقبل على تعلمها حتى رجال الدين الهنادكة ، ونالوا بذلك

مكانة سامية لدى الحكام - وتقلدوا وظائف مرموقة فى البلاط ، وبالمثل حين صار الأمر للانجليز(٨) ارتفع لواء اللغة الانجليزية ، وأقبل الجميع على تعلمها حتى أن العلماء بدأوا فى استخدام كلمات انجليزية فى حديثهم مع العامة والأميين فى القرى

ومن هذه الكلمات على سبيل المثال(٩) :

First class	وتنطـــق	فس كلاس
Time	"	تايـــم
Number	"	نمبر او لمبر
School	"	اسكول او سكول
Hospital	"	هسبتال
Station	"	استيشن . . . . وغيرها

عصر اللغة اليونانية :

لم ينته تأثير اللغة اليونانية بانتهاء الحكم اليونانى للمنطقة ، فقد كان تأثيرها كبيرا وطويل الأمد على المستوى الرسمى : ففى عصر ,,كنشن(١٠)" (١٤٠ - ٣٦٠ م) لا حظنا استخدام الكتابة باللغة اليونانية جنبا الى جنب مع الكتابات الخروستيه والبراهمية على وجوه العملات المستخـدمة فى ذلك الوقت(١١). وكذلك اكتشفت ألواح حجرية كتبت عليها عبـارات باللغة اليونانية ، وهذه الألواح محفوظة الآن فى متاحف بشاور ولا هور بباكستان

و كذلك تم اجراء حفائر فى منطقة ,,ختن "(١٢) و التركستان الصينية اسفـرت عن اكتشاف كتابات باللغة اليونانية فضلا عن كتابات أخرى باللغة السسكريتية وكذا الخروشنية والبرهمية ، ويرى الباحثون أن هذه الكتابات ترجع الى عهد أسرة ,,كبتا "(١٣) Capta " ومما لا شك فيه أن المهاجرين من وادى السند قد حملوا معهم الى هذه المناطق اللغات التى كانت سائدة فى واديهم ، ولقد اثبت بعض الباحثين الروس(١٤) أن بعض

القبائل الموجودة فى هذه المنطقة لا تزال تستخدم حتى يومنا هذا ، لغة تشبه لغات منطقة السند . ومن هنا يمكن القول بأن تأثير اللغة اليونانية على وادى السند استمر لأكثر من خمسمائة سنة ، ولابد أن أهل الوادى كانوا يستخدمون فى لغتهم ألفاظا يونانية ، وظل هذا الاستخدام مستمرا منذ ذلك الحين بحيث أصبحت هذه الألفاظ جزءاً لايتجزأ من اللغة المحلية ، وقد يصعب الآن التعرف على هذه الألفاظ نتيجة لتغير صورتها أوبنيتها أو تحريرها .

العلاقة بين اليونانية والبنجابية :

علينا أن نوضح أن الألفاظ اليونانية الموجوده فى لغة وادى السند تنقسم الى اربعة اقسام :

١ ـ الألفاظ التى تمثل ميراثا مستركا بين اللغات الآرية ، وهى قاسم مشترك بين السنسكريتية واليونانية ، والأرجح أنها دخلت اللغات المحلية عن طريق السنسكرينية وليس عن طريق اليونانية .

٢ ـ الألفاظ التى قدمت الى وادى السند فى العصر الهندى اليونانى وما بعده ، وقد تم هذا عن طريق اللغة اليونانية مباشرة .

٣ ـ الألفاظ اليونانية التى قدمت الى وادى السند عن طريق العربية والفارسية .

٤ ـ الألفاظ اليونانية التى قدمت الى وادى السند عن طريق اللغات الأوربية وبخاصة اللغة الانجليزية .

والنوع الاخير من الألفاظ يمثل فى معظمه مصطلحات علمية حدىثة

ويمكننا أن نسوق هنا بعض الأمثلة القليلة (١٥) :

اسکول	مدرسة	σχολή
اکیڈمی	مجمع علمی	Ἀκαδημία
تھیٹر	مسرح	θέατρον
ٹیلیگراف	برقية	τηλεγράφημα
ٹیلیفون	هاتف	τηλέφωνον
گرامر	قواعد	γραμματική
جیومیٹری	هندسة	γεωμετρία
پالیسی	سياسة	πολιτική
ڈیموکریسی	ديمقراطية	δημοκρατία
پروگرام	برنامج	πρόγραμμα
ایٹم	ذرة	ἄτομον

أولا : الألفاظ اليونانية القادمة عن طريق اللغة العربية :

كانت علاقة العرب ببلاد اليونان علاقة متشعبة ، فالحدود الجغرافية بين العرب وبينهم كانت شبه متجاورة كما كان اليونانيون يعمرون البلاد العربية ، ويذهبون اليها باستمرار . ولقد ورد ذكر كتاب المذهب البوذى ,,القضايا" على لسان التجار العرب فى مدن السند على عهد ,,مناندروس" (١٥٥ ـ ١٤٠ ق م) ، ومن الأدلة على تلك العلاقة كتاب ,,الرحلة البحرية (فى البحر الاحمر) "Περίπλους لرحالة بحرى يونانى مجهول فى القرن الأول الميلادى . وهو كتاب تحدث كثيرا عن العرب كتجار وربابنة سفن(١٦).

ويرى بعض الباحثين أن العرب وصلوا الى ميناء ,,كانتن" فى الصين والى ,,هانک شاو " عام ٣٠٠ للميلاد (١٧). وعلى زمان ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم هام واحد من اخواله (١٨) برحلة تجارية الى الصين حيث كان عدد من العرب يقيمون هناک ، ومن الجدير بالذكر أن أول مسجد اسلامى اقيم فى ,,كانتن" كان فى سنة ٦٢٧ م أى قبل وفاة الرسول صل الله عليه

وسلم بخمس سنوات (١٩) ، وقبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام كان العرب يقومون بالتجارة فى بلاد الشام التى كانت خاضعة وقتها للحكم الرومانى ، ولكن رغم ذلك كان تأثير الحضارة اليونانية واضحا على المنطقة مما أدى الى دخول كثير من الألفاظ اليونانية الى اللغة العربية(٢٠)

ونقدم فيما يلى قائمة ببعض الألفاظ التى دخلت الأردية والبنجابية عن طريق اللغة العربية (٢١).

بنجابى	اردو	يونانى	عربى	معنى الكلمة اليونانية
كنون	قانون	κανών	قانون	قانون / قاعدة
ديهتر	دفتر	διφθέρα	دفتر	جلد /ورق للكتابة
دم	دام	δραχμή	درهم	دراخمة (عملة)
—	قيراط	κεράτιον	قيراط	من الموازين اليونانية
—	قرن	χρόνος	قرن	زمن
صوفى	صوفى	σοφός	صوفى	حكيم
—	شاب	ἥβη	شاب	شباب
—	سيف	ξίφος	سيف	سيف
—	زراعت	ἀγρός	زراعة	حقل (مع ابدال الحروف)
بلكف	بلغم	φλέγμα	بلغم	بلغم
اكسير	اكسير	ξηρός	اكسير	جاف (سفوف / دواء)
ترياق	ترياق	θηριακή	ترياق	دواء مضاد للسموم
قولنج	قولنج	κωλικός	قولنج	الم القولون
ابنوس	ابنوس	ἔβενος	ابنوس	خشب الابنوس
اسطرلاب	اسطرلاب	ἀστρόλαβος	اسطرلاب	آلة لقياس ارتفاعات الاجرام السماوية
—	زنار	ζωνάριον	زنار	زنار / نطاق
—	طلسم	τέλεσμα	طلسم	شهادة معتمدة
كليسه	كليسه	ἐκκλησία	كنيسة	مجمع / كنيسة
تبوت	تابوت	τάφος	تابوت	مقبرة
كفن	كفن	κόφινος	كفن	سلة كبيرة

ثانيا :الكلمات اليونانية التى قدمت عن طريق ايران :

تنتمى كل من اللغة الفارسية واللغة اليونانية الى مجموعة اللغات الهندواوربية الفارسية من الفرع الايرانى ،واليونانية تمثل بذاتها

فرعا مستقلا (٢٢).وكذلك كانت اليونان القديمة تجاور ايران من الناحية الجغرافية ، ورغم ذلك فقد نشب بينهما نزاع استفحل امره حتى غدا حربا طاحنة ،دامت سنوات عديدة، وتجددت فى عصر الاسكندر الأكبر .ولقد ظلت أسرة سليوكوس تحكم ايران فترة طويلة بعد موت الاسكندر الأكبر و تركت بعدها آثارا لا يستهان بها على جميع أوجه الحياة ، ولم تكن اللغة الفارسية(الايرانية) بمنأى عن هذا التأثير . ويتضح هذا من الأمثلة التالية :

بنجابى	اردو	فارسى	يونانى	معنى الكلمة اليونانية
—	ناو	ناو	ναῦς	سفينة
—	موسيقى	موسيقى	μουσική	موسيقى
—	ققنس	ققنس	κύκνος	بجعة / بطة
—	زمرد	زمرد	σμάραγδος	زمرد
فانوس	فانوس	فانوس	φάνος	ضوء / مصباح
—	كليد	كليد	κλειδός	مفتاح (الكلمة فى حالة الاضافة)
خربوزه	خربوز	خربز	καρπός	ثمرة (بطيخ)

والواقع أن العلاقة بين اللغات الهندواوربية علاقة وثيقة ،وقد حاول بعض الباحثين القدامى أن يثبت أن أكثر الحلقات اتصالا فى هذه المجموعه من اللغات هى الحلقة التى تربط بين اليونانية والسنسكريتية(٢٣) ورغم أن هذا أمر حقيقى من حيث أن اللغتين تنتميان الى عائلة واحده من اللغات، الا أن الرأى القائل بأن السنسكريتية هى اللغة الأم لليونانية رأى بعيد تماما عن الصواب فى رأى الباحثين المحدثين(٢٤).

ولو ألقينا نظرة فاحصة على بعض الألفاظ الموجوده فى عدة لغات تنتمى الى هذه العائلة من اللغات ،للاحظنا على الفور أن هناك تشابها كبيرا بينها بصورة تدعو الى الدهشة :

اردو	بنجابی	سنسکریت	فارسی	یونانی	المعنى
گاون	گران	گرام	گام	κώμη	قرية
دروازه	دروازه	دوار	در	θύρα	باب
مندر	مندر	مندر	—	μάνδρα	حظيرة
آواز	واج	واك	آواز	vox (باللاتينية)	صوت
کوبر	کوها	گوبر	براز	κόπρος	براز
قیمه	قیمه	—	قیمه	κρέα	لحم مفروم
—	—	اشو	اسب	ἵππος	حصان
دیو	دیو	دیو	دیو	δῖος	إلهى / مؤله
بهار	بسنت	بسنت	بهار	ἔαρ	ربيع
—	امرت	امرت	—	ἄμβροτος	خالد
بهو	نونهه	سنوشه	—	νοῦς	عقل
تين	تر	ترئياس	—	τρεῖς	ثلاثة
سات	ست	سپت	هفت	ἑπτά	سبعة
دس	دس	داشا	ده	δέκα	عشرة
سرخ	رته	رد هرا	—	ἐρυθρός	احمر
برس	وره	ورش	—	Fέτος	سنة
خسر	سوهرا	سواشرا		ἄκυρος	غير ذى صلاحية

التأثير اليونانى على الآداب الشعبية فى المنطقة :

تدور معظم الحكايات الشعبية فى اقليم البنجاب حول أمير يغادر وطنه ويعبر الأنهار والجبال ، ويجتاز الصحراوات الشاسعة ، حتى يصل الى واد لا انس فيه ولا جان ، وتتراءى له أطلال مدينة يتبين أن ساكنتها „عفريتة„ تدق طبولا ذات صوت رهيب ، وبعد أن يتمكن الأمير من الافلات من براثن هذه „العفريتة„ يعبر من جديد صحراء جرداء يناله من عبورها الارهاق والجوع والظمأ ، ويصل بعدها الى تل يشاهد منه على البعددخانا يتصاعد فينطلق تجاهه ، وعندما يبلغ مكانه ، يجد نفسه أمام قلعة جميلة بداخلها فتاة رائعة الحسن، يفرح لمرآها،بعدما صادفه من أهوال، ويخاف الأمير على فتاته ذات الجمال الخلاب ... ويدور بينه و بين „العفريته „نزال تكون الغلبة فيه له على العفريتة التى تقضى نحبها ، ومن

ثم ينطلق الأمير فيبلغ غابة يستسلم فيها للنوم تحت شجرة ، ثم يستيقظ فجاة على صوت طيور تستغيث طالبة النجدة من براثن تنين ضخم فيهب لنجدتها ، ويهوى على التنين بسيفه البتار فيشطره شطرين ، وفى الصباح تأتى أميرة الطيور و تدعى « سرخاب »(٢٥)فتستمع منه الى قصته وتأنس اليه وتصبح محبوبته .(٢٦)

ونلاحظ انه يرد فى هذه الحكاية الشعبية لفظ «دائنى »(٢٧) الماخوذ من اللفظ اليونانى Seivós الذى يعنى «مرعب أو مخيف » ، كما ورد أيضا لفظ «كانا ـ ديو » الذى قد تكون دلالته مأخوذة أو محورة عن اللفظ اليونانى Κύκλωψ وهو المارد (العفريت)ذوالعين الواحدة (الأعور)الذى مكربه أوديسيوس فى ملحمة الأوديسية للشاعر اليونانى العظيم «هوميروس » وقد يكون للفظ «كانا ديو »علاقة باللفظ السنسكريتى (دیو) بمعنى الله أو الملاك ، وهو لفظ يعبر فى السنسكريتية عن الخير والتقديس دائما . ويقابل هذا اللفظ السنسكريتى اللفظ اليونانى Θεός الذى يعنى «مؤله » أو «إلهى » أو«سامى » . الا ان المفهوم اليونانى الأسطورى عن القوى الألهيه هو أنها(مثل الانسان) تجمع فى سلوكها بين الخير والشر معا ونرجح أن يكون هذا المفهوم قد انتقل من التراث اليونانى الى الحكايات الشعبيه البنجابيه . التى لم تتأثر بالمعنى السنسكريتى للفظ بقدر ما تأثرت بالدلالة اليونانية له

ومن شخصيات الحكايات الشعبيه البنجابيه الأخرى شخصيه «باسک ناک » وهى تحوير لملک العابين باشک لیکو » Bashkliko :ومن المرجح أن تكون تسميتها بهذا الاسم تحويرا للفظ اليونانى Βασιλικός الذى يعنى الملک . وهناک ايضا شخصية باسم « سرال » التى اخذت عن اللفظ اليونانى σαῦρος الذى

يطلق على نوع من السحالى

وفى الحكايات الشعبية البنجابية أيضا نجد ذكر الحجر المسمى «بارس» يمسح به الحديد فيتحول الى ذهب . وهذا يقابل الكلمة اليونانيه πράσον التى كانت فى الأساطير اليونانيه تطلق على حجر أخضر اللون . ويمكن أن يكون هناك اعتقاد سائد ان المعادن تتحول الى ذهب بمسحها به

ومن أبطال الحكايات الشعبية البنجابيه كذلك أنثى حصان سريعة يطلق عليها أهل البنجاب بكل فخر و محبة اسم «بكى» بتشديد الكاف وقد تكون لهذا الاسم علاقه بفرس الاسكندر الأكبر المشهور باسم «بوكيفالوس» Βουκέφαλος

وقبل أن ننتقل من الحديث عن الحكايات الشعبية نرى ضـــرورة الاشارة الى ورود ألفاظ يونانية على لسان المرأة البنجابية . ومن الجدير بالذكر ان المرأة بطبيعتها تميل الى التمسك بالتقاليد المتوارثة كما هى بدون تغيير ، ومن هنا فلا تزال بعض الألفاظ المتحجرة تجرى على ألسنتهن ، وهى ألفاظ مرت عليها قرون و قرون ، كانت تستخدم فى الأحاديث العامة ولا يفكر أحد فى معناها . توارثتها نساء المنطقة عن أمهاتهن اللاتى توارثنها بالتالى عن أمهاتهن الأخريات ، وهكذا ظلت هذه الألفاظ تنتقل داخل الصدور جيلا بعد جيل لالآف السنين .

وفى القرى البنجابية اذا ظل الطفل يصرخ يريد أن يرضع من ثدى أمه مرة بعد مرة ، فهى تضيق به ذرعا وتقول :

«جرا ساه لئو هنے نيكرؤ لے دنى آى »

أى : يابنى خذ نفسك (بفتح الفاء وما قبلها) سوف أقدم لك (نيكرو) أى الشهد .

وهكذا لوظل الرضيع يمص ىدى أمه طـول اليوم فهى تنهره قائلة :

„ايهماں وج كى سارا دن نيكڑو ىيا اے „

أى : ماهذا ؟ هل سيظل (الىدى) مليئا بالشهد (بيكزو) طول اليوم ؟

وهاتان الجملتان تحريان علـى ألسـنة الامهاب دائمــــا ،

ولاشعوريا ، ولفظ „ بيـكرو „ مأخـوذ عن اللفظ اليونانـى „ „وبيكتـار „

أى سراب الآلهه وهو لفظ مرادف للسهد νέκταρ

العنـاصـر اليونانية فى اللغـة البنجابية :

مں المىير للدهسـة حقا أن بعض الكلماب البىجابيه تتفق فى كل مں النـطق والـدلالة مع الكلماب المماـثله لها فى اليونانيه ، دوں أں يطرأ عليها تحوير أو تحريف صوتى كبير : فالكلمة البنجابيه „ تكهان „ (فى اللغـة الـدراورية) أو „ تكان „ بتسديد الكاف تعنى (ىجار) وهى تماثل كلمه اليونانيه المستخدمة منذ عصر الساعر هوميروس وهى τέκτων (تكتون) التى تعنى أيضا نجار او بناء السفن ، ولا يمكن القول بأن هدا التماثل قد ورد بمحض الصدفة ، كذلك نجد أن لفظ „ گينا „ (تنطق الكاف نطق الجيم فى المصرية الدارجة) فى اللغـة البنجابية يدل على الآلة التى يقيس بها النجار زوايا الأركان ، وهذا اللفظ أصله يونانى وهو γωνία ويعنى هذا اللفظ „ الزاوية „.

وهناک كلماب كثيرة مستخدمة فى لغة الحديث اليومية فى منطقـة السجاب ، يمكں ارجاعها الى اصول يونانية ، ويمكن أن نوردهنا عددا من هده الكلماب التى يمكن من النظـرة الأولـى اليها أن ندرک العـلاقة الوثيقـة بينها سواء فى النطق أو فى المعنى :

الكلمة اليونانية	معناها	نطقها	المقابل بالبنجابية	ومعناه
κώπη	مجداف	kope •	چپو	مجداف
κάννα	بوص	kanna	کانا - کنا	قصب السكر
βοτάνη	عشب/مرعى	botane	بوٹی - بوٹی	شتلة/ شجرة
κάρυον	جوز	karuon	گری	مسخ
πυρά	مكان اشعال النار	pyra	بھاڑ	مكان اشعال النار
πύρωσις	احتراق / حرارة	pyrosis	بھٹی	حرارة
ἅλως	هالة الضوء حول الشمس او القمر	halos	هالة	نفس المعنى
γῦρος	دائرة / حلقة	guros	گھیرا - گھیر	دائرة
κάλαμος	بوص/ عقلة/قلم	kalamos	قلم	قلم/ عقلة
τάπης	سجاد / كليم	tapes	تپڑ	فرش/كرسي/حصير
οὐρά	ذيل	ura	چورا - چوری	مروحة على شكل ذيل .
φάλος	طرف الخوذة المدبب	phalos	پھل (پھالا)	طرف السكين (كما يطلق على طرف المحراث).
κοτύλη	وعاء للسوائل / كوب	kotyle	کٹوری	وعاء على شكل الكوب .
κύλιξ	كوب	kylix	کولی	كوب
ἄρτος	خبـز	artos	روٹی	رغيف الخبز.ويقال روت للرغيف كبير الحجم .
κορδύλη	هـراوة/ سوط	kordyle	کوٹھہ	سوط .
καυστός	محروق	kaustos	کشتہ	اصطلاح طبى بمعنى سحق وخلط المعادن لتركيب الدواء.
κύκλος	دائرة	kyklos	ککلی	لعبة الدائرة للاطفال،
ἀγορά	السوق	agora	اکھاڑہ	تجمع الناس لرؤية راقص أو حاوى.
ξανθός	اصفر	xanthos	بسنتی	لون اصفر (حفلة موسمية تسمى بسنت يتقاذف فيها الناس بماء أصفر اللون).
ὑγρός (πηλός)	طرى/ سائل	hygros (pelos)	گارا	طين
κρυμός	برد شديد	krymos	ککر	برد شديد .
σιωπή	سكوت / صمت	siôpê	چپ	صمت
φίλος	صديق	philos	بیلی - بیلی	صديق (النطق قديما بالباء المثلثة).
πάλαι	قديم	palai	پہلا	قديم/ أول
πῶλος	مُهر	pôlos	پولو	لعبة يلعبها عدد من الفرسان كل على فرسه .
πόλεμος	حرب	polemos	لام	معركة
μόσχος	عطر	moskhos	مشک	مسك (العطر ببتأيه ا)

الكلمة اليونانية	معناها	نطقها	المقابل بالبنجابية	ومعناه
λῆψις	اخذ	lepsin	لبرانا	يمسك .
κόπτω	قطع	koptô	كپتا	يقطع .
παλίνη	مصارعة / نزال	palnê	بهلوانى	فن المصارعة.
πάλη	المصارعة	palê	بهلوان	مصارع (قارن اللفظة السنسكريتية بلوان بمعنى "قوى").
κυμά	لحم مفروم	kyma	قيمه	لحم مفروم .
κόρη	فتاة	korê	كورى	فتاة .

التأثير اليونانى على نحو اللغتين البنجابية والأردية :

ان التحليل اللغوى للغات شمال الهند يحملنا على الظن بأن هذه اللغات فى مراحل تطورها المختلفة لم تتأثر فقط باللغة السنسكريتية بل تأثرت كذلك بالفارسية واليونانية والعربية وكذلك بلغات شبه القارة كالدروارية والمندا ثم بالتركية والمنغولية واللغات الأوربية الحديثة (٢٨)

وهدفنا هنا أن نعرض للتأثير اليونانى على جزء من قواعد اللغتين البنجابية والأردية لنثبت أن هاتين اللغتين قد خضعتا فى فترة من مراحل تطورهما للتأثير اليونانى.

فاذا ما تعرضنا على سبيل المثال للحروف التى تستخدم للدلالة على المضاف اليه وهى :

كا ، ويأتى قبل الاسم المفرد المذكر.

كے ، (ياء مجهولة بعد الكاف تنطق ممالة) ويأتى قبل الاسم الجمع المذكر.

كى ، ويأتى قبل الاسم المونث الجمع والمفرد.

يلاحظ أنه لا يوجد أصل لمثل هذه الحروف فى الفارسية أو العربية كما أن الا ضافة فى اللغة السنسكريتية تختلف عن هذه الحروف فى صورتها ونطقها اذ أنها تستخدم ,,اه» أو ,,سيه» للمفرد وتستخدم ,,ام» أو ,,نام» للجمع مثل :

امرتسيه سر : حوض ماء الخلود (قارن الأردية : امرت كا بانى)

وكرم سبها : بلاط بكرم (قارن الأردية : بكرم كا دربار)

وفيما يلى مثال آخر من اللغات الهندوآرية :

نهايات الاضافة فى اللغة الهندوآرية لكلمة ,,حصان" (٢٩) :

السنسكريتية	الاوستائية	اليونانية	اللاتينية
اسم اشو	اسب	هبوس ἵππος	إكوس equus
مفرد اشواسيه	اسباهيثه	هبويو ἵππου	اكوئى equi
جمع اشوام	اسباانام	هبون ἵππων	إكورم equorum

وبالرغم من أن مفهوم الاضافة (أى حالة المضاف اليه) كان يوجد فى لغة البراكرت القديمة (وهى هندوأوربية) الا أنه لا يوجد بها ما يدل على وجود حروف الاضافة (كا ، كے ، كى) مثلما نرى فى النص التالى :

ات ديبا سرن ، آنند سرن

دهرم ديبا ، دهرم سرن (٣٠)

(ان ملجأ النور الحقيقى هو أطيب ملجأ .. والدين الحق هو النور الحقيقى ، فتعالوا الى ملجأ الدين)

ولايوجد فى اللغة السنسكريتية ما يدل على اضافة حروف تدل على حالة المضاف اليه ، بل كانت هناك ألفاظ مستقلة للدلالة على هذه الحالة مثل ,,كنى" (بياء مجهولة أى بالامالة) ونجد هذا اللفظ مستخدما فى الاردية القديمة معنى ,,عند". ومن الجدير بالذكر أن اللفظ السابق كان يستخدم فى الدكنية العديمة لا ليعطى معنى حروف الاضافة الاردية (كا ، كى ، كے) بل ليعطى معنى : تجاه و ناحية أو عند . وفى تلك الفتره ذاتها كان لفظ ,,كنى" يستخدم فى البنجابية بمعنى ضد أو تجاه مثل :

ميرے كنين بمعنى : عندى و ,,رب كنون" : بمعنى من عند الله

وقد استخدمت هذه النهايات فى اللغة الأردية الدكنية القديمة و فى اللغة البنجابية ، ثم استخدمها الشاعر الدكنى ،،فيروز،، (ق ١٦ م) بمعان مختلفة ومن أمثلة الأشعار التى استخدمت فيها هذه النهايات الأبيات التالية التى نظمها الشاعر ملک محمد جائسى (١٤٨٠ م ـ ١٥٣٨ م) :

آئى سرد ر تو ادهک بیاری

نوکنوار کا تک اجیاری　　ایهه رتو کنت باس جهیه

سکهه تن کر مهیا مانهه

(فصل الشتاء هو أحب الفصول ، الشمس الهادئة والليالى المقمرة ، فى هذا الفصل يستريح القلب عند الحبيب)

ونجد هذه النهايات مستخدمة أيضا فى الأشعار الصوفية والدينية فى اللغة البنجابية كما فى النص التالى :

فریدا سنکهه سرا هونی دن سهاوا باغ

نوبت وجی صبح سے چلن کا کر کاج

(يا فريد (٣١) . . هذه الدنيا حديقة رائعة والطائر (أى الانسان) ينزل ضيفا عليها ، وفى الصباح حين تدق طبول الأيک ، تحزم متاعک وتسافر.)

کا کا نین نکاس دون اور بی کے رکهه لے جائے

پہلے درس دکهانے کے تو باچهے لیجیے کهائے

(أيها الغراب سوف أقلع عينى فاحملها حيث وجه حبيبى ، متّعهما أولا بوجه الحبيب وبعدها حلال عليک أن تلتهمهما)

مما سبق يتضح أنه لا اثر للحروف الدالة على حالة المضاف اليه فى اللغة السنسكريتية لأن ظهور هذه الحروف يرجع الى فترة قديمة موغلة فى القدم خضعت المنطقة خلالها للتأثير اللغوى اليونانى ، ولأن ظهورها كان فقط فى اللهجات السابقة على مولد اللغة الأردية وأيضا فى البنجابية .

ويحملنا هذا على الاعتقاد بأنها ظهرت فى هذه اللهجات تحت تأنيـر اللغة اليونـانية ، اذ ان اللغة اليوسـابية تستخـدم الـلاحقة -ικός للمذكـر و -ική للمؤنـث و -ικόν للجمـاد كئى تعطى معنى ,,متعلق بـ،، او ,,خاص بـ،، . أو مىل حرف الياء فى اللغة العربية ومثال ذلك :

Ὁμηρικός بمعنـى ,,خـاص بهـو ميـروس أو هومرى،،

Ἰνδικός بمعنـى ,,يتعلـو بالهـد أو هندى،،

ولدينا دليل على أن جبل ,,هندوكس،، يحمل اسما يونانيا ، اذ أن اسمه كان أصلا ,,انديكوس،، Ἰνδικός ىم حرف الى انديكوس أي (جبل الهند) ، ىم الى ,,هندوكوش،، . و هذا الدليل يعتبر أحد الشواهد على وجود التأىير اللغوى اليونانى .

كذلك تصادفنا فى نصوص ,,مهـاراجـه اسوک،، (٣٣) وفـى بعض المسرحيات القديمة ألفاظ مىل :

يونكا ، رومكا التى يتضح منها استخدام اللاحقة اليونـانية سابقه الذكر اذ انها كانت أصلا :

Ῥωμαϊκά بمعنـى المتعلـو بالرومـان أو رومانى

Ἰωνικά بمعنـى المتعلـو باليونـان أو يونانى

وقد استخدمت علامة الاضافة (كا ، كے ، كى) فى اللغة البنجابية للدلالة على النسبة مثل : ميكے أى قرية الأم و بيكے أى قرية الأب : ولا تزال هناك أسماء اعلام فى البنجاب تحتفظ بهذه اللاحقة الدالة على النسبة مثل :

فاضلكا (فاضل + اللاحقة) أى قرية فاضل .

مريد كے (المتعلقون بالمريد) أى هرية اتباع المريد .

سليمانكى (سليمان + اللاحقة) أى التابعة لسليمان . . . وغيرها .

ويمكتنا أن نؤكد أن مثل هذه الأسماء التى تطلق عادة على المدن والقرى فى سبه القارة الهندية الباكستانية لا وجود لها فى البنجاب(٣٣)

ويتضح التأثير اليونانى جليا كذلک فى اللاحمة الدالة على التأنيث . فنلاحظ أن كلا من الأردية والبنجابية تستخدمان حرف النون لصياغة المؤنث من المذكر فى بعض الكلمات ؛ وهذا الاستخدام موجود فى اليونانية القديمة ، ومن الجدير بالذكر أن اللغة السنسكريتية لا تستخدم هذا الحرف للدلالة على المؤنث لأنها تستخدم المقطع ,,ت" للدلالة على المذكر ، والمقطع ,,نتى" للدلالة على المؤنث ، والمقطع ,,نتو" للدلالة على الجنس الثالث neuter ؛ وهناک ألفاظ فى السنسكريتية تنتهى بحرف الواو بغض النظر عن جنسها مثل :

شسو (ولد) مذكر .

سبتو (قطرة) مؤنث .

مدهو (ربيع) مذكر وبمعنى (سهد) مؤنث .

ددهيو (بقره) مؤنث : ,,تنطق واو مشبعة" .

رسو (بروه) مؤنث .

تنو (جسم) جماد (أى لا جنس) neuter.

ويمكننا أن نجمل اللواحق الدالة على المؤنث فى اللغة السسكريتية فيمايلى :

١ ـ الألف كما فى : بريتبها بمعنى اعتقاد أو فكر ،

ميدها ,, ذاكرة.

جنتا ,, شعب.

٢ ـ الواو المشبعة كما فى :

دهينو بمعنى بقرة .

مدهو ,, شهد .

رجو ,, عصير .

٣ - الواو المخففة كما فى :

ودهو بمعنى زوجة .

٤ ـ الياء كما فى :

رجنى بمعنى ليلة .

ديونى ,, ملكة .

وانى ,, صوت .

مما سبق يتضح أنه لا دليل على استخدام حرف النون كلاحقة دالة على المؤنث فى السنسكريتية ، أما الكلمات المستخدمة الآن والتى يظهر فيها حرف النون مثل : بتنى بمعنى زوجة ، بترنى بمعنى بنت فقد وجدت تحت تأثير الصياغة الهندية ، وليست كلمات سنسكريتية خالصة ، لأن معنى زوجة فى السنسكريتية هو ,,جايا،، أو ,,دار،، أو ,,كانتر،، أو ,,دهو،، ولأن مؤنث بتر بمعنى ولد فى السنسكريتية ليس ,,بترنى،، بل بتريكا ، كما أن معنى ابنة فى السنسكريتية هو ,,دهتو،، أو ,,آنمجا،، أو ,,ستا،، أو تنيا،، .

فاذا انتقلنا الى اللغة الفارسية نجد أنه لا توجد فيها علامة مميزة أولاحقة تدل على المذكر أو المؤنث ، اذ تدل الأسماء بنفسها على جنسها مثل :

مادر بمعنى أم ، پدر (بالباء المثلثة) بمعنى أب .

ولا توجد فى اللغة الفارسية صياغة كلمة مؤنثة من كلمة مذكرة أو العكس ، بل تستخدم بدلا من ذلك كلمة ,,مرد،، للدلالة على المذكر وكلمة

,,زن،، للدلالة على المؤنث بالنسبة للانسان مثل :

بير مرد أى رجل عجوز   بير زن أى امرأة عجوز.

جادوكر مرد أى ساحر   جادوكر زن أى ساحرة.

وبالنسبة للحيوانات نجد الفارسية تستخدم كلمة ,,نر،، للدلالة على المذكر ، وكلمة ,,ماده،، للدلالة على المؤنث مثل :

شير نر أى أســد   شير ماده أى لبؤة

ومن هذا يتضح أن حرف النون لم يستخدم للدلالة على المؤنث فى كل من السنسكريتية والفارسية ، وهما اللغتان اللتان أثرتا تاثيرا واضحا على كل من الأردية والبنجابية ، فى حين أن استخدام حرف النون للدلالة على المؤنث يستخدم فى اللغة اليونانية منذ بداية ظهورها مثل :

ἥρως بطـــل (وتنطق herôs	ἡρωΐνη بطـلـــة (وتنطق herôinê)
δεσπότης ســيد (وتنطق despôtês	δέσποινα سيـــدة (وتنطق despoina
θεός رب (وتنطق theos	θέαινα ربـــة (وتنطق theaina

وعلى هذا المنوال استخدام حرف النون للدلالة على المؤنث فى الأردية مثل :

مالى بمعنى بستانى   ما لن زوجة البستانى ،

دهوبى   ,,غسال،،دهوبن زوجة الغسال (وهى تقوم أيضا بالغسيل).

دلها   عريس   دلهن العروس.

بنجابى رجل بنجابى ، بنجابن امرأة بنجابية

هندوستانى رجل هندى هندوستانن امرأة هندية ،

لاهورى رجل لاهورى، لاهورن امرأة لا هورية

ومن الواضح أن نون التأنيث هذه المستخدمة فى الأردية والبنجابية قد

وردت الى اللغتين مباشرة عن اللغة اليونانية أى دخلت فى العهد الهندى اليونانى ، ثم استمرت حتى دخلت الأردية والبنجابية كما نرى اليوم .

وهناك سابقة اخرى تشترك فيهـا اللغة السنسكـريتية واليونـانية انتقلت الى الأردية والبنجابية وهى السابقة التى تفيد منع أو نفى المعنى عن الكلمة وهى (ان) مثل :

ان گنت بمعنى لا عدد له لا حصر له ـ لا يعد
ان مل بمعنى غير اجتماعى
ان مول بمعنى لا يقدر بمال ـ ثمين

والسابقة هنا دخلت على كلمة گنت بمعنى عدد ، مل بمعنى يلقى (جذر الفعل) ، ومول بمعنى قيمة .

وهذه السابقة توجد كذلك فى اليونانية مثل :

ἀναίσθητος أى بلا احساس
ἀναρίθμητος أى بلا عدد - لا يحصى

ومـن العجيـب أن هذه السابقة لا تستخـدم الا مع الكلمـات السنسكريتية الأصل مما يدل على توغلهـا فى القـدم او انتقالهـا عن اليونانية الى مثل هذه الالفاظ .

المـــــراجع

١ ـ يقع وادى السند الآن فى جنوب شرق باكستان ، وهو يمثل دلتا نهر السند الذى كان يسمى قديما باسم «سدهو» ومن هذا الاسم اشتق اسم الاقليم ، ويرى المؤرخون اليونانيون أن «سهو» هو «اندس» ، ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة «اند» «هند» أو «انديا» هذا بينما كان العرب

والایرانیون یطلقون علی نهر السند اسم ,,مهران،، ومن هنا اشتهرت منطقة السند باسم ,,وادی مهران،، : دائرة المعارف الاسلامیة (الأردیة) ، جامعة البنجاب ، مجلد ١١ .

٢ ـ قدم الاسکندر الاکبر الی السند عام ٣٢٥ ـ ٣٢٦ ق . م ، وعبر منطقة ,,ارور،، (وهی الیوم قریبة من ,,رهری،، الحالیة) ، ثم تقدم الی منطقة ,,لارکانه،، الخصبة ومنها الی شاطیء نهر السند حیث منطقة سیوهن (أو . سهون) القدیمة ثم عبر بلدة ,,بتالا،، وسط الدلتا حیث اتخذ من المیناء الساحلی فی الجنوب ,,باربیکان،، مستقراله . وفی النهایة اتجه من السند الی کدروشیا (مکران) حیث وصل الی بابل بالطریق البری المرجع السابق . مجلد ١١ ، ص ٣٣٠ .

٣ ـ بعد وفاة الاسکندر قام کل من Σέλευκος Νικάτωρ سیلوکس نکیتوراً ، ،، و ,,جندر کبت موریا،، (٣٠٥ ق.م) بالسیطرة علی الاقلیم ، وفی سنة ١٠٠ ق م ـ ٢٠٠ م سیطر علی السند الستهیون والکوشانیون انظر.

The Oxford History of India, V.A. Smith, 3rd edition, pp.85—94.

٤ـ لمزید من التفاصیل انظر کتاب .

The Early History of India , V.A. Smith , passim . London 1908.

٥ـ قام ,,کدفیس الثانی ,, (٨٥ ـ١٢٠ م) (أحد ملوک أسرة کشن) بالتغلب علی بعض الحکام البارثیین والهند یونانیین ، ووسع مملکته فوصل الی بنارس شرقا و خوارزم شمالا ، وأجری عملة ذهبیة جاء علی أحد وجوهها بالیونانیة لقب ملک الملوک .

Basileus Baseleon

Βασιλεὺς Βασιλέων

وعلی الوجه الاخر جاءت کتابات بالخروشتیة کما یلی . (مهاراجا سا ـ راجا ادهیرا جاسا : أی الملک المعظم ـ ملک الملوک) (سرب لوک ایشوراسا أی سید جمیع الناس) (مهیا ایشوراسهیما کدفیسا أی السید العظیم ویما کدفیس) (ترااداتا : أی المنجی) انظر اردو زبان کی قدیم تاریخ . عین الحق فرید کوتوئی ، لاهور ١٩٧٢ . ص ١٢٧ وما بعدها

٦ـ بعد انتهاء عهد ,, کنشا ,, بدأ عهد ملوک الطوائف وانقسمت الهند الی امارات صغیرة ، وحاول الأمراء الحفاظ علی الأنفاس الأخیرة للسنسکریتیة الا أنها لفظت آخر انفاسها بدخول المسلمین الهند ، فخلا المیدان للبراکرت هذا الناس یعرضون بها أفکارهم الدینیة والعلمیة والأدبیة ، وبدأت التأثیرات المحلیة للبراکرت تتضح أکثر فأکثر حتی ظهرت اللغات المحلیة داخل الهند

٧ـ وصل محمد بن القاسم الی بلده ,, دیبل ,, سنة ٩٣ هـ ٧١٢م وفتحها بعد حصار دام ستة اشهر .

ويرى بعض الباحثين أن بلدة ديبل هذه هي نفسها كراتشي الحالية . ولم يكن اهل السند يحبهم النظام البرهمي مما دفعهم الى مساندة محمد بن القاسم الذى قاد الجيش المسلم ضد راجا داهر سنة ٧١٨م وقضى عليه . انظر دائرة المعارف الاسلامية ، مجلد ١١ (سندهـ مسادة)

٨ـ انشأ الانجليز مركزا تجاريا لهم بالسند فى القرن ١٧ م لكنهم اغلقوه بعد فترة . ثم شعروا فى اوائل القرن ١٩ بأهمية المنطقة خاصة بعد أن استولى الروس على وسط آسيا وا حكموا قبضتهم عليها . فبدأ وا بعقد المعاهدات مع حكام المنطقة ثم انتهى الامر بسيطرتهم عليها . انظر « سندهـ مين آباد قومين » . شيخ صادق على شير على ـ كراتشى ١٩٥١ م

٩ـ لمزيد من الامثلة انظر المعاجم التالية : فرهنگ آنند رام لمحمد بادشاه ، فرهنگ آصفيه لسيد أحمد دهلوى ، وجامع اللغات لخواجة عبد الحميد ، وفيروز اللغات لمولوى فيروز الدين

١٠ـ انظر كتاب : اردو زبان كى قديم تاريخ : عين الحق فريد ، ص ٢٨٩ لاهور ١٩٧٢ .

١١ـ بالاضافة الى وجود هذه العملات فى غرب باكستان الحالية فقد وجدت أيضا فى مدن المناطق الشمالية بالهند مثل : كوركهبور ، غازى بور ، مدهيه فرديش وجبل بور

١٢ـ احدى مدن التركستان الصينى واسمها الهندى « كستنكه » أى صدر العالم وكانت مركزا للبوذية كما أنها تعج اليوم بأضرحة الأولياء المسلمين . انظر دائرة المعارف الاسلامية (اردية) مجلد ٨ . ص ٨٥٢

١٣ـ أسرة « كتشا » (ق ٤ ـ ق ٥ م) انظر كتاب :

١٤ـ A History of India . Vol.1 . Ramila Thapor . 1969 . pp. 136—166

Sokolov , S.N. The Avestan Language , Moscow, 1967.

١٥ـ عن الألفاظ اليونانية الواردة عن طريق اللغات الأوربية : انظر المعاجم الأردية التى سبقت الاشارة اليها مثل : فرهنگ آصفية ، ونور اللغات وفيروز اللغات وغيرها

١٦ـ انظر : عربون كى جهاز رانى (الملاحة عند العرب) بالأردية . لسيد سليمان الندوى . ط الهند ٢

١٧ـ المرجع السابق ـ وانظر ايضا : رحلة ابن بطوطة . ج ٢

١٨ـ أحد اخوال النبى من بنى النجار وكانوا بالمدينة ـ انظر محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ، للشيخ محمد الخضرى ، ص ٢ د ، الجزء الاول ، ط الثانية .

١٩ـ كانت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين ٨ يونية ٦٣٣ م ١٣ ربيع الاول سنة ١١ هـ انظر محاضرات الشيخ الخضرى ، ج ١ ، ص ١٥٧ . كما يذكر الأستاذ أحمد أمين فى كتابه « فجر الاسلام » أن وفاته عليه الصلاة والسلام كانت ٦٣٤ م ١٢ هـ .

٢٠ـ يذكر سليمان الندوى فى كتابه بالأردية (الملاحة عند العرب) ص ١٥ ، ١٦ عددا من الكلمات اليونانية واللاتينية التى استخدمت فى العربية فيما يتعلق ومجال الملاحة من بينها أوقيانوس بمعنى المحيط وأصلها ὠκεανός وقير بمعنى زيت او سخم يوضع على هيكل السفينة واصلها κηρός ، ونوتى بمعنى ملاح واصلها ναύτης. ولمزيد من التفاصيل انظر سليمان الندوى ملحق كتابه ، لغات جديده ، ط الهند

٢١ـ تنتهى الألفاظ اليونانية عادة فى حالة الرفع بحرف السيجما (ς) ، ولكن هذا الحرف لا يظهر عادة فى النطق العربى لهذه الألفاظ ، وهناك كلمات لا بأس بها تثير بعض التساؤلات حول حقيقة أصلها مثل العلاقة بين كلمة « حاج » و « حج » بالعربية وكلمة ἅγιος باليونانية بمعنى « مقدس » ، وبين كلمة « يأجوج » العربية وكلمة γίγας اليونانية بمعنى عملاق ، وبين كلمة مكعب العربية وكلمة κύβος اليونانية بمعنى المكعب انظر القاموس التالى Liddel & Scott ; A Greek — English Lexicon , Oxford (1968)

٢٢ـ A Linguistic Survey of India ; Grierson ,G.A., Culcutta 1903—28.
Indo-European philology . Loclawood. W B , London 1969

٢٣ـ CF. D.S. Crawford , Greek and Latin , Cairo (1939), p.30.

٢٤ـ Proceedings of a Symposium — the 26th of Orintialists ; Dehli,
A Comparative Grammer of The Modern Aryan Languages; Dehli.

٢٥ـ سرخاب أى « الخام » وهو طائر مائى كالأورة يميل لونه الى الحمرة ، وقد ذكرها فيلن فى قاموسه (New Hinustani English Dictionary . London 1979) بمعنى بطة البرهمن، ويرجع هذا المعنى لأنه يضفى صفة التقديس على هذا الطائر

٢٦ـ A Survey of Panjabi Lang. & Lit., Quraishi, W., April 1967; Panjabi Lit., Screbryakov, I., Moscow, 1968

٢٧ـ دائنى أشار اليها فيلن فى قاموسه سابق الذكر أنها تعنى امراة ملعونة لدى المسافرين وقطاع الطرق . كما أشار مرور اللغات الى لفظ داؤنى بأنه لفظ قديم يعنى البرقع أو النقاب

٢٨ـ لمزيد من التفاصيل انظر الكتب التالية هندوستانى لسانيات (بالأردية). زور قادرى ، لاهور ١٩٦١ م

Introduction to Prakrit — Varanasi , Woolner (A.C.).
Comparative Grammar of Prakrit lang., Pischel, R., Delhi 1963.

٢٩۔ نقلا عن اردو زبان کی قدیم تاریخ ۔ عین الحق فرید کوٹی ۔ لاہور ١٩٧٢

٣٠۔ هذه الاشعار وما بعدها نقلا عن كتاب . اردو زبان کی قدیم تاریخ . عین الحق فرید کوٹی . لاہور ١٩٧٢ م

٣١۔ شاعر متصوف يدعى شيخ فريد الدين ولد سنة ١١٧٣ متوفى سنة ١٢٦٥ م .

٣٢۔ ترجع نقوش اشوک الى القرن الثالث قبل الميلاد وهى تدل على رواج البراكرت فقد كتبت بها الكتب الدينية لكل من البودية (بدهـ مت) والجينية (جين مت)

٣٣ - هذا البيان لا يبدو صحيحا . فان هذه الاسماء التى ذكرها المؤلفان كلها لمختلف فرق سحاب

رئيس التحرير

حول فلسفة التربية في الاسلام
نظرات مستوحاة من الكتاب والسنة النبوية

دكتور مصطفى أحمد الزرقاء

قدمت هذه المقالة الى الملتقى الرابع عشر للفكر الاسلامي
المنعقد فى الجزائر فى أغسطس وسبتمبر ١٩٨٠

ا ـ التربية والتعليم والفرق بينهما .

فى البلاد المتخلفة قلما كان يميز فى طريق الثقافة بين مفهوم التربية ومفهوم التعليم ، فهما فيها مفهومان مختلطان . ويتجلى هذا الاختلاط فى المفهوم بينهما فى البلاد التى رزحت تحت الاستعمار الأوربى منذ القرن التاسع عشر ، لأن تلك البلاد المغلوبة المستعمرة قد كان المستعمر ينظر اليها كمزرعة استثمارية وسوق استهلاكية ، يحرص على بقائها مغمورة تحت غشاوات من الجهل وقلة الوعى والتميز ، لان ذلك هو الذى يمكن له دوام سيطرته واستعماره واستثماره .

فتلك البلاد لم يكن يبرز لعيون أهلها من فرق بينهم وبين المستعمر الغالب سوى فارق العلم والجهل . فالمستعمر قد تمكن من استعمارهم لانه أعلم وأوسع معرفة فى العلوم الكونية التى استطاع بتفوقه فيها أن يسخر

لارادته من وسائل القوة المادية والصناعة والسلاح ماجعله يقهرهم ويستعبدهم ، فقوته فى نظرهم هى ثمرة تفوقه فى العلم والمعارف .

ثم فى خلال النصف الاول من هذا القرن العشرين دب الشعور بالذات فى البلاد المستعمرة ، والتحسس بالظلم الذى يمارسه المستعمرون فيها ، وتولدت ، نتيجة لذلك ، رغبة النابهين من أبناء الشعوب المستعمرة فى مقاومة الاستعمار لتحرير البلاد من وطأته ومظالمه ، وكان الذى يسود أفكار هؤلاء النابهين الراغبين فى تحرير بلادهم ، أن طريق الخلاص هو اكتساب العلوم الكونية التى جهلوها وتفوق فيها المستعمر عليهم ، فاتجهوا الى التعلم ، وسافر منهم من يستطيع الى بلاد المستعمرين ليأخذ العلم عنهم ، وقنع من لا يستطيع بالتعلم فى بلده ، ونشأت حركة التعليم الحديث فى البلاد المتخلفة ، وكان الهدف الاول والاخر فيها هو أخذ أكبر قدر ممكن من العلوم الكونية بمختلف فروعها .

وفى هذه المرحلة ، ومنذ أواخر عهد الدولة العثمانية كانت الوزارة التى تقوم على مهمة التعليم تسمى (وزارة المعارف) . وبقى اسمها كذلك بعد انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الاولى ، ولايزال هذا اسمها فى بعض البلاد العربية الى اليوم .

وهذه التسمية أثر من الفكرة التى سادت فى بداية يقظة الشعوب المستعمرة ، اذ توهموا أن سبب التفوق والقوة هو سعة العلم والمعرفة ،وان هذا هو سبيل التحرر . نظرا الى الظاهر من أسباب القوة وهو هنا التفوق العلمى بين الغالب والمغلوب ، وذلك لقلة الوعى السياسى وفقدان الرشد الاجتماعى عند المغلوب ، فظن أن الشعوب والافراد انما رقيها وتقدمها وقوتها بالعلم وحده . وقد فات المغلوبين المتخلفين من الشعوب أن العلم وحده قد يزيد

التخلف اذا لم يكن قائده هو العقيدة والاخلاق المتينة . فقد يخون العالم أمته ، وقد يبيع ضميره ووجدانه . وقد يركب هواه ، ويؤثر مصلحته الشخصية وأنانيته على كل قيمة وعلى كل مصلحة عامة لامته ويتستر بمظاهر الصلاح الكاذبة . فالحاكم الظالم قد يخدع شعبه بالأ باطيل ويتلاعب بمقدراته ، والقاضى العالم اذا لم يكن نزيها يكون أقدر على قلب الحق باطلا والباطل حقا ، بمختلف المؤثرات ، والغنى العالم قد يضن بماله عن أوجب الواجبات فى مجال التضحية عند الضرورة اليها ، والجندى المتعلم قد يستسلم لعدوه فى أول جولة خوفا على نفسه فيضن بها فى المواقف الحاسمة التى تحتاج الى الشجاعة والاقدام ، والموظف العالم قد يكون مرتشيا غير أمين على مصالح الدولة أو حقوق الناس عند مايجد المغريات التى تدعوه الى الانحراف الخ .

كل ذلك لاضمان فى الامة ضده الا بالاخلاق ، لابالعلم وحده ، ولا أخلاق الا بالتربية الحسنة التى تهدف الى التركيز على تكوين النفوس الصالحة ، والتوجيه المستقيم قبل (أومع) حشو الادمغة بالمعلومات ، وتسليحها بالمعارف والقوانين الكونية الطبيعية التى تخدم حياتها المادية ، وتزودها بوسائل الغنى والتمول ، وتنقلها من حياة التقشف والشظف الى حياة الترف .

واستمر هذا الاختلاط بين مفهوم التربية والتعليم لدى الشعوب المختلفة والمستعمرة حتى منتصف هذا القرن حيث بدأ الاستعمار بالانحسار ، وأخذت مستعمراته بالتحرر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، ودب الوعى السياسى فى فئات من الشعوب التى تحررت ، والتفتح الاجتماعى ، واذ ذلك بدأ التنبه الى التمييز بين مفهوم التعليم و مفهوم التربية ، وأخذت البلاد المتحررة فى تغيير اسم وزارة المعارف الى اسم

وزارة التربية والتعليم ، ثم الى وزارة التربية فقط فى بعض البلاد للدلالة على بلوغ هذا المستوى من الادراك الاجتماعى والاخلاقى .

ولعل من الطبيعى أن لايكون هذا الاسراع السهل فى تغيير اسم وزارة المعارف فى هذه البلاد المتخلفة يسايره بالسرعة نفسها تحقيق مضمون الاسم الجديد فى التربية والتوجيه وتكوين الشخصية المتكاملة فى الشباب الصاعد سلوكا ومثالية وولاء والتزاما وعقيدة واعتزازا بالاصول والتراث ، وحفاظا على الواجب فى التضحية والايثار عند الاقتضاء ، ولاسيما فى أمة كالامة العربية والاسلامية التى لم تملك أمة أخرى نظير ما ملكه أسلافها العرب والمسلمون على سطح الأرض من أمجاد مختلفة الالوان ، وعلم فى جميع فروع المعرفة ، وثقافة وحضارة لم يعهد فى التاريخ لهما مثيل .

ولكن يبدو أن التخلف الطويل الامد خلال القرون العديدة فى وسع الحياة بمختلف جوانبها ، ومنه التخلف فى التربية ، لايمكن تغييره فى وقت قصير ، ولاسيما فى بلاد عطلت جميع مصالحها الحقيقية الانقلابات والصراع على الحكم ، والمنافسات على المنافع غير المشروعة بين الأحزاب على حساب مصلحة الأمة وتربية أجيالها الصاعدة التى يجب اعدادها لدورها فى حمل المسؤولية بأمانة واخلاص .

على أننا قد كسبنا الاسم وان لم نحرز المسمى فعسى أن يكون غير بعيد ذلك اليوم المنشود الذى يصبح فيه هذا الاسم المؤنس النير (وزارة التربية) اسما على مسمى .

ب ـ العلم والمسؤولية

والعلم فى الاسلام مصدر لمزيد من المسؤولية عن الغير وعن المجتمع يحملها العالم ، وليس العلم فى نظر الاسلام مصدرالامتياز فى

التمتع والمنافع والاستئثار يدل به العالم على سواه . فكلما ازداد الانسان علما ازداد تحملا للمسئولية لازدياد ادراكه لمدى واجباته .

ومن أهم نتائج غياب هذا المفهوم التربوى ومقاصده الاسلامية عن التعليم فى كثير من الاقطار ، ان لم نقل فى كلها اليوم ، أن طبقة المثقفين العصريين كثير منهم يرون أنفسهم مستحقين للتميز بحقوق ومزايا عن باقى أفراد أمتهم ممن لايعلمون علمهم . وهكذا يرى هؤلاء المثقفون علمهم مبررا لانانيتهم فى التكبر وتكديس المنافع والاستعلاء على غيرهم من الناس . وغالبا مايكون هؤلاء مؤظفين فى الدولة قائمين على مصالح عامة ، فيتخذون من مركز سلطتهم هذه ذريعة للحصول على مايفتقده باقى أفراد المجتمع غير المثقفين أو يسيئون معاملة الناس ذوى العلاقة الذين لم توجد وظائف الدولة الا لخدمتهم وقضاء حاجاتهم الرسمية ، وتيسير أمورهم .

وقد أثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله : « من كان أمير المؤمنين فهو عبد المؤمنين » .

وازدياد مسؤولية العالم بدلا من تعاليه واستكباره هو مادل عليه الحديث النبوى الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله : « لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن جسمه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به »؟ .

هذه التربية الاسلامية للمتعلمين هى التى تخرج علماء من أول اخلاقهم التواضع ، ومن أبرز سماتهم الزهد والايثار والبعد عن الطمع وشح النفوس ، ومن أكبر همهم أن يعملوا بما علموا .

غـايات التـربية الاســلامية

ان التربية طريق الى غاية اجتماعية ولكى نعرف سداد السلوك فى هذا الطريق من عدمه يجب أن نعرف الغاية التى يراد أن نعدلها ونوصل اليها الناشئين من طريق التربية .

أ) ان الانسان فى نظر الاسـلام مستخلف من قبل الله تعالى فى الارض لكى يعمرها بالخير ، ويصلح الحياة عليها ، وهو مسؤول عن هذا الاصـلاح ومحاسب عليه فى الآخرة .

الأدلـة

«واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » (البقرة :٣)

«ويستخلف ربى قوما غيركم » (هود : ٥٧)

«جعلكم خلائف الأرض » (الانعام : ١٦٥)

«آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (الحديد : ٧)

وآيات أخرى كثيرة فى هذا المعنى .

ب) والحياة الدنيا الصالحة التى اعتبر الانسان مستخلفا عليها فى نظر الاسـلام هى أن ينشأ الانسان على الامور الآتية التـى هى أركان الحياة الصالحة :

١) عقيدة سليمة بريئة مما يدلس العقل البشرى من شرك أو وثنية أو خرافات ، ومؤمنة بوحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه واتصافه بكل كمال ، ومؤمنة أيضا بالحياة الأخرى وبالمسؤولية فيها أى بمبدا الثواب والعقاب .

والأدلـة على ذلك كثيرة ومعـروفة فى القـرآن .

٢) جسم قوى يستطيع تحمل الاعباء التى فى طريق القيام بواجب الاستخلاف .

الادلـــة

„المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف » (حديث نبوى)

„يرحم الله امرءا أراهم ـ اى المشركين ـ من نفسه قوة » (حديث نبوى)

„قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم »
(البقرة : ٢٤٧)

„وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » (الانفال : ٦١)

ولم يجوز النبى صلى الله عليه وسلم انهاک الجسم ولافى عبادة الله ، حتى قال : ان لنفسک عليک حقا ، ولزوجک عليک حقا ، ولربک عليک حقا.فأعط كل ذىحق حقه ،وقال أيضا: » ان المنبت لا أرضا قطع ولاظهرا أبقى » . يريد من المنبت المفرط فى العبادة حتى يضعف جسمه كمن يجهد مطيته فى السفر حتى يهلكا فى الطريق .

٣) علم صحيح يخرج به الانسان من ظلمات الجهالة العمياء الى نور المعرفة بالحقائق والواقع والواجب . وهو فى نظر الشريعة ثلاثة أنواع :

(الاول) علم بالأمور الدينية التى تتعلق اما بالمغيبات مما وراء الطبيعة كأحوال الآخرة والجنة والدار ، واما بأساليب العبادة المشروعة ، واما بالحلال والحرام فى الشؤون الفردية والاجتماعية . وهذا النوع لايسوغ تلقيه الا من مصادر الشريعة الاساسية من القرآن والسنة الثابتة ثبوتا صحيحا .

(الثانى) علم بنواميس الكون وقوانين الطبيعة ومصالح الحياة ووسائلها وهذا النوع مرجعه العادات والتجارب والمشاهدات . وقد عنى الاسلام فى اهذا النوع بتنمية الادراک البشرى ، وحض على اطلاق العقل فى ميدان التفكر والتدبر والنظر فى الحقائق الثابتة ومشهودات الكون للوصول منها الى علم كونى صحيح .

الأدلــة

"قل انظروا ماذا فى السموات والأرض " (سورة يونس :١٠١)

"وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون "

(سورة الذاريات : ٢٠)

"أنتم أعلم بأمور دنياكم " (حديث شريف)

(الثالث) علم بالنظام الشرعى ، أى بالجانب القانونى من شريعة الاسـلام ، وهو الشرع الحقوقى والجزائى الذى أمر به الاسـلام ، ويسمى " فقها " . وهذا قد أتى فى الاسـلام ببعض أحكام ثابتة كتحريم الربا ، وحقوق الارث ، ومحللات النكاح ومحرماته ، والقصـاص فى القتـل ، وبقواعد كلية كمبدأ التراضى فى العقود ، وازالة الضرر ، ودرء المفاسد ، ورعاية الأصلح والأقرب الى العدالة ، واعتبار العرف والعادات فى كل ما لايصادم نصا تشريعيا . الخ ...

وفيما وراء ذلك أمر بالاجتهاد فى تخريج أحكام الحوادث على وفق ما تقتضيه تلك الأسس وروح الشريعة .

٤) تهذيب روحى وأخلاق كريمة قويمة تكون رقيبا على توجيـه قوة الجسم والعلم فى انتاج الخير للمجتمع . وتجعل من الانسان عنصرا نافعا ، وقدوة صالحة ، فى ظل العقيدة السليمة التى هى الركن التأسيسى الاول .

الأدلــة

"بعثت لاتمم مكارم الأخلاق" (حديث شريف)

"ألا أخبركم بأحبكم الى وأقربـكم منـى منـازل يوم القيـامة ؟ أحاسنكم أخلاقا " (حديث شريف)

"الناس عيال الله ، وأحبهم الى الله أنفعهم لعيالـه "(حديـث شريف)

هذه هى أركان الحياة الصالحة التى يجب أن ينشا ويربـى عليهـ

الانسان . والتربية فى نظر الاسلام يجب أن تخدم بجميع الوسائل ، وفى جميع هذه النواحى فى الحياة ، أى ان التربية يجب أن تكون جسمية وعقلية وروحية . وكل منها يجب أن تعد الانسان فى موضوعها للوصول الى الغايات السالفة البيان .

فالتربية الجسمية يجب أن تكون بحيث تنشئى جسما قويا ، والتربية العقلية يجب أن تنتج عقيدة سليمة متينة ، وادراكا وتفكيرا سديدين وعلماً صحيحا ، والتربية الروحية يجب أن تنشئى خلقا طيبا مطبوعا بحيث يصبح كفطرة ثابتة فى الانسان .

وسائل التربية وطرائقها فى الاسلام

وأما وسائل هذه التربية وطرائقها فان للاسلام فيها نظرا فى كل من النواحى الثلاث : الجسمية ، والعقلية ، والروحية .

أولا : فى الناحية الجسمية

تبدأ التربية الاسلامية فى هذه الناحية بتدبير سابق هو اختيار الازواج . فيستحسن شرعا الاغراب فى الازواج ، أى أن تكون الزوجة غريبة أى بعيدة عن دم أسرة الزوج ، لأن العادة تثبت أن النسل عندئذ فى الغالب أصح وأقوى ، لأنه اذا اجتمع عنصر ضعف وراثى فى كلا الأبوين يرثه الولد غالبا ، وفى الاغراب يتغلب العنصر الأقوى .

وهذا مافعله عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) اذ شاهد أن بعض القبائل العربية قد أضوت أى ضعفت أجسامهم ، فأمرهم أن يتزوجوا الغرائب .

وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يشاهد الزوج مخطوبته فتراه ويراها قبل الزواج ، لمقاصد عديدة حكيمة منها التأكد من مظاهر صحة الجسم .

ثم بعد حصول الزواج والولد أقر الاسـلام ماكان معهوداً عندالعرب من ارسال الطفل الى البادية ليربى فيها ، انتجاعا للهواء الطلق ، وللنشؤ فى أحضان الطبيعة عند القبائل ، فينشأ أصح وأقوى جسما ، وأقوم لغة ولساناء

ويظل كذلك طور حضانته كله حتى يحتاج الى تثقيف ، فيعاد عندئذ الى أهله . وهكذا ربى النبى صلى الله عليه وسلم عند حاضنته حليمة فى بنى سعد . وكان خلفاء بنى أمية يفعلون ذلك فى تربية أبنائهم .

ثم أخيرا يحض الاسـلام على ممارسة الرياضة البدنية بصورة تعد لقوة الجسم وخفة الحركة . ومن ثم كان النبى صلى الله عليه وسلم يفسح المجال لتصارع الصبيان المراهقين بين يديه . وقد تسابق هو وأم المؤمنين عائشة بالأقدام ، كما كان الرجال يلعبون بالسلاح بين يديه فى المسجد . وأكد على تعويد الرماية عن القوس والسباحة ، وركب الخيل ، وفضلها على غيرها لانها تفيد الانسان فى الحرب .

وكان عمر يأمر الناس بأن يعودوا أولادهم القفز من الأرض الى ظهور الخيل ، ويعرضوهم للشمس ، ويسمى الشمس حمامات العرب .

وفى أمر التربية الجسمية يوجه الاسـلام اهتماما كبيرا نحو النظام الغذائى ، ويوصى بالبساطة فى المأكل ، تخفيف الوجبة ، وعدم ادخال الطعام على الطعام . ودستور ذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم فيما ثبت عنه : أن لايملا الانسان معدته بالطعام ، بل أن يجعل ثلثها فقط للطعام ، وثلثها للشراب وثلثها للهواء .

ثانيا : فى الناحية العقليـة

التعاليم الاسـلامية تقضى بأن تبدأ التربية العقلية للطفل منذ أن يبدأ وعيه وتأثره بالتلقى والتلقين .

وقد أقرت الأحكام الفقهية الاسـلامية للأم المطلقة غير المسلمة اذا

كان زوجها مسلما حق حضانة طفلها مالم يبدأ وعيه للأديان وتعقله لها على سبيل التقليد . فمتى أصبح يعقل ذلك ويقلد فيه ينقطع حق أمه غير المسلمة فى حضانته خوفا على عقيدته ، وعندئذ يحضنه غير أمه ممن لهن حق الحضانة فى وسط اسلامى ، ويبدأ تكوين عقيدته الاسلامية قبل كل شئ .

وكذلك يبدأ تكوين فكره العلمى تبعا لنمو قابلياته وبحسب مراحل هذا النمو الطبيعية ، والطريقة الاسلامية أن ينزل المربون الى مستوى عقلية الطفل فى التلقين .

وقدثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يطاطئ ظهره ليركب عليه سبطاه الحسن والحسين رضى الله عنهما فى طفولتهما ، ويقول لهما : «نعم الجمل جملكما ، ونعم الحملان أنتما » .

وكان عند بعض أطفال الصحابة نغر (عصفور) ففقد ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يداعبه ويسأله « يا أبا عمير ، ما فعل النغير» ؟

وهكذا تدل جميع الآثار على التنزل الى مستوى الطفل فى تربيته . ويمنع الاسلام اطلاع الاحداث على الأديان الأخرى وعقائدها ، كى لاينطبع شعورهم الدينى بها وهو ساذج . فقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن تعليم أبكار الاولاد كتب الديانات المخالفة . وفسروا الابكار بالاحداث .

وقد افترض الاسلام طلب العلم على كل مسلم مدى حياته فقال النبى صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » . وقال : «طلب العلم فريضة على كل مسلم » . ويدخل فى لفظ المسلم فى هذا المقام الرجل والمرأة ، فالقدر الضرورى من العلم فيه أمور الدين والدنيا فريضة شخصية عينية على كل مسلم ومسلمة .

وما زاد عن ذلك مما تتعلق به مصلحة المجتمع فريضة كفائية بحسب الحاجة العامة . ويدخل فى ذلك كل مايحتاج اليه المجتمع من العلوم ، من صناعية وطبيعية وزراعية وعسكرية وطبية . الخ .....

والطريقة المثلى للتنشئة العلمية فى نظر علماء الاسلام المستمدة من دلائل الكتاب والسنة فى التعليم انما هى فى تنوير فكر الناشئ واذكاء فهمه ومحاكمته العقلية أكثر من حشو ذهنه بالمسائل العلمية .

وقد صرح العلماء الفقهاء بأن العلم الحقيقى هو ملكة الفهم الصحيح ، لاكثرة الاطلاع على المسائل . وبهذه المناسبة أذكر كلمة لبعض الفلاسفة الفرنسيين تتفق تماما مع هذا النظر الاسلامى فى التعليم والتثقيف اذ يقول ذلك الفيلسوف ما ترجمته : « ان ذهن الطالب قبس يجب اذكاؤه ، لا وعاء يجب املاؤه » .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم عند ما يرسل من صحابته معلمين وحكاما الى الاقطار ، كعلى ومعاذ بن جبل (رضى الله عنهما) انما يبين لهم طريقة الحكم الصحيح الموافق لأصول الشريعة ، ثم يكلهم الى اجتهادهم فى تعرف أحكام الحوادث من نصوص الشريعة .

والعلم فى نظر الاسلام وسيلة الى العمل ، فخير العلوم ماكان أمس بالحاجة . وقد بدأ النبى صلى الله عليه وسلم أول مدرسة فى الاسلام بأن جعل فداء أسرى بدر من المشركين العالمين بالقراءة والكتابة أن يعلم كل أسير منهم عشرة من المسلمين . وبذلك انتشرت القراءة والكتابة بينهم . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يخشى أن يصبح المسلمون علماء غير عاملين بعلمهم ، فأفهمهم بطريقة عملية أن العلم وسيلة للعمل ، وحذرهم من المسؤولية الدينية الرهيبة التى يتعرض لها من لايعمل بمقتضى علمه . والطريقة التى وجههم بها هذا التوجيه هى ماروى عن ابن مسعود (رضى

الله عنه) وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم عشر آيات من القرآن ثم لايتجاوز بهم الى غيرها حتى يعملوا بكل ما تضمنته من أحكام، قالوا : فتعلمنا القرآن والعمل جميعا (انظر مقدمة تفسير ابن كثير) .

ثـالثـا : فى الناحية الروحية

يعتمد الاسلام فى التربية الروحية على أمور :

١) التوجية الى ممارسة العبادة المشروعة وادبها بخشوع فى مناجاة الله تعالى فيها ، واخلاص فى أدائها بجميع صورها .

ويعتبر هذه العبادات اذا أديت على وجهها الاكمل وبخشوع صحيح خير آمر وناه من نفس الانسان لنفسه ، اذ يقول القرآن العظيم : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

وطريقة الاسلام فى هذه التربية على العبادة أن يؤمر الطفل بالصلاة منذ تمام السنة السابعة من عمره . ويجوز أن يضرب عليها بعد أن يتم العاشرة من العمر اذا قصر فيها ، على أن لايضرب بعصا ونحوها بل باليد فقط . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع ».

٢) الوعظ والارشاد ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبخاصة تنمية فكرة المسؤولية الأخروية ترغيبا وترهيبا .

التوجية الاختصاصى فى التربية العلمية

ان تعاليم الاسلام تقضى باعتبار ناحية التوجيه الاختصاصى فى التربية مسألة فى غاية الاهمية والخطورة ، واعطائها مايتناسب مع أهميتها من عناية كبيرة .

ويقوم ذلك فى نظر علماء الاسلام على وجوب دراسة ميول الأطفال وقابلياتهم منذ تنشئتهم الاولى ، ثم توجيه كل منهم الجهة التى يدل ميله

واستعداده على امكان نبوغه فيها .

وأساس ذلک شرعا هو أن النبی صلى الله عليه وسلم كان ينتقى لكل عمل من هو أصلح له وأقدر عليه : فيعهد بالأذان الى بلال رضى الله عنه ويصرح بانه اختاره على غيره لأنه أندى صوتا . ويعهد بالقضاء الى من هو أقدر وأحسن فيه فهما وعلما ، وبقيادة الجيش الى من هو أحزم وأخبر بالحرب وأشجع وبالجباية الى من هو أبرز من غيره أمانة وورعا ، وهكذا فی سائر شعب الاعمال .

فقد أخرج الامام مسلم فی صحيحه عن أبی ذر رضی الله عنه أنه قال: قــلت يا رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، ألا تستعملنی ؟ (أی تولينی امارة) ، فضرب بيده على منكبی ثم قال : يا أباذر، انک ضعيف وانها يوم القيامة خزی وندامة ، الا من أخذها بحقها (أی كان كفؤا لها جديرا بها) وأدى الــذی عليه فيها » -(رياض الصالحين للنووی بتحقيق وتعليق الدكتور صبحی الصالح الحديث- ٦٧٣).

وقد أثر عن النبی صلى الله عليه وسلم أنه قال ، كما سبقت الاشارة اليه من قبل : « انتم أعلم بأمور دنياكم » . فوجه العقول بذلک الــى النشاط والتجارب والبناء على الاصــول والقواعــد التــی يثبــت خيرهــا وصلاحها فی هذه الحياة ، والى اعتماد أهل الخبرة فی كل شأن .

ومما لاشک فيه أنه لايمكن أن يتوافر فی كل زمن لكل عمل ومهمة من يتقن ذلک ويحسنه الا بتنمية الملكات والمواهب الاختصاصية بحسب الاستعداد الفردی فی كل شخص ، ليستفاد من قابلياته الكامنة التی اذا هيئ لها طريقها الملائم قطعت فيه أعظم شوط ممكن ، واذا سارت على خير بصيرة فی غير طريقها الملائم قعدت بصاحبها عجزا فی أول الطريق. فقــد يصلح للعلم والنبوغ فيه من لا يصلح للحرب ، وقد يميل للصناعة

فيجيدها ويبتكر فيها من لاجلد له على الـزراعة أو التجـارة أو العلـم والحفظ ، كما أنه قد يجيد الخطابة من لايحسن نظم الشعر . فكل واحد اذا وجه الى نحو ميله وقابليته نبغ واذا مشى فى غيره عجز وضاعت مواهبه. فخســر نفسه وخســره المجتمع .

ومن ثم يعد علماء الاسـلام من فروض الكفاية فى الأمة تلك الدراسة لميول الناشئين وقابلياتهم وما يبنى عليها من توجيه كل شخص توجيها اخصائيا الى ما تساعد عليه قابليته وميله ، وذلك فى معاهد ومدارس تنشأ خصيصا لهذا الغرض لكى يوجد دائما فى الامة لكل مصلحة من مصالحها العلمية والحيوية من يستطيع القيام بأدائها على أكمل وجه .

ومعنى فرض الكفاية هو المصالح والوسائل العامة التى تتعلـق بها حاجة المجتمع الضرورية فيفترض على مجموع المقتدرين من الأمة أن يسعوا ويبذلوا فى تحقيقها ، وذلك كقيادة الجيوش وانشـاء الجامعـات لمختلف الدراسات الاختصاصية الـلازمة ، ومعاهـد التقنية المـتـطـورة (التكنولوجيا)، والمستشفيات والمستوصفات وملاجئ العاجزين ، واقامة الجوامع والمعابد ، ورياض الاطفال ودور التدريب وتعليم الحرف ، وصناعة الاسلحة المختلفة والمتطورة . فاذا قام بها البعض من حكومة أو فرد أو افراد سقط الوجوب عن الكل لان المقصود حصول الامر الواجب بقطع النظر عمن يقوم به ، واذا لم يقم بها أحد كان الجميع آثمين لتقصيرهم .

وفرض الكفاية هذا يقابله شرعا الفرض العينى ، وهو مايجب على كل شخص بعينه أن يفعله ولايغنى فيه فعل غيره عن فعله ، كالصلاة والصيام ونحوهما فلايقبل أن يصلى أو يصوم أحد عن غيره .

فطلب العلم مثلا واجب عينى ، ولكن تعليم الناس واجب كفائى لان تحصيل الانسان للقدر الضرورى من العلم هو فريضة شخصية لقول النبى

صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » فلايشفع علم العالم لجهل الجاهل ولايغنى عنه .

أما تعليم الناس مايحتاجون اليه فهو حاجة عامة من مصالح المجتمع فاذا قامت فئة من الناس بواجب التعليم الكافى ، وهيأت وسائله ، حصل المقصود وسقط الوجوب .

وعلى هذا الأساس فان دراسة ميول الناشئين وقابلياتهم الفطرية ، وتوجيه كل منهم توجيها أخصائيا الى الجهة التى يصلح لها يعتبر فى نظر علماء الاسلام من الواجبات الكفائية .

وقد أفاض الامام الشاطبى أبو اسحق ابراهيم بن موسى المالكى ، المتوفى سنة ٧٩٠ للهجرة فى بيان ذلك فى كتابه « الموافقات فى أصول الشريعة » . وأتى فى ذلك بأفضل وأروع مايمكن أن يصل اليه الفكر العلمى الحديث فى هذا العصر ، وسأنقل هنا نص ما قاله هذا الامام الكبير فى هذا المقام لمافيه من جوهر هام فى التربية الاختصاصية الاسلامية .

قال رحمه الله فى المسألة ١١ من الجزء الاول من كتابه « الموافقات »

« ان الله عزوجل خلق الخلق غير عالمين بوجوه مصالحهم ، لافى الدنيا ولا فى الاخرة ، ألا ترى الى قوله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا » .

«ثم وضع فيهم العلم بذلك على التدريج والتربية ، تارة بالالهام كما يلهم الطفل التقام الثدى ومصه ، وتارة بالتعليم . فطالب الناس بالتعليم والتعلم لجميع ما تستجلب به المصالح ، وكافة ما تدرأبه المفاسد ، انهاضا لما جبل فيهم من تلك الغرائز الفطرية والمطالب الالهامية لان ذلك كالاصل للقيام بتفاصيل المصالح ، سواء أكان ذلك من قبيل الافعال أو الأقوال ،أو العلوم ، أو الاعتقادات ، أو الآداب الشرعية ، أو العادية .

وفى أثناء العناية بذلك يقوى فى كل واحد من الخلق مافطر عليه ، وما ألهم له من تفاصيل الأحوال والأعمال ، فيظهر فيه ويبرز على أقرانه ممن لم يهيأ تلك التهيئة . فلا يأتى زمان التعقل الا وقد نجم على ظاهره مافطر عليه فى أوليته . فترى واحدا قد تهيأ لطلب العلم ، وآخر لطلب الرئاسة ، وآخر للتصنع ببعض المهن المحتاج اليها ، وآخر للصراع والنطاح .... الى سائر الامور » .

« هذا ، وان كان كل واحد قد غرز فيه التصرف الكلى ، فلابد فى غالب العادة من غلبة البعض عليه فيرد التكليف عليه معلما مؤدبا فى حالته التى هو عليها . فعند ذلك ينتهض الطلب على كل مكلف فى نفسه من تلك المطلوبات بما هو ناهض فيه ، ويتعين على الناظرين فيهم الالتفات الى تلك الجهات منهم ، فيراعونهم بحسبها ، ويراعونها الى أن تخرج فى أيديهم على الصراط المستقيم ، ويعينونهم على القيام بها ، ويحرضونهم على الدوام فيها ، حتى يبرز كل واحد فيما غلب عليه ومال اليه من تلك الخطط . ثم يخلى بينهم وبين أهلها ، فيعاملونهم بما يليق بهم ، ليكونوا من أهلها اذا صارت لهم كالأوصاف الفطرية والمدركات الضرورية » .

« فاذا فرض مثلا أن واحدا من الصبيان ظهر عليه حسن ادراك ، وجودة فهم ، ووفرة حفظ لما يسمع وان كان مشاركا فى غير ذلك من الأوصاف . ميل به نحو ذلك القصد » .

« وهذا واجب على الناظر فيه ، من حيث الجملة مراعاة لما يرجى فيه من القيام بمصلحة التعليم وأدب بالآداب المشتركة بين جميع العلوم ، ولابد أن يمال منها الى بعض ، فيؤخذ به ويعان عليه ولكن على الترتيب الذى نص عليه ربانيو العلماء » .

„فاذا دخل في بعض العلوم فمال به طبعه اليه على الخصوص ، وأحبه أكثر من غيره ترك وما أحب ، وخص بأهله فوجب عليهم انهاضه فيه حتى يأخذ منه ما قدر له من غير اهمال له ولا ترك لمراعاته » .

„ثم ان وقف هناك فحسن ، وان طلب الاخذ في غيره ، أو طلب به فعل معه فيه ما فعل فيما قبله . وهكذا الى أن ينتهى » .

„وذلك كما لو بدأ بعلم العربية مثلا ـ فانه الأحق بالتقديم ـ فانه يصرف الى معلميها فصار من رعيتهم وصاروا هم رعاة له . فوجب عليهم حفظه فيما طلب بحسب مايليق به وبهم فان انتهض عزمه بعد الى أن صار يحذق القرآن صار من رعية الحفاظ وصاروا هم رعاة له كذلك » .

„ومثله ان طلب الحديث أو التفقه في الدين الى سائر مايتعلق بالشريعة من العلم . وهكذا الترتيب فيمن ظهر عليه وصف الاقدام والشجاعة وتدبير الامور ، فيمال به نحو ذلك . ويعلم آدابه المشتركة ، ثم يصار به الى ماهو الاولى من صنائع التدبير ، كالعرافة أو النقابة أو الجندية أو الهداية أو الامامة أو غير ذلك مما يليق به ، وما ظهر له فيه نجابة ونهوض ».

„وبذلك يتربى لكل فعل ، ماهو فرض كفاية ، قوم ، لأنه سير أولا في طريق مشترك . فحيث وقف السائر وعجز عن السير فقد وقف في مرتبة محتاج اليها في الجملة . وان كان به قوة زاد في السير الى أن يصل الى أقصى الغايات في المفروضات الكفائية ، وهي التي يندر من يصل اليها ، كالاجتهاد في الشريعة والامارة . فبذلك تستقيم أحوال الدنيا وأعمال الاخرة » .

„فأنت ترى أن الترقي في طلب الكفاية ليس على ترتيب واحد ، ولا هو على الكافة باطلاق ، ولا على البعض باطلاق ، ولا هو مطلوب من حيث

المقاصد دون الوسائل ، ولا بالعكس ، بل لايصح فى أهل الاسلام بمثل هذا التوزيع ، والا لم ينضبط القول فى ذلك بوجه من الوجوه ، والله أعلم وأحكم » . انتهى كلام الشاطبى .

الفرق بين تربية الاحداث والبالغين

قبل كل شئى فى تربية الناشئين يجب أن يلحظ أن تربية الناشئى يجب أن تهدف الى اعداده جسميا وعقليا وخبرة فى أمور الحياة التى هو قادم على خوض غمارها . وهذا مايوجب ، الى جانب تغذية عقله بالعلم وأهم أنواع المعرفة تدريبه وتعويده على ممارسة الاعمال ذات المسؤولية وتحمل مسؤولياتها .

ومن ثم كان من المقرر فقها أن لولى الصغير المميز أو وصيه ، بل ينبغى له ، أن يأذن له بالتصرف فى السوق التجارية اذا كان من أهلها ، ويعلن لاهل السوق ذلك وفى هذه الحال يرتفع الحجر الطبيعى عن الصغير ،فيصبح ذا أهلية كاملة فى حدود ما أذن له فيه بالتصرف ، فينفذ عليه تصرف كما لو صدر منه وهو كبير راشد .

فاذا وجد الولى منه نجاحا وسدادا يوسع له فى نطاق الاذن والترخيص، حتى اذا كبر وبلغ سن الرشد وواجه الحياة باستقلال ومسؤولية يواجهها بخبرة ودربة ، والا فانه يكبر سنا ويبقى فى كفايته صغيرا مغفلا .

وأصل ذلك قوله تعالى فى سوره النساء :«وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم». والا بتلاء هو الاختبار . وطريق الاختبار هنا هو الاذن له بالتصرف فى نطاق محدود ، فيكون اختبارا وتدريبا فى وقت واحد . والهدف هو تأهيله للاستقلال وحمل المسؤوليات فى سداد ورشاد .

فاذا أردنا الآن ابراز الفوارق بين تربية الأحداث والبالغين فى

الأساليب الاســلامية وجدناها تتجلى فى أمرين أثنين :

الأول : أن الاحداث لم تشرع فى حقهم العقوبة النظامية لاجـل تربيتهم اذا خالفوا الاوامر الا مايتصـل بالسلـطة الابـوية فى التأديـب بالضرب اليسير باليد لابعصا .

اما الكبار فقد شرع فى حقهم العقاب تأييدا لامتثال الاوامـر فى الشؤون الدينية والاخلاقية . ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « ان الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن » .

الثـانى : أن طريقة تربية الاحداث هى فى النزول الى مستـوى عقليتهم وفهمهم كما تقدم بيانه . أما الكبار فبمخاطبة عقولهم نظريا ، وبقيادتهم عمليا فيما يراد تربيتهم عليه . فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر الصحابة بالأمر ويبدؤهم بتطبيقه حتى يجدوا فيه القدوة .

فكان فى حفر الخندق يحمل التراب علـى ظهره الشـريف معهم ليعلمهم عدم امتياز بعضهم على بعض ، ولينتزع فكرة الطبقية المسيطرة فى الجاهلية . وكان أحيانا يأمرهم بالاخف ممارخص فيه الشرع وهـم يريدون الأشد ، أو يأمرهم بما يخالف عاداتهم الاجتماعية التى جاء دين الاسـلام بهدمها فيصعب عليهم الامتثال حتى يباشر بنفسه ما أمرهم به فينقادون ويألفون ، كما حصل عندما أمر النبى صلـى الله عليـه وسلـم الصحابة بالافطار فى رمضان وهم مسافرون للجهاد فى غزوة الفتح خوفا أن تضعف أجسامهم من الصيام عند لقاء العدو ، وقد شرع الله الافطار فى السفر ، فصعب عليهم الامتثال ، حتى أشارت عائشة رضى الله عنها على النبى صلى الله عليه وسلم أن يفطر هو أمامهم ففعل فتابعوه فى الافطار .

وكذلك فى حادثة زواج النبى صلى الله عليه وسلم بابنة عمته زينب التى كانت زوج متبناه زيد بن حارثة . وقد كانت العرب تعتبر المتبنى كالابن

الحقيقى ، وزوجته تعتبر كنّة لايجوز لأبيه تزوجها بعده ، فجاء الاسلام بابطال ذلک، وقصر حكم التبنى على الكرامة المعنوية ، فجاء فى القرآن : „ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آبائهم فاخوانكم فى الدين „ .

وقد كان يصعب على العرب امتثال هذا الحكم لما يلحظونه فيه من حرج بحسب التقاليد الاجتماعية الموروثة ، حتى تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب مطلقة متبناه زيد فزال بذلک كل حرج ، وألفه الناس .

وكان للنبى صلى الله عليه وسلم طريقة فى تربية الرجال غير طريقة القدوة ، وهى أن يوجههم بالفعل الى الأفضل ثم يترک النتائج تملى عليهم العظة . فقد روى ابن ماجه فى سننه فى (باب بيع من يزيد) أنه جاء رجل فقير يسأل النبى صلى الله عليه وسلم صدقة ، فرأى أنه قادر على العمل ، فسأله عليه السلام ما عندک فى بيتک قال : حلس نبسط بعضه ونلبس بعضه ، وقدح نشرب فيه الماء ،قال ائتنى بهما، فنادى فى أصحابه من يشترى هذين : فقال رجل أنا اشتريهما بدرهم ، قال : من يزيد عليه ؟ فقال آخر : أنا أشتريهما بدرهمين يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فباعهما منه ثم دفع الدرهمين الى صاحبهما وقال له : اشتر بأحدهما طعاما فانبذه الى أهلک واشتر بالاخر قدوما وائتنى به . ففعل ، وأتاه بالقدوم ، فشد النبى صلى الله عليه وسلم فيه عودا (أى وضع له نصابا) ثم أعطاه أياه وقال له اذهب فاحتطب ولا أرينک خمسة عشر يوما . فذهب الرجل يحتطب ويبيع ثم جاء بعد خمسة عشر يوما ومعه عشرة دراهم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم عندئذ : „ هذا خير لک من أن تأتى يوم القيامة والمسألة ـ أى سؤالک الصدقة ـ نكتة سوداء فى وجهک „ .

مـلاحظات ختـامية

(١) ان التربية العقلية والروحية للاحداث ليس لها فى الاسـلام سن معينة كما سبقت الاشارة اليه ، وانما وقتها نسبى وهو الوقت الذى ينضج فيه وعى الطفل فى تلقى المعانى الدينية والتقليد فيها ، وهو يوافق السن التى يؤخذ فيها الاطفال فى هذا العصر لروضات الأطفال ، وهذا كما ذكرنا نسبى يختلف باختلاف بنية الطفل وقابلياته .

والدليل على ذلك ماتقدم بيانه من نص الفقهاء على عدم جواز ابقاء الطفل المسلم عند أمه المطلقة غير المسلمة لأجل حضانته عندما يبدأ بتعقل الأديان .

(٢) الاختلاط فى تعليم الاحداث تدل الدلائـل الشـرعية ونصـوص الفقهاء على أنه يمكن أن يسمح به الى تمام سن السابعة من العمر .

(٣) التربية الاسلامية : يجب أن تعد أفرادا صالحين للحياة فى الدنيا والاستعداد للآخرة ، وقد فهم ذلك مما تقدم ، وأن من الادلة عليه غير ما تقدم قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاک الله الدار الاخرة ولاتنس نصيبک من الدنيا (القصص : ٣٨) وقوله أيضا « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » (البقرة : ٢١) وفى عبارة الشاطبى السالفة البيان بلاغ كاف فى هذا الموضوع .

(٤) الظاهر من رأى الدين الاسـلامى فى طبيعة الفطرة البشرية أنها صفحة بيضاء فى الابتداء ثم تتأثر بمؤثرات التـربية والتوجيـه والمحيط والمجتمع . ولكن العقل بعد ذلک كاف لان يكون حاكما مميزا منظما . ويدل على ذلک قول النبى صلى الله عليه وسلم . « کل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصـرانه أو يمجسانه » .

* * * * * * *

صراع هام بين الاسلام والقوى الالحادية فى شبه القارة
اورنك زيب عالمكير ـ داراشكوه

محمود أحمد غازى

كان اليوم السابع من ذى الحجة ١٠٦٧ هـ الموافق للسادس من ديسمبر ١٦٥٧ م يوما تاريخيًّا عظيما فى تاريخ شبه القارة الاسلامى ، وكان بداية لسلسلة حوادث جلى . ومنطلق أسد صراع و آخره بين الاسلام والقوى الالحادية الذى شهده العهد الاسلامى . فاجأ فى هذا التاريخ مرض الموت الامبراطور شاهجهان . وكان ابنه الأمير أورنك زيب فى دكن يواصل عملياته ضد المراهته والبغاة الشيعيين الذين قاموا هناك ضد الامبراطورية المسلمة وأثاروا البلابل فى الشعب . وأما الابن الاكبر دارا سكوه فكان فى البلاط الملكى ، فكان أول من علم بمرض أبيه فبادر إلى اتخاذ خطوات و تدابير وقائية للاستيلاء على العرس بعد وفاة أبيه فورا . فسد جميع الطرق التى كان يمكن بها وصول نبأ مرض الامبراطور إلى أخيه أورنك زيب والاخوة الاخرين . ثم استولى على شئون الدولة وبدأ يمارس سلطات الحكم بتوقيع مصطنع للامبراطور تمرنه بنفسه.[1]

ثم أصدر دارا سكوه عدة مراسيم امبراطورية باسم شاهجهان إلى الامراء والاخوان وخاصة إلى أورنك زيب يريد بذلك تضليلهم ومخادعتهم . وحصل لنفسه توقيعات من الامبراطور على اوراق مصطنعة

تمنحه مناصب لانظيرلها فى تاريخ الهند ، ونال جوائز غالية باسم الامبراطور .

ولكن قبل أن نتابع الاحداث يجدر بنا أن ندرس الموقفين اللذين تبلورا فى شخصية أورنك زيب زعيم الجبهة الاسلامية وشخصية دارا شكوه زعيم القوى الالحادية .

كان دارا شكوه أكبر الابناء الاربعة لشاهجهان من بطن زوجته «ممتاز محل» . وكان واسع الاطلاع والمعرفة على الديانة الهندوكية وعلوم البراهمة . وكان شغوفا بدراسة الاديان المختلفة . وكان يتقن العربية والفارسية . وحصل على المعارف الهندوكية واللغة السنسكريتية فى بنارس فى المعابد الهندوكية على أيدى الاساتذه البرهميين . وكان حب أبيه الامبراطور شاهجهان الذى كان يحبه حباجما أفسد أخلاقه و عاداته . فكان يستكبر ويعجب بنفسه ويحتقر الصالحين وأهل التقوى ويصادق الفساق وأهل الهوى . كان من ألد أعداء الحركة المجددية يعادى كل من انتمى الى هذه الحركة . وكان دائما يحاول أن ينال من منزلة أخيه الصالح البار أورنك زيب الذى كان موضع حب واحترام واجلال وتشجيع لدى السادة المجدديين (٢) .

ويقول المؤرخ المغولى محمد كاظم فى كتابه عالمكيرنامه من نزعة داراشكوه الالحادية :

«ورسخ فى قلبه الالحاد والنظريات الاباحية التى كان يسميها التصوف . ولم يقتنع آخر الأمر بالجهر بالالحاد والاباحية بل تعدى الامر الى ماوراء ذلك ، فاولع ولعا شديدا بدين الهنادكة وعاداتهم وطقوسهم . وبدأ يصاحب البراهمة وأصحاب فلسفة اليوغا والمتصوفين الهنود ويعتبرهم مرشدين كاملين و عارفين واصلين إلى الحق . وكان يؤمن أن

الويدا كتاب سماوى وخطاب ربانى ومصحف أول من مصاحف الكتاب الكريم » (٣) .

وكان يشاع عنه ميله الى السير بخطى جده أكبر فى المحاولة لايجاد دين جديد يمزج فيه الاسلام والهندوكية بخاصة والاديان الأخرى بعامة . ولم تكن آراءه هذه تنحصر فى شخصه بل قام بحملة تاليفية علمية لنشر هذه الآراء الالحادية فى الشعب والاوساط الادبية . فنقل عدة كتب دينية هندوكية من السنسكريتية إلى الفارسية ـ لغة الاوساط الادبية والثقافية الاسلامية فى شبه القارة . وكان بين الكتب التى ترجمها من السنسكريتية الى الفارسية كتاب او بانيشد ، أهم الكتب المقدسة الهندوكية . ويمكن تقدير مدى تأثر دارا شكوه بهذا الكتاب ومحتوياته أنه سمى ترجمته باسم : السر الاكبر . ويدعى دارا شكوه أنه أقدم كتاب سماوى فى تاريخ البشر ، ويقول أنه هو الكتاب الذى أشار اليه القرآن الكريم بقوله : انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لايمسه الا المطهرون . فهو الكتاب المكنون وكنز التوحيد عند داراشكوه .(٤)

ونذكر فى مايلى مؤلفات دارا شكوه التى ألفها بنفسه أو هى الفت تحت اشرافه الخاص وتحتوى على آرائه وتبين نزعاته الفكرية والدينية .

١ـ سفينة الاولياء.

وهو أول كتاب ألفه داراشكوه . وكان تأليفه فى بداية انتمائه الى الفكر الصوفى الوجودى . وكان عام تأليفه ١٠٤٩ هـ وهو اذ ذاك ابن خمس وعشرين سنة . ويحتوى الكتاب على ترجمة ٤١١ من المتصوفين والأولياء . ويذكر المؤلف نفسه باسم : الفقير محمد داراشكوه الحنفى القادرى . وهذا الكتاب أحسن مؤلفات داراشكوه دينا وفكرا ، فانه بداه بالحمد لله رب العالمين ثم الصلاة والسلام على سيد الكائنات وفخر

الموجودات صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكرخلفاءه الاربعة رضوان الله عليهم اجمعين وقال : إن حبهم وولائهم عبادة عن حب الله ورسوله وعدائهم عبارة عن العـداء مع الله ورسوله .(٥)

٢ـ سكينة الاولياء.

وهو فى ذكر الشيـخ ميـان ميـر اللاهـورى الـذى كان مرشدا لمـلاشاه البدخشانى مرشد دارا . وكان تاليفه عام ١٠٥٢ هـ لمـا كان المؤلف ابن ٢٨ سنة . ويدعى المؤلف فى هذا الكتاب أنه يتلقى إلهاما من الله تعالى ويأتيه النداء الربانى بين حين و آخر . ويقول إنه سمع نداءا من الله أنه تعالى سوف يرزقه شيئا لم يرزق مثله من الملوك أحداً . ثم عبر هذا النداء بنفسه وقـال ان تعبيـره ظهـر لمـا تشرف ببيعة ملاشاه البدخشانى فى ٢٩ ذى الحجة من نفس السنة .(٦)

٣ـ حق نما (مرآة الحق) :

وهى رسالة أبان فيها طريق الوصول الى الحق ومدارجه ، ويقول ان أهل الله والعارفين حينما يقرأون هذه الرسالة سوف يتحيرون ويعجبون بعلمى العميق ومعرفتى وبصيرتى النافذة ويتعجبون كيف فتحت أبـواب المعرفة وانجلت الحقائق الروحانية على أمير مثلى بدون أن أقوم بأية عبادة أو أمـارس رياضـة روحية . وتحتوى هذه الرسالة على أربعة فصول . وذلك لانه سمع الهاتف الغيبى يقول له فى الرؤيا أربع مرات أن الله تعالى يعطيك مالم يعطه لاحد من السـلاطين .

وكتبت هذه الرسالة فى سنة ١٠٥٦ هـ ويشتمـل علـى كثيـر من العبارات والاساليب التى اعترض عليها العلماء ، وكانت معارضة لاحكام الشريعة الاسـلامية .(٧)

٤ـ حسنات العــارفين :

ألفه فى ١٠٦٢ هـ وجمع فيـه شطحـات الصوفية والاحاديـث الموضوعة لتأييد دعاويه الباطلة . وادعى أنه قد بلغ منزلة روحية لاحاجة فيها الى أداء العبـادات . وكانـت هذه الـرسالة فى الحقيقة ردا علـى اعتراضات العلماء على رسالته السابقة : حق نما (مرآة الحق) وكان يحاول من جمع شطحات الصوفية أن يثبت أن الانسان اذا اكتمل روحيا وبلغ درجة الكمال فى التصوف صدرت منه كلمات وعبارات تبدو فى بادئ الامر كأنها تعارض الشريعة ولكنها فى الحقيقة تدل على كمال قائلها الروحى والباطنى . (٨)

٥ـ مجمع البحرين :

ألفه عام ١٠٦٥ هـ وهو آخر كتاب ألفـه داراشكـوه بنفسه . وحاول فيه المؤلف أن يجمع بين الاســلام والهندوكية وادعى أن التصوف وفلسفة الويدانتا الهندوكية متحدان من حيث مبادئها وتعاليمهما وكونهما حقا . وكل من اختار احدهما واعتصم به بلغ الى الحق ووصل المراد . ولم يأت المؤلف فى هذا الكتاب بشئ جديد ، بل جمع فيـه آراء الكتـب الهندوكية المقدمة وافكار الفـلاسفة الهندوكيين . وكان يخشى أن القراء المسلمين يثورون على هذا الكتاب ، فكتب فى مقدمته أن هذا الكتاب ليس للعامة الجهلة من المسلمين والهنادكة ، بل للذين عندهم معـرفة أسرار الكون ، والذين لايرون أى فرق بين الاسـلام والهندوكية ويرون أن الفرق الذى يوجد بين هاتين الديانتين هو لفظى و ظاهرى فقط ، لا غير(٩).

٦ـ منهاج السالكين :

هـذا الكتـاب ليس تأليف دارا شكـوه ، بل قام بتاليفـه بعض أصدقائه الهنادكة تحت أمره واشرافه الخاص . وهو ترجمة كتاب صوفى

من السنسكريتية إلى اللغة الفارسية . وكان تأليفه عام ١٠٦٦ هـ واسم الكتاب فى السنسكريتية جوگ بشست .

٧- ترجمة كتاب بهگوت گيتا إلى الفارسية :

وهو أيضا أحد الكتب المقدسة عند الهنادكة . وكلمة بهگوت گيتا معناها . الانشودة الالهية . ويحتوى الكتاب على الشعر الهندوكى الدينى ويتجه اتجاها وثيقا الى الفلسفة الوجودية والفكر الويدانتى .

ولنلق الان نظرة عابرة على حياة ذلک الرجل الفذ الذى قضى على هذه المؤامرة التى دبرتها القوى المعادية للاسلام وحاكتها أيدى الهنادكة والصوفية الوجودية والذى تزعم الكتلة الاسلامية وقاد الحركة الاسلامية فى جو معادى وفى وجه أشد معارضة ممكنة . ولاشک أن الزمان قل أن يجود بمثل هذه الشخصية الكبيرة الفذة . ولو قلنا أن اورنک زيب أكبر مسلم و أعظم قائد اسلامى ظهر فى شبه القارة منذ بداية العهد الاسلامى حتى هذا اليوم لم يكذبنا أحد .

ولنعترف أن حياة هذه الشخصية الجبارة لجديرة بأن يخصص لها تاليف مستقل للناطقين بالضاد وأن تأليف سيرة له باللغة العربية لحق على الادباء المسلمين بالهند وباكستان وعلمائهما وباحثيهما الذين يكتبون باللغة العربية . ولاشک أنه من فرائض الكفاية على الأمة الاسلامية جمعاء وأمانة فى اعناق علماء الاسلام الذين هم مسئولون أمام الله وأمام التاريخ لأداء هذه المهمة .

ولد أورنک زيب فى قرية دوحد (التى تقع على ثغور ولايتى مالوه و گجرات) فى الخامس عشر من ذى العقدة ١٠٢٧ هـ الموافق بالرابع والعشرين من أكتوبر ١٦١٨ م فى ليلة بين يومى السبت والأحد . وكان جده و والده وجنودهما راجعين من أحمد نكر بعد أن انتصروا على ملک

عنبر قائد أحمد نكر الذى حاول أن يستقل من الحكومة المركزية . فجاء ميلاده متزامنا مـع هـذا الانتصار الكبير والفتح المبين ، فكان فألا صالحا ان دل على شئ فانما دل على حسن بخت هذا المولود السعيد وعظم قدره وجلالة شأنه .

وتتلمذ على كبار الاساتذة ، واستمرت تلمذته حتى بعد اعتلائه على العـرش وتسلمه مقاليد الحكم فى أكبر امبراطورية فى زمانه . ونذكر فى مايلى جماعة من العلماء الذين قرأ عليهم هذا النابغة العبقرى والذين يرجع اليهم الفضل فى تكوين شخصية اورنک زيب وتثقيفه .

١ـ مير محمد هاشم الكيـلانى

٢ـ الشيخ محى الدين موهن البهارى

٣ـ الامير سعد الله خان رئيس الوزراء فى العهد الشاهجهانى وزميـل الامام المجدد فى حلقة دروس الحديث فى كشمير

٤ـ الشيخ سيد محمد القنوجى ، وقرأ عليه اورنک زيب الادب العربى واللغة العـربية والرياضيات

٥ـ الشيخ أحمد المعروف بملاجيون ، أحد كبار الفقهاء والمفسرين الذين ظهروا فى شبه القارة . وله عدة كتب فى اصول الفقـه وأحكام القـرآن يعتمد عليها العلماء والباحثون .

٦ـ دانشمنـد خـان

كان من نتيجة تلمذه على أمثال هؤلاء الاساتذة أن أتقن أورنگ زيب اللغـات العـربية والفارسية والتركية والهندية والاردوية . وكان يجيد الفارسية الى حد أن مقالاته ومكاتيبه ورسائله فى الفارسية هى من أحسن ما ألف فى الفارسية فى شبه القارة ومن أجودها . وكان يحسن أنواع الخط العـربى النسخ والنستعليق كما يظهر من نسخ المصحف

الكريم التى توجد حتى الآن والتى كتبها أورنگ زيب عالمگير بيده ليبيعها ويقتات منها لنفسه وهو يملك شبه القارة باكمله . وحفظ القرآن الكريم وهو ابن ثلاث و أربعين . بدأ حفظ كتاب الله في عام ١٠٧١ هـ ١٦٦١ م وانتهى من حفظه في عام ١٠٧٢ هـ ١٦٦٢ م وهو يومئذ امبراطور أكبر امبراطورية اسـلامية شهدتها شبه القارة .

ويبدو كأنه بدأ حفظ كتاب الله الكريم شكراً لله تعالى على ما أنعم عليه من نعم جليلة ويسرله الانتصار على الكتلة الالحـادية المتحدة . وحفظـه للقرآن الكريم فى أقل من سنتين يدل على أن ذاكرته كانت قوية جدا ، كما يدل على شغفه الكبير بكتاب الله ، فانـه حفظـه فى مد ة كانـت امبراطوريته تمر بأزمة شـديدة ، وكان أورنک زيب مشتغلا فى توطيد أركان الحكومة وتنظيم البلاد تنظيما جديدا بعـد أن تدهـورت الاوضاع وساءت الاحوال كنتيجة للحروب الطويلة الدامية التى استمرت عدة سنوات .

وجاء فى كتاب (مآثر عالمكيرى) عن مكانة اورنک زيب العلمية والدينية مايلى :

„وكانت له رحمه الله قدم راسخة فى جميع المراتب الدينية التـى تقتضيها طبيعته السعيدة . وكان عاملا بمذهب الامام الاعظم أبى حنيفة رضى الله عنه معتصما بأسس الاسـلام الخمسة . وكان دائما على الوضوء، رطبـا لسـانه بذكر الله وكلمة التوحيد والادعية المأثورة والاوراد المسنونة ، وكان يؤدى صلواته الواجبة فى أول أوقاتها فى الجامع أو غير الجامع مع جماعة من المسلمين . ثم يؤدى جميع السنـن والنوافـل والمستحبـات بخضوع تام وخشوع كامل . وكان رحمه الله يصوم الايام البيض وكل يوم الاثنين ويـوم الخميس ويـوم الجمعة . وكان يؤدى صلاة الجمعة بكافة مسلمين وعامة المؤمنين وكان من دابه قيام الليل فى الليالى المتبركة .

وكان من تحمسه لطلب الحق أنه كان يجالس جماعة من العلماء وأهل الله في مقصورته في مسجد القصر ، ويدفع الزكوة الشرعية ... كل سنة الى المستحقين ... ويعتكف في المسجد في الايام العشرة الاخيرة من شهر رمضان » (١٠) .

ولما دبرت القوى الهندوكية مؤامرتها لاعلاءداراشكوه على عرش الامبراطورية وبدأ الاشتباك بينها وبين القوى الاسلامية تحت زعامة اورنگ زيب الامير المجاهد العالم المتدين كانت عواطف الخواجه محمد سعيد (١١) كلها مع أورنگ زيب . فكان يؤيده بجميع وسائله ، ويأمر مريديه بتأييد أورنگ زيب . وخلال هذه المدة الخطيرة والوضع الحرج غادر الخواجه وطنه سرهند وتوجه تلقاء العاصمة يريد الذهاب الى مكة المكرمة ليتشرف بزيارة بيت الله الحرام وأداء فريضة الحج ، واجتمع في دلهي مع، اورنگ زيب وبشره بالنجاح في المعركة التي كان يقودها ضد القوى الطاغية ونصحه بتطبيق شريعة الاسلام واحياءالمجتمع الاسلامي في جميع نواحيه . ولما رجع من بيت الله كان ذلك في عهد أورنگ زيب الذي قد اعتلى العرش بعد أن قضى على جميع المؤامرات (١٢). وادى تأييد الخواجه محمد سعيد وزملائه في الحركة المجددية لأورنگ زيب الى مساعدة جميع العلماء والطبقات الاسلامية المختلفة . فشكل جبهة متحدة لتأييد اورنگ زيب ونصره الذي أدى الى التفات الجماهير حوله .

فالخطوة الأولى التي اتخذها أورنگ زيب في سبيل القضاء على هذه المؤامرة الالحادية هي استعراض الوضع السياسي السائد في شبه القارة . فرآى أن جميع القوى السياسية والعسكرية التفت الى مختلف الامراء أبناء شاهجهان . فرآى أورنگ زيب أن يحيد بعض الأمراء ويتحد مع بعضهم بالوصول معه الى اتفاقية التعاون ضد داراشكوه ، وتجلت هذه

المحاولات فی الاتفاقية التی حصلت بين اورنگ زيب ومراد للتعاون الوثيق لصالح الاسـلام والمسلمين فی شبه القارة ، وهذا ملخص الاتفاقية.

«الهدف من هذه الاتفاقية هو اعلاء الدين المتين لسيد المرسلين عليه من الصلاة أتمها ومن التحيات أعمها ، والقضاء علی الالحاد والزندقة لتخييب جهود رئيس الملاحدة واتباعه واحزابه ، ولتصون أرض الهند التی طهرها أجدادنا الكرام البواسل بمساعيهم الجميلة من أدناس الكفر والشرک ، لنصون هذه الأرض من فتن الافتراق والتحزب . ووفق للأخ العزيز (محمد مراد) أن يوافقنا ويعاوننا فی هذه المهمة المباركة وأقسم بالله اليمين أن يبقی رفيقالنا وسهيما علی تعاقب الأيام والليالی ويستقيم فی جادة الوفاق والوئام بعد استقرار شئون الدولة وتنظيمها واستئصال جذور ذلک العدو ـ عدو الدين والدولة ـ ووعد الأخ الكريم أن يصادق صديقنا ويعادی عدونا ، ولايخطو خطوة إلا برضانا ، ويقتنع بما سوف نترک له من أقاليم البلاد ولايطالب بأكثر من ذلک ، وأما نحن بدورنا فنؤكد لأخينا العزيز بأنا نتابع عنايتنابه واخلاصنا له مادام قائما علی عهده وميثاقه . ونوليه أقاليم لاهور وكابل وكشمير و ملتان وبهكر وتهته حتی خليج عمان ، ولايجد الأخ الكريم انشاء الله أية صعوبة فی هذا الامر وتمنح له فرصة الوصول إلی مركز ولايته فورا بعد استئصال ذلک الملحد ، ونشهد الله ورسوله المجتبی صلی الله عليه وسلم علی وعدنا هذا . وها نحن نكتب هذه الوثيقة لمزيد من الاطمينان . ونرجو من الأخ الكريم أن يلتزم بعهده وفق قول الله تعالی : وأوفوا بالعهد ، ان العهد كان مسئولا ، وأن لا يميل إلی أهل الاغراض والشهوات الذين كثروا فی هذه الايام . وفقنا الله تعالی واياكم لما يحب ويرضاه . والله يقول الحق وهو يهدی السبيل » (١٣) .

كانت هذه الاتفاقية من أهم المنجزات الدبلوماسية التى استطاع اورنگ زيب الفوزبها فى بداية الحركة . وجاء هذا التحالف كخطوة مباركة كسبت وسائل أمير كبير يتمتع بنفوذ كبير وقوة يعتدبها وامكانياته لصالح الاسلام والمسلمين . ولو لم تكن حصلت هذه الاتفاقية لكان من الصعب جدا للقوى الاسلامية وعلى رأسها أورنگ زيب أن تصارع وحدها منذ البداية قوتين مختلفتين وعلى جبهتين مختلفتين . وأما بعد الاتفاقية فظهر الامكان بأن يكون هناك عدو واحد للمواجهة وجبهة واحدة للقتال .

كان الامير مراد قائما بعهده يتعاون مع أخيه أورنگ زيب ويعمل تحت قيادته وفق الاتفاقية اذ جاءته رسالة من شاهجهان التى كتبها تحت ضغط و تاثير من دارا شكوه ، وكانت الرسالة تحث مرادا على قتل اورنگ زيب وأنجاله بعد أن يدعوهم للضيافة . ونورد فيمايلى نص هذه الرسالة كما يرويها اورنگ زيب نفسه .

كتاب ساهجهان إلى محمد مراد

« عهدنا ملك الهند بأسرها بطيب الخاطر وطوع النفس اليک يا ابننا السعيد ، فالواجب عليک أن تقدم فى هذه القضية بكل حذر وتحمل، ولاتركنن بهذا السر إلى أحد ، قريبا كان أو بعيدا . وعليک أن تدعو أخاک (أورنگ زيب) وابناء أخيک بعد عدة أيام إلى منزلک بحيلة الضيافة ، ثم تقضى عليهم وتزين الخطب باسمک ولقبک ملكا على البلاد ، فاننى عهدت هذا الامر الخطير إليک يا بنى الحبيب . وأرجو أن تقوم بهذه المسئولية الكبرى بيقظة كاملة . والسلام (١٤)»

ويمكن أن تكون هذه الرسالة مصطنعة لم يعرفها ولم يعلم بها شاهجهان ، وأرسلها دارا شكوه خفية . ولكن كان من سوء حظ الامير مراد

أن تأثر بهذه الرسالة وبدأ يدبر ضد أخيه وقائده أورنگ زيب ويكيد الكيود للاستيلاً على العـرش ، وأغـراه أصحابه وأعوانه ، وأضلوه عن سواء السبيل . فبدأ يجند الجنود ويجمع الأموال والثروات لينهض ضد أخيه أورنگ زيب .

ولكن أورنگ زيب لم يحتفل بأمره ، وذهب إلى دهلي يتعقب دارا تاركا مرادا وجنوده في آگره . ولما بعد أورنگ زيـب عن مدينة آگـره متوجها الى دهلي أعلن مراد اعتلاءه على العـرش امبراطورا على الهند . ومنح كثيرا من جماعته ألقابا فخرية بمناسبة اعتلائه عـرش الامبراطورية . ولكن قبل أن يفوز في موامرته لقتل أورنگ زيب بدعوته إلى الضيافة نحج أورنگ زيب في اعتقال مراد و إحلاله في قلعة گواليار مع جميع التشريفات الاميرية . وأحل معه جميع أبنائه وأهله حتى أنه أذن لحبيبته الهندوكية سرستي بائي أن تسكن معه في القلعة . وقرر أورنگ زيب لكل منهم راتبا خاصا . وطمئـن مرادا ومن معه أن هذه الاجراءات انما هي مؤقتة وانما اضطر اليها أورنگ زيب نظرا الـي حـاجة البـلاد والضـوضاء والفوضى واخلال بالامن (١٥)

ولكن يبدو أن مرادا لم يقتنع بما حاول أن يقنعه به أخوه أورنگ زيب، ولـم يتخـل عن إرادته للقضاء على أورنگ زيب والاستيلاء على الحكم . فبدأ يكيد للفرار عن القلعة . فقام لذلک الغـرض بمحاولات عديـدة . ورشى بعض مؤظفي القلعة ومنهم والد المؤرخ الشهير خافي خان الذى كان يشتغل في القلعة آنذاک . ولما تم اعداد البرنامج للفرار من القلعة وآن أوان الخروج ذهب مراد الى حبيبته سرستي بائي ليودعها ، فبكت بكاءا شديدا وبدأت تحن وتئن لفراق حبيبها . فنبه صوتها الحارسيـن الذين كانوا غافلين عن هذه المؤامرة ، فخيبوا آمال الامير المعتقـل ،

وشكوا أمره الى أورنگ زيب . ولـكن أورنگ زيـب لم يحفـل بهـذه الشكاوى ولم يخط خطوة ضد أخيه الامير مراد وتركه وشأنه فى القلعة فلبث فى السجن بضع سنين .

ولما انتصر أورنگ زيب على جميع معارضيه ، وانهزمت القـوى المعادية للاسـلام ونودى بأورنگ زيب امبراطورا على الهند بدون أى منافس حدثت حادثة ذهبت بحياة الامير مراد . وكان أن رفع أحد أبناء على نقى خان أحد النبلاء المغوليين أمر قصاص والده الى المحكمة ، وكان الأمير مراد قتله فى زمن والده شاهجهان . وأصر المدعى (ابن المقتول) على متابعة هذه المرافعة ، وأبى الا أن يقبل القصاص . فحزن لذلك أورنگ زيب حزنا شديدا ، وحاول بنفسه أن يقنع المدعى بقبول الدية ولكنه رفض أن يقبل طلب الامبراطور وأصر على القصاص فلم يكن للمحكمة بدمن أن تحكم بالقصاص وتأمر بقتل الأمير مراد . فأعدم فى ٢١ ربيع الثانى ١٠٧٢ هـ . فاغتم الامبراطور أورنگ زيب لموت أخيه غما شديدا . ولم يكلم المدعى مدة طويلة لفرط حزنه وشدة غمه (١٦).

ولما فشلت مؤامرات شاهجهان لاغتيال أورنگ زيب وفردارا الى بنجاب بعد أن رأى هزيمة قاصمة فى دلهى حاولت القوى الهندوكية مرة أخرى للقضاء على أورنگ زيب بأية وسيلة ممكنة . فضغطت على شاهجهان وحصلت منه على كتاب إلى مهابت خان حاكم بنجاب يلتمس منه أن يساعد دارا شكوه ضد أورنگ زيب بجميع مالديه من الاموال والجنـود والوسائل ، جاء فى هذا الخطاب ايضا : كيف يحب مهابت خان أن يرى رجلا أدان العالم لنفسه بتزويره وخداعه يظفر بعرش الامبراطورية . (١٧) .

ولا ندرى هل وصلت هذه الرسالة الى مهابت خان أم لا . وان كل ما نعلمه هو أن مهابت خان لم يأخذ خطوة لتأييد دارا شكوه وظل متحايدا

فی هذه المسئلة . فبعد أن يئس شاهجهان من مهابت خان كتب الى ابنه الاخر محمد مراد رسالته التى أشرنا اليها قبل ذلک

وأما الاخ الثالث والمنافس الامكانى لأورنگ زيب وهو شجاع ، فعينه أورنگ زيب وفق طلبه وأمله حاكما على ولايتى بنغال وبهار .

ولكن لما حصل بين أورنگ زيب ودارا اصطدام تلقى شجاع رسالة من شاهجهان التى كتبها باللغة الهندية يحثه فيها على القيام بثورة ضد أورنگ زيب . ويبدو أنه كتب هذه الرسالة بعد أن فشلت محاولته لاستغلال الامير مراد وقواته ضد أورنگ زيب . ولكن من حسن حظ المسلمين فی شبه القارة ومن حسن حظ الاسـلام وكذلک من حسن حظ أورنگ زيب نفسه أنه ظل خبيرا بجميع هذه المكائد التى كان يكيدها الملک المخلوع الذى أصبح من أكبر أعداء أورنگ زيب لمجرد أنه خيب آمال أبيه حول تخليفه ابنه الاكبر .

انتهز الأمير شجاع هذه الفرصة وتقدم بجنوده نحو أكبر آباد و دهلى يريد الدخول فی حاضرة البـلاد والاستيلاء على العـرش الامبراطورى . ولكن أورنگ زيب أهمل قدومه وتغافل عنه ، بل استمر فی معالجته لاكبر أعدائه وأقواهم وهو دارا شكوه وبعد أن فرغ من قضية دارا اضطر الى معالجة شجاع أيضا . فشمر الفريقان عن ساعديهما واستعدا للمقابلة . فاجتمعا بقرية كهجوه فی السابع عشر من ربيع الثانی ١٠٦٩ هـ . وكان شجاع قد دبر مؤامرة مع جسونت سنگهـ أحد القواد الهندوكيين فی جيش أورنگ زيب ، وأغواه أن يغدر بأورنگ زيب ويثور عليه مفاجأة اذا رحت رحى الحرب ويهجم عليه من جانب آخر . فلما كانت الليلة التى تبعها يوم اشتباک الفريقين قام أورنگ زيب حسب عادته يصلى صلاة التهجد فی خيمته . فبيْنا هو يناجى ربه ويعبده اذ سمع هريرا وصوتا فی جيشه .

فاستخبر من لديه من الحراس . فاخبروه أن جسونت سنگهـ غادر الجيش مع جنده الاربعة عشر ألفا ولحق بجيش شجاع . ولكن أورنگ زيب لم يحفل بأمره ولم يظهر منه أى خوف وحزن بل أشار بيده قائلا :

„طيب ! اذا ذهب فليذهب" وبعد أن فرغ من صلاته ودعائه طلب قائده العام مير جمله وقال له : „ ان هذا منة من الله علينا وفضله أن هذا الغادر غادرنا قبل أوان الحـرب، والله لو غدرنا أثناء القتال لصعبت علينا معالجته „.

ولما أصبح الفريقان وتوجها الى ساحة القتال حاول أورنک زيب مرة أخرى أن يعقد صلحا مع شجاع ويقنعه بالانسحاب عن القتـال ويقنـع بالمنصب الذى عينه عليه أورنک زيب قبل ذلک . ولكن شجاعالم يتيسر له الصلح . فاضطر أورنک زيب الى القتال وألقى بشجاع هزيمة قاصمة . وفر شجاع حتى لجأ الى بورما و آواهملک من ملوکها . ولكن شـجاعـا لم يكنرجلاقانعا بالايواء فانه لو كان قانعا بمثل هذا لرضى بالحكم على ولايتى بهار وبنغال تحت أخيه أورنک زيب . فلم يجلس مطئنا مقتنعا وحـاول الاستيلاء على ملک من آواه ، ولكنه خاب فى محاولته ، وقتل على أيدى ذلک الملک . وسعى أورنک زيب أن يدعو أبناءه وعائلته الى الهند ، ولكنه لم يجدهم هنالک ، وبعد ذلک لم يوقف لهم على أثر (١٨) .

كان شاهجهان تحت تأثير وضغط معارضى أورنگ زيب منذ البداية . فاستمر يعرقل طريقه وحاول مرارا ، بدون جدوى ، أن يحرم أورنگ زيب من الحكم ، حتى دبر مرة لاغتياله . ولكن الله تعالى نجى أورنگ زيب من هذه المكائد التى كادتها عقول الهنادكة وجعلت شاهجهان آلة ووسيلة لتنفيذها . فان أورنگ زيب لما وصل الى آكره ، حاضرة البـلاد آنذاک ، ودخل القلعة أبدى شاهجهان المعتقلأمـل أن يزوره ابنه الفاتح . فكتب

الى أورنگ زيب رسالة طويلة بخطه ودعاه الى زيارته . ولكن الامراء والحكام العسكريين نصحوه أن لايذهب لزيارة والده المعتقل ، لأنهم كانوا يتوقعون كل داهية و مصيبة ممكنة منه . ولكن أورنگ زيب توكل على الله ، وذهب الى الناحية التى كان فيها والده شاهجهان . ولكنه ما ان اقترب من غرفته ليدخلها ويزور والده اعتقل حكامه رجلا يحمل رسالة خطية من شاهجهان الى دارا شكوه ينصحه أن يقيم فى شاهجهان آباد (دهلى) ويستغل ما فيها من الاموال الطائلة والثروات والجنود ويؤطد مكانته هنالک . وأما أورنگ زيب فنحن نقضى أمره هنا عندنا .(١٩)

فدهش أورنگ زيب برؤية هذه الرسالة وأمر باجراء التحقيقات عن الرسالة-فظهر أن شاهجهان كان يكيد لاغتيال أورنگ زيب ، وقد وزع السلاح على جميع النسوة الخادمات فى القلعة لئلا يخطر فى بال أحد خيال أى خطر منهن وأمرهن أن يهجمن على أورنگ زيب اذا أشار عليهن شاهجهان بذلک . وعلى الرغم من ذلک لم يأخذ أورنگ زيب خطوة ضد والده وتركه على حاله .(٢٠)

وكان من حسن حظ أورنگ زيب أن جميع المؤامرات ضده فشلت فشلا تاما ، أولا لأنه علم بجميع هذه الرسائل التى كتبها أبوه شاهجهان ضده الى أبنائه وأصدقائه ، وأخيرا فشلت المؤامره للقضاء على حياته . فحينئذ اضطر أورنگ زيب الى القيام بأجراءات وقائية ، وألقى الحظر على أبيه فى كتابة الرسائل واستقبال الزوار . فكتب الى أورنگ زيب يعاتبه فى حظره ، ويحذره من عذاب الآخرة لعدم احترامه والده ، لعله كان يظن أن أورنگ زيب لم يعرف شيئا عن محاولته ومؤامرته ضد حياته . ولكن أورنگ زيب لم يأل جهدا فى احترام والده وكتب اليه مع كل اجلال و توقير ما ملخصه :

«ان جلالتكم قضيتم عمركم فى تجارب متنوعة ، ورأيتم من تقلب الزمان مارأيتم . فكنت اعتقد أن تهملوا كل ماحدث خلال الايام الاخيرة وكانه كان من القضاء المبرم أن يتولى هذا المتفادى مقاليد الامور . وكنت أتوقع أنكم لا تحاولون فى هزيمتى واعلاء أعدائى وترقيتهم . فعامل هذا المسكين مع جلالتكم أحسن معاملة ممكنة ، وكان من ود هذا المسكين أن يشمر عن ساعد الجد لخدمتكم وطلب رضاكم بعد انتهاء هذه الضوضاء التى أحدثها أعداء الاسلام والمسلمين ، وأن لايألو جهدا فى هذا ليفوز بالسعادة العظمى فى هذه الدنيا وفى الدار الاخرة . ولطالما كنت أسمع أن كل ما أشاهده وأواجهه من ثورات وقيام الناس ضدى كلها من تحريضكم ، وأن كل مايقوم به السادة الاخوة من غوغاء وحركات انقلابية انما هى من تشجيعكم . ولكنى أهملت دائما جميع هذه الانباء ولم تحدث فى خاطرى حتى وسوسة الانحراف عن احترامكم واجلالكم . ولكننى لما توالت الى الاخبارعن سخطكم على كما يظهر من خطابكم الذى وجهتم الى شجاع فى اللغة الهندية أيقنت أن جلالتكم لاتحبون هذا الخادم المسكين ، ومع أن الامر قد بلغ الآن أشده لاتزال جلالتكم تحاولون أن يصبح ولى الامر أحد غيرى ، وتضيع جهودى التى أقوم بها لتنفيذ الدين المتين واصلاح شئون الدولة . وأيقنت أيضا أن جلالتكم لن تنتهوا عن أعمالكم هذه ولن تتخلعوا عن هذه الفكرة التى استولت عليكم بل تصرون على تطبيقها ، فنظرا الى هذه الاحوال اضطررت مع كل التأسف ولمجرد الحذر والوقاية الى أن لا أنفذ أمنيتى التى كنت اتمناها . والله على ما أقول شهيد . وما ان اطمئن خاطرى عن انتهاء هذه الفتن تنتهى هذه الاجراء ت الوقائية (٢١).

ولكن أعنف المعارك التى خاضها أورنگ زيب خلال هذه الحروب

كانت مع اتحاد القوى المعادية للاســلام التى جعلت دارا شكوه قائدا وزعيما لها . وكان الامبراطور المتقاعد شاهجهان يؤيـد هذه الطـائفة ويدعمها بكل ماكان لديه من الوسائل والامكانيات . فاستطاع دارا شكوه أن يجمع جنودا طائلة تجاوز مائة ألف راكب الى جانب خمسة و عشرين ألف راجل . وأما أورنگ زيب فلم يكن معه الا حوالى ثلاثين ألف مقاتل بين راكب وراجل . ولكن لما اشتدت الحرب وحمى الوطيس لم يبق حوله الا ألف جندى . وكاد أن ينهزم أورنگ زيب وينهزم معه الاســلام فى هذه المعركة القاصمة . ولكنه ثبت فى مكانه ثبوت الجبال الراسيات «وكأن أعصابه لم تكن من اللحم والدم بل كأنها كانت أسلاكا من حديد أو فولاد » (٢٢)

ختى وقع بين الاخوين اصطـدام شديد فى ٧ رمضان المبارك ١٠٦٨ هـ .ولكـن داراشكــوه اضطــر الى الفـرار من ساحة القتال قبل غـــروب الشمس تاركا الظفر والفتح لأورنگ زيب ذلک الصبور الصلب الثابت الذى قام فى وجه الجحافل قيام الجبال الراسيات . وذهب داراشكــوه بأهله وبنيه وماله ونقـديته الى دهلى . ثم انتقل الى گجرات وأخذ يتجول فى البـلاد يحاول بدون جدوى أن يهزم أخاه ولكنه اعتقـل فى شوال ١٠٦٩ هـ وحوكم عليـه فى المحـكمة بالارتـداد والالحـاد ، فحكمـت المحكمة عليه بالاعدام فأعدم فى ٣٠ ذى الحجة ١٠٦٩ هـ .

وبعد أن نجح اورنگ زيـب فى القضاء علـى القـوات الهـنـدوكية والالحادية ونودى به امبراطورا علـى الهـنـد اعتقـل والـده الامبراطـور المتقاعد شاهجهان كمامر . وكانت معاملته مع والده فى السجن معاملة الابن البار الصالح مع والده المسن العجوز . ويعتـرف الدكتـور برنيـر الفرنساوى والسائح المعروف الذى يشتهر بعدائه لأورنگ زيب بمعاملته

الحسنة مع أبيه . يقول الدكتور برنير :

«كانت معاملة أورنگ زيب مع شاهجهان لاتخلو عن اللطف والاحترام ، وكان لايالو جهدا فى اكرام والده العجوز وتوقيره واستضافته وتسليته . وكثيرا ما كان يهدى اليه هدايا قيمة ويستشيره فى شئون الدولة المهمة ويطلب نصيحته كأستاذه ومرشده الروحى . ويظهر من رسائله التى كان يكتبها الى شاهجهان احترامه واجلاله وطاعته لوالده . وكان من نتيجة هذا أن خمد غضب شاهجهان وانتهى عداءه لابنه وبدأ يكاتبه ويراسله فى شئون الدولة وكان أحيانا يدعو له الخير والصلاح »[٢٣]

انتصار الكتلة الاسلامية : اعتلاء أورنگ زيب واصلاحاته الاسلامية .

قدمر بنا أن الحركة الالحادية التى بدأتها القوات المعادية للاسلام للقضاء على الكيان الاسلامى فى شبه القارة فد بلغت أوجها فى عهد الامبراطور جلال الدين محمد أكبر . وكان نظام حكومته نظاما جاهليا علمانيا . ومن المعلوم ان الامام المجدد بدأ حركته الاصلاحية فى مستهل العهد الجهانگيرى . وكان جهانگير تولى الحكم بسماعدة جماعة انصار الاسلام التى كاىت تحتوى على أصدقاء الامام المجدد وأعوان حركته . وعلى الرغم من أن جهانگير لم يكن رجلا متدينا صالحا فى أعماله بل كان يقف موقفا بين موقف الاسلام و موقف الجاهلية والعلمانية فقد اضطر الى القيام بعدة اجراءات بالغة الاثر من الناحية الاسلامية . واستطاعت الحركة الاسلامية بفضل جهود الزعماء المجدديين أن تساعد الامير خرم لصالح المتدين فى الاعتلاء على العرش باسم شاهجهان وكان رجلا متحمسا للدين مؤيدا للحركة المجددية منذ شبابه . ولكنه كان تحت تأثير وضغط زوجته ممتاز محل أم ابنه الامير داراشكوه . ولكن بلغت النتيجة

السياسية للحركة المجددية أوجها فى عهـد الامبراطـور أورنگ زيـب عالمگير الذى عده بعض العلمـاء سـادس الخلفاء الراشدين بعد الخلفاء الاربعة وسيدنا عمر بن عبدالعزيز سياسة ونظاما ومنهاجا . ولاشك أن توليه الحكم لم يكن الاثمرة يانعة للجهود الطويلة والمساعى المتـوالية التى بدأها الزعماء المجدديون قبل نصف قرن أو أكثر . ونذر بعض شيوخ الحركة المجددية ان ينفقوا فى سبيل الله كذا وكذا من الاموال اذا فاز أورنگ زيب فى الاعتلاء على العرش وخاب داراشكـوه . ويروى أن الشيخ عبدالخالق الحضورى قال لمرشده السيد محمد آدم البنورى أن يدعو الله تعالى لنجاح أورنگ زيب ، فاذا قبل دعاءه ونجح أورنگ زيب فانه سوف يهدى اليه أرضا واسعة خصبة .(٢٤)

وما ان تولى أورنگ زيب مقاليد الحكم حتى أصدر مراسيم لعـدة اجراءات مهمة . وجاءت هذه الاجراءات كبداية لاصلاح شامـل لنظـام الدولة وكيان المجتمع الاسـلامى . ونذكر فى مايلى ، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ، بعض الاصلاحات التى قام بها فور توليه الحكم .

غيّر التقويم الشمسى (الذى اختاره أكبر امتثالا وتقليدا لعبدة الشمس من الايرانيين) واتخذ مكانه نظام التقويم الهجرى الاسلامى .

وألغى منصب ملك الشعراء الذى كان سائدا فى شبه القارة وكثير من الحكومات الاسلامية الفارسية والاسيوية الوسطية . وألغى تقاليد المنح والعطاء للشعراء الذين كانوا يبالغون فى مدائح الملوك والأباطرة ، ويأتون فيها بالأ قاويل والأكاذيب .

كان جلال الدين أكبـر وخلفـاءه حتـى حفيـده الصالـح المتديـن الامبراطور شاهجهان كلهم كانوا يحتفلون بنوروز كعيد وطنى تحت تأثير الكتلة الايرانية . فألغاه أورنگ زيب وأحل محله عيد الفطر الذى أمر فيه

أن يقام كمهرجان اسلامى وطنى . ومن الجدير بالذكر أن نوروز احتفال ايرانى مجوسى الأصل .

وألغى جميع التشريفات الامبراطورية والتقاليد الاميرية التى كانت تخالف أحكام الاسـلام . منها عادة « النذرانة » التى كانت رائجة منذ بداية العهد المغولى واستونفت بعد وفاة أورنگ زيب . وكان المراد منها الهدايا التى كانت تقدم الى الامبراطور أو الى الوزراء والامراء من زوارهم. فكان كلما يزور الملك أحد كان من واجبه التقليدى أن يقدم اليه هدية كانت تسمى « نذارنة » أو « نذر » . وقد أصبحت هذه « الهدايا » فى الحقيقة نوعا من الرشوة . وكانت تبلغ أحيانا الى مئات الالآف والملايين من الروبيات يقدمها كل من كانت له حاجة عند الامبراطور . وأمر الحكام أن لايراعوا عند المنول أمامه تشريفات وعادات غير اسلامية ويقرءوا عليه السلام حسب تعاليم السنة النبوية . وكذلك ألغى عادة « درشن » التى قد أصبحت بمثابة العبادة لبعض الهندوكيين . وكان جلال الدين أكبر هو الذى قد بدأ هذه العادة القبيحة . وكلمة درشـن معناها اللغويه : النظر أو الرؤية . والمرادهنا النظر الى وجه الملك بنية العبادة . وكانت الهنادكة تعتقد أن النظر الى وجه الملك عبادة . فكان الملك يجلس فى نافذة خاصة لهذا الغرض فى قصره والناس كانوا يحتشدون تحتها فى الفناء منذ الصباح الباكر حتى يظهر لهم وجه الملك ويريهم اياه .

وجدد نظام المساجد والأوقاف الاسلامية وخص لها أراضى واسعة خصبة لينفق عليها من دخلها . وأقام دور الأيتام والفقراء والمكفوفين والمحتاجين على حساب الدولة . وأنشأ الاستراحات للمسافرين ومطاعم مجانية لابناء السبيل على الشارع الرئيسى الذى يوصل كابل بأورنگ آباد فى جنوب الهند .

وقام باجراءات هامة بعيدة المدى لتنفيذ النظام المالى الاسلامى . وعفى عن ثمانين ضريبة وأتاوة فى العام الثانى من جلوسه على عرش الامبراطورية . وكانت هذه الضرائب تبلغ عشرات الملايين من الروبيات .

وقام بعدة اصلاحات فى نظام البريد والمخابرات لخدمة المواطنين . ومنع جميع أنواع الخمور والمسكرات . وأمر بتنحية أوانى الذهب والفضة وجميع أدوات الكتابة التى كانت من الذهب أو الفضة .

وكان الاباطره الأعاجم منذ قديم قد تعودوا بخصاء الرجال ليخدموا بعد ذلك فى حرمهم ، وكانت هذه العاده القبيحة الشنيعة جارية فى شبه القارة أيضا . وكان هؤلاء الرجال يسمون « خواجه سـرا » أى سيد الحرم فى العرف الهندي . ولكن أورنگ زيب لم يكن ليأذن لهذه العادة القبيحة أن تستمر . فحـرم خصاء الرجال ومنعه منعاباتا .

ثم أنشأ مصلحة الاحتساب وعين على رئاستها العلامة مير زاهـد الهروى الفيلسوف والعالم الشهير . وكانت مصلحة الاحتساب قائمة منذ بداية العهد الاسـلامى فى شبه القارة ، وعيّن عليها العلماء البـارزون والفقهاء الكبار المشهـود بصلاحهـم وتقواهـم وورعهـم . ولعـل أشهـر المحتسبين فى شبه القارة قبل العـلامة مير زاهد الهروى هو العـلامة القاضى ضياء الدين السنامى مؤلف نصاب الاحتساب . (٢٥)

ولكن من أكبر منجزات هذا الملك الصالح تدوين موسوعة فقهية تعد من أكبر مصادر الفقة الحنفى . وهو كتاب الفتاوى العالمگيرية الذى يسمى أحيانا بالفتاوى الهندية . واستخدم للقيام بهذه المهمة الجبارة جماعة من العلماء والفقهاء الذين عكفوا طوال السنين على هذه الخدمة حتى اتوا بهذه الموسوعة الكبرى .

وكان الشيخ ملا نظام الدين هو رئيس هذا المجمع الفقهى الذى هام

بتدوين هذه الموسوعة الفقهية الكبرى . وكان اورنگ زيب عالمگير يشرف على أعمال المجمع اشرافا خاصا شخصيا . وأنفق عليه حوالى ربع مليون روبية . وكان ملا نظام يذهب كل يوم الى الامبراطور ويقرأ عليه ورقة أو ورقتين من مسوده الكتاب . وكان الامبراطور يناقش الشيخ ملا نظام فى كل مسئلة يختلف فيها رأيه مع رأى المدونين .

وكان الامبراطور المغفورله رجلا متواضعا ، يتواضع مع كل واحد ، خاص أودان ، سريف وبسيط رحره مرة والده ساهجهان على تواضعه وعحره مع كل واحد وعدم عمله بالتقاليد الاميرية من أبهة وعجب وخيلاء فأجاب قائلا « ان هذا العبد ، المفتقر الى الله ، يعمل بالحديث النبوى السريف الذى رواه أنس بن مالك (رضى الله عنه) : من تواضع لله رفعه الله ولدلك أتصور اىما كبيرا وعيبا قبيحا أن اسحق قلب أحد غماو حزناً من معاملتى الغير الملائمة معه .(٢٦)

وكان يقول : « ان أعمال الولاه وأصحاب الحكم تؤىر فى انفاع خلق الله والاصرار بهم » (٢٧). فاذا كان الولاة طغاة جائرين بعيدين عن الاسلام يكون السعب كذلك ، واذا كانوا صالحين متخلقين بأخلاق الاسلام دايبن عن بيضة الاسلام يؤىر ذلك فى نفوس الشعب أيضا . فكان رحمه الله يعامل كل واحد معاملة عادلة تليق وسأنه . وروى المؤرخون قصصا عديده تدل على عدله وكيف كان يعامل أبناء شعبه نذكر أحداها فى مايلى :

كان الشيخ أشرف اللاهورى من كبار حكام أورنگ زيب ومن أعضاء بلاطه المقربين رفع مره أحدى قضاياه الى محكمة أورنگ زيب نفسه الذى كان بناءا على كونه عاهل الامبراطورية رئيسا لاكبر محكمة النقض والاستئناف،فطلب الامبراطور المدعى عليه

سيد محمد أمير للمثول أمام المحكمة ، فغادر السيد لاهور متوجها الى دلهى ، وأقام خارج المدينة . فلما علم الامبراطور أن السيد وصل الى دهلى وأقام خارج المدينة أمر المدعى الشيخ أشرف اللاهورى أن يخرج من المدينة ويقيم على نفس المسافة وأن لايحضر بدون أمر من الامبراطور فانه يطلب الفريقين بنفسه على سواء«فان فى المحاكم وأحكام الشرع المحمدى لارعاية لأحد سواء كان مصاحبا للامبراطور أم غيره » . فلما رأى الشيخ أشرف هذه الاحكام الصارمة تخلى عن دعواه .

وكان الامبراطور أورنگ زيب رجلا صبورا لايتعب عن عمله ولايكل ولايمل . رآه الدكتور جيلى كريرى وهو يناهز الثمانين من عمره . يقول كريرى : « انى رأيته واقفا بين ظهرانى أمرائه وحكامه متكئا على عصاه . وكان يلبس ملابس بيضاء صافية . وكانت على رأسه عمامة مزينة بقطعة من زمرد.كل واحد من المستغيثين يتقدم اليه ويقدم اليه عرضه وطلبه . فيقرأ الامبراطور كل عرض أو طلب بنفسه بدون نظارة ثم يوقع عليه بنفسه . وكان يظهر من وجهه الهش البش أنه فرح لمشغولياته هذه » . وكان يعقد كل يوم بلاطا عاما يدخله من يشاء بدون أى مانـع أو تعويـق . وكـان الامبراطور يستمع الى كل واحد .

انفجرت ذات مرة بعض النفوق البارودية بعد أن وضع فيها المراهتة النار واستشهدت جموع كبيرة من الجنود المسلمين . فاندفع أورنگ زيب بعجلة سريعة الى مكان الحادثة وهجم بنفسه على العدو . وقتل منهم عددا كبيرا وكان عمره آنذاك يجاوز الثمانين (٥٢).

من عاده الملوک والاباطره دائمـا أنهـم لايعبـأون بأمـوال الـدولة ويضيعونها فى ترفهم وهناءهم ، الا مارحم ربى . ولكن أورنگ زيب لم يكن ممن لايبالون بحدود الله وأوامره ونواهيه . وكان أورنگ زيب عالمگير

يحسن الخط ويكتسب رزقه من كتابة المصحف الشريف . وتوجد الآن ستة نسخ من الكتاب الحكيم المكتوب بأيدى السلطان محى الدين أورنگ زيب عالمگير . والمصحف الذى كان يتلو فيه موجود فى مكتبة جامعة كولمبيا . ومره أعد أورنگ زيب نسخة قيمة من القرآن الكريم التى أرسلها „ الى مكه المكرمة زادها الله قدرا „ . وبعد أن تولى الحكم كتب نسخة أخرى وأرسلها ايضا الى مكه المكرمه ثم بعث نسختين الى المدينة المنوره وانفق على تزيينهما مبالغ كبيره من جيبه الخاص (٢٩) . وعلاوة على كتابه المصحف كان يشتغل فى أوقات فراغه فى صنع القلانس ويكتسب من أجرتها رزقه ـ (٣٠) .

ومع شدته فى تقواه كان عكوفا على العبادات والدعاء والذكر . فرآه الدكتور برنير فى ١٦٦٥ وهو يقول : „ كان نحيفا هزيلا وأضاف فى ضعفه وهزالته استمراره فى صومه وعكوفه على عباداته (٣١) „.

وكان رجلا جوادا سخيا وحدث ذات مره أن كتب عناية الله خان رئيس ديوان العطاء (بخشى) الى الامبراطور يقترح عليه أن يقلل من عطاءاته . فان جوده وسخائه لايقف عند حد والاموال والثروات فهى محدوده على كل حال . فكتب الامبراطور على عرضه هذا :

„ استغفر الله ان نظام المملكه مثل نظام ملكوت الله . فان الخلق عيال الله ورزقهم على الله . وأما هذا القاسم الفقير الضعيف (يريد نفسه) ليس الا وكيل ربه الجليل فى المنح والعطاء . واعلم أن اعتقاد الحد والنهايه فى ملك الله عين ضلال ومحض هلاك „ (٣٢) .

وتتجلى بساطه هذا الامبراطور المؤمن المجاهد المتدين وتقواه وسذاجته وزهده فى الحياه ورغبته عن لذات الدنيا فى وصيته التى تركها لورثته وخلفاءه من بعده . وجاء فى هذه الوصية مايلى :

١ـ ان الروبيات الاربع والآنتين (حوالى $\frac{٤}{١٠}$ دولار أمريكى) التى اكتسبناها بخياطة القلانس محفوظة عند السيدة آية بيگم . ولينفق هذا المبلغ فى تكفينى و دفنى .

٢ـ مبلغ نلاىمائة وخمس روبيات (حوالى نلاثين دولارا أمــريكيا) موجودة فى صندوق المصاريف الملكية الخاصة . وهذا المبلغ حصلنا عليه كأجرة كتابة الفرآن الكريم . وليفسم هذا المبلغ فى المساكين يوم وفاىى وبما أن أجرة كتابة الفرآن الكريم غير جائزه عند بعض ففهاء الاســلام فأرى من الواجب أن لاتنفق فى تكفينى ودفنى .

٣ـ يجب أن يكون فبرى فبرا عاديا ولا أدفن فى التابوت وأن لاتكون على فبرى بناية أو سرادق أو غناء أو بدعات أخرى ٣٣.

وفاة أورنگ زيب : فضى أورنگ زيب أكثر من نصف فرن أيامه على ظهر فرسه يفود جنود الاســـلام ولياليه على سجادته يعبد ربه ويذكره واستمر فى مكافحته للفضاء على البغاة الهندوكيين والفوضويين من قوم المراهته حوالى ثلاثة عقود . وبعد أن فتح جميع فلاع البغاه ومراكزهم . وهزم الفوضويين وكسرفوتهم أقام عدة أيام فى أحمد نگر فى جنوب الهند، فمــرض هنالك مرضا شديدا وازداد مرضه يوما فيوما والتمس منه خادمه الخاص عبدالحميد أن يتصدق بفيل وجوهرة ألماس لعله يستفى من مرضه فكتب على طلبه بفلمه الخاص : « صدقة الفيل لهذا الغرض من عادة الهنود وعبدة النجوم . وانما عليك أن ترسل الى السيد الفاضى أربعة آلاف روبية (حوالى اربعمائة دولار) ليوزع على المستحقين والفقراء » .

وفى اليوم الثامن والعشرين من ذى العقدة ١١١٨ هـ وكان اليوم يوم الجمعة جلس بعد اداء صلاة الفجر على سجادته واستمرفى ذكرالله يتلو كلمة التوحيد حتى وافاه الاجل المحتوم فبيل صلاة الجمعة . رحمه الله تعالى

رحمة واسعة وتغمده بغفرانه . (آمين) وكان عمره واحدا وتسعين عاما بالتقويم الهجرى وتسعاً وثمانين بالتقويم الشمسى . وحكم أكثر من نصف قرن . ودفن فى قرية جلال آباد فى مديرية أورنگ آباد فى جنوب الهند . ويستخرج تاريخ وفاته على حساب الابجدية من قول الله تعالى عز من قائل :

روح وريحـــان وجنـــة نعيـــم

المـــراجـع

(١) رقعات عالمگيرى ص ٣٦٦

(٢) راجع التفاصيل فى رقعات عالمگيرى ، وخاصة المقدمة للاستاذ العلامة نجيب أشرف الندوى

(٣) محمد ميان علماء هند كا شاندار ماضى ، مجلد أول ص ٥٤٣

(٤)ـ طبع هذا الكتاب فى مارس ١٩٠٩ م

(٥)ـ لم يطبع هذا الكتاب حتى الآن ، وتوجد نسخه الخطية فى مكتبات الهند وأوربا ، وتوجد احدى هذه النسخ فى مكتبة المتحف البريطانى فى لندن ورقمها Oriental 224

(٦)ـ طبع هذا الكتاب فى تهران ، فى عام ١٩٦٥ م وتوجد نسخه الخطية فى مكتبات مختلفة أيضا .

(٧)ـ طبع هذا الكتاب فى لكهنؤ ، الهند ١٨٨١ م

(٨)ـ طبع هذا الكتاب فى دهلى ، عام ١٨٩٢ م

(٩)ـ قام الدكتور محفوظ الحق بنقل هذا الكتاب الى اللغة الانكليزية وقدمه بمقدمة باسم Introduction to the Translation of Majma — al— Bahrayn وطبع فى كلكته ، الهند ، فى عام ١٩٢٩ م

(١٠)ـ مآثر عالمگيرى ، ص ٥٢٥ ـ ٥٢٦

(١١)ـ هو ابن الامام المجدد أحمد بن عبدالأحد السرهندى ، راجع لترجمته : نزهة الخواطر ، ج ٥ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧ .

(١٢)ـ راجع حالات مشائخ نقشبند ص ٢٧٤

(١٣)ـ رقعات عالمگیری ؛ ص ٢٦٤ ـ٢٦٧

(١٤)ـ رقعات عالمگیری ، ص ٣٠٨ .

(١٥)ـ علماء هند کا شاندار ماضی ، مجلد أول ص ٦٠٩ ـ ٦١٠ .

(١٦)ـ المصدر السابق ، ص ٦١٠ ـ٦١١

(١٧)ـ رقعات عالمگیری ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠

(١٨)ـ شاندار ماضی ، مجلد اول ، ص ٦١٢ ـ٦١٨

(١٩)ـ رقعات عالمگیری ص ٢٩٥ .

(٢٠)ـ رحلة الرحالة الاوربی الدکتور برنیر الترجمة الاردوية ، ص ٢٩٥ وايضا نظرة على اورنگ زيب عالمگير للعلامة شبلى النعمانى ص ٣٨ .

(٢١)ـ رقعات عالمگیری ص ٢٦٧ ـ٢١٨

(٢٢) ليں پول

(٢٣)ـ رحلة الدكتور برنير فى شبه القارة ، مجلد ثان ص ٢٨٩

(٢٤)ـ علماء هند کا شاندار ماضی ، ج ١ ، ص ٤٦٥ ـ٤٦٦ .

(٢٥)ـ لم يطبع هذا الكتاب حتى الآن وتوجد نسخته الخطية فى مكتبة جامعة بنجاب .

(٢٦)ـ وقائع عالمگیری ، ص ٤

(٢٧)ـ رقعات عالمگیری ص ١٣ رقعة ٤٣

(٢٨)ـ علماء هند کا شاندار ماضی ، مجلد ١، ص ٦٦٠

(٢٩)ـ علماء هند کا شاندار ماضی ، مجلد ١ ، ص ٦٥٥

(٣٠)ـ اورنگ زيب عالمگير پر ايک نظر ، للعلامة شبلى النعمانى

(٣١)ـ مصدر سابق .

(٣٢)ـ وقائع عالمگیری ، ص ١٠٨

(٣٣)ـ أنظر نص الوصية بكامله فى وقائع عالمگیری ، ص ١٢٧ ـ ١٣٠ ـ

★★★★★

وداعــايــا مــحــمــد المبـــارك

اهتـز العـالم الاسـلامى بنبـأ وفـاة العـالم الكبير والداعية الاســلامى الشهـير والمجـاهد المخلـص الاستاذ محمد المبـارك الـذى وافاه الأجل المحتوم فى ليلـة جمعة المبارك فى ١٥ صفــر الماضى . وكان الفقيد راجعـا من مدينة الـرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان آخر عهده فى هذه الحياة الـدنيوية زيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والصـــلاة فى روضـة من رياض الجنة .

كان رحمه الله من العلماء المخلصين والمجاهدين الابطـال الذيـن كـرسـوا حيـاتهم لنشـر الدعـوة الاســلامية بقلمه الــرائـع و فـريحته الفياضة.وكان للمغفـور له دور ملموس فى الحياة السياسية فى بـلاد الشام فى الخمسينات ، وتولى عــدة مناصب وزارية منها ورارة التـربية والتعليم . وترك مكتبة رائعـة تعـد من أهم ما كتب عن الاســلام فى الفــرن العشـرين ، ولعـل أفضـل وأروع ما أنتجتـه قـريحته سلسلة نظام الاســلام التى تحتوى على عـــدة كتب تبحث فى نواحى مختلفة عن نظـــرية الاســلام وهـديه فى السياسة والقانون والـدستور والاجتماع والاقتصـاد . وتشـــرف رئيس تحرير هذه المجلة باللقـاء معـه فى بعض المؤتمـرات الـدولية ، ولازالــت ذكـريــات الاجتماعات والاحاديث التى جـرت معه حية فى قلبه وسوف تبقـى باقية خـالدة فى ذاكـرته . فـرحمك الله يا محمد المبارك وأدخلك فسيح جنانه ، ووداعـا الى يوم التــلاق ، وســلاما ، انا ان شاء الله بكم لـلاحقـون .

مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية

باللغة العربية

اختلاف الفقهاء للامام الطحاوى

تحقيق : الدكتور محمد صغير حسن المعصومى

*

كتاب النفس والروح وشرح قواهما للامام الرازى

تحقيق : الدكتور محمد صغير حسن المعصومى

*

الرسائل القشيرية للامام أبى القاسم القشيرى

تحقيق : الدكتور بير محمد حسن (مع الترجمة الاردية)

*

معدن الجواهر فى تاريخ بصرة والجزائر للشيخ نعمان

تحقيق : البحاثة الدكتور محمد حميدالله

*

الكندى و آراؤه الفلسفية

للدكتور عبدالرحمن شاه ولى

*

مقصود المؤمنين لبايزيد الأنصارى

تحقيق : الدكتور ميرولى خان

*

كتاب الانفعال للامام الصغانى

تحقيق : الأستاذ أحمد خان

★ ★ ★ ★ ★

// AL-DIRĀSĀT AL-ISLĀMIYYA

ARABIC JOURNAL

OF THE

ISLAMIC RESEARCH INSTITUTE, ISLAMABAD, PAKISTAN

Vol. XVII No. 1 January February 1982

	Inside Pakistan	Outside Pakistan	
Annual Subscription	Rs. 18.00	$10 00	or £5.00
Single Copy	Rs. 5.00	$ 3 00	£1 50

All business correspondence should be addressed to :

The Circulation Manager

Islamic Research Institute

ISLAMIC UNIVERSITY

ISLAMABAD - PAKISTAN

Printed at Islamic Research Institute Press,
Published by Muhammad Sami'ullah for the Islamic Research Institute, Islamabad

مجلة اسلامية علمية

تصدر بعد كل شهرين
وتبحث في الدين والثقافة والتاريخ والآداب

مارس - إبريل ١٩٨٢م　　　جمادان الأولى والآخرة ٠٢

مجمع البحوث الاسلامية
الجامعة الاسلامية
اسلام آباد - الباكستان

الدراسات الاسلامية

مجلة مجمع البحوث الاسلامية

الجامعة الاسلامية

اسلام آباد ـ الباكستان

العدد الثانى — المجلد السابع عشر

جمادان الأولى والآخرة ١٤٠٢ هـ — مارس ـ إبريل ١٩٨٢ م

المحتوى

ضيـــوف العـــــدد

★ دكـتو ر أحمـد محمد جـلى ★

أسـتاذ الفلسفة وعـلم الكلام بجـامعة القـاهرة

★ دكـتو ر حسن محمود عبداللطيف الشافعى ★

أستاذ الفلسفة الاسـلامية بكلية دارالعلوم ، جامعة القاهرة

واستاذ منتـدب لمعهـد الدعوة والقـراءت وعلوم القـرآن

بالجامعـة الاسـلامية ، اسـلام آباد ـ باكستان

★ الاستـاذ محمد يوسف الفـاروقى ★

أسـتاذ مسـاعد للفكر السياسى الاسـلامى بقسم الدراسات

الاسـلامية ، الجامعة الاسـلامية ، بهاولبور ، باكستان

ليس من الضرورى ان تتفق ادارة المجمع مع جميع

الآراء والبحوث التى ينشرها الكتاب فى هذه المجلة

كلمــة العـــدد

ان الذين درسوا التاريخ البشـرى دراسة متعمقة ، وسبـروا غوره ، وعـرفوا ظاهره من باطنه وجليه من خفيه ، و وقفوا على جلائله و دقائقه يعرفون أن لكل عهـد من عهود التاريخ مسائـل مختلفة ، ومشـاكل مختلفة ، وأحوال خاصة ، وظـروف خاصة ، وأوضاع خاصة ، ولكن على الرغم من هذا الاختلاف وهذه الفروق نجد أن هناك روحا أساسية تصل حاضر القوم بغابرهم ، وتنبئهم فى حالهم عن مستقبلهم .

مثل التاريخ فى ذلک كمثل الكائن الحى الذى تمـر عليه أدوار مختلفة ، و عهود متغيرة ، ومراحل متطورة . فيمـر بالصغر والمراهقة ، ثم يدخل فى عهد الشباب ، ويتمتع بريعانه ويفتخـر برونقه وغضارته ، ثم تنتابه الكهولة والشيخوخة ، ثم يرد الى أرذل العمـر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وتختلف مسائله ومشاكله ، وتتغير ضـروراته و حاجاته ، وتتجدد آراءه ونظرياته ، وتتبدل عاداته و خصائله فى كل عهد من هذه العهود ، وفى كل دور من هذه الادوار .

ولكن مع هذا الاختلاف الدائم والتغير المتواصل تبقى روح ذلک الكائن الحى كما كانت ، وتبقى شخصيته الاصلية علـى حقيقتهـا ، وتتشابه مسائله ومشاكله ، وتتماثل ضـروراته وحاجاته . ولاشک أن

هناک روحا واحدة لجميع مسائله ومشاكلـه ، مثـل روحـه المتخـذة السارية في جسده منذ طفولته الى أن يبلغ الى أرذل العمـر ، ولاريب أن هناک تسلسلا حيويا فی ضروراته و حاجاته مثل تسلسل جسده الحيوى ، وأن هناک شخصية دائمة لآراءه ونظرياته مثل شخصيته هو . وتبقى هذه الشخصية الفكرية فی اكثر الاحيان من البداية الى النهاية . وكم من عالم و مفكر رأينا فكره الاساسى باقية مع بقاء وجوده فی عالم الكون ، لاينفک منه فی حال من الاحوال . ولئن اضمحلت أعضاءه ، وضعفت جوارحه ، واسترخت عظامه ، وانهارت صحته ، وضاعت ذاكرته، ولكن يبقى فكره الاساسى حيا خالدا .

ولاتختلف حالة الأمم والأديان والمؤسسات والمجتمعات من حالة الأفراد . وان شئت فخذ تاريخ أمة من الأمم ، فانک سوف ترى أن أحوالها و أوضاعهـا فی عهدهـا الابتدائـى تختلف عن أوضاعهـا و أحوالها فی عهدها المتوسط ، وسوف ترى أن مسائلها ومشاكلها فی عهدها المتوسط غير مسائلها و مشاكلها فی عهدها الأخير ، وسوف ترى أن الادواء التى تعانى منها الأمم فی كهولتها غير الادواء التى تعانى منها فی أرذل عمـرها . ولكن الطبيب الحاذق الذى يعالج ادواء هذا الكائن الحى منذ نعومة أظفاره يعرف أن هذا الاختلاف فی هذين النوعين من الادواء والامراض انما هو اختلاف ظاهرى ، والفرق بينهما سطحى ، لايصل الى قرارة الامور .

فكل من لديه بصيرة و معرفة فی فلسفة نهـوض الأمم و زوالها ،

وأسباب سعادة الشعوب وشقائها ، وعوامل انحطاط الاجيال وازدهارها، وكل من درس نفسيات الأمم والاسباب التى تؤدى اليها ، والعلل والعوامل التى تلعب دورها فى تكوينها يعرف أن هناك علة وراء هذا الداء الاجتماعى الذى يعانى منه الشعب الفلانى ، وأن هناك سببا للمرض الشعبى الذى يصاب به المجتمع الفلانى .

★ ★ ★ ★

ان من الادواء التى أصابت العالم الاسلامى فى ماض غير بعيد تخاذلا فكريا نرى آثاره فى كل مكان ، واستسلاما حضاريا نشاهد معالمه كل يوم ، وانهزاما ثقافيا نجد أماراته فى عالمنا الاسلامى . ومن أهم هذه الآثار و المعالم تأثر المسلمين بحركة الاستشراق — ذلک الداء الذى جاء به وبويلاته الاستعمار الغربى ، بل الذى سبقه الى العالم الاسلامى كطليعته ورائده الذى لايكذب أهله . وما أحسن ما قاله أحد العلماء المسلمين عن الاستشراق قال : انه وليد غير شرعى لأبوين غير شرعيين ، وهما التبشير الذى خطط له ، والاستعمار الذى غذاه ورباه . ومع أن الاستعمار الغربى بدأ ينهار على المستوى السياسى وطفق يتقهقر من مضمار الاستعباد العسكرى ولكنه يتواجد فى العالم الاسلامى تواجدا قويا بفكره المسيطر وحضارته القائمة و ثقافته المنتشرة بين المسلمين . وأدى فكره وحضارته و ثقافته فى العالم الاسلامى الى كل ما أدت اليه هذه العوامل الثلاثة فى الغرب من انحطاط خلقى وانهيار حضارى و فوضى

فكرية ، فرمتنا بدائها وانسلت .

وماهو أدهى وأمر أن المسلمين أو العدد الكبير من مثقفيهم ومستغربيهم لايرون بهذه النتائج بأسا ، ولايستعدون لمقاومتها ، ولايشمرون عن ساعد الجد لسد الطريق فى وجه هذا السيل الجارف . بل يتهافتون على كل ما نسب الى الغرب أو وصف بالحداثة تهافت العطشان على الماء ، ولايعرفون أنه لاخير فى أرب ألقاك فى لهب ، وما كل بارقة تجود بمائها .

بدأت حركة الاستشراق بادئ ذى بدء على أيدى الآباء والرهبان والمسحيين فى فاتيكان . وكانوا من قبل يأتون الى المراكز العلمية الاسلامية فى اندلس — ذلك الفردوس الاسلامى المفقود — ليتعلموا علوم المسلمين ويتثقفوا بالثقافة الاسلامية على أيدى العلماء المسلمين . وكانت الطلبة المسيحيون يتناوبون الى المدارس والجامعات الاسلامية فى قرطبة وغرناطة وطليطلة و صقلية . وكانوا يتأثرون بالفكر الاسلامى وعمقه وسعته ، وبالشريعة الاسلامية وصلاحيتها لحل مشاكل البشر ، وبالمجتمع الاسلامى وسموه وسماحته ، وبالحضارة الاسلامية المزدهرة المتصفه بخصائص ومزايا لاتدانيها فيها حضارة أخرى . وكان أحبارهم ورهبانهم يشعرون بالضيق والتوحش أمام أساتذتهم المسلمين ، فانهم لم يكونوا يستطيعون أن يدافعوا عن معتقداتهم المسيحية ويقوموا أمام الهجوم الفكرى الاسلامى . فرآى مسئولو فاتيكان من اللازم أن يعتنوا بدراسة العلوم

الاسلامية ، ويكونوا على معرفة من الفكر الاسلامي والثقافة الاسلامية ، أولا ليتسنى لهم الدفاع عن عقائدهم ، وثانيا ليعدوا مبشريهم رجالا ونساءًا ، شيوخا وشبابا ، للجدال والنقاش مع المسلمين وتوجيه الاعتراضات على الفكر الاسلامي . هكذا كانت بداية هذه الحركة ، ولبثت على هذا المنوال بضع سنين ، حتى قامت على قدم وساق .

كانت حركة الاستشراق حركة سلبية من أول يومها ، ولم يكن أساسها على هدف ايجابي بنّاء . بل كانت تهدف الى الدفاع عن عقيدتهم الدينية التي وضعهالهم القديس بولس ، وكانت تقصد الى تشويش أذهان المسلمين و افساد عقليتهم . ومع أن أهدافهم لازالت متحدة متماثلة عبر تاريخهم ، وعلى الرغم من أن فكرهم السلبي الذي يتناقلونه على اختلاف بيئاتهم وتباين أحوالهم ما برح على هيئته القديمة ، ولكن المراحل المختلفة التي مرت بها هذه الحركة أعطت كل واحدة منها طابعا خاصا ولونا خاصا لهذه الاهداف .

فنرى أن حركة الاستشراق في القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت تهدف الى تمسيح المسلمين اذا جاز التعبير وتنصيرهم . ونرى مظاهر هذه الأهداف في كتابات كثير من الآباء المسيحيين والمبشرين النصارى الذين ظهروا في زي العلماء والمستشرقين . ولكن بعد جهود دامت قرنين أو اكثر وصلوا الى نتيجة أن تنصير المسلمين وتمسيحهم ليس بالامر السهل الهين . فغيروا استراتيجيتهم ،

وركزوا جهودهم على الاشادة بالحضارة الغربية و ابراز مزاياها المزعومة والاعلان بفضلها على الحضارة الاسلامية والنيل من الثقافة الاسلامية والانتقاد على الحضارة الاسلامية وابراز ما زعموا أنه من جوانب النقص فيها والتأكيد على أن الحضارة الاسلامية حضارة محلية وليست عالمية ولايمكن لها أن تضمن للبشرية النجاح الثقافى والفوز الحضارى .

وكان بين هولاء المستشرقين جمع غير قليل كانوا يعملون من أجل توفير المعلومات والاحصاءات عن الاسلام والمسلمين والبلاد الاسلامية المختلفة لمصالح المخابرات وهيئات التحقيق وبعثات الاستطلاع ، حتى ولوزارات الخارجية والدفاع ، وأصبحوا بذلك طليعة الاستعمار و وسيلة استعباد الشعوب ، وما أسوأ هذا الاستعمال المؤسف للعلم والأدب!فمن ذا الذى لايعرف كتابات أولف كيرو وامثاله عن المسلمين الأفغان ؟ ومن ذا الذى لم يقرأ رحلات الرحالين الاوربيين والامريكان الذين تجولوا فى البلاد الاسلامية فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ؟ ومن ذا الذى يجهل دور داؤتى وفلبى وأمثالهم فى الحياة السياسية فى الجزيرة العربية ؟

ولكن لا يعنى سرد هذه الحقائق التاريخية المؤلمة أننا ننكر خدمات بعض المستشرقين فى سبيل احياء التراث الاسلامى العلمى التليد . فان منهم فريقا يقومون بأعمال علمية شهدت بقيمتها العلمية أجيال المسلمين . وهل يمكن لأحد أن يقول ان المعجم المفهرس

لالفاظ الحديث النبوى الشريف الذى قام بجمعه وتاليفه جماعة من المستشرقين تحت رئاسة الاستاذ فنسنک عمل لاقيمة له ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن لا يعترف أن تاريخ آداب اللغة العربية الذى دّونـه المستشـرق الالمانى بروكلمان مصدر علمى كبير ؟ ومن ذا الذى لا يقدر جهود المستشرقين الذين قاموا بتحقيق المخطوطات الاسـلامية القديمة التى كان المسلمون يقرأون عنها فى كتب التاريخ والرجال والفهارس فقط ؟

لازال المسلمون فى قضية المستشرقيـن بيـن طائفتيـن . طائفة يبالغون فى تعظيم قدر المستشرقين ، ويغلون فى اجلال شانهم واعـلاء مكانتهم ، ويعتبرونهم أعـلام الفكر وائمة الهدى . وأغلبية هذه الطائفة تحتوى على تلامذة المستشرقين الذيـن يحـذون حذوهـم ويقتـدون بقدوتهم ويستنون بسنتهم ، ويمكن أن نسمى هولاء التلامذة الابرار لأساتذتهم والاوفياء لكبارهم مستغربين ، فانهم قوم ارتضعوا من ثدى أمهاتهم الفكرية ويأنسون بأباءهم فى العلم ، فان الثكلى يحب الثكلى . ومن هذه الطائفة أمة لايعرفون كثيرا عن الاستشراق وتاريخه وأهدافه ، بل كلما راقتهم مقالة لأحد المستشرقين ، أو وقعت منهم موقعا حسنا ، أو وجدوا فى قراءة شئى لهم لذة وبهجة حكموا عليهم جميعا بالحسن والقبول . وليس من عادة العاقل الحكيم الحذر أن يصدر حكما عاما بالحسن والقبول على علم أو مؤلف لم يستوعبه بالبحـث والـدراسة

لمجرد أنه قرأ منه شيئا ساحر النفوس وخلاب الاسلوب بغض النظر عمالم يقرأه ولم يعرفه .

وطائفة أخرى ليست بأقل بعدا من العدل والانصاف من الطائفة السابقة . وهم الذين لايعترفون لذى فضل فضله ، ويرون أن كل من درس العلوم الاسـلامية العربية فى البـلاد الغربية فمن أجل عدائـه لـلاسـلام وبغضائه للمسلمين . وان تعجب فعجب قولهم أن كل من قرأ كتب المستشرقين ، أو راقه شئ منهم ، أو اتخذ اسلوبهم فى البحث والتأليف ، أو اعترف بفضل أولى الفضل منهم ، فقد خرج من ربقة الاسـلام ، أو يخشى أن يتطرق الى دينه الفساد ، ويتسرب الى فكره الزيغ والضـلال .

فكانت الحاجة ماسة الى أن يجتمع رجال من أهل العلم والفكر فى العالم الاسـلامى ويدرسوا قضية المستشرقين ، وما قاموا به من أعمال علمية ، ومزاياها وجوانب الضعف والنقص فيها ، لتتبلور وجهة نظر العالم الاسـلامى الصحيحة نحو حركة الاستشراق ، وليكون الناس على بصيرة من الأمر ، وليصل المسلمون الى موقف متزن بين تطرفين ووسط بين نهايتين ، وليتراءاى لهم الرأى القائم على ميزان العـدل والانصاف والتقدير ، لاوكس فيه ولاشطط .

★ ★ ★ ★

وكتب الله فضل التقدم فى هذا الاتجاة والسبق فى هذا المضار للمجمع الاسـلامى الشهير مجمع دارالمصنفين بالهند ، المعقل العلمى

الاسلامي العريق الذى لا يعتز به مسلموا الهند و باكستان فحسب بل الذى يفتخر به العالم الاسلامي كله . فدعا هذا المجمع الى عقد ندوة علمية عالمية حول الاسلام والمستشرقين ، واشترك فيها عدد لابأس به من علماء الهند و باكستان وبعض البلاد العربية الى جانب عديد من أهل العلم من الاصل الهندى أو الباكستانى الذين يقطنون فى بلاد غير مسلمة . واستمرت أعمال الندوة لمدة ثلاثة أيام ما بين ٢٦ ـ ٢٨ ربيع الثانى ١٤٠٢ هـ الموافق ٢١ ـ ٢٣ فبراير ١٩٨٢ م .

وافتتح الندوة سماحة الاستاذ الكبير السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى مدير ندوة العلماء بالهند والرئيس الحالى لمجمع دار المصنفين . فالقى خطابا رائعا بديعا هزّ العواطف و حرك المشاعر ، وتأثر الحاضرون بالاخلاص والحماس الشديدين اللذين كان الخطاب متدفقا بهما ، حتى ذرفت العيون وانحدرت الدموع على خدود كثير من الحاضرين . وكان اكثر تأثرا بالخطاب هو سماحة الأستاذ البحاثة السيد صباح الدين عبدالرحمن المؤرخ الكبير والاديب البارع والامين العام للمجمع . فلم يتمالک على نفسه لما أشاد الخطيب الجليل بجهود العلامة شبلى النعمانى مؤسس دارالمصنفين وتلميذه الرشيد الجليل العلامة الفذ السيد سليمان الندوى الامين العام الأول للمجمع . وكانت هذه الكلمة الافتتاحية من أهم بحوث الندوة وأحسنها . فعالج فيها العلامة الندوى قضية الاستشراق بشئ من التفصيل والدقة . وكان موقفه تجاه المستشرقين متصفا بالاتزان والاعتدال والانصاف مثل

مواقفه السابقة الكثيرة . وهكذا كانت الحال فى اغلبية البحوث والمقالات التى قدمت الى الندوة ، فكان طابعها الخاص هو الاتزان والاعتدال . واتفقت كلمة المشتركين أن البحث القيم الذى القاه المؤرخ الاسلامى الشهير والكاتب الاسلامى المعروف الدكتور خليق أحمد النظامى رئيس جامعة على كره الاسلامية سابقا من أحسن البحوث وأجودها من حيث المحتوى والتقديم والاتزان والاعتدال .

واشترك فى الندوة وفد من مجمع البحوث الاسلامية تحت رئاسة مدير المجمع الدكتور عبدالواحد هالى بوتا . وكان الوفد مكونا من ستة أعضاء أحدهم كاتب هذه السطور . ونسجل هنا شكرنا الجزيل وامتناننا العميق وتقديرنا البالغ على الحفاوة والتكريم اللذين عاملنا بهما اخواننا المسلمون فى الهند ، وعلى رأسهم سماحة الاستاذ الندوى وسماحة الاستاذ صباح الدين ، فجزاهم الله خير الجزاء .

وفى الختام لايسعنا الا أن ندعوالله تعالى أن يوفق القائمين على دارالمصنفين لما فيه خير الاسلام وصلاح المسلمين وأن يتقبل جهودهم وأن يبارك فى مساعيهم ، انه سميع مجيب .

محمود احمد غازى

●●●

نظـــرية المعـــرفة

عنـدالامـــام الماتريـدى

دكتو ر أحمد محمد أحمد جلى

مقــدمة

الامـام الماتريدى هو ابو منصـور محمد بن محمد بن محمود الماتريدى السمرقندى احد أعلام الفكر الاسـلامى ومن الذين ينتمون الى مدرسة الأحناف فى الفقة والـكلام ، وقد بلـغ الماتريدى من الأثر والمكانة داخل هذه المدرسة الى الحد الذى ادى الى تكوين مدرسة كلامية عرفت باسمه هى « المدرسة الماتريدية » . وبالـرغم من هذه المكانة وذلك الأثر الـذى أحدثه الماتريدى ، فأن حياته تكاد تكون مجهولة لنا . وكل ما نستطيع أن نستخلصـه من المصـادر التى ترجمت له ، هو أنه عاش خـلال القرنين الثالث والـرابع للهجرة ، وانه ولد بقرية « ماتريت » او « ماتريد » واليها ينسب ،وانه توفى عام (٣٣٣هـ ٩٤٤ م) بمـدينة سمـرقند ، كما تخبرنا هذه المصـادر نزراً قليلاً عن مؤلفاته وأساتذته ولا تعطينا صـورة واضحة عن تطوره الفكرى ومكوناته الثقافية ، وقد أثار هذا الأمر انتباه الباحثين فى الفكـر الاسـلامـى وتطوره لاسيما وأن كتابا كابن النديم صاحب « الفهرست » ، وابن

خلكان وابن العماد وابن خلدون لم يشيروا اطلاقا الى الماتريدى ، بل ان المصادر الحنفية لم تمدنا بمعلومات كافية عن حياته . وحتى الذين تأثروا به تأثرا مباشراً كنجم الدين ابى حفص عمر بن محمد النسفى (٥٣٧ هـ ١١٤٢ م) الذى استوحى كتابه : « العقائد النسفية » من الماتريدى لم يشر اطلاقا الى الماتريدى . وهكذا نجد ما يشبه الأهمال الكامل للماتريدى فى كل المصادر التى أرخت للفكر الاسلامى ، لاسيما اذا ما قورن ذلك بتلك العناية وذلك الأهتمام الذى لقيه الامام الأشعرى (٢٦٠ ـ ٣٢٤ هـ) الذى كان معاصراً للماتريدى .

وقد حاول دكتور فتح الله خليف كشف الأسباب وراء الميل نحو التقليل من شأن الماتريدى وتقديم الأشعرى عليه وانتهى الى القول بأنه ليس هناك من سبب لذلك الا أن الماتريدى عاش فى بلاد ماوراء النهر بعيداعن العراق مركز العالم الاسلامى فى ذلك الوقت حيث نشأ الأشعرى وشاع مذهبه (١).

وبالرغم من وجاهة هذا التقليل فلا يبدو أنه هو السبب الوحيد وراء اهمال الماتريدى ، اذ أن كثيراً من علماء ماوراء النهر قد ذاع صيتهم واشتهروا وكانوا محل اهتمام أهالى بغداد وعواصم العراق .

ويبدو لنا أنه من ضمن الأسباب التى أسهمت فى اهمال ذكر الماتريدى ، اذا ما قورن بالأشعرى ، هو صعوبة اسلوب الماتريدى وغموض عباراته ، ويبدو هذا واضحاً من خلال ما وصل الينا من

مؤلفاته . وقد ادرک تلامذة الماتريدی هذا الأمر ونبهوا اليه . فالامام البزدوی (٢) رغم اشادته بعلم الماتريدی واعترافه بفضله عليه يقول بأن فی « كتاب التوحيد » للماتريدی قليل انفلاق وتطويل وأنه مشوش فی ترتيبه (٣). والی مثل هذا الرأی يذهب ابوبكر السمرقندی الذی قام بشرح كتاب « تأويلات القرآن » للماتريدی اذ يقول : « ان هذا الكتا لم يكتبه الماتريدی بنفسه مثل « كتاب التوحيد » و « المقالات» و « مآخذ الشرائع »وغيرها بل أملاه على تلامذته ، ومن ثم جاء أسهل اسلوبا مں كتبه المصنفة ، ولكنه مع هذا لايخلو من نوع اغلاق فی اللفظ وابهام فی المعنى بحيث يعجز عن دركه كثير ممن يدعی التبريز فی العلوم ، وانما يحصله من أفنى عمره فی أصول التوحيد وأصول الفقه وسهر فی صناعة الكلام ومعانی اللغة » (٤). فربما كان اسلوب الماتريدی وتعقيد عباراته من الأسباب التی أدت الی الانصراف عن كتبه وخمود ذكره .

وهناک سبب آخر يمكن أن نقدمه فی هذا المجال . وذلک أن الماتريدی ينتمی الی«مدرسة الأحناف » تلک المدرسة التی تختلف عن المدارس الاخری كالمالكية والشافعية فی أن مؤسسها ابو حنيفه مزج بين الفقة والكلام ، وخاض بأبحاثه فی كلا الحقلين ، ومن ثم فان ما أسهم به الماتريدی فی علم الكلام لم يرفيه الأحناف سوی شرح وتبرير عقلی منطقی لآراء ابی حنيفة الكلامية ، ووفقا لهذا التصور كان التركيز دوماً فی اطار هذه المدرسة على مؤسسها أبی

حنيفة دون سواه . وهذا يفسر لنا من ناحية عدم تركيز الأحناف على الماتريدى رغم ألمعيته ، ومن ناحية أخرى يبرز لنا لماذا يقارن الأشاعرة دوماً فى كتبهم بين آراء الأشعرى وبين آراء أبى حنيفة الكلامية رغم أن أبا حنيفة قد لا تكون له صلة ببعض تلك الآراء (٥).

ورغم ما قوبل به الماتريدى من اهمال فى الماضى فانه لحسن الحظ قد حفظت لنا بعض كتبه ، وقد اتجهت أنظار الدارسين فى السنوات الأخيرة نحو الكشف عن هذه الكتب ونشرها ، فصدر له «كتاب التوحيد » الذى حققه وقدم له دكتور فتح الله خليف فى عام ١٩٧٠ م ، كما صدر الجزء الأول من تفسير الماتريدى « تأويلات اهل السنة » أو « تأويلات القرآن » (٦). ولاشك أن هذا سيسهم فى تقديم فكر الماتريدى ووضعه فى موضعه الصحيح من الفكر الاسلامى ، ويمكن الباحثين من بيان الدور الذى لعبه فى تطوير هذا الفكر . وهذه الدراسة عن نظرية المعرفة عند الماتريدى ما هى الا نتاج لهذه الجهود ومحاولة أولية للكشف عن جانب من جوانب هذا المفكر العظيم .

نظرية المعرفة عند الماتريدى

بالرغم من أن اوائل المعتزلة قد عالجوا بعضاً من مشكلات المعرفة وتناولوا مصادرها من حواس وعقل وعلاقة هذا الأخير بالوحى ونسب اليهم القول بأن العقل يمكنه الوصول الى معرفة الله ومعرفة ما هو خير وشر بل يجب عليه هذا ويحاسب ان قصر فيه حتى ولو لم

يبعث رسول (٧) الى غير ذلك من الاراء التى تؤكد نزعتهم العقلية ، بالرغم من هذا فان اراء المعتزلة هذه لم تصلنا متكاملة ، ولم يبق لنا من كتب المعتزلة الاوائل ما يكشف عن المنهج الذى اتبعوه فى معالجة هذه القضية ـ الأمر الذى أعطى » كتاب التوحيد « للماتريدى اهمية كبيرة باعتباره اقدم مصدر كلامي اهتم بقضية المعـرفة وعالجها معالجة دقيقة ، وجعل هـذا للماتريدى الفضل فى انـه بتصديـره كتابـه هذا بمناقشة هذه القضية استـن سنة سار عليها كل من اتـى بعـده من المتكلمين (٨) .

وفى هذا الاطار بدأ الماتريدى بانكار التقليد ، والالهام ، والامام المعصوم عند التعليمية (الشيعة ـ الباطنية) كمصادر للمعرفة ثم بين مصادر المعرفة من حس وخبر و عقل ، وناقش الفرق التى انكرت هذه المصادر كما بين العـلاقة بين هذه المصـادر ، لا سيما العـلاقة بين الوحى والعقل .

أما التقليد فيذهب الماتريدى الى أنه لا يمكن أن يكون حجة فى صحة قضية او بطلانها لان الناس من مختلف الديانات والنحل يدعى كل منهم صحة ما يعتقده ويستمسك به وليس له من حجة سوى انه يقلد شخصا او يتبع مذهبا بعينه ، ولو صح التقليد كمقياس للصـحة والخطأ او كمصدر للمعـرفة لكانـت الاعتقـادات المتناقضـات كلها صحيحة ، وهذا مما لا يعقل . واعتقاد مذهب او تقليده قد يكون مقبولا اذا ما توفر فيه شرطان : اذا كان المقلد قد اتى بتعاليم تحمل براهين

صحتها وتقنع الحكماء بأنها حق ، وان يكون المقلد على دراية وفهم بما يتبعه ويأخذ به «(٩) وطبيعى انه فى هذه الحالة ينتفى الامر الذى يذم به التقليد ويرفض ، بل من الصعب اطلاق التقليد فى مثل هذه الحال .

وقد انكر الماتريدى أن يكون الالهام مصدراً للمعرفة اليقينية فذكر أن بعض الناس يعتقدون أن قلب الشخص هو مصدر معارفه اليقينية ومن ثم ينبغى عليه أن يتبع ما يمليه عليه قلبه ، بينما يذهب آخرون الى أنه ليس فى استطاعة الانسان اكتساب معارف يقينية ، ومن ثم ينبغى أن يتبع ما يلهمه الله اياه (١٠) . ويبدو أن الرأى الاول هو رأى السوفسطائيين او الشكاك الذين ذهبوا الى أن حقائق الاشياء تتبع من اعتقاد الانسان القلبى فيها ، فما يراه حقا فهو حق ، وما يظنه باطلا فهو باطل (١١). وأن الرأى الآخر هو رأى الصوفية الذين يزعمون أن معارفهم تكتسب عن طريق الالهام الالهى الذى يقذف فى القلب حين تطهره لاعن طريق الفكر (١٢).

وذكر السوفسطائيين هنا مع الصوفيه قد يدل عند الماتريدى على اشتراك هاتين الطائفتين فى اشياء عامة فى المعرفة ، اذ أن كلامنهما يذهب الى جعل الانسان مقياس الحقيقة ، فما يعتقده الانسان او ما يقذف فى قلبه هو مصدر المعرفة ، وان كلامنهما لا يحمل براهين او أدلة على صدق زعمه ، وهذه النقطة الاخيرة اتخذها الماتريدى سندا فى رفضه للالهام . فالالهام دعوى لا يقوم عليها برهان ، ولو اتخذ

اساسا للحكم ومقياسا لصحة المعـرفة لوقع الناس فى التناقض لأن كثيراً من الناس يحملون افكارا متناقضة وكل يدعى أنه ملهم او أن معارفه من عند الله ، وقطعاً ان الله العليم الحكيم لا يمكن أن يكون مصدراً لكل هذه المتناقضات (١٣).

وقد رفض الماتريدى ايضا دعوى التعليمية او الباطنية أن معارفهم مستمدة من تعاليم الامام المعصوم ، وذهب الى أنه لوصح هذا الرأى الذى يقول به التعليمية لم يكن هناك معنى لـلآيات القـرآنية التى تحث الانسان على التفكير والنظر ، فخلافاً لما ذهب اليه هؤلاء نجد أن هذه الآيات تبين فى وضوح ان المعارف الدينية يصل اليها الانسان بعقله وفكره وعن طريق الرسل الذين لاشك فى صدق رسالاتهم (١٤).

مصـــادر المعـرفة

واذا ما بطل أن يكون التقليد والالهام والامام المعصـوم اسسـا للمعـرفة فما هى اذن مصـادر المعـرفة ؟ يذهب الماتريدى الـى أن للمعـرفة ثلاثة مصـــادر ، وعن طريقهـا يكتسـب الانسـان معـرفـة الاشياء : (١) الحواس او العيان (٢) الأخبار او شهادة السمع (٣) النظـر او الاستدلال .

١ـ الحـواس : قد استخدم الماتريدى مصطلح « عيـان » كمقابـل لمصطلح « حواس » الـذى شاع استخدامـه بيـن عامة الفـلاسـفة والمتكلمين ، وهذه الحواس من سمع وبصـر ولمس الخ هى السبب الـذى يؤدى الى كل المعـارف الحسية التى تقع تحت ادوات الحس و

وسائله ، بل هى اساس كل معرفة اذ أنه منها يستمد العقل ويستفيد فى تكوين معارفه ، والمعارف التى تصل اليها عن طريق الحواس معارف يقينية لا سبيل الى الشك فيها (١٥). ولكن فى حقيقة الامر تعرض هذا النوع من المعرفة والوسائل التى تكتسب عن طريقها الى نقد عنيف خاصة من طائفة السوفسطائيين الذين بلغ بهم الشك الى انكار كل معرفة وعلم . وقد كان الماتريدى ، فيما يبدو ، على علم بأراء هذه الطائفة وما استندوا عليه من حجج ، ومن ثم نجده يجادلهم ويتتبع الحجج التى استندوا عليها بالتفنيد .

فالسوفسطائيون ، كما يقول الماتريدى ، قد انكروا المعارف الحسية لأن ادوات الحس ووسائله قد تخطئ فى كثير من الاحيان ومن ثم لا ينبغى أن يوثق بها كمصدر للمعرفة ، فالعين المصابة بالحول ترى الشىء الواحد مزدوجا والمريض بالصفراء يجد طعم العسل مر المذاق ، والرجل فى حلمه يرى اشياء لا وجود لها فى الحقيقة او تختلف عما هى عليه فى الواقع ، وفوق هذا فان الاشياء التى ترى من مسافة بعيدة تختلف عن روئيتها من قريب ، وأن هناك بعض الاشياء التى تدق عن الرؤية والحس ومن ثم تعجز ادوات الحس عن ادراكها . . وينتهى السوفسطائيون من كل ذلك الى أن مظاهر الاشياء خادعة وأن ادوات الحس غير مأمونة ومن ثم لا ينبغى الوثوق بها كوسائل لاكتساب المعرفة (١٦)

وقد ناقش الماتريدى آراء السوفسطائيين هذه وبين ضعفها

وتهافتها ، وذهب الى ان الحجج التى اوردها السوفسطائيون دليل اثبات على تأكيد صحة المعارف المحسوسة ووسائل ادراكها ، اذ أنهم لو لم يدركوا هذه المحسوسات لما تسنى لهم التمييز بينها فى مختلف الحالات .

اما ما اورده السوفسطائيون من اعتراضات على ادوات الحس وموضوعاتها كالآفات التى تصيب الحواس واختلاف الشئ المحسوس قربا وبعدا حلما ويقظة ، او عدم ادراك حقيقته لصغره ، فهذه فى رأى الماتريدى معوقات او آفات تحول بين هذه المحسوسات وبين ادوات الحس ، ولاخلاف فى انها قد تغير من مظهر الشى المحس او تحول دون ادراكه ادراكاً صحيحا ، ولكن هذا لا يعنى أنه اذا ما ارتفعت هذه المعوقات وكانت الحاسة سليمة ،أن يتحقق ادراك الاشياء ادراكاً حقيقياً يقينياً . فاعتراض هذه الآفات اذن لا يقود ضرورةً الى الشك فى الحواس او الى انكار ادوات الحس ودورها فى المعرفة (١٧). بل ان معرفة الشئ تختلف وفقا لحالته وحالة وسائل الادراک ، ففى حالة سلامة الاداة يكون ادراك الشئ تاماً وفى حالة اعتراض علل ما لادوات الحس فقد يكون الادراك ناقصاً او مفقوداً بالكلية فلا تستطيع الحاسة اذن أن تدرك الاشياء (١٨). واخيراً فان هناك العقل الذى عن طريقه يستطيع الانسان ان يعلم الآفات والعلل التى تصيب حواسه ، ويبين له أن ادراكه للاشياء عن طريق هذه الحواس سيكون ناقصاً ، وفى هذا ضمان من خداع الحواس . وينتهى الماتريدى من ذلك الى

ان وسائل الحس وادواته لا ينبغى الشك فيها او التقليل من قيمة المعارف التى تكتسب عن طريقها .

٢ ـ الأخبار او شهادة الغير :

الأخبار هى المصدر الثانى الذى عن طريقه يكتسب الانسان معارفه وبواسطة الأخبار يعلم الناس انسابهم واسماء الاشياء ، والبلاد النائية والأحداث الماضية وكل ما يتعلق بشئون حياتهم من نفع وضر مما لا يستطيع الأنسان أن يقف عليه بنفسه . ويقسم الماتريدى الأخبار الى نوعين : ١ ـ أخبار عامة وتقابل التاريخ وشهادة الغير . ٢ ـ أخبار الرسل والأنبياء . واذا كانت الأخبار العامة مصدراً للمعرفة فان أخبار الرسل أولى بأن يوثق بها كمصدر للمعرفة لصدق مصدرها .

ويبدو أن الماتريدى قد وقف على آراء بعض الطوائف والفرق التى شكت فى الأخبار بصفة عامة وفى أخبار الانبياء بصفة خاصة سعيا الى ابطال النبوة وانكارها . وقد نسب مؤرخوا الفرق الأسلامية معظم هذه الاراء الى طائفة البراهمة او السمنية (١٩) وقد ذهب الماتريدى الى أن من ينكر الأخبار اطلاقاً كمصدر للمعرفة يناقض نفسه لان انكاره ما هو الا نوع من الأخبار ، كما أن مثل هذا الموقف يؤدى الى جهل الانسان بنسبه واسمه واسماء الاشياء التى يتعامل معها ويقود الى جهل مطبق والى عجز كامل عن اعطاء معلومات عن الاشياء المشاهدة ناهيك عن الامور الغيبية (٢٠) .

وقد استند البراهمة وغيرهم ممن انكروا حجية التاريخ وشواهده كمصدر للمعـرفة الى أن الأخبار والروايات التاريخية عـرضة للتحريف والنحل ومن ثم لا ينبغى أن يوثق بها ، وهذا فى نظر الماتريدى لا ينبغى ان يكون سبباً فى رفض الأخبار جملةً وتفصيلاً ، اذ أن مثل هذا التحريف والانتحال انما هو طعن فى أخبار بعينها ولأسباب محددة ومن ثم لا يؤدى ضـرورة الى الطعن او الشك فى صحة كل الاخبار . هذا بالاضافة الى ان هناك أخباراً عديدة قد تأكدت صحتها بما لا يدع مجالاً للشك فيها ، فـلمـاذا لاتتـــخذ هـذه أسـاساًلحكمنا على الأخبار (٢١). ويرى الماتريدى أن خير وسيلة للـرد على مثل هؤلاء هو ان يستخدم معهم طريق السخرية والمزاح فيسأل الواحد منهم عن ماذا يقول حين ينكر ، فاذا أعاد ما قاله يكون بذلك قد أثبت خبراً لأن قوله الاول اصبح فى حكم الماضى ، والاكفى الانسان شـره . ويمكن ان نستخدم وسيلة اخرى لاقناع امثال هؤلاء وذلك بان يخضعوا لألم مادى فأذا ما تألم الواحد منهم وعبر عن هذا الألم بكلام تجوهل عليه واخبر ان ما يعبر عنه وتعبيره مجـرد اخبار لا حقيقة له ولا يحمل اية معلومات او يوصلها (٢٢).

اما ما أتى به الرسل من أخبار عن الغيب وحياة الناس الماضية ، فيرى الماتريدى أنها احق واجدر بالقبول من الأخبار العامة لأنه ليس هناك من الأخبار ما هو أوضح واصدق من أخبارهـم وذلك بسبـب الدلائل والبراهين التى تثبت بما لايدع مجالا للشك صدقهم وصحة

المصدر الذى استقوا منه هذه الأخبار . ومن ثم فأن من ينكر او يجحد مثل هذه الأخبار جدير أن يوصف بالتعنت والمكابرة (٢٣).

ولكن هذه الأخبار قد اتت الينا ونقلت بواسطة سلاسل من الرواة الذين هم كبشر غير معصومين ، وعرضة للخطأ والكذب ومن اجل ذلك ينبغى ان تخضع هذه الأخبار للتمحيص فان ثبتت صحتها وثبت صدق روايتها سميت هذه الاخبار بالاخبار المتواترة ولزم الانسان التصديق والعمل بها (٢٤). وهناك نوع اخر أدنى درجة فى الصحة من هذه ، وينبغى ان تخضع هذه ايضاً لفحص دقيق فى متنها وسندها لمعرفة مدى صحة سندها ومطابقة متنها للقرآن او الأحاديث الصحيحة الاخرى ، ووفقاً لنتيجة هذا الفحص يعمل بهذه الاحاديث والأخبار او لا يعمل بها (٢٥).

ودفاع الماتريدى عن الأخبار المتواترة او الأحاديث يبدو أنه موجه ضد بعض المعتزلة الذين يقال انهم انكروا قيمة التواتر فى السندكأساس للصحة اوالصدق . وقالوا انه من المحتمل أن يكذب واحد من رجال سند الحديث ، بل يمكن تواطئهم جميعاً على الكذب . وقد ذكر ابوعيسى الوراق(٢٦) كواحد من اولئك الذين نقدوا الأحاديث المتواترة وانتهى الماتريدى بعد رد ارائه فى هذا الصدد الى تأكيد التواتر فى الأخبار وأن القول بأنكار التواتر وحجيته يؤدى الى رفض التأريخ والوحى والى انكار كل المعارف الأنسانية سواء منها ما يتعلق بهذه الحياة او الحياة الآخرة . (٢٧).

٣ـ النظـر او العقـل :

يعتبر الماتريدى العقل والنظر المصـدر الثالـث للمعـرفة ، وقـد استخدم مصطلحات « النظـر» و«الاستدلال » و « العقـل » للـدلالة على حركة النشاط العقلى فى اقامة البراهين وتركيب القضايا المنطقية. وقـد اعـطى المـاتريدى العقل مكانة كبيرة فى نظريته عن المعـرفة فأعتبره حاكماً ضـرورياً ولازماً على تلك المعارف التى نكتسبها عن طريق حواسنا او نعتمد فيها على الأخبار ، خاصة فى تلك الحالآت التى يحدث فيها اختلال فى مدارك الحس او اضطـراب فى الأخبار ومصـادرها . فالعقل هنا لازم ليتميز لنا عن طريقه وجه الحقيقة ، ونميز به بين صدق دعوى الرسل ودعاوى المخادعين (٢٨).

وقد اعتمد الماتريدى على القرآن فى دفاعه عن مشروعية النظر واثبات أن العقل مصدر من مصـادر المعـرفة اليقينية . واشار الى العديد من الآيات القـرآنية التى تحث الانسان على التفكير فى آيات الله فى الكون ، والتدبر فيها ، وتأمر النـاس بالتأمـل فيمـا يحيط بهم من مخلوقات وفى انفسهم وما فيها من عبر : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (٢٩). « افلا ينظـرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال كيف نصبت، والى الأرض كيف سطحت » (٣٠)... ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ومـا أنـزل الله من السماء من ماء فاحيابه الارض بعد موتها وبث

فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض ، لآيات لقوم يعقلون » (٣١) «وفى أنفسكم أفلا تبصرون »(٣٢). ففى هذه الآيات وما يماثلها رغب الله فى النظر وألزم الأعتبار وامر بالتفكر والتدبر ، وأخبر أن ذلك يوقف الناس على الحق ويبين لهم الطريق (٣٣).

وبالاضافة الى هذه الادلة المستمدة من القرآن ، فأن هناك كثيراً من البراهين العقلية التى تشير الى ضرورة استخدام العقل كوسيلة للمعرفة . فالعقل وسيلة هامة لمعرفة الله تعالى عن طريق معرفة الحكمة فىخلقه للعالم . كما أنه ايضاً ضرورى كأداة يستغلها الانسان فى سبيل عمارة الارض التى سخرها الله تعالى له . كما أنه مرجع هام للحكم على حسن الاشياء وقبحها بعد تحديد هذا القبح والحسن عن طريق الحس والخبر . وهذا كله يبين اهمية العقل والنظر ودوره فى معارف الانسان ، بل ان من ينكر دور العقل واهميته يحتاج الى استخدام العقل نفسه ليثبت رأيه هذا ، وهذا فى رأى الماتريدى اوضح برهان على اهمية العقل (٣٤) . فمشروعية النظر والفكر اذن يثبتها الشرع ويبررها العقل وتسندها براهين المنطق وادلته .

وقد بين الماتريدى وهن الحجج التى اعتمد عليها المنكرون للنظر والتدبر . اذ أن هؤلاء ذهبوا الى أنه ليس هناك ضمان من ان النظر العقلى سيؤدى الى معرفة حقائق الاشياء كما ان الاعتماد على العقل سيكل الانسان الى نفسه ويجعله مسئولاً عن الوصول الى معرفة حقائق الاشياء مع ان الامور كثيراً ما تختلط فى العقل فلا يدرى

الانسان ما هو من عند الله وما هو من وحي الشيطان . من اجل ذلك كله يرى هؤلاء أنه من الأسلم للانسان تجنب النظر اطلاقاً والاعتماد على الوحي والالهام . ولم ينسب الماتريدى هذه الآراء الى طائفة معينة ، وربما تمثل اتجاها عند بعض الفرق المتطرفة التى لجأت الى المعرفة الغنوصية او اعتمدت على النص من غير اعمال فكر او نظر . وقد أكد الماتريدى لهولاء ان ترك النظر يؤدى لاالى النجاة والسلامة بل يقود الى عطب الانسان وهلاكه ، لان الانسان بفطرته كائن مفكر وهو دوماً يسأل عن ذاته و مصيره ومبدأه وما ينفعه وما يضره الى غير ذلك من الاسئلة التى لا يمكن الانسان أن يتفاداها او يتجاهلها ، فبحكم فطرته وطبعه الانسان كائن مفكر . هذا بالاضافة الى أن الانسان محاط فى هذه الحياة بكثير من المخاطر والمزالق التى لواتبعها ستقود الى هلاكه وهو ملزم بان يبحث عن ما ينفعه ويفيده ويتجنب ما يؤذيه ، ويتحقق هذا اما عن طريق اتباع من يوثق به والعقل هنا ضرورى لمعرفة مدى صدق مثل هذا الشخص ، او أن يلجأ الانسان الى استخدام حكمته وعقله ، واذن لامنجاة للانسان فى كلا الحالين عن استخدام العقل والنظر (٣٥).

ويرى الماتريدى ان الشيطان هو الذى يسول للانسان ترك النظر وعدم استخدام العقل لأن استخدام العقل والنظر يغلق على الشيطان المنفذ الذى ينفذ منه للانسان ، اذ ان الانسان الذى يشغل نفسه بالتفكير فى طبائع الاشياء ومبادئها ونهاياتها سعياً الى معرفة خالقها

ووجوده سينصرف عن الألتفات الى الاشياء التى فيها هلاكه والتى يغرى بها الشيطان ، هذا بالاضافة الى ان التفكير والنظر اما ان يقود الانسان فى النهاية الى معرفة انه مخلوق وان له خالقاً يحاسبه ويعاقبه ومن ثم ينتهى به الفكر الى اتباع اوامره وتجنب نواهيه وينال بذلك السعادة فى الدنيا والآخره ، او يقوده النظر الى فكرة مضادة لهذه وينتهى به الى سعادة الدنيا والتمتع بملذاتها مع العذاب والشقاء فى الآخرة ، او ينتهى به الامر الى اكتشاف انه يستحيل عليه الوصول الى نتيجة فاصلة فى مثل هذه المواضيع . وفى جميع هذه الاحوال تتبين فائدة النظر واهمية التفكير للانسان (٣٦).

العلاقة بين العقل والوحى :

بالرغم من أن الماتريدى أكد اهمية العقل وجعل له مكانةً بارزةً متميزة فى نظريته فى المعرفة ، فأنه كان مدركاً لقصور العقل وان هناك حدوداً لا ينبغى له ولا يمكنه ان يتعداها فطبيعة المعرفة العقلية محدودة بما تمدنا به حواسنا او نستنبطه بوسائل الادراك . ومثل هذه الوسائل تقصر عن بلوغ حقائق كثير من الاشياء ، بل ان طبيعة المعرفة العقلية لا تتعدى فى كثير من الاحيان التمييز بين الاشياء اتفاقاً واختلافاً ، فالعقل يدرك الاسباب وراء الظواهر كما أنه يستطيع البرهنة على ما بين الاسباب والظواهر من ارتباط ، ولكنه يقصر عن معرفة حقائق الاشياء فى ذاتها (٣٧).

فدور العقل اشبه ما يكون بدور الدليل او المرشد الذى يرشد

الى مسالك المدينة المختلفة ودروبها ولكنه لا يستطيع ان يعطى صورة دقيقة متكاملة عن ما تحتويه المدينة من حقائق واسـرار . وهذا يبدو اكثر وضوحاً بالنسبة للمسائل الميتافيزيقية ، اذ ان العقل يعجز تماماً عن أن يعطينا تصوراً دقيقـاً لذات الله تعالـى وحقيقة صفاتـه فـهذا امـرووراء طوره وادراكه ، ولذلك لـزمت الحاجة الى الوحى لبيان هذه الاشياء (٣٨).ولأهمية هذه القضية ، قضية العـلاقة بين الوحى والعقل كرس الماتريدى جزءاً كبيراً لمعالجتها وبيانها وتحديـد دور العقـل داخل اطار الدين . فوضح دور الوحى واهميته بالنسبة لـلانسان فيما يتعلق بشئون دينه ودنياه ، وذهب الى أن الوحى كان المصدر الاول لمبادى المعـارف الانسانية التى تتعلق بشئون حياته الدنيوية من طب و طعام وحـرف وصناعات وتربية ولغـات الخ ... فبالـرغم من اننا نتلقى هذه المعارف ونهتدى الى هذه الأشياء بتجاربنا وعقولنا ، فان مبادئ هذه الصناعات والعـلوم قد أتت عن طريـق الوحـى ، والا لو ترك لـلانسان ان يكتسبها من البدآية لظل يجرب ويعيد تجاربه الى درجة قد تقود الى هـلاكه فى هذا السبيل (٣٩).كذلك نجد ان العقل يوجب علينا معـرفة الله ووجوب شكره على ما أنعم به ، ولكنه لا يستطيع ان يرسم لنا الطريقة التى يؤدى بها هذا الشكر . وبالمثل نجد أن الانسان مهيئ بحكم خلقته وفطـرته لعبادة خالقه ولكنا لا نجد فى العقل تحديداً لنوع هذه العبادة ولا كيفية ادائها ، كل ذلك مصدره الوحى والشـرع فقط ، ومن ثم كانت الحاجة اليه ، وكان ضـرورياً لـلانسان فى هذا

المجال (٤٠). هذا بالاضافة الى ان الناس لو تركوا وعقولهم لما إتفقوا على شئ بل لانتهى بهم الامر الى الاختلاف والفرقة وهذا واضح بالمشاهدة ، ومن ثم لزم وجود سلطة تفوق العقل وتعلو عليه وتوجه الناس وتحفظ عليهم وحدتهم . كذلك نلاحظ أن معارف الناس محدودة وهم متفاوتون فيها من شخص الى اخر ولا يبعد ان يعجزوا جميعاً عن الوصول الى كثير من المعارف ومن ثم كان الوحى مصدراً مهماً لأمدادهم بما فيه صلاحهم ومنافعهم من العلوم التى لم يستطيعوا الوصول اليها . ثم ان العقل البشرى قابل للتأثر بالرغبات والدوافع والعادات والألفة ، الأمر الذى قد يعوقه عن الوصول الى بعض المعارف اليقينية للاشياء ، ومن هنا كانت الحاجة الى الوحى كمصدر موثوق به غير قابل للتأثر بظروف خارجيه . واخيراً يذهب الماتريدى الى ان الأشياء غير المحسوسة يصل اليها الانسان اما عن طريق الاستنباط من المحسوسات كما يستدل بالدخان على وجود النار ، وبالضوء على الشمس ، وعلى الاثر بالمؤثر او عن طريق الأخبار التى تنقل الينا حقائق الاشياء التى لم نشاهدها ، والوقائع التى تقع خارج دائرة تحركنا. ومن هذا النوع الأخير كل الأمور المتعلقة بذات الله تعالى وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده فهذه لا سبيل الى معرفتها الا عن طريق الخبر من الرسول (اى الوحى او الشرع) (٤١).

والدفاع عن الوحى واهميته هو فى الواقع دفاع عن الدين بصفة عامة وهذا ما أكده الماتريدى وركز عليه وبين أن الدين هو مصدر

الوحدة بين الناس كما انه ملجأهم حين تختلف عقولهم وتحار أفكارهم ... وقد ظل التدين او العقيدة يلعب دوراً هاماً فى حياة الانسان ، وهذا ما يشهد له تاريخ البشـرية الذى يكشف لنا ان الانسان لا يمكنه ان يعيش من غير عقيدة وغاية وهدف مهما كانت هذه العقيدة وتلك الغاية وذلك الهدف . ومن ثم نجد أن الملوك كى يضمنوا خضوع الناس لهم يختطون سياسات معينة ونظماً يحاولون ان يجمعوا حولها الناس ، والمصلحون يقدمون للناس برامـج اصـلاح معينة ، والرسـل يأتـون برسالات من عند الله لتنظيم حياة الناس ، كل ذلك يشهد بأن الانسان لا يمكن ان يحيا من غير عقيدة وهدف (٤٢).

والعقل ايضا يؤكد اهمية الـدين بالنسبة لـلانسان اذ لا يتصـور عقلا ان الناس خلقوا عبثاً او ان حياتهم تنتهى بموتهم ، بل ان العقل السليم يستلـزم وجود حياة اخرى وغاية من وراء حياتنا الدنيا . ولو ترك الناس وعقولهم من غير هداية الهية ، لانتهى بهم الامر الى الشقاق والفـرقة والتناحر ومن ثم كانت الحاجة الى الـدين من اجل استقـرار الحياة الانسانية . وفوق ذلك كله لايمكن لله العالم الحكيم ان يترك الناس من غير عون لهم اوهاد يوجههم الى ما ينفعهم فى حياتهم الـدنيا والآخره (٤٣) . وهكذا نجد ان العقل وشهادة السمع او الشـرع يحكمان بضـرورة الـرسالات الألهية ، بل ان المجتمـع فى رأى الماتريدى لا يمكنه الاستقامة الا عن طـريق وحى الهى وشـريعة تنظم حياة الناس وتضع لهم اسس السلوك وقـواعد النظام (٤٤) .

هذا التصور الاسلامي الذى اكده الماتريدى عن الوحي واهميته قوبل بمعارضة من بعض الطوائف ، بعضها ملحد لا يؤمن بوجود اله ، وبعضها مؤمن بأن هناك اله خالق للكون ولكن رأى هؤلاء أنه لا ضرورة للوحي ، وزعموا أن العقل البشرى يمكنه أن يصل الى معرفة الله والتمييز بين ما هو خير وشر . وقد رفض هؤلاء فكرة الوحي وانكروا دور الرسل كحاملى رسالات الله الى البشر ، واحتجوا بأن رسالات الانبياء اما أن تتفق مع حكم العقل ومن ثم ستكون لا فائدة منها ، واما أن تكون مناقضةً له وعندئذ سيكون من المستحيل التصديق بها والتسليم بصحتها . وفى كلا الحالين لا داعى لارسال الرسل مادام العقل البشرى يقوم بمهمتهم . وقد زعم هؤلاء ان هناك تناقضاً بين العقل والوحي اذ ان الرسل اباحوا أشياء وامروا بافعال يعتبرها العقل قبيحة كقتل الحيوان الأليف وذبحه ، ولما كان الله الحكيم لا يأمر بما هو قبيح فى العقل فالرسل اذن لم يبعثهم الله تعالى (٤٥). وقد نسبت هذه الآراء الى البراهمة (٤٦) . ومن تأثر بهم كمحمد بن زكريا الرازى (ت ٩٢٥) (٤٧) وابو عيسى الوراق الذى سبقت الاشارة اليه ، وابن الراوندى (٤٨).

وقد اشار الماتريدى بصفة خاصة الى البراهمة والى ابى عيسى الوراق وبين تهافت اراءهما فى هذا الصدد ، وأكد انه لا يمكن ان يكون هناك تعارض بين الوحي والعقل فى حكمهما على الأشياء وما نتوهمه من تعارض بين العقل والشرع انما مرده الى قصور من

جانبنا وسوء فهمهم لطبيعة الاشياء التى نصدر أحكامنـا عليها . اذ أن الاشياء بالنسبة للحسن والقبح نوعان : بعضها قبيح فى ذاته او حسن بصـرف النظـر عن الظـروف والاحوال التى تحيط به ، والبعض الاخر قد يكون حسناً تارةً قبيحاً تارةً أخرى وفقاً لـظـروف معينة يوجد فيها . وهذا النوع الاخير ليس من السهل معـرفته او الوقوف على حقيقته بالعقل بل يحتاج الى وحى من عنـد عليـم خبيـر بكل الـظـروف والأحوال والأشياء . وذبح الحيوان الأليف وقتله من هذا النوع الأخير فهو ليس فى ذاته شـراً والا لما أتى الشـرع واباحه فى بعض الاحيان، بـل ان العقـل يوجب القتل فى بعض الاحيان كما فى حالة الـدفاع عن النفس او حماية المجتمع من شـر البغاة . ثم أن هؤلاء البراهمة قد خلطوا بين أحكام العقل وأحكام الطبع ، ويرى الماتريدى ان هناك فارقاً هاماً بين هذين : فلا خلاف ابداً بين حكم العقل والوحى ولكن الاختلاف يكون دوماً بين الوحى وحكم الطبع ، لان حكم العقل على الاشياء حسناً وقبحاً حكم ثابت لا يرتبط باحوال او بظـروف معينة ، ولا يتغير لتغير تلك الاحوال والظـروف ، بينما أحكام الطبع تختلف وتتغير وترتبط بالطبائع والعادات وتغيرها واختلافها .(٤٩)

والحكم بقبح ذبح الحيوان الأليف وقتله مـرده الى طبائع الناس وعاداتهم . ويضـرب الماتريدى مثلا على امكانية تغير احكام الطبع وتحولها بالحيوانات المتوحشة من طيور ودواب . والتى يصعب قيادتها. ولكن حينما تروض هذه الحيوانات وتؤلف يلين قيادها ويحبب اليها

ما كانت تنفـر منه ، فالطبائع هنا تتغير وتتبدل تبعا لتغير الظـروف . ومن هذا القبيل قتل الحيوان الأليف وذبحه ، فكون طائفة من الناس نفـرت منه او تقـززت استجابة لعاداتها والفها أو لطبائعها لايدل على قبح ذبح الحيوان لأن هؤلاء اذا ما تغيرت ظـروف حياتهم سيعتادون عليه ولا يرون فيه قبحاً . ولكن مثل هذا التذبذب لا يحدث ابداً بالنسبة لأحكام العقل فما قبيح وحسن بالعقل يزداد قبحا وحسنا كلما اعمل الانسان فيه فكره ، ومن اجل هذا جعل الله سبحانه وتعالى العقل لا الطبع أساساً للتكليف والمسئولية (٥٠).

وهذا الاختلاف بين العقل والطبع ليس شيئاً عارضاً بل يعود فى الاساس الى حقيقة كل منهما ، اذ الطبع يميل دوماً الـى اللـذات العاجلة ، ويدعو الانسان اليهاويشجعه علىاكتساب ما يجلب عليه نفعاً قـريباً وتجنب ما يؤذيه ، بينما العقل على العكس من ذلك يكشف لـلانسان حقائق الاشياء من حيث قبحها وحسنها الذاتـى بصـرف النظـر عن ما تجلبه من ألم او حسرة عاجلة . فالطبع لا يمكن ان يعطى مثل هذا الحكم لأنه مهتم باللحظة الحاضرة بينما العقل مهتم بالحاضر والمستقبل ومن ثم فهو اقدر على الحكـم على الافعـال من حيـث قبحها وحسنها الذاتى . وهكذا يرى الماتريدى انه ليس هناك تناقض بين العقل والوحى من حيث حكمهما على الحسن والقبح الذاتى فى الافعال ، وما يبدو من تناقض ظـاهر انما مـرده الى ان احكامنا مستمدة من الطبع لا من العقل (٥١).

فالعقل اذن اسمى درجة من الطبع ولكن للعقل الانسانى حدوده واوجه قصوره ، فهو عـرضة ايضا للمؤثرات الخارجية التى تحول بينه وبين ادراک القيم الحقيقية او الذاتية لـلاشياء ومن هنا تأتى الحاجة للوحى . وبالاضافة الى ذلک فأن العقل ان امكنه الوصول الى معارف حقيقية مطابقة لما هو مأموربه ومنهى عنه بالوحى ، فأن هناک امورا بين هذه اسماها الماتريدى الممكنة ، لا يتضح الحكم فيها بطـريقة قاطعة ، فالعقل لا يستطيع ان يصل فيها الى حكم حاسم ، والفيصل فيها من ثم الوحى . „ الاصول ثلاثة : ممتنع وواجب وواسط ، وهو الممكن ، وعلى ذلک جميع امر العالم ، فالواجب فى العقل بجهة لا يجوز مجئ الخبر بغيره ، وكذلک الممتنع ، ويجئ فى الممكن اذ هو المتقلب من حال الى حال ويد الى يد ، وملک الى ملک وفى ذلک ليس فى العقل ايجاب جهة والامتناع من جهة فتجئ الـرسل ببيان الاولى من ذلک فى كل حال » (٥٢).

فالوحى اذن اسمى درجة من العقل ، ومهما بلغت درجة العقل فانه ليس فى امكانه الاستقلال عن الوحى والشـرع . ولـكن فى اطـار الشـرع او الدين نجد ان للعقل دوراً هامـاً يلعبـه . اذ انـه شـرط ضـرورى للتكليف . ويذهب الماتريدى الى ان الانسان اذا كان عاجزا عن فهم اوامر الشـرع وادراكها مع استنفاذ طاقته من اجل ذلک فهو اذن ليس مخاطبا بها ، لان تكاليف الشـرع جعلت للفهـم اولا ثم العمل ، ويخاطب بها ويلزم الانسان العاقل المدرک . كذلک يذهب

الماتريدى الى ان الانسان العاقل ملزم بمعرفة الله تعالى وعن طريق النظر فى المخلوقات ينتهى العقل الى الايمان بوجود الله تعالى وقدرته . فمعرفة الله اذن تكتسب بالاستدلال ، وما دام الانسان قد زود بملكات الفكر والتدبر وامر ان يفكر فى نفسه وفي ماحوله ومن حوله ، فهو ملزم بالقيام بهذه الوظيفة ، وان يعرف الله عن هذا الطريق (٥٣). وينسب الى الماتريدى القول بأنه لو لم يبعث الله رسولا فالانسان مكلف بالتفكير ولا عذر له عن عدم معرفة بخالقه ما دام قد منح العقل وقوة التفكير (٥٤).

ولاشک ان هذا الرأى لا يتفق مع مدلول الايات القرآنية التى تربط الحساب والعقاب بارسال الرسل مثل قوله تعالى « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما» (٥٥) وقوله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(٥٦) والتى فهم منها الأشاعرة أن التكليف مرتبط بارسال الرسل وان العقل وحده لايلزم الايمان بالله او معرفته ، وان الانسان غير معاقب على اعماله او اعتقاده قبل ارسال الرسل (٥٧). ولكن الماتريدى اتفاقا مع المعتزله ذهب الى ان « الحجة » المشار اليها فى الاية تتعلق بالعبادات والشرائع والتى لايمكن معرفتها او ايجابها الا عن طريق الوحى وحده ، اما العقيدة او الايمان فيلزم عن العقل وبه يجب ، لان الانسان قد اعطى عقلا ويحمل من الدلائل والبراهين التى لو استخدمت لبرهنت على وجود الله ووحدانيته وربوبيته (٥٨).

وهكذا يضع لنا الماتريدى تصوراً متكاملاً لنظرية فى المعرفة يتناول فيه مصادرها من حس وخبر وعقل ويذهب فيه الى أن الحواس اساس المعارف الانسانية ، كما أن الانسان يتلقى كثيرا من معارفه عن طريق التلقى او الأخبار ، ولكن المعرفة الحسيه والخبرية . عند الماتريدى اقل درجة من المعارف المستنبطة عن طريق العقل ، اذ أن العقل حاكم على الحس وعلى الأخبار . ولكن من ناحية اخرى نجد العقل اقل درجة من الوحى بل انه يقصر عن الوصول الى المعارف اليقينية فى كثير من الحالات التى تقع فى دائرة الوحى . وفى اثناء معالجته لهذه القضايا تناول الماتريدى اراء الطوائف المناهضة لامكانية اكتساب المعرفة عن طريق الوسائل المشار اليها كالسوفسطائيين وغيرهم ممن انكروا امكانية العلم او حاولوا انكار الوحى والنبوة والشرائع . وتكتسب اراء الماتريدى هذه اهمية خاصة اذ انها تمثل اقدم محاولة لمعالجة هذه القضية فى اطار علم الكلام الاسلامى .

●

هوامش البحث

١ـ الماتريدى : كتاب التوحيد ، المقدمة : ص ١٠ حقق هذا الكتاب وقدم له دكتور فتح الله خليف ، بيروت ١٩٧٠ .

٢ـ ابو محمد عبد الكريم بن موسى البزدوى (ت ٣٩٠ هـ ـ ٩٩٩م) له كتاب « اصول الدين » الذى يبدو أثر الماتريدى واضحاً فى موضوعاته ومنهجه بل وحتى فى عباراته ومصطلحاته .

٣ـ البـزدوى : اصول الدين ، ص ٣

٤ـ الماتريدى : تأويلات اهل السنة ، مجلد ١ ص ١٩/٨

٥ـ يذهب كمال الدين البياضي الى ان الماتريدى لم يبتكر طريقة بل هو مفصل وشارح لمذهب الامام أبي حنيفه : اشارات المرام من عبارات الامام ص ٢٣ .
انظـر : السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ج ٣ ، ص ٣٨٤ وما يتلوها .
اما الكتب التي ركزت على المقارنة بين الأشاعرة والماتريـدية فهي متأخرة نسبياً ولعل اول كتاب وردت فيه هذه المقارنة هو كتاب : الروضة البهية فيما بين الأشعرية والماتريدية ، لأبي عذبة طبعة حيدر آباد : ١٣٢٢ هـ

٦ـ صدر الجزء الاول عام ١٩٧٠ ـ ١٣٩١ هـ حققه وعلق عليه الدكتـور ابراهيـم عوضين والسيد عوضين .

٧ـ الأشعـرى : مقالات الاسـلاميين واختلاف المصليين . ج ٢ ص ٣١ ـ٣٥ ، ٦٩ ، ٧٧ـ٧٩. الشهرستانى : الملل والنحل ، ج ١ ص ٥٩ . الجوينى ، الأرشاد ص ٨ القاضى عبد الجبار : الأصول الخمسة ، ص ٨٨ زهدى حسن جار الله ، المعتزله ، ص ١٠٧ ـ ١٠٩ .

٨ـ لانجد هذا المنهج عند الاشعرى المعاصـر للماتريـدى بينمـا نجـد ان معظـم المتكلمين الذين اتوا بعد الماتريدى ينتهجون هذا النهج ، راجع مثلا : الباقلانى كتاب التمهيد . البغدادى : اصول الدين . الجوينى : الارشاد ، الشامل فى اصول الدين ، الرازى : محصل افكار المتقدمين والمتأخرين، الايجى : المواقف .

٩ـ الماتريدى : كتاب التوحيد ص ٣ ـ٤ .

١٠ـ نفس المرجع ص ٦ .

١١ـ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص : ٤٥ ـ٤٦ .

١٢ـ الغـزالى : احياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ١٦ . التفتازانى : شـرح العقائد النسفية، ص : ٤٦.

١٣ـ الماتريدى : توحيد ، ص ٦.

١٤ـ الماتريدى : تأويلات سورة يس آية ٧٨.

١٥ـ الماتريدى : توحيد ص :٧.

١٦ـ نفس المصدر : ص ٢٥ ـ٢٦

١٧ـ نفس المصدر : ص ٢٦ .

١٨ـ نفس المصدر :ص ١٥٤ .

١٩ـ الباقلانى : التمهيد : ص ١٠٤ ـ ١٢١ البغدادى اصول الدين . ص ١١ـ١٢
التفتازانى : شرح العقائد النسفية : ص ٣٤ ـ ٣٥ .

٢٠ـ كتاب التوحيد : ص ٧

٢١ـ نفس المصدر ص ٢٦ـ ٢٧ .

٢٢ـ نفس المصدر ، ٨ ، ٢٧ .

٢٣ـ نفس المصدر ص ٨

٢٤ـ نفس المصدر ص ٨ـ٩

٢٥ـ نفس المصدر : ص ٩

٢٦ـ ابوعيسى الوراق (ت ٢٤٧ـ٨٦١) كان من المعتزلة ثم خرج عليهم واتهم باتبـاع المذهـب المانـوى انـظـر
(S.M. Stern) Vol. I P.130 - Encyclopedia of Islam, art . Abu— Isa al— Warrak
وقد نسبت بعض هذه الاراء ايضا الى : النظام واتباعه من المعتزله انظر : البغدادى ، اصول الدين ص ٢٠ الأيجى : المواقف ج ٨ ص ٣٨٠ .

٢٧ـ توحيد ص ١٩٧ وما يتلوها

٢٨ـ نفس المصدر ص ٩

٢٩ـ فصلت : ٥٣

٣٠ـ الغاشيه : ١٧ ـ٢٠ .

٣١ـ البقرة : ١٦٤

٣٢ـ الذرايات : ٢١

٣٣ـ توحيد : ص١٠

٣٤ـ نفس المصدر ص ١٠ـ١١

٣٥ـ نفس المصدر ١٣٥ ـ١٣٦

٣٦ـ نفس المصدر ١٣٦

٣٧ـ نفس المصدر ٢٦٧

٣٨ـ الماتريدى : تأويلات الاعراف ٥٤

٣٩ـ توحيد : ١٧٩ ـ١٨٠

٤٠- نفس المصدر ١٨١

٤١- نفس المصدر ١٨٢ ، ١٨٣ -١٨٥

٤٢- نفس المصدر ص ٤

٤٣- نفس المصدر ص ٤-٦

٤٤ . نفس المصدر : ص ١٨٦

٤٥ - نفس المصدر ص ٢٠٠ -٢٠١

٤٦- E. 1 2 Vol.I art. Barahima), (Fazlur— Rahman) P.1031.

٤٧ - عبدالرحمن بدوى ، من تاريخ الالحاد فى الاسلام ، ص ٢٠١ - ٢٠٦ .

٤٨- ابوالحسن احمد بن يحى بن اسحق ولد فى بداية القرن الثالث الهجرى ، وقد كان من المعتزلة ثم اصبح شيعياً ، وبتأثير من استاذه الوراق اعتنق بعض الاراء الالحادية ووصف بالزندقة انظر :

Enyclopedia of Islam, art. Ibn—ar—Rawandi (P.Kraus, G. Vejda) PP.905—6

٤٩- توحيد ص ٢٠١ -٢٠٤

٥٠- نفس المصدر ص ٢١٨ -٢١٩، ٢٤٣

٥١- نفس المصدر ص ٢٢٣- ٢٢٤

٥٢- نفس المصدر ص ١٨٤

٥٣- نفس المصدر ص ١٣٧

٥٤- شيخ زاده ، كتاب نظم الفرائد وجمع الفوائد فى بيان المسائل التى وقع فيها الاختلاف بين الماتريدية والأشعرية ص ٤٦ -٤٩

٥٥- النساء :١٦٥

٥٦- الاسراء .١٥

٥٧- الأيجى : المواقف ، ج ١ ص ٣٧١

٥٨- تأويلات القرآن : النساء ١٦٥

★ ★ ★

لمحات عن وظيفتى الفتوى والرقابة الشرعية فى البنوك الاسلامية

حسن محمود عبداللطيف الشافعي

ان الموضوع الذى نتناوله اليوم - بغية القاء الضوء على بعض جوانبه ، موضوع جليل الخطر متعدد الأبعاد . وتعد العناية به أحد المعالم البارزة والخصائص المميزة لحركة الاقتصاد الاسلامى الحديثة ، ومن أمارات التوفيق الالهى لها ، اذ تحرص على تحقيق المصالح الاسلامية فى اطار الشريعة الحنيفية الخالدة .

ومدار هذا الموضوع على ثلاث مسائل شرعية :

أ - أولاها وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو حكم فقهى عملى ، وقاعدة شرعية عامة فى نفس الوقت ، يرتبط بها الكثير من الأحكام الفرعية التفصيلية ، مما حدا بالبعض الى رفعها لمرتبة الأصول الاعتقادية ، ولذا فان علماء أهل السنة يدرسونها فى أصول الدين وان كانت تتناول أيضا فى علم الفقه ، وفى سياقها من علمى التفسير والحديث .

ب - والمسألة الثانية : مسألة الحسبة ، وهى صورة من الصور العملية التى نشأت عن التطبيق العملى للمبدأ السابق (الأمر

بالمعروف والنهى عن المنكر) ، وان كانت تركز بصفة خاصة على شئون المعاملات التجارية ومظاهر الآداب والنظام العام ، ولذا فهى تدرس عادة فى الكتب الفقهية التى تعنى بالشئون الادارية والسياسة الشرعية للدولة الاسلامية .

ج - والمسألة الثالثة : مسألة الفتوى ، وهى مسألة أصولية يدرسها علماء أصول الفقة اذ أن يعرضوا للمجتهد الذى يتولى بيان أحكام الله تعالى فى الوقائع والنوازل .. وقد صارت بدورها وظيفة أو ولاية شرعية منذ الصدر الأول والى أيامنا هذه ليتعرف من ليسوا من أهل العلم أحكام دينهم .

وموضوعنا - كما هو واضح - أكثر مساسا بالمسألتين الاخيرتين ، فالرقابة الشرعية فى البنوك ضرب من الحسبة المتخصصة من حيث الموضوع ، بمجال الولاية ، وكذا الفتوى هى الوظيفة الشرعية المشار اليها آنفا ، وان كانت أيضا متخصصة من الناحيتين السابقتين ، ولكن المسألة الأولى هى القاعدة الأساسية التى تقوم عليها كلتا الوظيفتين المذكورتين من الناحية الشرعية ، ولذا سنبدأ بها كمدخل طبيعى للموضوع كى نخلص الى كلمة عن الفتوى ، وأخرى عن الرقابة من بعض الجوانب التى قدتهمنا فيما نحن بصدده الآن ، ونختم هذه اللمحات السريعة بخاتمة نقدم فيها مقترحات متواضعة لدعم هاتين الوظيفتين الشرعيتين فيما يستقبل من عمل البنوك الاسلامية ان شاء الله .

أولا : تمهيد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

١ـ المعروف هو كل ماعرفه الشارع وحكم بحسنه ، والمنكر ما أنكره ونهى عنه ، والأمر بالأول والنهى عن الثانى واجب كفائى على الأمة ، وقد يتعين فى بعض الأفراد ، وهو جماع الدين كله كما يقول شيخ الاسلام ابن تيميه : « ... واذا كان جماع الدين وجميع الولايات هو أمر ونهى ، فالامر الذى بعث الله به رسوله هو الأمر بالمعروف ، والنهى الذى بعثه به هو النهى عن المنكر ، وهكذا ورد نعت النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، كما قال تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وهذا واجب على كل مسلم قادر ، وهو فرض على الكفاية ، ويصير فرض عين على القادر الذى لم يقم به غيره ، والقدرة هى السلطان والولاية ، والذين بيدهم السلطان والولاية أقدر من غيرهم ، وعليهم من الوجوب ماليس على غيرهم ، فان مناط الوجوب هو القدرة ، فيجب على كل انسان بحسب قدرته ، كما قال تعالى . فاتقوا الله ما استطعتم » (١) .

ويقول النووى فى شرحه على صحيح مسلم : « ثم ان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية ، اذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين ، واذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلاعذر ولاخوف . ثم انه قد يتعين كما اذا كان فى موضع لايعلم به الا هو ، أولايتمكن من ازالته الا هو ، كمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه

على منكر أو تقصير فى المعروف ... ولايسقط عن المكلف لكونه لايفيد فى ظنه ، بل يجب عليه فعله ، فان الذكرى تنفع المؤمنين . وقد قدمنا أن الذى عليه الأمر والنهى لا القبول ، وكما قال الله عزوجل . „ ما على الرسول الا البلاغ ...“(٢) .

٢ـ وقد أكد النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه هذا الواجب التضامنى على الأمة فى اقامة الشريعة والالتزام بأحكامها ، وأزال ما قد يشوب ذلك من سؤ الفهم أحيانا „ سئل صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (يا أيهاالذين آمنوا عليكم أنفسكم) فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى اذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا و دنيا مؤثرة واعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام (٣) . فهو واجب لايسقط الا فى أحوال الفتن أو ظهور عدم الفائدة ، لامجرد الظن بعدمها أو خشية الضرر الشديد بالآخر .

٣ـ كما بين عليه الصلاة والسلام أن هذا الواجب لايتم القيام به الا بتغيير المنكر وازالته وأقامة المعروف ونصرته ، كل بحسب قدرته وسلطته وولايته ... ولو بالموعظة والنصيحة والبيان ، أو المقاطعه والكراهية ، وذلك أضعف الايمان . روى مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد „ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان “ (٤).

ويعلق عليه الامام النووى رحمه الله „ وأما قوله عليه السلام

«فليغيره » فهو أمر ايجاب باجماع الأمة . وقد تطابق على ايجاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الكتاب والسنة واجماع الأمة وهو أيضا من النصيحة التى هى الدين (٥)(الدين النصيحة ...)

٤ـ وأول ما ينبغى أن يجتنب فيه المنكر ويراعى فيه المعروف هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وذلك بمراعاة الآداب الشرعية فى الأمر والنهى ، وقد لخصها شيخ الاسلام ابن تيمية فى خلال ثلاث : العلم والرفق والصبر ، فلا بد من هذه الثلاثة العلم والرفق والصبر ، العلم قبل الأمر والنهى ، والرفق معه ، والصبر بعده ، وان كان كل من الثلاثة مستصحبا فى هذه الأحوال . وهذا كما جاء فى الأثر عن بعض السلف . ورووه مرفوعا . ذكره القاضى أبويعلى فى المعتمد : لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر الا من كان فقيها فيما يأمر ، فقيها فيما ينهى عنه ، رفيقا فيما يأمر به ، رفيقا فيما ينهى عنه، حليما فيما يأمر به ، حليما فيما ينهى عنه) ...(٦)

٥ـ ولكون العلم والتفقه هو الشرط الأول للقيام بهذا الواجب الشرعى ورد الحض والترغيب ، بل الأمر والايجاب لطلب العلم والفقه ، وربط به أمر الدعوة والنصيحه : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولانفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » (٧) ودعينا للتنافس فى ذلك، ففى صحيح مسلم (٨) (سمعت عبدالله ابن مسعود يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاحسد الا فى اثنين : رجل آتاه الله مالا

فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها » ، قال النووى تعليقا عليه : ورجل آتاه الله حكمة .....» معناه يعمل بها ويعلمها احتسابا ، والحكمة كل مامنع من الجهل وزجر عن القبيح (٩)والقدر الضرورى من العلم أو فرض العين منه هو أن يتعلم المسلم مابه تسلم عقيدته وتصح عبادته ويكتسب رزقه ويقوم بواجباته الضروريه كتربية ولده ونحوه ، فان عرض ما لايعلمه سأل أهل الذكر ... وهنا يأتى دور الفتوى والاستفتاء كما سنعرض له فيما يلى بعون الله

ثانيــا : فى الفتوى ، وخاصة فيما يتعلق بالمعاملات المالية :

الافتاء شرعا هو :«بيان حكم الله تعالى بمقتضى الأدلة الشرعية على جهة العموم والشمول (١٠) والاستفتاء أن يطلب العامى الذى لامعرفة له بالحكم هذا البيان ممن هو أهل لذلك . ولكل منهما شروط و آداب شرعية ، سنلم ببعضها فيما يلى :

١ـ وجوب التفقه فى المعاملات المالية على المشتغلين بها :

من المقرر فى الشريعه أنها عامة شاملة لكل أفعال المكلفين ، فما من واقعة الا ولله تعالى فيها حكمه ، علمه من علمه وجهله من جهله (١١) ولايمكن ان يتعرى الفعل نفسه عن حكم شرعى أبدا (١٢).

٢ـ ومن المقرر أيضا أن المكلف لايصح له أن يقدم على عمل حتى يعلم حكم الله فيه ، فاما علمه بنفسه ، واما سأل عنه العالم به ، فهذا هو ما تعبده الله تعالى به فى كل شأنه .

٣ـ والذى يجب أن نضيفه الى هذين الأصلين ـ فيما نحن بصدده

هو أن كل من يتصدى للاشتغال بالمعاملات المالية من المسلمين ففرض عليه أن يتعلم أحكامها ويتفقه فيها ، وهذا داخل فى فرض العين من العلم الشرعى لافرض الكفاية ، وقد أفاض علماء المسلمين فى ذلک على اختلاف مذاهبهم ، وممن جمع الكثير من أقوالهم فى هذا الأمر الحافظ محمد عبدالحى الحسنى الكتانى الادريسى فى « التراتيب الادارية » اذ يقول :

« عزا بعض المتأخرين الى الترمذى . مرفوعا . (لايبيع فى سوقنا الا من تفقه فى الدين) ولم أجده فى كتاب البيوع من الجامع ، ولافى الجامعين للسيوطى ، ثم وجدته فى كنز العمال معزواله (ص ٢١٨ ج ١) . وفى (تنبيه المغتربين) كان مالک يأمر الأمراء فيجمعون التجار والسوقة ويعرضونهم عليه ، فاذا وجد أحدا منهم لايفقه أحكام المعاملات ولايعرف الحلال من الحرام أقامه من السوق، وقال له : تعلم أحكام البيع والشراء ثم أجلس فى السوق ... وقال الزرقانى فى (شرح المختصر) : ... عن مالک أنه لاتجوز شهادة التجار فى شى من الأشياء الا أن يتعلموا أحكام البيع والشراء » (١٣) ثم ينقل الادريسى عن الشيخ أبى سعيد الخادمى الحنفى : « على التاجر أن يتعلم أحكام البيوع صحة و فسادا وبطلانا ، حلا وحرمة ، وربى وغيرها . قال فى (التتار خانية) : لاينبغى للرجل أن يشتغل بالتجارة مالم يحفظ كتاب البيوع » (١٤).

وينقل الادريسى عن فقهاء الشافعية أيضا : « حكى الامام

الشافعي في (الرسالة) والغزالي في (الاحياء) الاجماع على أن المكلف لا يجوز له أن يقدم على أمـر حتى يعلم حكم الله فيه ، قال القرافي في (الفروق) فمن باع وجب عليه أن يتعلـم ماعينـه الله وشـرعه في البيع ، ومن آجر وجب عليه أن يتعلم ماشـرعه الله في الاجارة ، ومن قارض وجب عليه أن يتعلم حكم الله في القـراض ، ومن صلى وجب عليه أن يتعلم حكم الله في تلك الصـلاة ... قال الشافعي : طلب العلم قسمان : فرض عين ، وفـرض كفـاية ، ففـرض العيـن علمك بحالتك التي أنت فيها ، وفـرض الكفاية ماعدا ذلك ...(١٥).

وفي (قوانين الأحكام الشـرعية) لابن جزي : « ومنه (أي العلم) فـرض عين وفرض كفاية ، ففـرض العين مايلزم المكلف من معرفة الطهارة والصـلاة ، فاذا دخل رمضان وجب عليه معـرفة الصيام ، فان كان له مال وجب عليه معـرفة الزكاة ، فاذا باع واشترى وجب عليه معـرفة البيوع ... وأما فرض الكفاية فهو مازاد على ذلك » (١٦).

هكذا كان حال الأمة في حرصها على اقـامة الشـرع في أمـر المعاملات المالية وتشـددها في ذلك بالمحافظة على تعلمها والتزامها، ربمـا لان بعـض أحكامها مما قد يدق ويخفى لعدم احتياج الكافة اليه كالعبادات مثلا ، واما لانها ترتبط بضـرورة لحقوق العباد . والمسامحة فيها أقل من المسامحة في حقوق الله تعالى ، وأما لحرصها على أكل الحلال الذي هو أصل من أصول الحياة الاسـلامية ، فان « من لم يكن فقيها يأكل الربا » كما يقول الادريسي الذي يروى عن عمـر رضي

الله عنه . بل عن النبى صلى الله عليه وسلم الاصل فى هذا كله : « ... قال عمر لايدخل الأعاجم سوقنا حتى يتفقهوا فى الدين ....» أى من أحكام البيوع . وأصل ذلك من فعله عليه السلام ، فانه كان يعلم كل من يتعاطى عملا أحكامه وتكاليفه ....» (١٧). ثم ينقل عن ابن الحاج فى المدخل : « كان عمر بن الخطاب يضرب بالدرة من يقعد فى السوق وهو لايعرف الأحكام ، ويقول : لايقعد فى سوقنا من لايعرف الرباء أو كما يقول »(١٨).

هذا هو الأصل فى الحياة الاسلامية أن يكون المشتغلون بالمعاملات المالية فقهاء وعالمين بما يحل ويحرم ، ويصح ويفسد ، ويندب أو يكره من أمورها .

حكم الاستفتاء و آدابه :

ولكن بعض الاحكام المالية قد يخفى حكمه حتى على بعض الفقهاء أو المشتغلين بالفقه ، وبعض المشتغلين فى المال قد يشغله عمله عن التفقه وطلب العلم وخاصة بعد أن ضعفت الهمم عن طلبه ، وقلت الدواعى الى ذلك عما كان عليه الحال فى الصدر الأول ، فماذا يكون الحال عندما تنزل بالواحد من هؤلاء واقعة لايدرى حكمها؟

أو يواجه تصرفا أو تعاقدا لايعرف أصحيح هو أم فاسد ؟ أحرام أم حلال ؟ وان الاجابة عن ذلك فى الأصول الثلاثة التى بدأنا بها المسألة السابقة وهى أن عليه اللجؤ الى أهل الذكر والعلم واستفتاءهم فيما عرض له وفق قول الله تعالى : (فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم

لاتعلمون).

ويقول الشاطبى فى (الموافقات) : « ان المقلد اذا عرضت له مسألة دينية فلايسعه فى الدين الا السؤال عنها على الجملة ، لان الله لم يتعبد الخلق بالجهل ... والادلة على هذا المعنى كثيرة ، وهى قضية لانزاع فيها ».

ويقول الغزالى فى (المستصفى) : « العامى يجب عليه الاستفتاء واتباع العلماء وقال قوم من القدرية : يلزمهم النظر فى الدليل واتباع المعصوم . وهذا باطل بمسلكين : أحدهما : اجماع الصحابة ، فانهم كانوا يفتون العوام ولايأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد وذلك معلوم على الضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم ....»

المسلك الثانى : أن الاجماع منعقد على أن العامى مكلف بالأحكام ، وتكليفه طلب رتبة الاجتهاد محال ، لأنه يؤدى الى أن ينقطع الحرث والنسل وتتعطل الحرف والصنائع ، ويؤدى الى خراب الدنيا لو اشتغل الناس بجملتهم بطلب العلم ، وذلك يرد العلماء الى طلب المعاش ، ويؤدى الى اندراس العلم ، بل الى اهلاك العلماء وخراب العالم ، واذا استحال هذا لم يبق الا سؤال العلماء (١٩).

ويقول الآمدى : « العامى ومن ليس له أهلية الاجتهاد ـ وان كان محصلا لبعض العلوم المعتبره فى الاجتهاد ـ يلزمه اتباع قول أحد المجتهدين والأخذ بفتواه عند المحققين من الأصوليين ... ويدل عليه النص والاجماع والمعقول :

أما النص فقوله تعالى (فاسـألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون) وأما الاجماع فهو أنه لم تزل العامة فى زمن الصحابة والتابعين قبل حدوث المخالفيـن يستفتـون المجتهديـن ويتبعـونهم فى الأحـكام الشـرعية ، والعلماء منهم يبادرون الى اجابة سؤالهم ... فكان اجماعا ... وأما المعقول فهو أن من ليس له أهلية الاجتهاد اذا حدثت به حادثة فـرعية اما أن لايكون متعبدا بشئ ، وهو خلاف الاجماع من الفريقين . وان كان متعبدا بشئ ، فاما بالنظـر فى الدليـل المثبـت للحكم ، أو بالتقليد ، الأول ممتنع ، لان ذلك مما يفضى فى حقه وفى حـق الخلق أجمع الـى النـظـر فى أدلة الحـوادث والاشتغـال عن المعايش ... ورفع الاجتهاد والتقليد رأسا وهو من الحرج والاضـرار المنفى بقوله تعالى . وما جعل عليكم فى الدين من حرج . وبقوله عليه السـلام : لاضـرر ولا ضـرار ....»

هذا واجب غير المجتهدين فى تطلب الحكم من المفتين العارفين به ، ولو رحلوا فى سبيله . يقول الخطيـب البغـدادى فى (الفقيـه والمتفقه):« أول مايلزم المستفتى ، اذا نزلت به نازلة ، أن يطلـب المفتى ليسأله عن حكم نازلته ، فان لم يكن فى محلته وجب عليه أن يمضى الى الموضع الذى يجده فيه ، فان لم يكن ببلده لزم الرحيل اليه، وان بعـدت داره ، فقد رحل غير واحد من السلف فى مسألة ....»(٢٠).

ومن ثم يتضح أن الاستفتاء ضـرورة واقعية وشـرعية معا ، ويجب على غير العلماء أو المجتهدين فيما يجهلون حكمه من تصـرفاتهم

ولذا نظمت أموره منذ الصدر الأول :

أ ـ فقام النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الوظيفة بنفسه ، وأخذبها العلماء من أصحابه فى محضره وغيبته (٢١).

ب ـ ونظم الولاة والأمراء منذ الصدر الأول أمر الفتوى العامة ـ الى جانب تطوع العلماء المتأهلين بذلك ـ حتى لاتعطل أو يتعرض لها من ليس من أهلها (٢٢)، ويراجع فى هذا « اعلام الموقعين عن رب العالمين » لابن القيم .

ج ـ كما حرص بعض المشتغلين بالمعاملات المالية على الاستعانة بالمفتين فى أعمالهم على نحو خاص يعتبر بادرة لما تلجأ اليه المؤسسات المالية الاسلامية فى الوقت الحاضر ، يقول صاحب (السراجية) كما يروى عنه الادريسى فى التراتيب : « لاينبغى للرجل أن يشتغل بالتجاره مالم يحفظ كتاب البيوع ، وكان التجار فى القديم اذا سافروا استصحبوا معهم فقيها يرجعون اليه فى أمورهم ، وعن ائمة خوارزم أنه لابد للتاجر من فقيه صديق » (٢٣).

١ـ وقد أورد العلماء عدة آداب للمستفتى كى يبرأ من المسئولية الدينية ، منها : أن يختار المفتى المعروف بالعلم والعدالة ، وقد شدد الشاطبى فى ذلك وقال : لايصح له أن يسأل من لايعتبر فى الشريعة جوابه ، لانه اسناد أمر الى غير أهله ، والاجماع على عدم صحة مثل هذا . (٢٤) فاذا لم يكن فى البلد

الامفت واحد وجب عليه الرجوع اليه اتفاقا ، ولكن اذا تعددوا ، وكلهم أهل علم وعدالة ، فهل يفاضل بينهم ؟ أوجب البعض عليه التخيير ومراجعة الافضل ، ومنهم الآمدى والباقلانى وجماعة من الفقهاء والأصوليين (٢٥) . وقال البعض : يأخذ بقول من شاء منهم ، كالغزالى فى المستصفى (٢٦)، ونص الآمدى على أنه مذهب أحمد وبعض الشافعية وجماعة من الفقهاء والأصوليين (٢٧) ، ومال الشاطبى الى الأول (٢٨) .

٢ـ وأن يحدد المسألة تماما بكل قيودها ، ولايخفى من حقيقتها شيئا ، فان السائل أعرف بمسألته من جميع الناس ومنهم مفتيه ، وأن يوفر العالم ويجله فى الخطاب ، ولايسأل فيما لاينفع أولايهم من الامور (٢٩).

٣ـ ألايعمل بالفتوى اذا كان يعلم أن حقيقة الأمر فى الباطن كما يعرفها هو ، وقد خفيت على المفتى ، اذ يحكم على ظاهر الامر ، بخلاف ماتتضمنه الفتوى . وهو المقصود باستفتاء القلب يقول العلامة ابن القيم : لايجوز العمل بمجرد فتوى المفتى اذا لم تطمئن نفسه وحال فى صدره من قبوله وتردد فيها ، لقوله صلى الله عليه وسلم (استفت قلبك وان أفتاك الناس وأفتوك)

٤ـ ولكن هذا الأمر الأخير يدعو الى بيان نقطة هامة ، فقد علمنا أن واجب العامى سؤال من عرف بالعلم والعدالة واتباع

قوله . وما سبق يتضمن أنه قد لايعمل بها ، وقد بين العلماء متى يكون الفتوى ملزمة للمستفتى ، وضبطها بعضهم فى أحوال أربع:

١ـ حالة التزام المستفتى العمل بالفتوى .

٢ـ شروعه فى تنفيذ الحكم الذى كشفته الفتوى .

٣ـ اطمئنان قلبه الى صحة الفتوى ووثوقه بها .

٤ اذا قصد جهوده عن الوقوف على حكم الواقعة ، ولم يجد سوى مفت واحد (٣٠) .

فاما حالتا التعدد فى الفتوى أو التردد فيها من جانب المستفتى فقد سبق بيانهما ، وأما الحالتان الأوليان فالمفروض فيهما أن المستفتى قد عزم الأمر واطمأن الى الفتوى فلايعود وينقضه .

٣ـ حكم الافتاء وجلالته و ادبه :

الافتاء فرض كفاية علىُ الأمة ، يقوم به فيها من توفرت فيه شروطه ، وقد يصير فرض عين أحيانا . «فان لم يكن وقت حدوث الواقعة المسئول عنها الا واحد تعين عليه ، فاذا استفتى وليس فى الناحية غيره تعين الجواب عليه ، فان كان فيها غيره ، وحضر ، فالجواب فى حقهما فرض كفاية ، وان لم يحضر غيره وجهان أصحهما لايتعين ، والثانى يتعين » (٣٠).

وقد تحدث الامام الشاطبى فى معنى الوجوب الكفائى على الأمة كلها وعلى العلماء ـ ان تعددوا فى نفس الوقت ـ فأما واجب العلماء والقادرين فهو النهوض بالوظيفة الشرعية . وأما واجب الأمة فهو

اقامة هؤلاء القادرين يقول الامام الشاطبى « انه واجب على الجميع على وجه من التجوز ، لان القيام بذلك الفرض قيام بمصلحة عامة فهم مطلوبون بسدها على الجملة ، فبعضهم هو قادر عليها مباشرة ، وذلك من كان أهلالها . والباقون ، وان لم يقدروا عليها ، قادرون على اقامة القادرين .

فمن كان قادرا على اقامة الولاية فهو مطلوب باقامتها ، ومن لايقدر عليها مطلوب بأمر آخر وهو اقامة ذلك القادر . . . فالقادر اذن مطلوب باقامة ذلك الفرض ، وغير القادر مطلوب بتقديم ذلك القادر ، اذ لايتوصل الى قيام القادر الا بالاقامة ، من باب مالايتم الواجب الابه ... فهو واجب » (٣١) وهو بيان دقيق لمعنى الفرض الكفائى ، ودور الأمة فى توفير الكفاءات التى تنهض به ، وتسد حاجته وتتمكن من ذلك بالجهد التضامنى للأمة بأسرها .... فان لم تف بذلك أثمت جميعا .

هذا ، وان تعين أحد للافتاء ، اما لانفراده بالأهلية ، أو باتفاق كلمة من لهم الأهلية على تقديمه بحيث لايفتى سواه ، أو وقع اختيار من له الولاية والسلطة عليه ، سواء كان المختار واحدا أو أكثر ، وتفرغوا للقيام بأمر الفتوى فلا بأس بأن يأخذوا من الأجر والراتب ما يكفيهم ، ولايجوز أخذ شى من أعيان المستفتين ، قال الخطيب البغدادى فى (الفقه والمتفقه) : « لايسوغ للمفتى أن يأخذ الأجرة من أعيان من يفتيه ، كالحاكم الذى لايجوز له أن يأخذ الرزق من أعيان

من يحكم له أو عليه . وعلى الامام أن يفرض لمن نصب نفسه لتدريس الفقه والفتوى فى الاحكام مايغنيه عن الاحتراف والتكسب ، ويجعل ذلك فى بيت مال المسلمين ، فان لم يكن هناك بيت مال ، أو لم يفرض الامام للمفتى شيئا واجتمع أهله على أن يجعلوا له من أموالهم رزقا ليتفرغ لفتاويهم وكتابات نوازلهم ساغ ذلك . أخبرنا ابن الفضل ... قال : كتب عمر بن عبدالعزيز الى والى حمص : أنظر الى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها فى المسجد عن طلب الدنيا فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ماهم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابى هذا ، فان خير البر أعجله ، والسلام عليك » (٣٣).

ولايتعارض هذا مع ما أورده ابن القيم من انكار النبى صلى الله عليه وسلم على عبادة بن الصامت أخذه قوسا ممن علمه الكتاب والقرآن (٣٣).فانه لم يكن متفرغا لذلك ، والاباحة مشروطة بألايأخد من أعيان المستفتين ، على أن الخلاف فى أخذ الاجر على القيام بالوظائف الدينية مشهور ، وقد استقر الرأى فيه على الجواز، بناءا على أنه فى مقابل التفرغ لها ، لاعلى سبيل الأجرة .

ج ـ جلالة منصب الفتوى : ان المفتى ـ كما يقول الشاطبى قائم فى الأمة مقام النبى صلى الله عليه وسلم ، والدليل على ذلك أمور :

أ ـ أحدها النقل الشرعى فى الحديث (ان العلماء ورثة الانبياء ، وان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولادرهما ، وانما ورثوا العلم) ...

ب ـ الثاني : أنه نائب عنه فى تبليغ الأحكام ، لقوله : (ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب)...

ج ـ والثالث أن المفتي شارع من وجه ، لان مايبلغه من الشريعة أما منقول عن صاحبها ، وأما مستنبط من المنقول ، فالأول يكون فيه مبلغا ، والثاني يكون فيه قائما مقامه فى انشاء الاحكام ...(٢٤)

وهذا هو المعنى الذى جعل الامام ابن القيم يسمى هؤلاء العلماء القائمين بأمر الاجتهاد والافتاء في الدين ـ الموقعين عن رب العالمين ، وجمع أخبارهم وما انتهى اليه من تراثهم فى كتابه العظيم «اعلام الموقعين ..»(٣٥)

ولجلالة أمر الفتوى تهيبها السلف ، وتوقفوا أحيانا عن الجواب ، وعد هذا من دلائل فقههم وأمانتهم ، واشتد انكارهم على من تعرضوا للفتوى من غير أهلها ، بل ان النبى صلى الله عليه وسلم حذر من ذلك منبها على خطورة منصب الفتوى ، كما يروى الشاطبى فى كتاب الاعتصام : « ...قال عليه الصلاة والسلام (.. ان الله لا ينزع العلم انتزاعا ولكنه ينزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم ، فيبقى ناس جهال، يستفتون فيفتون برأيهم ، فيضلون ويضلون) ... ومعلوم أن هذه الآثار الذامة للرأى لايمكن أن يكون المقصود بها ذم الاجتهاد بالقياس على الأصول فى نازلة لم توجد فى كتاب ولاسنة ولا اجماع من يعرف الأشباه والنظائر ويفهم معانى الأحكام ... فان هذا ليس فيه تحليل وتحريم ولا العكس ، وانما القياس الهادم للاسلام ماعارض

الكتاب والسنة أو ما عليه السلف » (٣٦) .

وربما كانت الفتوى من بعض الوجوه أخطر شأنا من القضاء . وقد لايصلح لها من يصلح له ، روى عن أبى حنيفة قوله : (أصحابنا هؤلاء ثلاثة وثلاثون رجلا ، منهم ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء ، ومنهم ستة يصلحون للفتوى ؛ ومنهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى ، وأشار الى أبى يوسف وزفر) (٣٧) ومثل هذا التفضيل للمفتى وتقديمه على القاضى مما صرح به السبكى فى بعض فتاويه كما يروى ابن حجر (٣٨)

ولجلالة أمر الفتوى اشترطوا فى المفتى شروطا جمة ، حتى اشترط طائفة منهم أن يكون من أهل الاجتهاد ، يقول الخطيب البغدادى : « أول أوصاف المفتى :

١ـ أن يكون بالغا ، لأن الصبى لاحكم لقوله .

٢ـ ثم أن يكون عاقلا ، لأن القلم مرفوع عن المجنون لعدم عقله .

٣ـ ثم أن يكون عدلا ثقة ، لأن علماء المسلمين لم يختلفوا فى أن الفاسق غير مقبول الفتوى فى احكام الدين ، وان كان بصيرا بها ، سواء كان حرا أو عبدا ، لأن الحرية ليست شرطا فى صحة الفتوى .

٤ـ وأن يكون عالما بالأحكام الشرعية ، وعلمه بها يشتمل على معرفته بأصولها وارتياضه بفروعها ...(٣٩).

ثم يضيف البغدادى أمورا هامة جدا للتفكير الفقهى بوجه عام وللفتوى فى عصرنا هذا ، « وينبغى أن يكون قوى الاستنباط جيد

الملاحظة ، رصين الفكر ، صحيح الاعتبار ، صاحب أناة وتؤدة ، وأخا استثبات وترك عجلة ، بصيرا بما فيه المصلحة ، مستوقفا بالمشاورة ، حافظا لدينه ، مشفقا على أهل ملته ... لأن الفقيه يحتاج الى أن يتعلق بطرف من معرفة كل شي من أمور الدنيا والآخرة ، والى معرفة الجد والهزل ، والخلاف والضد ، والنفع والضر ، وأمور الناس الجارية بينهم، والعادات المعروفة منهم ، فمن شرط المفتى النظر فى جميع ماذكرنا ه ، ولن يدرك ذلك الا بملاقاة الرجال وكثرة المذاكرة لهم وجمع الكتب ودرسها ودوام مطالعتها » (٤٠).

ولاشك أن ثقافة المفتى لاتعود الى الكتب وحدها ، ولا الى الفقه خاصة ، وانما هى أيضا المعرفة بأمور الناس وملاقاة الرجال وتنزيل قواعد الشرع على وقائع العصر بما يحقق المصلحة من ناحية ومقاصد الشرع من ناحية أخرى .

هذا ، وقد اشترط البعض فى المفتين الاجتهاد ، واليه مال قدماء الاحناف (٤١) وجماعة من الأصوليين ، ولم يشترط البعض ذلك ، واستظهر الآمدى أن « المختار أنه اذا كان مجتهدا فى المذهب بحيث يكون مطلعا على مأخذ المجتهد المطلق الذى يقلده ، وهو قادر على التفريع على قواعد امامه وأقواله ، متمكن من الفرق والجمع والنظر والمناظرة فى ذلك كان له الفتوى » (٤٢). ويكاد الجمهور يميل الى هذا الرأى (٤٣).

ومن تقاليد المفتين فى الاسلام ما ينبغى التنبيه عليه لحاجة أهل

عصرنا اليه :

١ـ المشاورة فى الفتوى قصد استيضاح المسألة أو الاتفاق فى الجواب . يقول البغدادى « فأول ما يجب على المفتى أن يتأمل رقعة الاستفتاء تأملا شافيا ... ثم يذكر المسألة لمن بحضرته ممن يصلح لذلک من أهل العلم . ويشاورهم فى الجواب ، ويسأل كل واحد منهم عما عنده ، فان فى ذلک بركة واقتداء بالسلف الصالح . وقد قال الله تبارک وتعالى (وشاورهم فى الأمر) وشاور النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فى مواضع وأشياء وأمر بالمشاورة ، وكانت الصحابة تتساور فى الفتاوى والأحكام (٤٤).

ويمكن أن يعتبرا هذا أصلا للفتوى الجماعية أو لجان الفتوى ، وله شواهد أخرى ، وقد صرح بمثل ذلک شيخ الاسلام ابن تيمية فى السياسة الشرعية « ...وهكذا فى سائر الولايات ، اذا لم تتم المصلحة برجل واحد جمع بين عدد ، فلابد من ترجيح الأصلح ، أو تعدد المولى اذا لم تقع الكفاية بواحد » .

٢ـ التدريب على الفتوى واعداد المتأهلين لجيل يلحق بهم من الفقهاء والمفتين . ففى باب فتوى الصغير بين يدى الكبير من جامع بيان العلم وفضله يروى ابن عبدالبر « قرأت على أبى عمر .... عن عبدالرحمن بن غنم الأشعرى قال : قلت لمعاذ بن جبل : أرأيت قول الله عزوجل (يأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله) فقال : سهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا أبابكر وعمر حين أراد أن

يبعثنى الى اليمن ، فقال : أشيروا على فيما آخذ من اليمن ، قالا : يا رسول الله أليس قد نهى الله أن نتقدم بين يدى الله ورسوله ؟ فكيف نقول وأنت حاضر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. اذا أمرتكما فلم تتقدما بين يدى الله ورسوله"(٤٥) .

وثم شواهد أخرى من عمل الصحابة فى تدريب المتأهلين من طلاب العلم على الفتوى ... وجرى على ذلك السلف فكانت الاجازة للفتوى بعد أن يشهد للمرء شيوخه وعارفوه ، قال الخطيب البغدادى بعد أن روى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله تعالى لاينزع العلم من صدور الناس بعد أن يعلمهم اياه ، ولكن ذهابه قبض العلماء ، فيتخذ الناس رؤسا جهالا فيسألون فيقولون بغير علم ، فيضلون ويضلون): " ينبغى لامام المسلمين أن يتصفح أحوال المفتين فمن كان يصلح للفتوى أقره عليها ، ومن لم يكن من أهلها منعه منها ، وتقدم اليه بألا يتعرض لها ، وأوعده بالعقوبة ان لم ينته عنها .

وقد كان الخلفاء من بنى أمية ينصبون للفتوى بمكة فى أيام الموسم قوما يعينونهم ، ويأمرون بألا يفتى غيرهم ... كان يصبح الصائح فى الحاج : لايفتى الناس الاعطاء بن أبى رباح ، فان لم يكن فعبد الله بن نجيح .

والطريق للامام الى معرفة حال من يريد نصبه للفتوى أن يسأل عنه أهل العلم فى وقته والمشهورين من فقهاء عصره . ويعول على

مايخبرونه من أمره ... وسمعت أبا مصعب أحمد بن بكر يقول : سمعت مالك بن أنس يقول : „ ما أفتيت حتى شهد لى سبعون أنى أهل لذلك „(٤٦) وقد مر بنا من قبل قول أبى حنيفة فى صاحبيه أبى يوسف وزفر : انهما يصلحان لتأديب القضاة والمفتين .

٣ـ ومن تقاليدهم حرصهم على نشر العلم واذاعة الفتوى لتعم الفائدة ، ويتحقق الغرض على أتم وجه من بيان الأحكام ، وكتب الفتوى فى القديم والحديث مشهورة متداولة .ومن أشهرها العالمكيرية وفتاوى ابن الصلاح وشيخ الاسلام ابن تيميه والشيخ عليش وغيرهم . ومن أحدثها ما بدأت تنشره دار الافتاء المصرية من فتاوى القرن الرابع عشر الهجرى ، ومن البين أن الكتاب كما قال بعض العلماء „يقرأ بكل مكان ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد فى كل زمان مع تفاوت الأعصار وتباعد مابين الامصار ، وذلك أمر مستحيل فى واضع الكتاب والمنازع بالمسئلة والجواب ... (٤٧) نعم ، لقد ذكروا أنه „ ان كان فى الرقعة مالايحسن ابداؤه ، وما لعل السائل يوثر ستره أو ما فى اشاعته مفسدة لبعض الناس فينفرد المفتى بقراءتها والجواب عنها (٤٨) . فان خلا الجواب من نحو ذلك استحب اعلانه ، والافيترك تقديره للمفتى .

٤ـ وآخر مانذكره من ذلك حرصهم على حرية الرأى الفقهى مع الأدب والحشمة والوقار ، وقد أورد مسلم فى صحيحه بابا فى اختلاف المجتهدين) جاءت فيه قصة الولد الذى ادعته امرأتان .

واختلفت فيه فتوى سيدنا داود عليه السلام وسيدنا سليمان عليه السلام كما يرويها نبينا صلى الله عليه وسلم (٤٩). ويورد مسلم أيضا فى الصحيح فى (باب جواز التمتع) :

„عن سعيد بن المسيب قال : اجتمع على وعثمان رضى الله عنهما بعسفان ، فكان عثمان ينهى عن المتعة أو العمرة ، فقال على : ماتريد الى أمر فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم تنهى عنه ؟ فقال عثمان : دعنا منك ، فقال : انى لا استطيع أن أدعك ، فلما أن رأى على ذلك أهل بهما جميعا (٥٠) „ ويعلق النووى على ذلك بأن „ فيه اشاعة العلم واظهاره ، ومناظرة ولاة الأمور وغيرهم فى تحقيقه ، ووجوب مناصحة المسلم فى ذلك ، وهذا معنى قول على : لا أستطيع أن أدعك (٥١)"

ويروى مسلم أيضا عن عبدالرحمن بن القاسم عن أبيه قال قال عروة بن الزبير لعائشة رضى الله عنها : ألم ترى الى فلانة بنت الحكم طلقها زوجها البتة ، فخرجت ؟ فقال عائشة : بئسما صنعت ، قال : ألم تسمعى الى قول فاطمة ؟ فقالت : أما انه لاخير لها فى ذكر ذلك ويعلق النووى : „ ان فى حديث فاطمة بنت قيس فوائد كثيرة :... جواز انكار المفتى على مفت آخر ، خالف النص ، أو عمم ماهو خاص ،لأن عائشة رضى الله عنها انكرت على فاطمة بنت قيس تعميمها ألا سكنى للمبتوتة وانما كان انتقال فاطمة من مسكنها لعذر „(٥٢).

ثانيا : كلمة فى الرقابة والحسبة :

علما أن البيان ليس هو المطلب الوحيد فى تغيير المنكر واقامة

المعروف اذ ماوجدت القدرة والولاية وأمنت الفتنة والضـرر . ومن هنا كانت الحسبة ،وهي كما يعرفها الماوردى :«أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهى عن المنكر اذا ظهر فعله » (٥٤).

أ ـ حكمهـــا:

اتفق العلماء على أنها فـرض كفاية أسـوة بأصـلها الـذى هو الأمـر بالمعـروف والنهى عن المنكـر ، اذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين ، واذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولاخوف . ولـم يشـذ عن ذلك الا بعض الامامية (٥٥). فقـالوا بالوجوب العينى .

ومع أنها فـرض كفاية فى الجملة فقـد تصير فـرض عين على بعض الاشخـاص فى بعض الحالات : كأن لايطلع على المفكر أو يقدر على ازالتـه غيـره ، يقـول النـووى : « ثم انـه (أى الأمـر بالمعـروف) قد يتعين كما اذا كان فى موضع لايعلم به الا هو ، أولا يتمكن من ازالته الا هو ، كمن يرى زوجته أو ولده أو غلامه على منكر أو تقصير فى المعـروف »(٥٦).

ومن ذلك أن يختار لهذه الـوظيفة ويلتـزم القيـام بها ، يقـول الماوردى :«وهذا وان صح من كل مسلم فالفرق فيه بين المتطـوع والمحتسب من تسعة أوجه » :

١ـ أنه فرض متعين على المحتسب بحكم الولاية ، وفرضه على غيره داخل فى فـروض الكفاية .

٢ـ والثانى أن قيام المحتسب به من حقوق تصـرفه الذى لايجوز أن يتشاغل عنه ، وقيام المتطوع به من نوافل عمله التى يجوز أن يتشاغل بغيره .

٣ـ والثالث أنه منصوب لـلاستعداء اليه فيما يجب انكاره ، وليس المتطوع منصوبا لـلاستعداء .

٤ـ والرابع أن على المحتسب اجابة من استعـداه ، وليس علـى المتطوع اجابته .

٥ـ والخامس أن عليه أن يبحث عن المنكرات الظاهرة ليصل الى انكارها ، ويفحص عما ترك من المعروف الظاهر ليأمر باقامته ، وليس على غيره من المتطوعة بحث ولا فحص .

٦ـ والسادس أن له أن يتخذ على انكاره أعوانا ، لانه عمل هو له منصوب ، وليس للمتطوع أن يندب لذلك أعوانا .

٧ـ والسابع أن له أن يعـزر فى المنكرات الظاهرة لايتجاوز الـى الحدود ، وليس للمتطوع أن يعزر على منكـر .

٨ـ والثامن أن له أن يرتزق على حسبته من بيت المال ، ولايجوز للمتطوع أن يرتزق على انكار منكـر .

٩ـ والتاسع أن له اجتهاد رأيه فيما يتعلق بالعـرف دون الشـرع فيقـر وينكر من ذلك ما أداه اجتهاده اليه وليس هذا للمتطوع (٥٧).

وانما أفضت فى نقل هذه الفروق لما تلقيه من واجب المسئول عن الرقابة الشـرعية ، وازالة كل ما يراه يخالف الشـرع من أوضاع أو

تصـرفات ، وكل مامر يمكن أن يستأنس به فى أمـر الرقابة الشـرعية ، اللهم الا مسألة التعزير ، مالم يمنحوا سلطة التغريم أو الخصم مثلا . ولا ننصح به ».

ب ـ آدابهـــا :

وقد سبق أن اوردنا من آداب الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر من العلم والرفق والعلم مايعد جماعا لأدب المحتسب فى النهوض بأمر ولايته .

ج ـ ومجـــالهـــا:

النظـر فى الأمـر بمعروف ترك والنهى عن منكر يفعل دون حاجة الى دعوى ترفع وبينات تعـرض وأيمان تطلب ... وقد تشارك القضاء فى جواز الاستعداء الى القائم بها والادعـاء أمامه فى ثلاثة أنواع من الدعاوى التى تتعلق بحقوق الافـراد :

١ـ مايتعلق منها ببخس أو تطفيف فى كيل أو وزن .

٢ـ مايتعلق منها بغبن أو تدليس .

٣ـ مايتعلق منها بمطل أو تأخير لأداء ......» (٥٨).

وبرغـم اتســاع مجـالها فهى تركز كمـا ظهر علـى كثيـر من المعاملات المالية ، ولذا فينبغى أن نقدم الأصل الشـرعى فى جواز تدخل السلطة لالزام الكافة بمراعاة الشـرع فى معاملاتهم وخـاصة التجار ورجال الأسواق مما نعتبره « أصل الحسبة » .

د ـ أصـــلها (فى المجال المالى والتجـارى)

روى مسلم فى صحيحه فى باب قول النبى صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا . « عن أبى هـريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على صبـرة طعام فأدخل يده فيها فنـالت أصابعه بلـلا ، فقال : ماهذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يارسول الله ، فقال : أفـلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس ، من غشنى فليس منى » (٥٩) .
وفى كتاب البيوع من صحيح البخارى عن ابن عمـر قال : ـ لقد رأيت الناس فى عهد رسول الله من يتباعون جزافا ـ يعنى الطعام ـ يضـربون أن يبيعـوه فى مكانهم حتى يؤوه الى رجالهم » .

وروى مسلم أيضا فى صحيحه من « باب بطلان البيع قبل القبض» عن أبى هريرة أنه قال لمروان :« حللت بيع الربا،فقال مروان ، مافعلت ، فقال ابوهريرة أحللت بيع الصكاك وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام حتى يستوفى ، قال : فخطب مـروان الناس فنهى عن بيعها ، قال سليمان ، فنظـرت الى قـرش يأخذونها من أيدى الناس » (٦٠).

قال النووى : الصكاك جمع صك ، وهو الورقة المكتوبة بدين ، ويجمع أيضا على صكوك ، والمراد هنا الورقة التى تخرج من ولى الأمـر بالرزق لمستحقه بأن يكتب فيها : لـلانسان كذا وكذا من طعام أو غيره ، فيبيع صاحبها ذلك لأنسان قبل أن يقبضـه .

وقد اختلف العلماء فى ذلك : فمن منعها أخذ بظاهر قول أبى هريرة وبحجته ، ومن أجازها تأول قضية أبى هريرة على أن المشترى

ممن خرج له الصک باعه لثالث قبل أن يقبضه المشترى ، فكان النهى عن البيع الثانى لا الاول ، لأن الذى خرجت له مالک لذلک ملكا مستقرا ، وليس هو بمشتر فلا يمتنع بيعه قبل القبض ، كما لايمتنع بيع ماورثه قبل قبضه ، قال القاضى عياض ـ بعد أن تأوله على نحو ماذكرته ـ وكانوا يتبايعونها ثم يبيعها المشترى قبل قبضها فنهوا عن ذلک ، فبلغ ذلک عمر بن الخطاب فرده عليه وقال لاتبع طعاما ابتعته حتى تستوفيه . هذا تمام الحديث فى الموطأ وكذا جاء الحديث مفسرا فى الموطأ أن صكوكا خرجت للناس فى زمن مروان بطعام ، فيبتاع الناس تلک الصكوک قبل أن يستوفوها ، وفى الموطا ماهو أبين من هذا ، وهو أن حكيم بن حزام ابتاع طعاما أمر به عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فباع حكيم الطعام الذى اشتراه قبل قبضه .

رابعا: الكلمة الاخيرة عن اقتراحات مستقبلية :

والآن ، وفى ضؤ هذا الهدى الاسلامى ، فان لنا أن ننظر الى واقعنا بشئ من التفاؤل المسئول ونطلع الى مستقبل اكثر اشراقا لهذه المؤسسات الصاعدة التى تحاول حل مشاكل الأمة الاقتصادية فى ضؤ شريعتها الخالدة .

أ ـ ولضمان ذلک فقد أنشأت البنوک الاسلامية أجهزة متخصصة لأمر الفتوى والرقابة الشرعية ، وان كان بعضها يكتفى فى هذا الصدد بوجود عنصر شرعى فى مجلس الادارة ، ولعل أكمل صيغة لتلک الاجهزة ما احتواه القانون الاساسى لبنک فيصل

الاسلامى السودانى (انظر المادة ٦٩ منه).

ب - كما نص فى الاتفاقية الاساسية لانشاء الاتحاد الدولى للبنوك الاسلامية المادة ١٦ على تشكيل هيئة عليا للفتوى والرقابة الشرعيه بالاتحاد من عدد من كبار فقهاء المسلمين لايزيد عددهم عن سبعة أعضاء يختارهم مجلس الادارة بالاضافة الى ممثل عن هيئة الرقابة بكل من تلك البنوك الأعضاء ، ويكون رأى هذه الهيئة ملزما وفقا للقواعد الشرعية التى تقررها، وتقوم الهيئة بهذا العمل تطوعا ، وتختص الهيئة بالاتى :

١- متابعة أعمال البنوك الاسلامية الاعضاء والتأكد من مطابقتها للاحكام الشرعية ، ولها أن تطلب عن طريق الامانة العامة للاتحاد من البنوك الاعضاء موافاتها بالبيانات التى تعينها على أداء مهمتها .

٢- النظر فيما يتقدم به أى من المسلمين بشأن مايراه عن مدى شرعية أعمال أى من البنوك الاعضاء .

وبناء على تلك المادة تشكلت الهيئة المذكورة وعقدت بعض الاجتماعات ، وشكلت مجلس ادارة وأمانة عامة لها .

ج - كما تابعت لجان الفتوى بالعديد من البنوك والمؤسسات المذكورة نشاطها ، وقدمت حلولا ودراسات شرعية لبعض ما يعترض طريق العمل المصرفى والمالى الاسلامى مما يعد تراثا له قيمته تضاف الى تراث الفقه الاسلامى الذى كاد يتوقف فى

هذا المجال فى الفترات الأخيرة .

والآن نود أن نتقدم ببعض المقترحات لدعم الأجهزة الشـرعية المحلية منها والمركزية وفاءًا لرسالتها الجليلة .

١ـ العمل على اعداد العاملين بالبنوك الاسـلامية وتدريبهم على النحو الذى يتيح لهم فهم الاحكام الشرعية المتعلقة بما يقومون به من تصرفات والوعى بالطبيعة الخاصة للمؤسسات التى يعملون بها حتى لايتعرضوا فيما لو رزقوا بفقيه كمالك رضى الله عنه للطرد من السوق المصرفية والتجاربة . ومن حسـن الحظ أن الاتحاد الدولى لهذه البنوك يعمل الآن على اعداد موسـوعة شرعية لدراسة كافة الاعمال المصرفية من وجهة نظـر الفقـه الاسـلامى ، مما قد يسهم فى توفير الاعداد المشار اليه .

٢ـ كما نرجو أن تعمل هيئات الفتوى على تنسيق العلاقات فيما بينها وتبادل الفتاوى عقب اصدارها من خلال الأمانة العـامة للهيئة العليا للفتوى والرقابة أو من خلال الاتحـاد أو بصـفة مباشرة سواء على أسس المعاملة بالمثل أو بدون هذا الشرط الأخير ، وذلك لـلافادة من التجارب والجهود دون ازدواج أو تكرار .

٣ـ كما نقترح أن تقوم هذه الهيئات باعلان ماتصدره من فتاوى الا ماقـدمو المصلحة لأرجاء اعلانه دعما للحيـاة الفقهية واثـراء للفكر الاسـلامى المتعلق بالمسائل المصرفية والاقتصادية بوجه

٤ـ العمل على اعداد بعض النابهين سواء من شباب العاملين بتلك البنوك نفسها أو بكليات الشريعة والاقتصاد والقانون للمعاونة مستقبلا فى مهام الافتاء والرقابة الشرعية بعد دراسات ومناهج مناسبة ويشارك الاتحاد مع السلطات الأكاديمية فى وضعها بحيث تغطى احتياجات العمل المصرفى الاسلامى والاقتصادى بوجه عام .

٥ـ اعطاء العاملين بالبنوك والمتعاملين معها عامة المسلمين حق مخاطبة هيئات الفتوى مباشرة شريطة ارسال صورة من تلك المخاطبات لادارات البنوك .

٦ـ كما نقترح تطوير عملية المراقبة الشرعية بحيث لاتقتصر على الاذن أو عدمه بقيام المشروعات الجديدة وتحويلها ، ولكن تضم الى ذلك متابعة هذه المشروعات ، سواء قبل الأذن فى دراسات الجدوى التى ينبغى أن تضم عناصر شرعية أو فى متابعتها بعد الاذن للعمل على حل مشاكلها وحماية مسارها وضمان استمرارها فى الاطار الشرعى ومايخدم المصالح الحقيقية لاقتصاديات الشعوب الاسلامية ، كل أولئك من خلال نظرة شرعية أصيلة . على أن هناك جانبا من المراقبة الشرعية تتأكد أهميته خصوصا فى مرحلة النشوء والنمو التى تمر بها هذه المؤسسات لترسيخ التقاليد الاسلامية ، تتمثل فى مراقبة الحركة اليومية للتعامل فى البنوك الاسلامية، والاطمئنان على

ايجابية العاملين واستيعابهم بطبيعة هذه البنوك واحترام القيم الاسـلامية بوجه عام من اقامة سليمة للشعائر لمراعـاة صادقة لاخلاقيات العمل وحمـاية مخلصة للأسـرار الشخصـية وحفظ للمظهر الانسانى والاسـلامى العام ، وذلك ونحوه لايتم بأسلوب تقليدى للرقـابة ، ولـكن من خلال لون من الرّيـادة الـروحية والأخلاقية يكسب الاتجاهات ويجسد المثل بطريقة تربوية أكثر منها ادارية .

٧- ونقترح أيضا تحريـك الامـانة العـامة للهيئة العليـا للفتـوى والرقابة بحيث يحقق تواصلا حيا وفعالا بين الهيئات المحلية ، وتقوم منها بالمشروعات العامة :

أ ـ وذلك كالاقتراح الذى أسلفناه عن تكوين البرامج المناسبة لاعداد العناصر الـلازمة للعمل المصرفى الاسـلامى .

ب ـ العمل على نشر التراث الاسـلامى فى الافتاء وفى الفـكر الاقتصادى الاسـلامى بوجه عام فى عصوره المختلفة .

٨- هذا وبالرغم من انه لاتوجد دواع للكلام عن اختلاف فى الرأى بين هيئات الفتوى وادارات البنوك ، فاننا نعتقد أن نصـوص قوانين التأسيس والقواعد الفقهية التى سبق غرضها تحال الى الهيئات العليا للفتوى والرقابة للبت فيه برأى شـرعى ، ولكن اذا كان الأمر اداريا أو اجرائيا ، فيرجع فيه الـى الجمعيـات العمومية ، بتلك المؤسسات التى انبثق عنها كل من سلطات

الادارة وهيئات الفتوى والرقابة . والله ولى التوفيق .

المـــــراجع

١ـ الحسبه فى الاسلام ط مؤسسة مكة بدون تاريخ ص ١٨
٢ـ مسلم بشرح النووى ط الحلبى ـ ٢/٢٣
٣ـ ابن القيم ـ فتاوى رسول الله ط الاعتظام ، القاهرة ، ١٩٠٨ م ص ١٦
٤ـ السابق ٢ ـ٢٢
٥ـ الحسبة فى الاسلام ص ٧٤ ،
٦ـ سورة التوبة ٢٢
٧ـ ٦ ـ ٩٧ ـ ٩٨
٨ـ صحيح مسلم بشرح النووى ٦ ـ ٩٨
٩ـ الفتاوى الاسلامية ط القاهرة ١٤٠٠ ، المجلد الاول ص ٩
١٠ـ انظر الشاطبى ، موافقات ١ ـ٤١
١١ـ الادريسى ، التراتيب ٢ ـ١٦
١٣ـ الادريس : التراتيب ط بيروت ـ بدون تاريخ ٢ ـ١٨
١٣ـ السابق ، نفس الصفحة
١٤ـ السابق ص ١٦ ـ ١٧
١٥ـ ابن جزى : قوانين ص ٤٤٢ ،
١٦ـ التراتيب ٢ ـ١٧
١٧ـ السابق ٢ ـ١٨
١٨ـ الغزالى : المستصفى ط الجندى بالقاهرة ، ص ٥١٩
١٩ـ البغدادى : الفقية والمتفقه ، ط دارالكتب العلمية بدون تاريخ ٢ ـ ١٧٧ ،
٢٠ـ انظر الموافقات ٤ ـ١٦٢ ، وابن البر : جامع بيان العلم وفضله ، دارالكتب الحديثه بالقاهرة ١٩٧٥ م ص ١٥٩ .
٢١ـ الفقيه والمتفقه ٢ـ١٥٣ ـ ١٥٤
٢٢ـ التراتيب الادارية ٢ـ١٨
٢٣ـ الموافقات ٤ـ١٧٥ .

٢٤ـ الاحكام ٤ـ٢١٤
٢٥ـ المستصفى ص ٥٢٠
٢٦ـ الاحكام ٤ـ٢٠٤
٢٧ـ الموافقات ٤ـ١٨١
٢٨ـ انظر البغدادى ، الفقيه والمتفقه ٢ـ١٧٩ وبحثا طيبا نشره الدكتور يوسف القرضاوى بمجلة « المسلم المعاصر » العددين ٦،٥ عن الفتوى فى الماضى والحاضر .
٢٩ـ الفتاوى الاسلامية ، نشر دار الافتاء بالقاهرة ١٤٠٠ هـ المجلد ١ ، ص ٢٢
٣٠ـ السابق ص ١٠
٣١ـ الموافقات ١ ـ ١١٤
٣٢ـ الفقه والمتفقه ٢ـ١٦٤ ـ١٦٥
٣٣ـ انظر فتاوى رسول الله (المستخرج من اعلام الموقعين) ص ٧٧ .
٣٤ـ الموافقات ٤ـ١٦٢ ـ١٦٣
٣٥ـ انظره وخاصه ٤ـ٢٠٦ وما بعدها
٣٦ـ الشاطبى ، الاعتصام بالكتاب والسنة ـ ط السعادة بمصر ٢ـ٢٨٤
٣٧ـ الكوثرى : لمحات النظر ـ ط القاهرة ١٣٦٨ هـ ص ٢٠
٣٨ـ ابن حجر الهيثمى ، الاعلام بقواطع الاسلام ، ط دار الشعب سنة ١٤٠٠ هـ ص ٨٨
٣٩ـ البغدادى ، الفقه والمتفقه ٢ـ١٥٦
٤٠ـ السابق ٢ـ١٥٨
٤١ـ الفتاوى الاسلامية ١٣
٤٢ـ الآمدى ، الاحكام ٤ـ٢٠٣ ـ٢٠٤
٤٣ـ الفتاوى الاسلامية ١٣ـ ١٧
٤٤ـ البغدادى ، الفقيه والمتفقه ٢ـ١٨٣ ـ١٨٤ .
٤٥ـ جامع بيان العلم وفضله ١٥٩
٤٦ـ البغدادى ، الفقيه والمتفقه ١٥٢ ـ ١٥٤
٤٧ـ البغدادى ، تقييد العلم ـ ط دار احياء السنة النبوية ١٩٧٤ م ص ١١٨ .
٤٨ـ البغدادى ، الفقيه والمتفقه ٢ـ١٦٨
٤٩ـ صحيح مسلم ١٢ـ١٨
٥٠ـ السابق ٨ـ٢٠٢

٥١ـ السابق ٢ـ٣٠٢
٥٢ـ السابق ١٠ـ١٠٧
٥٣ـ السابق ١٠ـ١٠٧ ـ١٠٨
٥٤ـ الماوردى : الاحكام السلطانية ٢٤٠
٥٥ـ انظر شرح النووى على مسلم ٢ـ٢٣ وموسوعة الفقه الاسلامى ـ القاهرة ١٣٨١ هـ النموذج الأول ص ٥٥
٥٦ـ النووى ، ١ شرح مسلم ٢ـ٢٣
٥٧ ـ الماوردى ، الأحكام السلطانية ٢٤٠
٥٨ـ موسوعة القاهرة الفقه ـ النموذج ص ٦٢
٥٩ـ صحيح مسلم لشرح النووى ٢ـ١٠٩
٦٠ـ السابق ١٠ ـ١٧١

●●●

العـــرافة والنقـــابة
مؤسستان اجتماعيتان مهمتان فى العهد النبوى

محمد يوسف الفـاروقى

تعريب : سـردار رشيد حسين

ان بيعة العقبة لها أهميـة كبرى فى ارساء قواعد الـدولة الاســلامية فى الـــدينة المنـــورة وهى كحجـر الزاوية لها . ولذلک کان كعب بن مالک رضی الله عنه يفضلها على غـزوه بدر (١) . وبعـد أن تمت هذه البيعـة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مندوبه الخاص مصعب بن عمير رضى الله عنه الى المدينة المنورة ليقوم بمهام تعليم الدين الحنيف لأ هالى المدينة . وكان عبد الله بن أم مكتوم رضى الله عنه يساعده فى تأدية هذه المهمة الجبارة . وقد بدأ مصعب بن عمير رضى الله عنه القيام بمسئوليته هذه بوجه مؤثر و ديناميكية بالغة . كان يلقى خطبه على الناس بعد ان يضع اصبعه على نبضهم وأن يحصل على معرفة طبـائعهم وفراسة نفسيتهم . داعيا الى كلمة الحق بالحكمة والموعظة الحسنة مراعيا لمكانة المخاطب الاجتماعية ومبلغ علمه . واعتنق الاسـلام جم غفير من سعب المدينة نتيجة لجهوده ومساعيه . والواقع أن مهام التبليغ والتوجيه لا تكون أصعب بين عامة الناس أكثر مما تكون بين القادة السياسيين وأصحاب السلطة والحكم . وذلک فی جميع العصور والدهور . وكان هذا اعجاز مصعب بن عمير رضى الله عنه أنه ترک انطباعا جيدا لدى ساسة المدينة وأصحاب القيادة وأرباب الحل والعقد وأصحاب السلطة القبلية . وبالتالى اعتنق الاسـلام عدد كبير من سادة الأوس والخزرج .

وبعد السنة الثالثة عشر من بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، أتى مصعب بن عمير رضى الله عنه بوفد كبير الى مكة المكرمة ، وكان يرافقه فى هذه البعثة أفراد من قبيلتى أوس و خزرج ، وأبرمت المعاهدة التاريخية الموسومة ببيعة العقبة الثانية . وهذه البيعة هى حجر الزاوية فى انشاء الدولة الاسلامية فى قلب شبه الجزيرة العربية . وفى نفس السنة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بهجرته المباركة الى عاصمة هذه الدولة الجديدة ، وفور قدومه هناك اتخذ عدة قرارات هامة لاقامة حكومة منظمة وانشاء مجتمع منيع وتحقيق الوحدة الاسلامية . وكان ميثاق المدينة وعملية المواخاة حلقتين هامتين من هذه السلسله (٢) . ومع هذه الخطوات الجديدة أبقى الرسول صلى الله عليه وسلم بالتعديلات الضرورية القليلة ، بعض المؤسسات السياسية التى كانت موجودة لدى العرب قبل الاسلام . وكان لها دور بارز فى حياتهم الاجتماعية والسياسية ومن هذه المؤسسات كانت العرافة والنقابة . ونقصد فى هذا المقال أن نلقى الضوء على هاتين الهيئتين السياسيتين .

العـــــرافة

كانت العرافة والنقابة هيئتين منذ قديم الزمان . وكانت لهما أهمية بالغة فى المجتمع العربى ، وكانت اتصالات الحكومة بعامة الناس تتم من خلال العرفاء والنقباء وكان هؤلاء الممثلون يعرفون الحكومة بأحوال الشعب فى دوائرهم الخاصة وحاجاتهم ، كان العريف ممثلا لدائرة صغيرة تحتوى على عشرة نفوس (٣) . وكان ينتخب من بين أعيان القبيلة المحنكين ومن اثريائهم على وجه العموم ، والذى لم يكن يقوم بمراعاة مصالح ناخبى دائرته فحسب بل كان يحافظ على حقوق شعبه فى التعامل مع القبائل الاخرى والجماعات والاحزاب .

وجاء وصف العريف فى لسان العرب والقاموس كالآتى : هو القيم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس يلى أمورهم ويتعرف الأمير منه أحوالهم (٤) ويقول العلامة ابن حجر العسقلانى حول معنى العريف . أنا عريفهم ، أى وليت أمر سياستهم وحفظ أمورهم (٥) وجاء فى تاج العروس شرح القاموس ، هو رئيس القوم لمعرفته بسياسة القوم (٦) . ويمكن تعيين معنى العريف من شعر طريف هكذا :

أو كلما وردت عـكاظ قبيلة
بعـثوا الى عـريفهم يتوسم

يعنى مهما يأتى فى مولد عكاظ أية قبيلة فيرسل شعب شراحيل الـى عريفهم للوقوف على احوالى كى يتمكنوا من اغتيالى على تعريفه (٧) .

ولما نشبت معركة الحنين فى شهر شوال فى السنة الثامنة الهجرية وانتهت بانتصار المسلمين حضر وفد كبير من قبيلة هوازن الى الرسول صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه اطلاق سراح أسراهم . قال النبى صلى الله عليه وسلم للناس « أنا أريد اطلاق سراحهم ، فمن يريد منكم كذا بالرغبة فليفعل فقال الناس نعتقهم بالرغبة ولكن قال الرسول صلى الله عليه وسلم للناس : لا أعرف من يسمح بالرضا و من لا يسمح ، فابعثوا اليّ عرفاءكم ليتقدموا بهذه القضية بأنفسهم-فقد جاء فى صحيح البخارى ، قال ابن شهاب حدثنى عروة بن الزبير أن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمه أخبراه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين أذن له المسلمون فى عتق سبايا هوازن ، فقال لا أدرى من أذن فيكم ممن لم يأذن ، فارجعوا حتى يرفع الينا عرفائكم أمركم فرجع الناس فكلمهم عرفاءهم ، فرجعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروه أن الناس قد طيبوا وأذنوا (٨) .

وحدث هذا في وقت قد رسخت فيه دعائم الدولة الاســلامية وظهرت معالمها الى حيز الوجود ظهوراً كاملا وكانت مكة المكرمه قد فتحت وكانت هيئات الدولة الاســلامية الاجتماعية والسياسية بدأب تعمل . وهذه سبايا الحرب تحمل فى طياتها التعقيدات العـديده . فاستحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث فى هذا الأمر مع العرفاء بدل أن يتصل بالناس مباشرة . لم يكتف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يعترف بنيابة هذه المؤسسة فحسب بل أقرها واعتبرهـا ضـرورية للمجتمع .

وجنبا الى جنب مع هذا كله نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كماروى فى سنن ابى داؤد ، « ان العرافة حق ولا بد للناس من العرفاء ولكن العرفاء فى النار (٩) . فهنا ينبه رسول الله صلى الله بقوله « العرفاء فى النار » جميع الساسة

والزعماء وأصحاب المناصب الحكومية العليا كي يقوموا بواجباتهم بكمال التدين وأتم التكريس والافليستعدوا للعقاب الشديد . ولما طلب ابوذر رضى الله عنه منصبا حكوميا من النبى صلى الله عليه وسلم خاطبه قائلا : يا أباذر (رضى الله عنه) انك رجل ضعيف وانما هى (أى المناصب الحكومية) أمانة وان لم يؤد أحد واجباته كما كان حقها بعد أن ولى عليها فتكون وبالا عليه يوم القيامة وسببا لذله وهوانه (١٠) .

ويرى العلامة ابن حجر العسقلانى أن العريف ينوب عن حقوق شعب دائرته ويجعله عاملا بالنظم والاحكام السارية ، فاذا اقيم على كل قوم عريف لم يسع لأحد الا القيام بما أمر به (١١) .وعندما يعين العريف على كل قوم فلا يستطيع أفراده أن يقترفوا المنكرات بل يخضعون للقوانين والنظام بدون التردد والتزعزع . وكل هذه الامثلة ان دلت على شئ فانما تدل على أن هؤلاء العرفاء فى ذلک الحين كانوا يقومون بتوعية الشعب وبنصرتهم باداء الحقوق والواجبات بموجب الاحكام والنظم السارية . وقد استمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمل وفق متطلباتها فى عهده .

وقد نقل الامام البخارى فى « كتاب الشهادات » رواية بأن أبا جميلة ,فع دعوى الى عمر رضى الله عنه و عرض أنه وجد لقيطا ووضعه لديه بغية تربيته وتنشئته والتمس يومية له من بيت‌المال‌ولكن سيدنا عمررضى الله عنه شک فى‌هذا الشخص . فتقدم عريفه بصفاء ذمته وبراء ته فى هذا الصدد حيث قال انه رجل صالح . فخصص عمر رضى الله عنه يومية لهذا الطفل على تصديق العريف ووثق بديانة أبى جميل وصدقه (١٢).

ولى عمر رضى الله عنه سعد ابن أبى وقاص على معركة القادسية لتجهيز الجيش وتعبئته ، وأرشده أن يعشر الجنود ويعين العريف على كل فرقة من عشرة نفوس ، قائلا : اذا جاءک كتابى هذا فعشر الناس وعرف عليهم (١٣)

ويؤكدلنا المؤرخ الجليل العلامة الطبرى رحمه الله هذا الامر ويقول انه كما كان يعين العرفاء فى العهد الفاروقى كانوا يعينون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا كلام الطبرى رحمه الله فى الفاظه : فعرف على كل عشرة رجلا كما

كانت العرافات أزمان النبى صلى الله عليه وسلم (١٤) . يقول مسلم بن ثفنة ان ابن علقمه عين أبيا عريفا لقومه ليقوم بجمع الزكوة والصدقات ، (١٥) ومرة حكى ابوسعيد الخدرى رضى الله عنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم أمام مروان ، بأنه لا هجرة بعد الفتح بل جهاد ونية . فأنكر مروان صحة نسبة هذا القول الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان رافع بن خديج رضى الله عنه وزيد بن ثابت رضى الله عنه موجودين لديه . قال ابوسعيد رضى الله عنه ان أردت فهذان يستطيعان أن يؤيدانى فى تصديق صحة هذا الحديث لديک .ولكنهما يخشيان أن تعزلهما من أعمال جمع الصدقات ومناصب العرافة . وظلا ساكتين ، فرفع مروان حذاءه لضرب أبى سعيد ، فلما رأيا هذا الوضع المتوتر والخطير ، صدقا أبا سعيد قائلين ، بأنه ما قاله أبوسعيد هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم بعينه (١٦) .

ويتضح من هذه الروايات والاحاديث أن العرافة كانت ادارة اجتماعية وسياسيه مترابطة . والحكومة كانت تستخبر احوال الشعب من خلالها وتطلع على مشاكله ومسائله . وكان العريف يتوسط بين الشعب والحكومة لحل هذه القضايا والامور . وعندما نظمت هذه المصلحة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم من جديد جعلت تستخدم كمؤسسة تستهدف اصلاح المجتمع وترمى الى توعيته وتزكيته ، ولذلک كان العرفاء يعينون من بين الذين يتمتعون بالسيرة الحسنة والسلوک الممتاز ،وعقيدتهم الدينية الراسخة ويحظون بمكانة مرموقة وعزيزة لدى شعب دائرتهم ، وكان هذا هو السبب الوحيد لاتباعهم وتكريمهم من أعماق القلوب من قبل الناس . ونظام الديمقراطيات الاساسية الذى طبقه هنا المرحوم محمد ايوب خان يماثل الى حدما فى شكله ومظهره الخارجى نظام العرافة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . ولكن النمط الذى نفذ عليه هذاالنظام أساسا فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والاهداف والمقاصد التى راعاها عليه السلام فى تطبيقه من تزكية النفس وتربية الخلق للملة الاسلامية ، هى مفقودة تماما فى نظام الديمقراطية الاساسية ، ونحن الآن بصدد تطبيق النظام الاسلامى وثمة أيضا فكرة على

المستوى الحكومى ، فعلينا أن نقوم باستعراض شامل لهيئاتنا السياسية والاجتماعية ، واذا أردنا تطبيق الاسلام الكامل واعلاء رايته الحقة فى كل معنى الكلمة واذا كانت أمنيتنا أن تسترد الأمة الاسلامية مكانتها الضالة فيجب علينا أن ننفخ روح الاسلام الحقيقية فى كل المراكز القومية والحيوية للمجتمع والادارة والعدل ، لتظهر النتائج بعيدة المدى فى توجيه الملة الاسلامية وتشكيله من جديد بدون الشك والمماراة .

النقابة

وكانت النقابة مؤسسة ثانية سياسية واجتماعية كانت تمثل دائرة كبرى بالنسبة للعرافة . وقد عرفها صاحب تاج العروس فى شرح القاموس كالتالى :

النقيب شاهد القوم ورأسهم ، فانه يفتش أحوالهم ويعرفها ، وقيل النقيب الرئيس الاكبر ... وأضاف يقول . وانما قيل للنقيب ، نقيب لانه يعلم دخيلة أمر القوم ، ويعرف مناقبهم ، وهو الطريق الى معرفة أمورهم (١٨) ، ويقول الكاتب السهير مؤلف مجمع البحار : النقيب هو كالعريف على القوم المقدم عليهم ، يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم (١٩)

وقد أوضحنا فى الصفحات الماضية ، أن العريف كان يمثل الدائرات الصغيرة والأحياء ، وكانت مسئولياته منحصرة على المستويات المحلية والاقليمية ، وكان يحافظ على حقوق وواجبات محلته ومنطقته ، ولكن على العكس من هذا ، كانت مسئوليات النقيب متزايدة ، وكان ينوب عن الصعيدين البلدى والقومى .

لايخفى على أهل العلم أهمية بيعة العقبة الاولى فى تاريخ الاسلام السياسى ، وخاصة على الذين يعرفون نتائجها معرفة جيدة ، أبرمت بيعة العقبة الثانية بعد مرور ثلاث عشرة سنة على بعثة النبى صلى الله عليه وسلم . وتمت بهذه المناسبة معاهدة أيضا بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين أهل المدينة . فعين الرسول صلى الله عليه وسلم اثنى عشر نقيبا ، تسعة منهم من قبيلة خزرج وثلثة من قبيلة أوس . ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخترهم بنفسه ، بل رشحهم الانصار كممثلين لهم (٢٠) . قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن تمت البيعة . أخرجوا لى منكم اثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بمافيهم ، وأخرجوا منهم

اثنى عشر نقيبا ، تسعة من الخزرج وثلاثة من أوس (٢١). أى قدموا منكم اثنى عشر شخصا يقومون بواجبات النقيب عن قبائلهم وشعوبهم ليكونوا حكاما بينهم عندما تنشب المشاجرات وتبرز المشاحنات فيما بينهم ، فانتخبوا اثنى عشر شخصا ، تسعة من خزرج وثلثة من أوس .

وعبدالله ابن الصامت (رضى الله عنه) الذى كان من هؤلاء النقباء ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأجلا ، يحكى هذه الواقعة بكل فخر وبهجة . وقد نقل الامام مسلم روايته هذه فى صحيحه .

عن عبادة ابن الصامت (رضى الله عنه) هال ، انى من النقباء الذين بايعو رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ، بايعناه على أن لانشرک بالله سينا ، ولانسرق، ولانقتل النفس التى حرم الله الا بالحق ، ولاننهب ولانعصى ، فالجنة ان فعلنا ذلک ، فان غشنا من ذلک كان فضاءه ذلک الى الله تعالى (٢٢)

وفيمايلى أسماء هولاء النقباء من اصحاب النبى صلى الله عليه وسلم الكرام :

١) أسعد بن زرارة رضى الله عنه من بنى نجار .
٢) أسيد بن حضير رضى الله عنه من بنى عبدالاشهل .
٣) أبو جابر عبدالله بن عمرو رضى الله عمه من بنى سلم .
٤) براء بن معرور (رضى الله عنه) من بىى سلم .
٥) رافع بن مالک (رضى الله عنه) من بنى زريق .
٦) رفاعة بن عبدالمنذر رضى الله عنه من بنى ظفر .
٧) سعد بن الربيع (رضى الله عنه) من بنى الحارثة .
٨) سعد بن عبادة (رضى الله عنه) من بنى ساعده .
٩) سعد بن خيثمه (رضى الله عنه) من بنى عمرو بن عوف .
١٠) عبدالله بن رواحة (رضى الله عنه) من بنى حارثة .
١١) عبادة ابن الصامت (رضى الله عنه)من بنى عوف .
١٢) منذر بن عمرو (رضى الله عنه) من بنى ساعدة .

وروى بعض المؤرخين اسم سيدنا أبى الهيثم بن التيهان فى النقباء بدل

رفاعة بن المنذر . وكان ينحدر من قبيلة بني عبدالاشهل .

ولم يكتف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يعين النقباء فحسب بل انه عليه السلام أنشأ ايضا منصب نقيب النقباء و عين فيه أسعد بن زرارة رضي الله عنه .

ويكتب المورخ الشهير العلامة البلاذري رحمه الله في ذكر أسعد بن زرارة رضي الله عنه ـ أسعد الخير بن زرارة بن عوس النجاري (رضي الله عنه) . يكنى أبو أمامة . مات على تسعة أشهر من الهجرة . ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى . فدفن بالبقيع وكان نقيب النقباء (٢٣) .

ويروى الامام أحمد ابن حنبل في مسنده عن علي رضي الله عنه أنه عليه السلام قال :: واني أعطيت أربعة عشر نقيبا وزيرا نجيبا (٢٤) .

وذكر القرآن عن النقباء في العصور الماضية والملل البالية حيث يقول: ولقد أخذ الله ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا (٢٥) وكان سيدنا موسى عليه السلام عهد اليهم المسئوليات السياسية المهمة جنبا الى جنب مع الواجبات الدينية . وفصل القاضي الشوكاني هذه الواجبات كالاتي :ـ انهم بعثوا أمناء على الاطلاع على الجبارين والنظر في قوتهم ومنعتهم . فساروا ليختبروا حال من بها ويخبروا بذلك (٢٦)ـ يريد أنهم ندبوا ليستخبروا عن العمالقه وقوتهم ومنعتهم وامكانياتهم الدفاعية ليطلعوا سيدنا موسى عليه السلام عن كل هذه المعلومات .وكان العمالقة يقطنون أرض شام ويحظون بصحة جيدة وقامة طويلة . فلما أمر موسى عليه السلام بالجهاد ضدهم . بعث نقباءه لاستطلاع أحوالهم الداخلية واستعداداتهم الحربية .

وأما مايتعلق بسلطات هؤلاء النقباء وواجباتهم فقد اتضح الى حد كبير مما ذكر آنفا من الاستشهادات والنصوص التاريخية وعلى سبيل المثال

كان من صلاحياتهم حسم الخلافات والمشاحنات بين الناس والاطلاع على احوالهم بكل كفاءة ودقة وابلاغ الحكومة معلومات عن حوائجهم وظروفهم ،ولم يزالوا يخبرون الحكومة عن صلاحيات الأشخاص الاكفاء والأفراد المتحرفين لتستفيد الحكومة من مؤهلاتهم وكفاءاتهم استفادة تامه. ويبدو هذا أيضا مما قاله النبى صلى الله عليه وسلم للنقباء يوم بيعة العقبة الثانية حول واجباتهم ، فقال : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم عليه السلام ، وأنا كفيل على قومى ، فقالوا نعم (٨٧) . أى انتم مسئولون عن مشكلات قومكم كما كان أصحاب عيسى عليه السلام مسئولين عن قومهم وأنا مسئول عن أمتى ، فأقر الناس وقالوا نعم .

فقصارى القول أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد الى هؤلاء النقباء كل المسئوليات الاجتماعية والسياسية ، وكان هؤلاء الممثلون يحثون الناس على اتباع الاحكام و القوانين ويعملون بها ، وكانوا مستشارين خصوصيين للحكومة ، وكانوا يراقبون سمعة الحكومة وشعبيتها بين الناس ، ولكن أهم ما كانوا يقومون به هو تربية النفوس وتزكية القلوب، وكانوا يبذلون ما استطاعوا من الجهود فى دوائرهم المختصة للتوعية الاخلاقية وتزكية النفوس ـ ويجدر بالذكر فى هذا الصدد مجلس عبدالله ابن رواحه التربوى الشهير بالمجلس الايمانى عند المؤرخين . فكان يعقد الاجتماعات واللقاءات مع الناس ، ويقول لهم بالأخوة والرفق : تعالوا؛ نؤمن بربنا ساعة ونتبرك بذكر الله عزوجل قليلا .

وكان سيدنا أبو الدرداء رضى الله عنه يقول : لا أستطيع أن أنسى أسلوب تربية عبدالله بن رواحه أبدا ، كلما لقينى ، قال لى واضعا يده على كتفى بالرفقة والشفقه ياعزيزى ، تعال،نجدد ذكر الله قليلا من الزمن .

وكان سيدنا اسعد بن زرارة نذر نفسه للدعوة الى الخير وتعليمه ، ويكتب العلامة البلاذرى أن اسعد بن زرارة قام بالدعوة والارشاد فى المدينة المنورة بجهد بالغ وتكريس كامل وحنين كبير . وكانت هذه كلها نتيجة مساعيه الحميدة أن انتشر الاســلام فى المدينه المنـورة بسـرعة قليلة ووقت قصير . وكانت الجمع والجماعات تنظم أيضا تحت اشرافه (٢٩) .

والواقع أن الرسول صلى الله عليه وسلم عهد الـى جميـع القـادة السياسيين والمسئولين الحكوميين وأصحاب المناصب العليـا والسفـراء والأمراء تبليغ الفكر الاســلامى ومبادئ نظام الحياة الاسـلامية والقيـام بتزكية النفوس وتربيتها لخلق المجتمع المتحضر المتعال والمنظم ، وكان هؤلاء الافراد يحتلون مكانة معلمى الاخلاق . وكان هذا هو السبب الوحيد لتفوق المثل الاخلاقية فى المجتمع بسرعة بالغة . وكان النظام كله يلتزم بالاخلاق العالية والقوانين السارية السمحاء .

وان اتخذ المفكرون الاسلاميون والامة المسلمة ومسئولو الحكومات الاســلامية هذه الوصفة الشافية وهذا الدواء المؤثر بحسن نواياهم وكمال اخلاصهم فنحن على حق اليقين أن تعليمات الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه فى السياسة والقانون والدستور وسنته المطهرة فى تكوين الحياة الانسانية هى الوحيدة التى سوف تهدى البشرية وتضمن اصلاح المجتمع الانسانى المعاصر . فالله المستعان وهو الهادى الى سواء السبيل . .

المــــراجــع

(١) الامام النووى . رياض الصالحين . باب التوبة ص ١٧ ،طبع مصر ٧ ٥ ١٣هـ

(٢) راجع المقالة ـ المواخاة كحجر الأساس للمجتمع الاسلامى . للمؤلف . فى مجلة ـ فكرونظر ـ جمادى الأخر . ١٤٠١هـ اسلام آباد

(٣) الطبری ج ٤ ،ص ٨٧ طبع مصر الدکتور محمد حمیداللہ ، نظام الحکم فی عہد النبی صلی اللہ علیہ وسلم ص ٧٢

(٤) تاج العروس ج ٦، ص ١٩٥ ، مجمع البحارج ٢، ص ٣٧٣ ، لسان العرب کلمة عریف

(٥) فتح الباری ج ١٣ ، ص١٤٨

(٦) تاج العروس ج ٦ ،ص ١٩٥

(٧) مختصر المعانی ص ١٤٣ ، طبع قرآن محل ، کراتشی

(٨) الجامع الصحیح للبخاری ج ٢ ، کتاب الاحکام ص ١٠٦٤، فتح الباری ج ١٣ ، ص ١٤٨

(٩) سنن أبی داؤد ، باب العرافه ، ص ٤٠٧ طبع أصح المطابع ، کراتشی

(١٠) الصحیح لمسلم ج ٢ ، ص ١٢٩

(١١) فتح الباری ج ١٣ ، ص ١٤٨

(١٢) الجامع الصحیح للبخاری ، کتاب الشهادات ج ١ ، ص ٣٦٦

(١٣) الطبری ج ٤ ، ص ٧٨

(١٤) مصدر سابق

(١٥) مسند الأمام أحمد بن حنبل ج ٣ ، ص ٤١٤

(١٦) نفس المصدر ج ٣، ص ٢٢

(١٧) تاج العروس ج١ ، ص ٤٩٢

(١٨) نفس المصدر

(١٩) مجمع البحار ج ٣،ص ٣٨٦ ، لسان العرب ج ١ ، ص ٦٩٧

(٢٠) شبلی النعمانی ، سیرة النبی صلی اللہ علیه وسلم ج١ ، ص ٢٦٤

(٢١) سیرة ابن هشام ، ذکر بیعة العقبة الثانیة

(٢٢) صحیح مسلم ، ج ٢ کتاب الحدود ، ص ٨٩

(٢٣) البلاذری انساب الاشراف ، تحقیق الدکتور محمد حمیداللہ ج ١، ص ٢٤٣

(٢٤) مسند الامام أحمد بن حنبل ، ج ١ ، ص ٢٤٣

(٢٥) المائدة ـ ١٢

(٢٦) الشوكاني ، فتح القدير ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

(٢٧) ابن كثير : البداية والنهاية ج٣ ، ص ١٦٢

ابن حجر العسقلاني : الاصابة ج ٣ ، ص ٢٩٨

(٢٨) ابن الاثير . أسد الغابة : ج ٢ ، ص ١٥١

(٢٩) البلاذري : أنساب الاشراف ج ١، ص ٢٤٣

سـير التاليف في باكستان
(باب التقريظ والانتقاد)
خطب بهاولپور للدكتور محمد حميد الله

الاستاذ محمد طفيل

ان من العادات المتبعة في الجامعات الكبيرة أنها تقوم بتوفير الفرصة للمتخصصين والاساتذة والخبراء ان يلقوا خطبهم في ميادينهم الخاصة . ويتمكن بذلك هؤلاء الخبراء والمتخصصون بتقديم نتائج بحوثهم أمام الطلاب والباحثين الذين يستفيدون بهذا الطريق من أحدث الافكار والاراء المعاصرة . وهذا طريق معروف بين الجامعات . فانها تدعو أحدا من أساتذة الموضوع الكبار لالقاء المحاضرات خلال اجازات صيفية أو في مناسبة اخرى .

والاستاذ المدعو يبذل جهوده ويجمع نتائج بحثه ويكتبها بشكل مقال ويقدمه الى المشتركين المستمعين الذين يتوجهون بالاسئلة الى الاستاذ المحاضر في نهاية المحاضرة ليجيب على هذه الاسئلة . وبذلك تتضح كثير من النقاط التي لم يستطع المحاضر أن يعطيها مكانا كافيا في مقالته أو خطبته .

هذا النظام مؤثر جدا وثبتت فائدته في أقطار العالم شرقا وغربا . فأما في الغرب فنجد أن في كل جامعة ومعهد دراسي برنامج لتشجيع هذه المحاضرات العلمية ولو مرة واحدة في كل سنة . ولكن لم يتوجه في

الشرق الى هذا الطريق المفيد حتى الآن الاقليل من الناس . فنجد فى شبه القارة أى الباكستان والهند نصيبا قليلا من نتائج هذه العادة فى قسم الخطب والمحاضرات فى المكتبات الدولية الكبيرة . ولا نجد مايجدر بالذكر سوى مجموعتين هامتين لمثل هذه المحاضرات . احداهما للعلامة سيد سليمان الندوى(المتوفى عام ١٩٥٣ م)والأخرى للشاعر والفيلسوف الحكيم العلامة محمد اقبال رحمة الله عليه . فالمجموعة الأولى تبحث عن السيرة النبوية على صاحبها ألف ألف تحية ، والثانية تبحث فى بعض النواحى الهامة لتجديد التفكير الدينى فى الاسلام .

ولانجد بعد محاضرات فيلسوف الشرق مجموعة تجدر بالذكر فى هذه المنطقة . حتى جاء العالم الشهير والفاضل الكبير الدكتور محمد حميد الله ، زاده الله شرفا وعلما ، وألقى هذه المحاضرات التى بين يدينا ، وذلك تحت اشراف الجامعة الاسلامية ببهاولبور التى أسست لنشر الرسالة الاسلامية والعلوم الدينية قبل عشرين سنة فى بلدة دينية واقعة على مسافة ١٠٠ كيلو متر من بلدة ملتان القديمة التاريخية .

ولد الدكتور محمد حميد الله فى ١٦ محرم الحرام ١٣٦٦ هـ الموافق ٩ فبرائر ١٩٠٨ م فى بلدة حيدرآباد دكن بالهند ، وحصل على التعليم فى نفس البلدة التى كانت مركزا للعلوم الدينية ، وأتم دراسته العالية فى الجامعة العثمانية الشهيرة . ثم سافر الى أوربا وحصل على الدكتوراه من جامعة بون (المانيا) وكتب اطروحته عن نظرية الحياد فى القانون الدولى الاسلامى ، ثم حصل الدكتوراه مرة ثانية فى الآداب من جامعة سور بون (باريس) وكتب اطروحته عن الدبلوماسية فى عهد الرسالة وعهد الخلفاء الراسدين ، وكان آنذاك أستاذا فى الجامعة العثمانية ثم ارتحل الى أوربا عدة مرات ودرّس فى جامعات أوربا المختلفة .

ويعرف فضيلة الدكتور عديدا من اللغات الشرقية والغربية . فأصبحت بهذا السبب لديه معرفة واسعة وخبرة طويلة فى مجاله الخاص ، أعنى الدراسات الاسلامية . ويستطيع بذلك أن يستشهد بآراء القدماء والمحدثين فى اثبات مايريده من نتائج . فارتفع مستواه العلمى الى أقصى درجة ، وأصبحت خطبه ومقالاته مؤثرة تاثيرا واسعا فى أوساط الشرق العلمية بعامة وفى أوساط الغرب العلمية بخاصة .

واذا رأينا الى مجهوداته العلمية وجدنا أنه كتب كثيرا فى موضوعات دينية . فكتب عن القرآن الحكيم والسنة النبوية والسيرة الطيبة . ويأتى فيمايلى باسماء الكتب التى ألفها عن السيرة النبوية من ناحية سياسية ومن ناحية اجتماعية الى جانب مقالتيه للدكتوراه ، وذلك فى لغات عديدة

(١) الغزوات فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، باللغتين الاردوية والانجليزية .

(٢) نظام الدولة الاسلامية فى العهد النبوى (باللغة الاردوية)

(٣) أول دستور مكتوب (بلغات عديدة).

(٤) الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة (باللغتين العربية والاردوية).

(٥) الرسول صلى الله عليه وسلم وحياته السياسية (اللغة الاردية)

(٦) القانون الدولى (اللغة الاردية) .

(٧) صحيفة الهمام بن المنبه . حققه وعلق عليه وهو أول من طبعها

(٨) القرآن فى كل لسان .

(٩) كتاب فى مجلدين فى السيرة النبوية (اللغة الفرنساوية).

(١٠) دليل الجامع الصحيح للامام البخارى .

هذه الكتب تبحث عن العلوم الدينية الاساسية . والباحثون يستعملونها فى

ابحاثهم . وألف الدكتور محمد حميد الله كثيرا من المقالات التى طبعت في جرائد دولية ويستفيد منها أهل العلم .

وهذه الخطب التى بين ايدينا والتى نكتب عنها هى مهمة جدا ، لأنها ألقيت فى عـامة الناس ويستطيع القـارى العـادى ان يقـرأ ها ويفهمها ، لانها فى لغة سهلة ولها طريق واضح وأسلوب سهل مفيد

كان من عادة الخطيب أن يقوم على المنصة ويلقى خطبته بين صلوتى العصر والمغرب . والناس يسمعونها . فاذ أذن للمغرب كمل خطبته وصلى الصلوة مع الجماعة فى عامة الناس . وبعـد صلوه المغـرب كان يجيب عن الاسئلة التى كانت توجه اليه من عامة الناس . ويتم هذا الاجتماع متأخرا فى الليل كل يوم .

ومن عادة الخطباء أنهم يتكلمون فى الاجتماعات وأمامهم خطبهم المكتوبة . ولكن الخطب التى الفاها الدكتور الفاضل كانت شفوية . فانه لم يكتب سيئا حتى المذكراب . وهذا ان دل على سئ فانما يدل على أن الدكتور الفاضل له سيطرة تامة على العلوم الديبية واستعداد كامل لبيانها وسرحها .

العى هذا العالم الشهير اثنتى عشرة خطبة تحت نظام محدد في وقت معين . وهى كالآتى .

(١) تاريخ جمع القرآن الحكيم وتدوينه

(٢) تاريخ تدوين الحديث النبوى (صلى الله عليه وسلم) .

(٣) تاريخ الفـقـه .

(٤) تاريخ أصول الفقه وأهمية الاجتهاد

(٥) القانون الـدولى الاسـلامى

(٦) ماهـو الدين ؟ عميدة وسلـوكا

(٧) الدولة وسياستها فى العهد النبوى صلى الله عليه وسلم
(٨) نظرية الحرب وحكمة الغزوات النبوية .
(٩) نظام التعليم وتشجيع العلوم فى العهد النبوى صلى الله عليه وسلم .
(١٠) العدل والتشريع فى ضؤ السيرة النبوية .
(١١) نظام الاقتصاد فى العهد النبوى صلى الله عليه وسلم . .
(١٢) نشر الرسالة وعلاقات المسلمين مع الذميين فى العهد النبوى .

بدأ فضيلة الدكتور خطبته الاولى بالحديث النبوى من مسند الامام أحمد بن حنبل ثم ذكر كل كتاب دينى أو صحيفة دينية معروفة بين الناس وأسار الى كيفيتها وحفظها ، وتكلم عن جمع التوراة والزبور والانجيل وتدوينها . وبين التحريف الذى تسرب الى كل واحد منها وأثبت بالشواهد باننا لانجد أحدا من هذه الكتب بصورتها الاصلية أوفى ألسنتها الاصلية . وهى فى هيئة محرفه لايمكن معرفة حقيقتها ولا العمل بها .

أما القرآن الحكيم فهو كتاب حى ومحفوظ منذ تنزيله . ويثبت من بحوث المحاضر بأن جزءا من القرآن الحكيم كان مكتوبا فى السنة الخامسة للنبوة أى قبل الهجرة . وهو يستشهد فى هذا الصدد بقصة اسلام سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ثم عالج مسئلة كتابة القرآن بوضوح تام وقال : « ان القرآن الحكيم كتب فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من البداية الى النهاية (ص ١٢ ـ ١٣) . ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح أبوبكر رضى الله عنه خليفة المسلمين اهتم اهتماما خاصا بجمع القرآن الحكيم وحفظه . وجمع القرآن على لغة قريش فثبت من الدلائل القوية ان القرآن الحكيم كان مكتوبا فى عهد النبوة .

وجمع على لغة قريش فى بداية عهد الخلافة . أما الخلفاء الثلاثة الآخرون فنشروا هذه الرسالة الى أقطار العالم .

فى نهاية هذه الخطبة نجد مقارنة مفيدة بين القرآن والانجيل . وخلاصة هذه المقارنة أن العهد الجديد يكثر فيه اختلاف الرواية . أما القرآن الكريم فمصون عن هذا الاختلاف . ويدل على هذا الرأى البحث الذى قام به المستشرقون فى المانيا حديثا .

وتكلم فى الخطبة الثانية عن تدوين الحديث النبوى الشريف . وقال عن اهمية الحديث ان مكانة الحديث تساوى مكانة القرآن من وجه (ص ٣٣) لان من واجب المسلمين أن يومنوا بالحديث مثل ايمانهم بالقرآن الحكيم . فان عقيدة المسلم لاتكمل الا بالايمان بالحديث النبوى الشريف . وقال ان نظير القرآن الحكيم من حيث كونه كتابا دينيا منزلا نجده فى أديان أخرى مثلا التوراة والزبور فى اليهود والانجيل فى النصارى ، ولكن لا نجد فى دين أو نظام كتابا أو مجموعة كتب تشبه كتب الحديث عندنا (ص ٣٦).

وشرح فضيلة المحاضر بالتفصيل أن الحديث النبوى يحتوى على الهداية الربانية لكل ناحية من نواحى الحياة ، ويساعد الانسان لحل جميع قضاياه . ثم قسم الحديث على قسمين كبيرين :

أ) المكاتيب الرسمية

ب) الاحاديث التى قام الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين بجمعيها شخصيا .

احاط المحاضر بكل المكاتيب والوثائق الاخرى فى النوع الاول وذكر أن المكتوب الاول من المكاتيب النبوية التى حفظها لنا التاريخ كتب فى السنة الخامسة للنبوة ، أى قبل سبع سنوات من الهجرة ، عند الهجرة

الأولى الى الحبشة ، وذلك الى النجاشي . ثم اشار الى أن المكتوبات النبوية عددها حوالى أربع مائة مكتوب . بعضها يحتوى على المعاهدات وبعضها على تبليغ الدعوة ونشر الرسالة وبعضها على نواحى أخرى .

وبدأت كتابة الحديث فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . واستشهد الخطيب من الرواية التى وردت فى سنن الترمذى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر صحابيا بكتابة الحديث وقال له : « استعن بيمينك » اى أكتب أقوالى ، فعمل الصحابى رضى الله عنه بهذا القول وتبعه فى هذا العمل عبدالله بن عمرو بن العاص فى شبابه . وكان يكتب كل ماسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومثل ذلك كان يكتب أنس بن مالك رضى الله عنه احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان يقرء عليه والنبى كان يصحح أخطاءه . ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثر عدد المسلمون فكان من عادتهم أن يتلو الاستاذ الاحاديث التى كتبها بعد السماع المباشر من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفصل الخطيب هذا البحث تفصيلا وذكر عدة سجلات خاصة وصحف شخصية دونت من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهد الرسالة .

وتبحث الخطبة الثالثة عن علم الفقه ومباحثه المختلفة . فبدء الدكتور خطبته بذكر الحديث المشهور الذى روى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه، والذى يذكر أن معاذ رضى الله عنه أجاب عن السؤال الثالث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اجتهد برائى ولا آلو.

قد بين فضيلة الشيخ أن أنظمة القوانين القديمة والحديثة دونها الانسان الذى هو مركب من الخطا والنسيان . ولكن من خصائص قانون الاسلام انه منزل من الله الحكيم الذى لا يخلو عمله عن الحكمة فليس فيه نقص ولاتناقض ، وهو يلائم فطرة الانسان . وهو أوسع من كل قانون

دونه البشر . والمصدر الاول الرئيسى للقانون الاسلامى هو القرآن الحكيم الذى أنزله الله وصانه عن كل تحريف ثم السنة النبوية التى لازالت مكتوبة ومحفوظة منذ عهد الرسالة .

وتبحث المحاضرة الرابعة فى تاريخ أصول الفقه وأهمية الاجتهاد وأصول الفقه هو فن خاص قام بتأسيسه المسلمون . ولئن كان القانون موجودا فى العالم قبل المسلمين ولكن المسلمين لهم الاولوية فى بداية هذا العلم الهام .

أما الخطبة الخامسة فتبحث عن القانون الدولى فقال الخطيب ان فكرة القانون الدولى أسسها المسلمون لأول مرة ، واعطوا الانسانية القانون الذى يبحث عن العلاقات بين الدول الحرة مسلمة أو غيرها . ومن أهم بحوثها حالة الحرب وحالة السلام. فالاسلام يعطى الاصول والقواعد لكل واحدة منهما . ويرى المحاضر أن ميثاق المدينة يمنح الاصول والقواعد عن حالة السلام وأما الغزوات التى قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته فتوفرلنا قدوة حسنة وأصولا واضحة لحالة الحرب وألف الفقهاء المسلمون فى هذا المجال كتبا كثيرة مفيدة منذ عهد الامام ابى حنيفة الى يومنا هذا ، مثل كتابى السير الكبير والسير الصغير للامام محمد بن حسن الشيبانى رحمة الله عليه ، فهما كتابان اساسيان مهمان جدا فى موضوع القانون الدولى .

نحن اليوم نقسم القانون الدولى الى نوعين : القانون الدولى العام والقانون الدولى الشخصى . وكتب الفقهاء المسلمون فى كل واحد منهما فى كتاب واحد كموضوع واحد .

ماهو الدين عقيدة وعملا وسلوكا ؟ هذا موضوع البحث فى المحاضرة السادسة . فبدء الخطيب محاضرته مشيرا الى حديث جبريل عليه السلام

الشهير . وبين العقائد الاساسية فى الاسـلام وشرح الحديث النبوى «آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر » شرحا مفصلا . وذكر حقيقة الوحى وكيفية نزوله . وتكلم عن الناحية العملية فى الاسلام وقال ان الحياة كلها عبادة . ويرى أن هذا المعنـى الشامـل للعبـادة ايضا من خصائص المسلميـن ، لان العبـادة عنـد اليهـود تلاوة التـوراة فقط . والمجوس يعبدون النار ، والهنـدوس يعبـدون البقـرة ، وأمـا النصارى فعبادتهم استعمال الصليب فقط .أما المسلمون فعندهم طريق معين للعبادة، كمـا فسـر الشارع عليه السلام :« ان تعبد الله كانك تراه وان لم تكن تراه فانه يراك » . ومن أهم عباداته الصلوة والزكوة والصوم والحج . وعندما يتكلم المحاضر عن العبادات الاسلامية يقارن عبادات الاسـلام بعبادات الأديان الاخرى ويثبت تفوق الاسـلام . ثم تكلم عن فكرة التصوف عند نهاية المحاضرة . والتصوف فى رأيه هو الاخلاص فى العمل فقط لاغير (ص ١٥٩) .

والمحاضرة السابعة تبحث عن نظم الـدولة . فبـدء المحـاضر هذه المحاضرة بآية قرآنية « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » ، معناها الدين عبارة عن اداء واجبات دينية وواجبات دنيوية . فالمسلـم يتمنى من الله التوفيق بأدائهما بطريق حسن مقبول . فلذا أسس الرسول صلى الله عليه وسلم دولته على أساس دينى فى جزيرة العرب ، فانه ما كان يريد لنفسه منصبا دنيويا بل كان يأخذ كل واحد منهما بمنواله ليعمل لنشر الرسالة ولاقامة الدين . فالاسلام يطلب من متبعيه ان يكوّنوا دولتهم لينفذوا فيها الأحكام الشرعية .

وهو أولا يتكلم من ناحية تاريخيه ويكشف ان الدولة أسست فى اليمن قبل تأسيسها فى أوربا ، وقد أكتشف من آثار تاريخية فى اليمن ان العرب

كانوا يحبون فلاح المملكة وعامة الناس . ومكة المكرمة كانت دولة مدنية ، وكان فيها نظام سياسى ، وكانت حدود هذه الدولة واسعة سعة حدود الحرم ، وكان هنـــاك نظام الحكم الذاتى . وكان مجلس الوزراء قائما فى صورة دار الندوة .

ولكن الدولة الاسـلامية لم تؤسس فى مكة المكرمة بل اقيمت فى المدينة المنورة بعد هجرة الرسول عليه السلام الكبرى من مكة المكرمة الى المدينة المنورة ، وكان الرسول عليه السـلام مؤسس هذه الحكومة السياسية تحت لواء دينى ، ودون دستور هذه الدولة وحرر كل جزء منه وقدمه الى عامة الناس (ص ١٧٨) لمعرفتهم والعمل به . فكان من أهم نقاط هذا الدستور .

أ ـ أن تكون الدولة مستقلة .

ب ـ أن يكون غير المسلميـن أحـرارا فى اختيـار دينهـم أى للمسلمين دينهم ولليهود دينهم .

ج ـ أن يكون الرسول عليه السلام رئيس هذه الدولة .

د ـ أن السلام والحرب شيئان متساويان لكل واحد من سكـان المملكة .

هـ ـ أن يدافع عنها كل واحد من سكان الدولة اذا كان هناک تحد من خارج الدولة .

و ـ والرسول سوف يحكم فى القضايا والامر أمره .

ز ـ والدية سوف يدفعها كل واحد من عامة الناس .

كانت هى عناصر الدولة الاسلامية التى أسسها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فيثبت من هذا ان الاسـلام قدم الى الانسانية نظاما سياسيا وماليا وتعليميا وعسكريا وقضائيا شاملا .

والدفاع والغزوات كانت موضوع المحاضرة الثامنة من هذه السلسلة .
ويبدا المحاضر بقوله ان الدفاع أصعب مسائل السيرة النبوية لان الدفاع يحتاج الى اعداد عسكرى وغير عسكرى . فشرع الرسول صلى الله عليه وسلم دفاعه باعداد غير عسكرى ، وهو تنظيم الدولة وحل مشاكل المهاجرين بشكل المواخاة وميثاق المدينة .

فاما الناحية العسكرية فكان الرسول صلى الله عليه وسلم خبيرا فى هذا الحقل ، فكان يعين العيون ، وكان يرسلهم الى معسكرات العدو ليعرف قوتهم واعدادهم للحرب . وكان يعمل بالحكم الربانى"وأعداولهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل " فالاسلام يعطى نظاما خاصا للحرب و لحل المسائل التى تنشا بعدها . ومن خاصية هذا النظام أنه لايريد القضاء على الانسان بل يريد اصلاحه عن طريق الجهاد والقتال مثل الجراحة العملية فى الطب .

وأما فى المحاضرة القادمة ففسر الدكتور المحترم نظام التعليم فى العهد النبوى وبدء محاضرته بقول الله تعالى " اقرأ بأسم ربک الذى خلق ....." وكان الرسول يدعوا الله دائما " رب زدنى علمـــا" وكان يأمر " اطلبوا العلم من المهد الى اللحد " . وشجع الرسول صلى الله عليه وسلم اصحابه لكتابة الوحى خاصة ، وكان من عادة الصحابة أنهم كانوا يكتبون الوحى واحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وهم فى مكة

وأما فى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم فكان نظام التعليم فيها مدونا ومنظما . وكانت الصفة بمثابة جامعة سكنية . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، والصحابة كانوا طلاب العلم يطلبون كل نوع من انواع العلوم الدينية وغيرها . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقى الوحى من ربه ويبلغه الى الناس عامة والى أصحابه خاصة .

وتبحث المحاضرة العاشرة فى نظام العدل وتاريخ التشريع فى ضؤ السيرة النبوية على صاحبها السلام والتحية .

ونظام الاقتصاد موضوع المحاضرة القادمة . ان المال مهم للانسان ، لان الانسان لا يمكن بقاءوه الا بالمال ، كما اشار القرآن الحكيم الى هذه الحقيقة بقوله : " واموالكم التى جعل الله لكم قياما " فالمحاضر أولا يفسر كلمة الزكوة ويقول : يمكن أن تكون الزكوة معروفة بين الناس قبل عصر الرسالة فا لاسلام لايقضى على العادات المفيدة للانسانية ، ولاشک ان الزكوة جزء مهم للنظام المالى فى الاسلام وفرضت فى السنة التاسعة من الهجرة النبوية .

ثم سئل المحاضر " هل يجوز للحكومة الاسلامية ان تأخذ الضرائب سوى الزكوة ؟ فأجاب المحاضر أن للحكومة الاسلامية أن تأخذ الضرائب من المسلمين . وعلى هذا الامر اجماع الامة . وكيف تجرى شئون الحكومة لو لم يكن عندها مال ؟ اذا كانت أموال الزكوة قليلة من حوائج الحكومة فلها أن تأخذ الضرائب .

والمحاضرة الاخيرة تبحث عن نشر الرسالة الاسلامية وحقوق الذ ميين فى المجتمع الاسلامى. فالتبليغ من واجبات الرسول الاساسية فالرسول المكرم أدى وظائفه هذه بطريق أحسن وبلغ رسالة الله الى الانسان بشكل لايتصور أحسن منه ونحن نرى الرسول يقيم مثالا حسنا بحسن سلوكه مع الذ ميين.

هذه هى بعض الاشارات الموجزة عن المحاضرات التى ألقاها الدكتور محمد حميد الله فى الجامعة الاسلامية ببهاولفور ولاشک أن هذه المحاضرات تحتل مكانة عليا فى المطبوعات الحديثة حول موضوعات دينية وفى نفس الوقت هى تعالج مسائل مهمة نواجهها كل يوم .

والأستاذ المحاضر له خبرة طويلة فى نشر الرسالة والقاء المحاضرات ففـى خطـابه اثر خاص يتأثر به الانسان . ومن عادة المحاضر ان يقدم معلومات متعلقة بالموضوع من كل ناحية ومن كل مصادر ولكن من عادته انه لايحتم القول فى القضايا المختلف فيها ، بل يتركها للسامع أو القارى أن يأخذ النتيجة من البحوث والمعلومات التى يقدمها .

فالجامعة الاسـلامية التى دعت الدكتـور لالقـاء هذه المحـاضرات القيمة نقدم اليها التهنئة لتجهيز هذه المحاضرات وطبعها بصورة جيدة . وندعـو أن الجامعـات الباكستـانية الاخـرى خاصة وجامعـات البـلاد الاسـلامية الاخرى عامة تمشى على طريقة الجامعة الاسـلامية ببهاولفور وتدعوا العلماء الكبار من كل اقطار العالـم لالقـاء المحـاضرات علـى موضوعات معاصرة حديثة ، لان هذا الطريق أكثر تأثيرا فى نفوس الشباب المسلمين وأذهانهم .

مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية
باللغة العربية

اختلاف الفقهاء للامام الطحاوى

تحقيق : الدكتور محمد صغير حسن المعصومى

*

كتاب النفس والروح وشرح قواهما للامام الرازى

تحقيق : الدكتور محمد صغير حسن المعصومى

*

الرسائل القشيريه للامام أبى القاسم القشيرى

تحقيق : الدكتور بير محمد حسن (مع الترجمة الأرديه)

*

معدن الجواهر فى تاريخ بصرة والجزائر للشيخ نعمان

تحقيق : البحاثة الدكتور محمد حميدالله

*

الكندى و آراؤه الفلسفيه

للدكتور عبدالرحمن شاه ولى

*

مقصود المؤمنين لبايزيد الأنصارى

تحقيق : الدكتور ميرولى خان

*

كتاب الانفعال للامام الصغانى

تحقيق : الأستاذ أحمد خان

★ ★ ★ ★ ★

AL-DIRĀSAT AL-ISLĀMIYYA

ARABIC JOURNAL

OF THE

ISLAMIC RESEARCH INSTITUTE, ISLAMABAD, PAKISTAN

Vol. XVII No. 2 March-April 1982

	Inside Pakistan	Outside Pakistan
Annual Subscription	Rs. 30.00	\$15.00 or £7.50
Single Copy	Rs. 6.00	\$3.00 £1.50

(Rates applicable from 1st July 1982)

All business correspondence should be addressed to :

The Circulation Manager

Islamic Research Institute

ISLAMIC UNIVERSITY

ISLAMABAD - PAKISTAN

Printed at Islamic Research Institute Press,

Published by Muhammad Sami'ullah for the Islamic Research Institute, Islamabad

الدراسات الإسلامية

مجلة اسلامية علمية

تصدر بعد كل شهرين

وتبحث فى الدين والثقافة والتاريخ والآداب

رجب - شعبان ١٤٠٢هـ مايو - يونيو ١٩٨٢م

مجمع البحوث الاسلامية

الجامعة الاسلامية

اسلام آباد - الباكستان

الدراسات الاسلامية

مجلة مجمع البحوث الاسلامية

الجـامعـة الاسـلاميـة

اسـلام آباد ـ الباكستان

العـدد الثـالث | المجلـد السابع عشـر

رجب ـ شعبان ١٤٠٢هـ | مايو ـ يونيو ١٩٨٢م

هيئة التحرير

المحتــوى

ضيــوف العـــدد

*** دكتــور طه جـابر العلـوانى ***

أستاذ الفقه الاســلامى بكلية الشـريعة ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسـلامية

الرياض ـ المملكة العربية السعودية

*****

*** دكتــور عبدالحميد أحمد أبو سليمان ***

أستاذ الفكر السياسى بجامعة الرياض ، الأمين العام للندوة العالمية للشباب الاسلامى

الـرياض ـ المملكة العربية السعودية

*****

*** الاستاذ ساجدالرحمن الصديقى الكاندهلوى ***

مؤظف بقسم البحوث ، مجلس الفكر الاسـلامى ،

اسـلام آباد ـ باكستان

*****

***السـيدة مها غـريب ***

ساعرة وأديبة معروفة ، سورية المولد ، الجزائرية المسكن

عربية الأصالة ، اسـلامية الفكر

*****

ليس من الضرورى ان تتفق ادارة المجمع مع جميع الآراء والبحوث التى ينشرها الكتاب فى هذه المجلة

كلمة العدد

كثيرا ما نردد أو نسمع أن الاسلام دين الانسانية ، وأن الشريعة الاسلامية تضمن للبشرية حاجاتها وضروراتها فى كل زمان . ولكن الذين يدركون حقائق هذه الدعوى ويقفون على غوامضها ويغوصون على دقائقها هم قلة قليلة من الناس لايبلغون عددا كبيرا يعبأبه . وأما الاغلبية الغالبة من المسلمين وخاصة الشباب فليس لهم الا أن يرددوا ما سمعوا من هتافات أو ماراقهم من النعرات أو ماوقع عندهم موقعا حسنا من الأقوال .

ان الاسلام ليس دين الانسانية فحسب ، بل هو دين السموات والأرض . أجل انه دين الكون كله و دين العالمين بأجمعها فكل أسلم لرب السموات والأرض ، وسجدت له الشمس والقمر والدواب ومن فى الأرض ، وكل أتوه طائعين . فكل هذه الاشياء الموجودة فى هذه الكائنات منقادة لقواعد وضعها خالقها ، ومسخرات تحت نظام وضعه بارئها ، ولايخرج شى من هذا النظام ولايحيد عنه قيد شعرة . وكذلك نرى العناصر لاتتخلى عما وضع الله تبارك وتعالى فيها من خاصيات ، ولايتسرب اليها التغير والتبدل الا بقواعد وأصول كتبها الله لها . .

فهذا هو الاسلام فى الناحية الطبيعية ، ويعمل بهذا الاسلام طوعا أوكرها كل موجود ماسوى الله ، والانسان أيضا يعمل بهذا النوع من الاسلام فى حياته الطبيعية ، حتى الانسان الكافر الجاهل الطاغى العاتى عن أمر ربه مجبول ومكره على أن يسلم لسنة الله رب العالمين فى عاداته اليومية فى مأكله ومشربه وملبسه ومعيشته ، فيضطر الى الأكل والشرب ، ويضطر الى اللباس ليقى نفسه من الحر والقر والصيف والشتاء . فاسلام البشرية لله رب العالمين فى حياتها الطبيعية يقتضى أن تسلم لله فى حياتها الاختيارية وفيما تركها خالقها مختارة ، وجعل أمرها بيدها .

فلذلک اعتبر القرآن الكريم دين الاسلام دين البشرية كلها ودين الانسانية جمعاء . وهذه هى النظرية الطبيعية والنظام الطبيعى الذى يلائم طبيعة الانسان ويوافق فطرته السليمة ، ويفى بحاجاته وضروراته ، وبه يستقم أمرها وتتقوم مقوماتها .

*****

وانظر على العكس من ذلک الى الأديان والمذاهب والنظريات والانظمة الأخرى . فانها لاتفى بحاجات الانسانية كلها وضرورات البشرية بأجمعها . فانظر الى المسيحية مثلا ، لاشک انها تشكل ديانة عالمية ، ويقوم رجالها بالتبشير المسيحى بنشاط واسع فى أنحاء العالم ، ولكنها لاتستطيع أن تصبح نظام الحياة للبشرية كلها ، فانها ليست بنظام للحياة ، انما هى مجموعة بعض المعتقدات والطقوس ولا تعدو تعاليمها من بعض التوضيات الاخلاقية ، ولاتضمن للبشرية نظاماً متكاملا فى النواحى العائلية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدولية . لأن التعاليم التى نسبها أبناءها الى سيدنا المسيح لاتحتوى

على شى من هذا النوع .

وان شئت فخذ النظـرية الشيوعية كمثال . فانک تجد أنها نظام اقتصادى لاغير . والاقتصاد عند أهلها أسـاس النشاطـات البشـرية كلها ، وليس عندهم مايمكن أن نسميه بالـدين والاخلاق ، فان الـدين والاخلاق عندهم أفيون الشعوب . ولايعتـرفـون بحاجـات الانســان الروحية وضـروراته الماوراء الطبيعية فضـلا عن اتيانها وتحقيقها .

*****

فلا بد لدين الانسانية أن يكون كفيلا لجميع مسائل الانسان ، وضامنا لحل سائر قضاياه ، جامعا لكل خير ، مانعا من كل شر ، شاملا لجميع نواحى الحياة البشـرية ، ملائما لفطـرة الانسان ، ويجب لدين البشـرية أن تكون تعاليمه صالحة لكل زمان ومكان ، وأن تكون قواعده ومبادئه الاساسية دائمة ثابتة ، وتكون فـروعـه وتطبيقاته قابلة للتغيير والتطور ليجمع بين مزايا الثبات والتغيير كليهما ، ويخلو عن نقائصهما وعيوبهما . ويلزم أن يكون دين البشـرية ضامنا وكفيلا لكرامة الانسان، ضامنـا للحفاظ على مكانته السامية المحترمة . ولابد لدين الانسانية أن يدين به أناس يؤمنـون بنظرياتـه الانسـانية وأفـكاره العـالمية ، ولايومنون بالفلسفات القومية والنظريات الضيقة ، ولايعترفون بالعوائق التى تحول دون الوحدة البشـرية ، بل يقاومون كل من أراد تمزيق البشـرية وتفريقها الى فـرق وطوائف وجعل أهلها شيعا .

وكذلک لابد لـدين يدعى بكونه دينا للبشرية بأسرها أن يكون دينا عالميا وأن لايبقى محدودا ومنحصرا على طائفة دون طائفة وعلى شعب دون شعب وعلى بلد دون بلد ، بل لابد من أن يكون له أتباع من جميع الطوائف البشرية ، ويقوم له دعاة فى كل الشعوب ، ويتصـدى للدفاع

عنه حماة يجاهدون فى كل بلد مى بلاد العالم .

فاذا كانت هذه هى معايير حقة وموازين صالحة وصادقة لدين الانسانية ونظام الحياة للبشر كله فقل لى بالله هل تصدق هذه المعاير الا على دين الاسلام ؟ وهل يطابق هذه الموازين الا نظام الاسلام ؟

*****

ان نظام الاسلام هو النظام الوحيد الذى يطابق الفطرة الانسانية مطابقة تامة ، بل هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، ويؤمن بهذا الدين كل من عنده فطرة صحيحة أو من أتى الله بقلب سليم . فانه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وشرع ليتمم مكارم الاخلاق ، وتشمل هدايته الربانية كل ناحية من نواحى الحياة البشرية . فانها تصلح عقائده الاساسية وآراءه الماوراء الطبيعية ، وهذه الناحية يعالجها علم الكلام من العلوم الاسلامية . وينظم الاسلام حياة الانسان الفردية والاجتماعية ويخبره بما لنفسه وما عليها ، ويعالج علم الفقه هذه الناحية ، ثم يحسن أخلاقه ويطور أدبه ويتمم له مكارم الاخلاق ، وهذه الناحية ، يعالجها علم الاخلاق ، أو ماسماه بعض المفكرين بالحكمة العملية ، وكذلك يزكى نفسه ويجلى روحه ويوطد صلته بخالقه ويخلق فى قلبه التقوى ومخافة الله التى يعتبرها رأس الحكمة ، ويعالج هذه الناحية علم الاحسان والتصوف . فكما أن فطرة البشرية وطبيعتها جامعة شاملة لنواحى متعددة فكذلك دين الفطرة جامع وشامل جميع هذه النواحى .

*****

ولايشك أحدأن هذه الشريعة الغراء صالحة لكل زمان ومكان ، فان قواعدها ومبادئها الاساسية دائمة ثابتة لاتقبل التغيير ، فان هذه

القواعد الدائمة والمبادى الخالدة يتضمنها كتاب الله الخالد الـذى لاياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وتقدم السنة النبوية المطهرة نماذج خالدة لتطبيقات عملية لهذا الدين ، وهى تمثل تفسيرا وتشريعا لهذه المبادى الخالدة الربانية والمبادى الأبدية . ويتضمن علم أصـول الفقـه الاسـلامـى أصـولا وقواعـد لـلاجتهاد والاستنباط ، وتضمن هذه الاصول والقواعد جانبا تطوريا ومتغيرا من الشريعة الاسـلامية والتى تجعلها صالحة لكل زمان ومكان .

وليست الشريعة الاسـلامية شـريعة جامدة متحجـرة ، وانما هى نهج متطور للحياة ويتمشى مع روح كل عصـر ، ويهدى كل انسان وكل جيل وكل بلد الى الصـراط المستقيم . فكل جيل وكل بلد يواجه بعض المسائل والمشاكل التى تخص به جنبا الى جنب مع المشاكل الطبيعية التى تواجه كل انسان تواجد على أديم الأرض .

ويحتوى هذا الدين السنن الالهية الابدية التى مازالـت تهدى الانسانية منذ فجرها فى هذا الكوكب الأرضى . ولايتصور أى تغييـر أو تعديل فى هذه السنن الأبدية ، فانها تعالج الانسان وتتناول مشاكله بالحل ، فبما أن طبيعة الانسان وفطرته لم يحدث فيها أى تغيير أو تعديل فكيف يمكن أن تتغير الهداية التـى تحـل مشـاكل الانسـان الفـردية والنفسية والاجتماعية وتهديه الى سواء السبيل ؟

وما زال قالب ذهن الانسان هو نفس القالب الذى كان لقدمائنا ، ومواهبنا الفكرية هى المواهب التى كانت بها يتمتع آباؤنا ، وكذلك الاحوال والاهواء والمتطلبات الأخرى ، وكذلك نمط التفكير وطبيعة الحياة الانسانية ، لم يحدث فى كل هذا فـرق جوهرى أو تغيير جذرى، فنرى مثلا المعروفات التى كانت تقـوم بها أخيـار الامـم السـالفة

وبررتهم تقوم بها أخيارنا وصلحاؤنا وبررتنا ، والمنكرات التى ترتكبها أشـرار الأمم الغابرة ترتكبها أشـرار القرن العشرين أيضا . لم يحدث فى هذه الناحية أى فرق ، وانما حدث الفرق فى الاساليب والمناهج . فقوم سيدنا لوط عليه السـلام كانوا يرتكبون ذلك المنكر الفاحش كما يرتكبه أبناء حضارة القرن العشرين ، وكان أصحاب الايكة يخسرون فى الميزان والمكيال كما يخسرها تجار عصـرنا الحديث .

*****

وأما كرامة الانسان ومكانته السامية المحترمة فى الكون التى يقرها ويعترف بها ويؤكد عليها الاسـلام فهذه ميزة يمتاز بها الاسـلام على سائر الاديان والمذاهب والانظمة الفكرية . فالاسـلام يعلن أن الانسان خليفة الخالق البارئ فى هذا الكوكب الأرضى ، ومرتبته فى الكائنات بعد مرتبة الخالق مباشرة . واتفقت كلمة علماء الاسـلام أن البشرهم افضل المخلوقات وأشرفها ، وهم أشرف وأفضل من الملائكة أيضا . وينادى القرآن الكريم بكرامة الانسان واحترام بنـى آدم ، والدعـوة الانسانية العالمية التى جاء بها الاسـلام موجهة الى البشـرية كلهـا والانسانية بأسرها ، دون فرق و تمييز ودون تفضيل عنصر دون عنصر ، ولون دون لون ، وعرق دون عـرق ، وجيل دون جيل . وهذا هو شان دين الانسانية .

ومن أعظم الحقائق التى تشهد على انسـانية الاسـلام أننا لانرى بلدا من بلاد العالم بل ومدينة من المدن الا وفيها مسلمون يهدون بالحق وبه يعدلون . نرى كثيرا من البلدان ليس فيها شيوعى ، وبلدان أخرى لايوجد فيها اليهود و نرى كثيرا من البلدان والقرى والمدن لاهى رأت ولاهى سمعت بهنـدوكى أو بوذى قط . ولكننا لانرى مدينة

وبلدا يخلو من مسلم يؤمن بالله وبرسوله النبى الأمى ويشهد على الناس بقوله وبفعله وبحياته بحقانية الاسلام وعدله وضمانه لفوز الانسانية وفلاح البشرية ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة .

ويسرى الاسلام فى روح الانسان ويجرى منه مجرى الدم ، فيصبح حياته وروحه وقلبه بحيث لايمكن التمييز بين دينه وبين روحه ، بين فكره وبين احساساته ، نشاهد أمثلة هذا السريان كل يوم ، ومن ذا الذى لم ير أو لم يسمع أخبار الاضطهاد والمجازر التى عانى ويعانى بها اخواننا المسلمون فى أفغانستان والهند والفلبين والحبشة وغيرها من البلاد ؟ فهل ترك أحد دينه فرارا من هذه الاضطهادات وهذه المجازر ؟ وهذا أكبر دليل على السراية التامة التى يسريها الاسلام فى قلب المؤمن وروحه وعقله وفكره .

*****

ان الاسلام يريد القوة ، فالقرآن يأمر المسلمين بأن يعدو لأعداءهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل يرهبون به عدو الله وعدوهم ، فهذه القوة التى يريدها الاسلام قوة تؤيد الحق وتدعمه ، القوة التى تستعمل لاعطاء كل ذى حق حقه ، ولاداء الواجب الانسانى الاسمى الذى فرضه الاسلام على أبنائه .

ان الاسلام دين الرحمة ، و يأمر بالرحمة ، فانه دين أنزله أرحم الراحمين ، وجاء به الى البشرية من بعثه الله رحمة للعلمين . والجمع بين القوة وبين الرحمة والعدل بينهما والانصاف الى مقتضيات كل منهما من أهم المميزات والمعالم التى يمتاز بها الاسلام بين سائر الاديان والنظريات والملل والنحل ، ولابد للانسانية من استعمال القوة

اذا كانت فى حاجة اليها ، وكذلك لابد لها من الرحمة اذا مست الحاجة اليها . فان اللجؤ الى استعمال القوة دائما يؤدى الى ظهور الانظمة الاستبدادية والملوك الجائرين والحكام المضطهدين ، واللجؤ الى الرحمة دائما عبارة عن اللاعنفية الغير الطبيعية التى تنادى بها البوذية وتدعى بالايمان بها المسيحية ، ولم تستطع كلاهما أن تصبحا دين الانسانية ونظام الحياة للبشرية . وقد قالت العرب قديما :

وبعض الحلم عند الجهل للذلة اذعان

محمود أحمد غازى

نظـرة عـابرة على تـطـو ر
علم الفقه قبل الشـافعـى

د .طـه جابر الغلوانى

١ـ عرفوا علم « اصـول الفقه » بأنه « مجموع طرق الفقه على سبيل الاجمال ،» وكيفية الاستدلال بها ، وكيفية حال المستدل بها (١)

٢ـ ومـوضوعه : الادلة الشرعية السمعية من حيث اثبات الاحكام الشرعية بجزئياتها بطريق الاجتهاد بعد الترجيح عند تعارضها(٢).

٣ـ فائدته : ايجاد القدرة على معرفة الأحكام الشرعية من الادلة التى نصبها الشارع للمؤهلين لـلاجتهاد والمستوفين لشـروطه .

اما ما يستفيده غير المؤهلين لـلاجتهاد من هذا العلم ـ فهو معرفة مآخذ المجتهدين ، ومدارك الاحكام عندهم بحيث تنمو لـدى الاصولى القدرة على دراسة المذاهب وتحليلها ، والقدرة على الاختيار منها والترجيح بينها ، والتخريج على قواعد الأئمة المجتهدين .

٤ـ العلوم التى استمدت مسائل العلم منها :

علم « اصول الفقه » فى حقيقته علم قائم بذاته ، مستقل عن غيره ، ولكن له مقدمات لايستطيع الأصولى الاستغناء عنها قد استمدت من علوم كثيرة :

أ) فبعض هذه المقدمـات قد استفيـد من علـم المنطـق الأرسطى « الذى اعتاد الكاتبون فى الاصول من المتكلمين ان

يقدموا لكتابتهم بها : كمباحث الدلالات اللفظية واقسامها ، وانقسام اللفظ الى تصور وتصديق ، والحاجة الى الكلام بناء على ذلک ـ على مبادئ التصورات من الاقوال الشارحة والتعريفات وانقسامها الى حدود ورسوم ، ومبادى التصديقات ، والكلام على البرهان وكيفية تأليفه واستخدامه في اثبات دعوى المستدل ونقض كلام المعارض ونحو ذلک .

ب) وبعض هذه المقدمات استقوها من علم الكلام ككلامهم عن « الحاكم » هل هو الشرع ام العقل ومالحق ذلک من الكلام عن « حكم الاشياء قبل الشرع » و « شكرالمنعم » هل يجب بالشرع أم بالعقل ؟ .

ج) وبعضها عبارة عن احكام كلية للغات بلورها الاصوليون واستمدوها من المباحث اللغوية كالمباحث المتعلقة باللغات ووضعها وانقسام الالفاظ الي حقائق ومجازات ، والكلام عن الاشتراک والاشتقاق والترادف والتوكيد ، والعموم والخصوص ومعاني الحروف ونحوها .

د) وبعضها قد استمد من علوم الكتاب والسنة ككثير من المباحث المشتركة بين الكتاب والسنة : نحو الكلام على التواتر والآحاد ، والقراءة الشاذة وحكمها ، والجرح والتعديل ، والناسخ والمنسوخ والأحوال الراجعة الى متن الحديث او طريقه وغيرها .

ه) كما أن الأمثلة التي يمثل بها الاصوليون مستمدة من الفروع الفقهية او ادلتها التفصيلية من الكتاب والسنة .

٥ـ المباحث التي يتعرض لها الاصوليون غالبا :

أ) مقدمات منطقية

ب) مباحث اللغـات

ج) الأوامـر والنواهى

د) العموم والخصـوص

ه) المجمل والمبين

و) النســخ

ز) الافعال (افعال رسول الله صلى الله عليه وسلم- ودلالتها)

ح) الاجمـاع

ط) الاخبـــار (السنه).

ى) القيـــاس

ك) التعارض والتـرجيح

ل) الاجتهـاد والتقليـد

م) الادلة المختلف فيها .

٦- نشـأة هذا العلم وتاريخـه :

من الصعب دراسة تاريخ هذا العلم ونشأته بعيدا عن تاريخ „ الفقه" الذى هو „ الاحكام الشرعية العملية ، المستمدة من ادلتها التفصيلية"

فالأصل : مايبنى عليه غيره ، والفقه قد بنى على أصوله التى هى ادلته وتفـرع عنها .

أ) ولذلک فانه لابد من تكوين فكرة اجمالية عن تاريخ التشريع .

سن الشريعة واثبات الاحكام ، وانشاء القواعد والقوانين ووضع النظم حاكمية اختص الله سبحانه بها ، ونسبها الى نفسه ، فنسبة شى منها الى غيره جل شأنه شرک بالله-تعالى-ينافى التوحيد ويناقضه .

وقد نصب الله ـ سبحانه ـ لهذه الاحكام التـى ابرمهـا حججـا اضحة وادلة بينة تهدى اليها ، وتعرف الناس بها .

وهذه الادلة منها ما اجمعت الأمة على حجيته ، واطبقت على دلالته على الاحكام . واتفقت على قبوله ، ومنها ما اختلفت فيه .

فالذى اتفقت عليه ، واجمعت على الاحتجاج به دليلان من ادلة الاحكام ، ومصدران من مصادر التشريع ، وهما الدليلان اللذان كانا عمدة التشريع فى عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهما :

١ـ الكتاب الكريم : وهو :« اللفظ المنزل على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، المتعبد بتلاوته ، المتحدى بأقصر سورة منه ، المنقول الينا بالتواتر كل حرف منه ، المكتوب بين دفتى المصحف الشريف ، المبتدأ بالفاتحة ، والمختتم بسورة الناس » .

٢ـ السنة المطهرة : وهى كل ماصدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ غير القرآن : من قول أو فعل أو تقرير ».

فكل ماتلفظ به رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عدا القرآن أو ظهر منه ـ فى الواقع ونفس الأمر ـ من ابتداء رسالته، الى آخر لحظة فى حياته فهو من سنته ـ بمفهومها العام ـ سواء أثبت حكما عاما لسائر افراد الامة ، وهذا هو الأصل ، أم أثبت حكما خاصا به ـ صلى الله عليه وآله وسلم ، أو خاصا ببعض أصحابه ـ رضى الله عنهم .

وسواء اكان فعله عليه الصلاة والسلام ـ جبليا ، أم كان غير جبلى فما من قول أو فعل أو تقرير يصدر عنه عليه الصلاة والسلام ـ الا ويثبت به حكم شرعى اعتقادى أو عملى بقطع النظر عن كونه ايجابا او ندبا او تحريما او كراهة او اباحة ويقطع النظر عن كونه مبنيا على حكم قد ورد فى القرآن العظيم ، أو منشئا لذلك استقلالا .

والاحكام الشرعية بكل اقسامها الاصلية منها والفرعية ، الاعتقادية والعملية ، التكليفية والوضعية كلها قد استمدت فى حياة

رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم ـ من هذين الأصلين : الكتاب والسنة .

٣ـ وأما الاجتهاد فقد كان يقع من النبي-صلى الله عليه وسلم ـ ومن أهل النظر من اصحابه ـ رضوان الله عليهم .

اما اجتهاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاحيانا يقره القرآن الكريم ، واحيانا لايقره ، ويبين له ان الاولى غير ماذهب اليه .

واما اجتهاد اصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ فقد كانوا يجتهدون فيما يعرض لهم من وقائع ، فاذا لقوا رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ عرضوا عليه اجتهاداتهم فاحيانا يقرهم عليها فتكون تلك الاحكام ثابتة بالسنة واحيانا لايقرهم على ذلك ، ويبين لهم فيكون بيانه عليه الصلاة والسلام هو المعتمد .

ومن هنا فان من الممكن القول بأن التشريع فى هذا الدور اعتمد على الوحي بقسميه : المتلو المعجز ، وهو القرآن وغير المتلو وهو السنة واما الاجتهاد منه (٣) عليه الصلاة والسلام ـ فهو سنة سنها ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليبين لهم ولمن بعدهم مشروعية الاجتهاد ، وأن عليهم وعلى من بعدهم من المسلمين أن يفزعوا اليه عندما لايجدون فى الكتاب أو السنة دليلا يدل على الحكم .

وربما لتأكيد هذا المعنى وترسيخه كان عليه الصلاة والسلام يأمر بعض اصحابه بالاجتهاد فى بعض المسائل بمحضر منه ـ صلى الله عليه وسلم ، فيصوب المصيب ، ويخطئ المخطئ .

طريقة استقاء الاحكام من هذه المصادر :

اما الكتاب الكريم فقد كانوا يتلقونه ، ويفهمون المراد منه دون حاجة الى شئ من قواعد النحو أو غيرها ، كما كانوا يدركون مقاصد

الشارع وحكمة التشريع لما اصاروا به من صفاء الخاطر وحدة الذهن ، وجودة القريحة .

وكذلك كانوا قليلا ما يسألون رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم عن شئ قبل أن يبدأهم به عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ انه قال «مارأيت قوما كانوا خيرا من اصحاب رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم ماسألوه الاعن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ، كلهن فى القرآن ، منهن « يسألونک عن الشهر الحرام قتال فيه »(٣) ، (يسألونک عن المحيض (٤) ...

قال : ماكانوا يسألون الا عما ينفعهم (٥) .

وقال ابن عمر : « لاتسأل عما لم يكن فانى سمعت عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن » (٦) .

وقال القاسم : « انكم تسألون عن اشياء ماكنا نسأل عنها ، وتنقرون عن اشياء ماكنا ننقر عنها ، تسألون عن اشياء ما ادرى ماهى، ولو علمناها ماحل لنا أن نكتمها » (٧) .

وعن ابن اسحاق قال : « ادركت من اصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم اكثر ممن سبقنى فما رأيت قوما ايسر سيرة ، ولا أقل تشديد(٨)

وعن عبادة بن نسى الكندى قال : « ادركت قوما ماكانوا يشددون تشديدكم ولايسألون مسائلكم (٩) .

وقال ابو عبيدة فى كتابه « مجاز القرآن » : « لم ينقل أن أحدا من الصحابة رجع فى معرفة شئ من القرآن الى رسول الله-صلى الله عليه وسلم (١٠) .

واما السنة ـ فان كانت قولية فهى ـ ايضا ـ بلغتهم يعرفون معناها ويفهمون منطوقها وفحواها .

وان كانت فعلية شاهدوها وتناقلوها كما شاهدوها : فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ يتوضأ فيشاهد المئآت منهم وضوءه ، فيأخذون به من غير استفصال عما فعله باعتباره ركنا أو فرضا أو واجبا او مندوبا او مباحا ، وكذلك شاهدوا حجه وصلاته ، وغير ذلك من عباداته .

كما سمعوا الناس يستفتون في الوقائع فيفتيهم وترفع اليه قضاياهم فيقضي فيها ، وتنزل به النوازل فيبت فيها سواء أكانت في المعاملات او السير أو السياسة المختلفة . شاهدوا ذلك كله وعرفوه ، وأدركوا مغازيه ومراميه .

كما شاهدوه عليه الصلاة والسلام ، وهو يلاحظ تعرفات اصحابه وغيرهم فيمدح بعضها فيدركون أنه من المعروف ، وينكر البعض الآخر فيدركون انه من المنكر وكل ما أثر من قضاياه وفتاواه واقراره وانكاره كان بين الناس ، وبمرأى من الكثيرين منهم . فكما ان جلساء الطبيب يعرفون مقاصد الأدوية التي يأمر بها بطول المخالطة والممارسة (١١) . كان اصحاب رسول الله يعرفون ذلك .

وأما الاجتهاد ـ فالادلة على مشروعيته ، والأخذ به في هذا العصر كثيرة جدا ـ منها حديث معاذ لما بعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الى اليمن قال :كيف تصنع اذا عرض لك قضاء «؟ قال : اقضي بكتاب الله قال : « فان لم يكن في كتاب الله » ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : فان لم يكن في سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : معاذ قلت : اجتهد رأيي ولا آلو .

« فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدري ثم قال :الحمد لله ، الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي الله ورسوله ، واجتهاد الرأي في

حديث معاذ يفسره مافي عهد عمر رضي الله عنه ـ لأبي موسى حين ولاه القضاء فقد جاء فيه قوله : « القضاء فريضة محكمة ، او سنة متبعة» ثـم قـال : « الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولاسنة ، فاعرف الاشباه والامثال ، وقس الامور عند ذلک ، واعمد الى اقـربها الى الله أشبهها بالحق » (١٢) .

ولذلک فسر الامام الشافعى الرأى بالاجتهاد ، ثم فسر الاجتهاد بالقياس ، وقال : « هما اسمان لمعنى واحد » (١٣).

أما أبوبكر الصديق رضى الله عنه ـ فقد قال: ان الرأى انما كان من رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم ـ مصيبا أن الله كان يريه ، وانما هو منا الظن والتكلف » (١٤) .

ويمكن القول بأن مفهوم « الاجتهاد » أو«الرأى » فى هذا الدور لايعدو أن يكون واحدا من الامور التالية .

أ) حمل مايحتمل من الكلام ـ محملين أو اكثر على احدهما كما فى امره صلى الله عليه وسلم . لهم بالصلاة فى بنى قريظة (١٥) .

ب) قياس تمثيلى تلحق فيه واقعة وقعت وحدثت بواقعة مماثلة لها تعرض لها الكتاب او السنة . كما فى قياس عمار التيمم من الجنابة على الاغتسال منها ، وتمعكه بالتراب (١٦) .

ج) الاجتهاد فى ملاحظة مصلحة ، او سد ذريعة ، أو تخصيص عموم أو أخذ بمفهوم او نحو ذلک .

ولقد بلغ من حرص رسول الله-صلى الله عليه وسلم-على حملهم على ممارسة الاجتهاد ، والدربة عليه أن قال : الحـاكم اذا اجتهـد فاصاب فله اجران واذا أخطأ فله اجر » (١٧).

ولقد بلغ من دقة اجتهاد الكثيرين منهم أن « القرآن العظيم كان

كثيرا ما ينزل موافقًا لاجتهاداتهم ، ويوافقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن صحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ اتاحت لهم من الاطلاع على مقاصد الشارع الحكيم والادراك لاسرار التشريع والمعرفة بمعاني النصوص مالم يتح لسواهم ممن جاء بعدهم .

أصحاب الفتيا ـ من الصحابة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

كان الذين يفتون في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الصحابة ابوبكر وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعبدالرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود ، وابى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وعمار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان ، وزيد بن ثابت ، وابو الدرداء وابوموسى الاشعرى ، وسلمان الفارسى رضى الله عنهم أجمعين .

وفيهم المكثر والمقل : فالمكثرون رضى الله عنهم ـ عائشة أم المؤمنين ، وعمر بن الخطاب ، وابنه عبدالله ، وعلى بن ابى طالب ، وعبد الله بن عباس ، وزيد بن ثابت وهؤلاء سبعة يمكن أن يجمع من فتاوى كل واحد ـ منهم ـ سفر ضخم . وقد جمع ابوبكر محمد بن موسى بن يعقوب بن الخليفة المأمون فتاوى ابن عباس فى عشرين كتابا .

وأما المتوسطون منهم فيماروى عنهم من الفتيا ـ فهم : أم سلمة أم المؤمنين وانس بن مالك وابوسعيد الخدرى ، وابو هريرة ، وعثمان بن عفان ، وعبدالله بن عمرو بن العاص وعبدالله بن الزبير ، وابو موسى الاشعرى ، وسعد بن ابى وقاص ، وسلمان الفارسى ، وجابر بن عبدالله ، ومعاذ بن جبل وابوبكر الصديق : فهم ثلاثة عشر فقط يمكن ان يجمع من فتاوى كل منهم جزء صغير جدا .

ويضاف اليهم طلحة والزبير ، وعبدالرحمن بن عوف ، وعمـــران بن الحصين ، وابوبكرة ، وعبادة بن الصامت ، ومعاوية بن ابى سفيان والباقون ـ منهم ـ مقلون فى الفتيا لايـروى عن الواحـد منهـم الا المسألة والمسألتان والزيادة اليسيرة على ذلك فقط ، ويمكن ان يجمع من فتاوى جميعهم جزء صغير فقط بعد التقصى والبحث (١٨) .

وكانوا ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ فى فتاواهم يردون الوقائع الجزئية الحادثة الى النصوص الجزئية التى تدل على احكامها ـ من الكتاب أو السنة اما بطريق الظاهر ـ الذى يسفتاد فيه المعنى والمدلول فيها من مفهوم اللفظ وايحائه وسائر القرائن المرتبطة به،فكانوا يذكرون الحكم الذى اهتدوا اليه بطريق اللفظ ، او بطريق الدلالة للناس ، والناس تأخذ عنهم وكانوا ، لايدعون البحث فى المسألة قبل الوصول الى برد اليقين فيها ، والاحساس بأنهم قد بذلوا فى البحـث فيهـا مالامزيد عليه .

عصـر كبـار الصحابة :

بعد عصـر رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم-جاء عصر كبار اصحابه والخلفاء الراشدين من بعده ، وهو عصر قد امتد منذ سنة احدى عشرة هـ الى سنة اربعين هـ ، وكان أهل الفقة والفتوى-من الصحابة- فيه يلقبون « بالقراء » .

أبو بكـر الصديق رضى الله عنه .

يلخص ميمون بن مهـران طريقة الصديـق-رضـى الله عنـه فى الحصول على الاحكام الشرعية فيقول : « كان أبوبكر اذا ورد عليه الخصم نظر فى كتاب الله فان وجد فيه مايقضى بينهم قضى به وانّ لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك

الأمر سنة قضى بها ، فان أعياه خرج فسأل المسلمين وقال : أتاني كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قضى في ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع اليه النفر كلهم يذكر من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-فيه قضاء فيقول ابوبكر : الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا فان اعياه أن يجد سنة من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-جمع وجوه الناس وخيارهم فاستشارهم ، فاذا اجتمع رأيهم على امر قضى به(١٩٣)

وهو-رضى الله-عنه-اذا استنفذ كل ماتقدم اجتهد رأيه سواء كان فى تفسير نص ، ومعرفة دلالته او فى اجتهاد محض فمن الاول قوله-لما سئل عن الكلالة -: « اقول فيها برأيي ، فان يكن صوابا فمن الله ، وان يكن خطأ فمنى ومن الشيطان : الكلالة ماعدا الوالد والولد » .

ومنه - ايضا - قوله : « والزكاة من حقها » حين أورد عليه عمر - رضى الله عنه حديث « امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا : لااله الا الله » وذلک عندما هم بقتال مانعى الزكاة فسيدنا عمر قد استدل بالحديث على عدم جواز قتالهم وذلک لان رسول الله-صلى الله عليه وسلم-قال فيه : « .. فاذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها » وحقها فى نظر سيدنا عمر « الزنا بعد احصان ، وقتل النفس والردة ومنع الزكاة فقط ليس واحدا مما ذكر ، ولكن الصديق قال له : « والزكاة من حقها ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم عليه » .

ومن الثانى : أنه ورث ام الأم ، ولم يورث أم الاب ، فقال له بعض الانصار : « لقد ورثت امرأة من ميت لو كانت هى الميتة لم يرثها ، وتركت أمرأة لو كانت هى الميتة ورث جميع ماتركت فرجع الى التشريک بينهما فى السدس ».

ومن ذلك حكمه في التسوية في العطاء حتى قال له عمر : كيف تجعل من ترك دياره و امواله وهاجر الى رسول الله كمن دخل فى الاسلام كرها ؟ فقال ابوبكر : انما اسلموا لله وأجورهم على الله ، وانما الدنيا بلاغ . (ولما انتهت الخلافة) الى عمر فرق بينهم فاعطى على البلاء والسابقة والهجرة

ومن ذلك قياسه تعيين الامام بالعهد على تعيينه بعقد البيعة ، حتى انه عهد الى عمر بالخلافة ـ ووافقه على ذلك الصحابة .

وكتب اليه خالد بن الوليد : انه وجد فى بعض نواحى العرب رجلا ينكح كما تنكح المرأة ، فاستشار ـ رضى الله عنه ـ اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وفيهم على ـ رضى الله عنهم اجمعين ـ وكان اشدهم قولا فقال : ان هذا الذنب لم تعص به أمة من الأمم الا واحدة ، فصنع الله فيهم ماقد علمتم ، أرى : ان يحرقوا بالنار ، فكتب ابوبكر الى خالد أن يحرقوا فحرقوهم (٢٠) .

والملامح الفقهية التى يمكن ملاحظتها فى هذا العهد .

أ) اتساع الأخذ بالقياس فى الوقائع التى لانص فيها من غير أنكار من أحد من الصحابة .

ب) ظهور الاجماع بصورة واضحة كدليل من ادلة الاحكام وساعد على ذلك كون الصحابة قلة لايتعذر اجتماعهم ولا اتفاقهم . وقد ظهر اجماعهم فى أمور كثيرة ـ منها اجماعهم على وجوب نصب امام للمسلمين واجماعهم على قتال أهل الردة بعد اختلافهم فيه، واجماعهم على أن المرتد لايسبى واجماعهم على جمع القرآن وكتابة المصحف وغير ذلك .

عهد عمر-رضى الله عنه-:

عهد عمر رضى الله عنه لقاضيه شريح الذى قدمنا ذكره يبرز طريقته رضى الله عنه-فى استقاء الاحكام من ادلتها ، ولكن الملاحظ عليه أنه كان كثير المشاورة للصحابة-رضوان الله عليهم ، كثير المناظرة لهم حتى يحصل على أفضل فهم ، وأحسن سبيل للتطبيق . لقد كان-رضى الله عنه-فى نظرته للمسائل التشريعية كصيدلانى حكيم يحاول أن يركب الدواء-الذى يشفى من الداء من غير اية اعراض جانبية .

ولذلك فقد ترك نهما فقهيا متميزا ، وثروة فقهية هائلة وقد قال : ابراهيم النخعى لما استشهد رضى الله عنه : « ذهب تسعة اعشار العلم » (٢١) وقال ابن مسعود رضى الله عنه - : « كان عمر اذا سلك طريقا وجدناه سهلا (٢٢) .

لقد كان رضى الله عنه ذا عقلية كلية وحس عام سرعان مايربط الجزئيات بالكليات ، ويرد الفروع الى الاصول والضوابط العامة ، كان هذا شأنه فى عهد رسول الله ثم فى عهد خليفته من بعده ، ولم يخرج عن ذلك حين آل الأمر اليه .

لقد تعلم من رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم-وتتلمذ عليه ، فلقد كان كثيرا مايسمعه عليه الصلاة والسلام - يتوقف عن الأمر بشئ حسن يود أن يأمرهم به لولا اشفاقه عليهم وخوفه المشقة عليهم ، فكثيرا ماكان يقول : لولا أن اشق على أمتى لأمرتهم بكذا ....» واحيانا» كان ينهاهم عن أمور،ثم يرى عليه الصلاة والسلام ان الداعى الى النهى قد زال فيرخص لهم ، واحيانا يهم بتحريم شى فيخبرونه عليه الصلاة والسلام بالمشقة التى تلحقهم بتحريمه فيرخص لهم بما يدرأ عنهم المشقة والحرج ، ويراه عليه الصلاة والسلام - كيف يختار أيسر

الأمرين كلما خير بين أمرين ، فأثر ذلك كله فيه رضى الله عنه فأدرك ان لهذه الشريعة مقاصد واهدافا وغايات لابد من استهدافها وتوخيها ، ومحاولة استكشافها ، وان لتلك الاحكام عللا صرحت النصوص ببعضها و أومأت الى البعض الأخر وعلى أهل العلم استنباط علله ـ مالم يصرح به او يوم اليه لادراج الحوادث المستجدة ، والنوازل الحادثة تحت احكام الله لكي لايخرج شي عن حاكمية الله ـ تهالى ـ ولكى لايألف الناس البحث عن معالجات أو احكام لقضاياهم خارج دائرة شرع الله .

ولذلك تجد فى اجتهاداته رضى الله عنه طرق استنباط واضحة فان المتتبع لفتاوه رضوان الله عليه لايعجزه ان يجد التعليل بالمصلحة ، والاخذ بسد الذرائع ، ودفع المفاسد ، والسياسة الشرعية وايقاف العمل ببعض الاحكام لزوال عللها ، أو لفقدان بعض شرائط تطبيقها فمن ذلك : طلبه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتل اسرى بدر ، وافتراحه الحجاب واقتراحه ان لايحدث الناس بأن من قال : لا اله الا الله دخل الجنة » لئلا يتكلوا .

واقتراحه على ابى بكر الغاء سهم المؤلفة قلوبهم وايقافه قسمة الاراضى المفتوحة بين الغانمين .

عهد عثمان رضى الله عنه :

حين بويع عثمان رضى الله عنه بالخلافة ، « بويع على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده » وعاهد على ذلك . أما على فقد أبدى استعداده لأن يعاهد على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، ثم أن يعمل بمبلغ علمه وطاقته ، ولاعلان عثمان استعداده للعمل بسيرة الشيخين دون تحفظ بايعه عبدالرحمن فكان هناك مصدرا

ثالثا قد أضيف في عهد الخليفة الثالث ، وأقره وهو سياسات الشيخين أو سيرهم ، وهذا ماتحفظ عليه علي-رضي الله عنهم أجمعين ولذلک رأيناه حين آل الامر اليه حاول أن يعمل باجتهاده في مسائل اجتهَد فيها من سبقه ، كمسألة بيع امهات الاولاد .

لقد كان سيدنا عثمان بن عفان من المتوسطين في الفتيا ، ربما لأن معظم القضايا التي عرضت له كان للشيخين قبله فيها فقه آثر أن يأخذ به . ولكنه اجتهد كما اجتهد من سبقه ، سأله عمر رضي الله عنه في واقعة فقال : « ان تتبع رأيک فرأيک سديد ، وان تتبع رأي الشيخ قبلک فنعم ذو الرأي كان » كما اجتهد وصلى في منى أربعا بدلا من اثنتين قصرا ، وذلک بتأويلين : أحدهما : أنه قد تزوج بمكة فظن أنه لايجوز لاهل مكة القصر في منى ، وثانيهما : أنه خشي أن يتوهم الاعراب بأن تمام الصلاة ركعتان .

كما اجتهد في حمل الناس على قراءة زيد ، ورأى أن ذلک أسلم وأبعد عن وقوع الاختلاف .

عهـد علي :

كان رضي الله عنه-أشبه الناس بعمر بن الخطاب رضي الله عنه في طرق فهمه للنصوص ، وسبل تفهمه لتطبيقها ، وحرصه الشديد على ربط الجزئيات بالكليات ، كان يعتبر أقضى أهل المدينة ، ولاه رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم-قضاء اليمن ، ودعا له : « اللهم ثبت لسانه واهد قلبه » ، فكان موفقا في قضاياه ، حلالا لمعضلاتها ، يصف علمه فيقول : « والله مانزلت آية الا وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت وعلام نزلت ان ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا ناطقا » . وكان يقضي اذا عرض له قضاء ، ويفتي اذا استفتي بكتاب الله ، وقد علمت مدى علمه

به . ثم بسنة رسول الله وتقول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها: « أما انه لاعلم الناس بالسنة » .

ثم يجتهد رأيه فيقيس ، ويستصحب الحال ، وقد يستحسن ، ويستصلح مستفيدا فى كل ذلك من مقاصد الشرع : قاس السكر على القذف حين استشير بزيادة حد شارب الخمر مقيما لمظنة القذف الذى هو السكر مقامه .

واستشاره أمير المؤمنين عمر فى القصاص من الجماعة اذا اشتركت فى قتل الواحد ، فقال : أرأيت يا أمير المؤمنين لو أن نفرا اشتركوا فى سرقة أكنت تقطعهم ؟ قال : نعم . قال على : فكذلك هؤلاء . فقال عمر قوله المشهور : « لو اجتمع أهل صنعاء على قتل رجل واحد لقتلتهم به جميعا » .

وفى هذا قاس القتل على السرقة بجامع تحقق القصد الجنائى فى كل منهما لدى مرتكبى الجريمتين مما يقتضى الزجر والردع .

واستحسن تحريق المرتدين الزنادقة الذين آلهوه ، وهو يعلم السنة فى قتل الكافر والمرتد ، ولكنه أراد أن يحقق أقصى أنواع الزجر لاعتى أنواع الردة-لانه رأى أمرا عظيما جعل عقوبته من أعظم العقوبات لينزجر الناس عن مثله -ولذلك قال مرتجزا : لما رأيت الامر أمرا منكر ، أججت نارى ودعوت قبرا . ويرسل عمر الى امرأة زوجها فى غزاة ، وبلغه أن هناك من يدخل منزلها ، فأراد أن ينهيها الى أن دخول غرباء الى منزلها فى غيبة زوجها أمر ليس لها أن تفعله ، وكانت المرأة حاملا ، فلما أخبرت بأن أمير المؤمنين يدعوها فزعت ، وكانت حاملا فأجهضت وهى فى الطريق اليه ووضعت غلاما صوت ومات فشاور الصحابة رضوان الله عليهم - فقال قوم فيهم عثمان بن عفان ،

وعبدالرحمن بن عوف : أنما أنت مؤدب ولاشي عليك . فالتفت الى علّي ، وقال : ماتقول يا أبا الحسن ؟ فقال : « قد قال هؤلاء ، فان يك هذا جهد رأيهم فقد قضوا ماعليهم ، وان كانوا قاربوك فقد غشوَك ، أما الاثم فأرجو أن يضعه الله عنك بنيتك ومايعلم منك . وأما الغلام فقد والله عزمت . فقال له : « أنت والله ـ صدقتني ، أقسمت عليك أن لاتجلس حتى تقسمها على بنى أبيك » .

عصـر الفقهاء (من الصحابة والتابعين):

تعتبر بداية هذا العهد من نهاية العهد الذى سبقه ، أى من سنة أربعين للهجرة ـ التى بها ختم عهد الخلفاء الراشدين ، وعهد قراء الصحابة ، ليبدأ عهد فقهاء الصحابة وكبار التابعين . وكان التشريع فى هذا الدور ـ يسير على نحو ماسبق فى الدور الذى سبقه من حيث كون مصادر التشريع فيه هى نفس المصادر التى كانت فى ذلك الدور ، وهى الكتاب والسنة والاجماع والقياس . ولكنه يختلف عنه بأمور عدة ، منها:

١ـ أصبح الناس فى هذا العهد أكثر رغبة فى الغوص على المعانى والتعمق فيما وراء النصوص .

٢ـ اختلفت طرقهم فى الاخذ بالسنة ، فانه نتيجة لـلاختلافات السياسية وظهور الفرق المـذهبية والـكلامية : من شيعة وخـوارج ، اختلفت مواقفهم من السنة فالشيعة رفضوا الاخذ بسائر الاحاديث التى رويت من غير الائمة المعتبرين عندهم والخوارج رفضوا الاحتجـاج بأخبار الآحاد عموما ، وبكل خبر ليس له معضد من الكتاب .

٣ـ أما الاجماع . فلم يعد تحققه بالامر الممكن ، لحدوث الفرقة ، ولان كل فرقة سحبت ثقتها من سائر علماء الفرق الاخرى ، فلم تعد تعتد بشئ من قولهم وافقوا أو خالفوا .

يضاف الى ذلك أن فقهاء الصحابة قد تفرقوا فى الامصار الاسلامية المختلفة وانتشروا فيها ـ فلم يعد اجتماعهم لتدارس المسائل ممكنا .

٤ـ شاعت فى هذا الدور رواية الاحاديث والسنن بعد ان لم تكن كذلك .

٥ـ ظهرت حركة وضع الاحاديث لاسباب كثيرة معروفة-لامجال لتفصيلها ـ أخرج مسلم عن ابن عباس-رضى الله عنه-قوله : « انا كنا نحدث عن رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم-اذ لم يكن يكذب عليه ، فلما ركب الناس الصعبة والذلول تركنا الحديث عنه » .

التشريع بعد عهد الصحابة :

انقرض عهد الصحابة مابين تسعين ومائة من الهجرة ، وجاء عهد التابعين والى علماؤهم آل أمر الفقه والفتيا ، فان آخر من مات بالكوفة-من الصحابة توفى سنة (٨٦ هـ) ، وآخر من مات-منهم بالمدينة سهل بن سعد الساعدى ، توفى سنة (٩١ هـ) ، وآخر من مات ـ منهم-بالبصرة أنس بن مالك ، توفى سنة (٩١هـ) ،وقيل :(٩٣ هـ) ، وآخر من مات بالشام عبد الله بن يسر ، توفى سنة (٨٨هـ)، وآخر من مات ـ منهم ـ عامر بن واثلة بن عبدالله (أبو الطفيل) توفى سنة (١٠٠ هـ)

والذين آل اليهم أمر الفتيا ـ فى هذا العهد ـ هم الموالى الذين كان معظمهم يعيش مع فقهاء الصحابة ، أمثال : نافع مولى ابن عمر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاء بن رباح فقيه مكة ، وطاووس فقيه أهل اليمن ، ويحيى ابن كثير فقيه اليمامة ، وابراهيم النخعى فقيه الكوفة ، والحسن البصرى فقيه البصرة ، وابن سيرين فى البصرة-أيضا-وعطاء الخراسانى فى خراسان وغيرهم ، وخصت المدينة بفقيهها

القرشي ، سعيد بن المسيب ـ رحمهم الله جميعا ـ وهؤلاء التابعون ماكانوا يتجاوزون فتاوى من تلقوا عنه العلم من الصحابة الافى اليسير النادر ، ولذلک فان من العسير العثور على كبير فرق بين مناهجهم فى استنباط الاحكام الشرعية ، ومناهج من سبقهم من الصحابة ، ولكن مناهج الاستنباط فى هذا العهد قد بدأت تظهر وتتضح أكثر من قبل ، عن الحسن بن عبيدالله النخعي قال : قلت لابراهيم النخعي : « أكل ما أسمعک تفتي به سمعته » فقال : « لا » فقلت : « تفتي بما لم تسمع » فقـــال : « سمعت الذى سمعت ، وجاءنى مالم أسمع فقسته بالذى سمعت » (٢٣) .

واذا كان ـ هناک-ما يمكن ملاحظته فى هذا العهد فهو ظهـور الاختلافات فى الرأى بين المفتين فى مسائل كثيرة . وقيام الامام عمر بن عبدالعزيز-رضى الله عنه ـ بأمرين لهمادلالتهما فى هذا السبيل .

الاول : أمره بجمع السنن وكتابتها فكان أهل كل بلد يكتبون ما عند علمائهم من السنن فى دفاتر (٢٤) .

والثـــانى :

والثـــانى : جعله أمر الفتيا فى كثير من البلدان الى أناس يعينهم كما فعل بالنسبة لمصر حيث جعل أمر الفتيا فيها الى ثلاثة رجال : اثنين من الموالى هما : يزيد بن ابى حبيب ، وعبدالله بن أبى جعفر ، وواحد من العرب ، وهو جعفر بن ربيعة . وقد عوتب-رضى الله عنه فى هذا ، فقال : « ماذنبى اذا كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وأنتم لاتسمون » (٢٥) .

أما سبب أمره بالتدوين ـ فقد صرح به فى كتابه الى ابى بكر محمد بن عمرو بن حزم الانصارى ، حيث قال :-..... انظر ماكان من

حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو سنة أو حديث أو نحو هذا فاكتبه لى فانى خفت دروس العلم ، وذهاب العلماء ... » (٢٦) .

عصـر اتباع التابعين والائمة المجتهدين :

يقول ولى الله الدهلوى فى هذا العصر : « ان فقهاء هذا العصر أخذوا حديث النبى-صلى الله عليه وسلم ـ وقضايا القضاة واجتهـاد المجتهدين عمن سبقهم من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، ثم اجتهدوا أيضا » وكان صنيع العلماء فى هذه الطبقة متشـابها ، فان حاصـل صنيعهم أن تمسک کل منهم بالمسند من حديث رسول الله-صلى الله عليه وسلم والمرسل جميعا ، واستدل بأقوال الصحابة والتابعين ، لانها اما أحاديث منقولة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقفوها عنـد روايتها الى أحد من الصحابة والتابعين تحرجا من نسبتها الى النبى واحتياطا وورعا عن الرواية عنه خوف الزيادة أو النقصان فى العبارة . واما أن تكون أقوالهم هذه انما قالوها استنباطا من النصـوص ، أو اجتهاد ـ منهم ـ بآرائهم ، وهم أحسن فى كل ذلک ممن يجى بعدهم ، وأكثر اصابة ،وأقدم زمانا وأوعى علما : فتعين العمل بها الا اذا اختلفوا،

وكان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم-يخالف قولهم مخالفة ظاهرة . أما اذا اختلفت الاحاديث نفسها فالمرجع أقوال الصحابة فان قالوا بنسخ بعضها ، أو يصرفه عن ظاهره ، أو لم يصرحوا بذلک ، ولكن اتفقوا على تركه ، وعدم القول بموجبه ، فانه كابداء علة فيه ، أو الحكم بنسخه أو تأويله ـ اتبعوهم فى كل ذلک . فانه اختلفت مذاهب الصحابة والتابعين فى مسألة فالمختار عند كل فقيه مذاهب أهل بلده ، وشيوخه،

لانه أعرف بصحيح أقاويلهم من السقيم ، وأوعى للاصول المناسبة لها ... فمذهب عمر وعثمان وابن عمر وعائشة وابن عباس ، وزيد بن

ثابت ،وأصحابهم ـمن التابعين ، مثل سعيد بن المسيب (ت ٩٣هـ) وعروة بن الزبير(٩٤هـ) ،وسالم (ت ١٠٦) وعطاء ابن يسار(ت ١٠٣هـ)، وقاسم بن محمد (ت ١٠٨هـ)،وعبيدالله بن عبدالله (ت ٩٩هـ)،والزهرى (ت ١٢٤هـ)،ويحيى بن سعيد (ت ١٤٣هـ)، وزيد بن أسلم (ت ١٣٦هـ)،وربيعة الرأى (ت ١٣٦هـ) كان مذهب هؤلاء من الصحابة والتابعين ـ أحق بالقبول من مذهب غيرهم عند أهل المدينة . ولذلك ترى مالكا يلازم محجتهم .

ومذهب عبدالله بن مسعود وأصحابه ، وقضايا أمير المؤمنين على وشريح (ت ٧٨ هـ) والشعبى (ت ١٠٤ هـ) وفتاوى ابراهيم النخعى (ت ٩٦ هـ) أحق بالاخذ عند أهل الكوفة .

يقول الدهلوى : ... وحين مال مسروق (ت ٦٣ هـ) الى قول زيد بن ثابت ـرضى الله عنهـ فى التشريك (أى بين الجد والاخوة فى الميراث) قال له علقمة (ت ٦٢ هـ)،هل أحد منكم أثبت من عبدالله (يريد ابن مسعود) فقال مسروق : لا ، ولكن رأيت زيد بن ثابت وأهل المدينة يشركون (أى بين الجد والاخوة) .

يقول الدهلوى : فان اتفق أهل البلد (أى المدينة) على شئ أخذوا بنواجزه . وهو الذى يقول فى مثله مالك : السنة التى لا اختلاف فيها عندنا (أى فى المدينة) كذا وكذا .

وان اختلفوا أخذوا بأقواها وأرجحها : أما بكثرة القائلين به ، أو لموافقته لقياس قوى ، أو تخريج من الكتاب والسنة ، وهو الذى يقول فى مثله مالك : هذا أحسن ماسمعت". فاذا لم يجدوا فيما حفظوا منهم جواب المسألة خرجوا من كلامهم ، وتتبعوا الايماء والاقتضاء .

قال:والهموا فى هذه الطبقة ـ التدوين ، فدون مالك (١٧٩ هـ)،

وابن أبي ذئب (ت ١٥٨ هـ) وابن جريج (ت ١٥٠ هـ) ، وابن عيينة (ت ١٩٦هـ) فى مكة والثورى (ت ١٦١هـ) بالكوفة ، وربيع بن الصبيح (ت ١٦٠ هـ) بالبصرة . قال : وكلهم مشوا على هذا النهَج الذى ذكرته .

ولما حج المنصور ، ولقى مالكا قال : قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التى ضفتها ، فتنسخ ، ثم أبعث فى كل مصر من امصار المسلمين منها نسخة وآمرهم بأن يعملوا بما فيها ولايتعدوه الى غيره . فقال مالك: ياأمير المؤمنين لاتفعل هذا ، فان الناس قد سبقت اليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق اليهم ، وأتوا به من اختلاف الناس فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لانفسهم ، وتحكى هذه القصة منسوبة الى الرشيد ، وانه أراد أن يحمل الناس على مافى الموطأ ، فقال له مالك : لاتفعل ، فان أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم ـ اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى البلدان ، وكل سنة مضت .

قال الدهلوى : وكان مالك من أثبتهم فى حديث المدنيين عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-وأوثقهم اسنادا ، وأعلمهم بقضايا عمر ، وأقاويل عبدالله بن عمر وعائشة وأصحابهم من الفقهاء والشيعة ، وبه وبأمثاله الى علم الرواية والفتوى .

وكان أبو حنيفة-رضى الله عنه-ألزمهم بمذهب ابراهيم وأقرانه لايجاوزه الا ماشاء الله ، وكان عظيم الشأن فى التخريج على مذهبه ، دقيق النظر فى وجوه التخريجات مقبلا على الفروع أتم اقبال .

وان شئت أن تعلم حقيقة ماقلنا فلخص أقوال ابراهيم وأقرانه من كتاب (الآثار) لمحمد و (جامع) عبدالرزاق و (مصنف) ابن ابى

شيبة ، ثم قايسه بمذهبه تجده لايفارق تلك المحجة الافى مواضع يسيرة ، وهو فى تلك اليسيرة ـ أيضا ـ لايخرج عما ذهب اليه فقهاء الكوفة (٢٧) .

والحق أن فيما ذكره الامام الدهلوى نظرا ، فانه-رحمه الله-حريص على أن يؤكد أن الأئمة مالكا وأبا حنيفة وأصحابهما كانوا مقلدين أو شبه مقلدين لمن سبقهم من التابعين والصحابة ، وأنهم ماتجاوزوا فقه من سبقهم وهذا أمر من العسير موافقته-رحمه الله-عليه ، فان من المعروف-أن-هناك-طرقا للفقه قد أخذ بها كل منهما-ليس من السهل ادعاء أنها أخذت عن الصحابة أو التابعين ـ مثل ذهاب مالك الى الاخذ بعمل أهل المدينة وذهاب أبى حنيفة الى الاخذ بالاستحسان والعرف ، كما أن أيا لم يحتج بفتاوى التابعين ، بل زاحموهم وقالوا : هم رجال ونحن رجال .

كما أن كل ـ منهما-قد وضع لقبول الاحاديث شروطا لم يشترطها من سبقهم .

وشيوع الرواية فى هذا العصر ، وظهور أحاديث لم تكن قد ظهرت وانتشرت أدى الى الذهاب فى بعض الامور الى مذاهب مغايرة لمذاهب بعض الصحابة .

أهل الرأى وأهل الحديث :

ولعل مما يزيد هذه الحقيقة وضوحا ظهور مدرستى أهل الرأى وأهل الحديث وبروز الاختلافات بينهما فى بعض الاصول ، وكذلك فى الفروع ، صحيح أن لكل من المدرستين جزورا فى العصرين السابقين ، لكن الاختلاف لم يبرز بوضوح فى مسائل الفقه الا فى هذا العصر ، ولم يتميز الناس تبعا لاختلاف مناهجهم فى الاستنباط الا فى

هذا العصر كذلك .

ان الكاتبين فى تاريخ التشريع يؤكدون أن مدرسة أهل الرأى ، هى امتداد لمدرسة عمر وعبدالله بن مسعو- رضى الله-عنهما-الذين كانا أكثر الصحابة توسعا فى الرأى فتأثر بهما علقمة النخعى (ت ٦٠ هـ) أو (٧٠هـ) استاذ ابراهيم النخعى وخاله ، وابراهيم هو الذى تتلمذ عليه حماد بن ابى سليمان (ت ١٢٠ هـ) شيخ ابى حنيفة .

كما يؤكدون : أن مدرسة أهل الحديث هى امتدادلمدرسة أولئك الصحابة الذين كان يحملهم الخوف والحذر من مخالفة النصوص على الوقوف عندها أمثال : عبد الله بن عمر الخطاب ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، والزبير وعبدالله ابن عباس فى الكثير الغالب-رضى الله عنهم أجمعين .

ولقد شاع مذهب « أهل الحديث » فى الحجاز لاسباب كثيرة ، قد يكون من أبرزها :

كثرة مابأيديهم من الاحاديث والآثار ، وقلة النوازل التى كانت تعرض لانتقال الخلافة ، ومعظم وجوه النشاط الى الشام ، ثم الى بغداد.

فامام أهل المدينة سعيد بن المسيب (ت ٩٤ هـ) رحمه الله كان يرى أن أهل الحرمين لم يفتهم من الحديث والفقه شئٌ كثير ، فلديهم فتاوى ابى بكر وعمر وعثمان وعلى قبل الخلافة ، وعائشة وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وابى هريرة ومروياتهم-رضى الله عنهم أجمعين-وفى هذا مايغنى عن استعمال الرأى .

أما مذهب « أهل الرأى » فقد شاع وانتشر فى العراق ، وكان علماء هذا الفريق يرون أن أحكام الشرع معقولة المعنى ، مشتملة على مصالح راجعة للعباد وحكم شرعت لاجلها تلك الاحكام ، وأن على

أهل العلم البحث عن تلك الحكم والعلل الضابطة ، وربط الاحكام بها، وجعلها تدور وجودا وعدما معها ، فاذا عثروا على تلك العلل فربما قدموا الاقيسة القائمة عليها على بعض أنواع الاحاديث اذا عارضتها .

ولقد ساعد على انتشار هذا المنهج فى العراق كثرة الصحابة المتأثرين بمنهج عمر رضى الله عنه فيه أمثال ابن مسعود وأبى موسى الاشعرى وعمران بن الحصين ، وأنس بن مالك وابن عباس وغيرهم. ثم انتقال الخلافة اليها واقامة على وأنصاره رضى الله عنهم فيها .

ولما ظهرت فيها الفرق من الشيعة والخوارج، واحتدمت الصراعات ، وفشت حركة الوضع فى الحديث اضطر علماؤها لوضع شروط فى قبول الحديث لم يسلم معها من المروى لهم الا القليل من مرويات الصحابة الذين أقاموا فى العراق . كما أن النوازل والحوادث فى تلك البيئة كانت أكثر من أن تواجه فى ذلك العدد من المروى .

وهكذا انقسم جمهور الامة الذين لم يدخلوا فيما دخل فيه الخوارج ، أو الشيعة الى « أهل حديث » و « أهل رأى » ويبدو أن التناثر بين الفريقين قد اشتد فصار « أهل الرأى » كثيرا ماينبزون « أهل الحديث » بعدم الفقه وقلة الفهم ، وأهل الحديث ينبزون « أهل الرأى » بالاخذ فى دينهم بالظن ، وبالبعد عن التثبت الواجب فى أمور الدين والذى لايتأتى بغير الاتباع والاخذ بالنصوص .

والحق أن « أهل الرأى » يتفقون مع سائر المسلمين فى أن من استبانت له السنة فليس له أن يدعها لقول ، وكل ما أخذ عليهم مما اعتبر من مخالفاتهم للسنة فعذرهم فيه أنه لم يصلهم فيه حديث ، أو وصلهم ولم يثقوا به لضعف راويه ، ولوجود قادح آخر لايراه غيرهم قادحا ، أو لانه ثبت عندهم حديث آخر معارض لما أخذ به سواهم .

كما أن « أهل الحديث » يتفقون مع « أهل الرأى » فى وجوب اللجوء اليه حين لايكون فى المسألة نص ، ومع ذلك فقد كان التنابز والتعاير بين الفريقين على أشده .

●

١- المحصول : (٩٤/١)
٢- مذكرة اساتذه كلية الشريعة لسنة ١٣٨٢ هـ/١٩٦٣ م فى اصول الفقه (٢٢) .
٣- البقرة (٢١٧)
٤- الآيـة (٢٢٢)
٥- انظـر سنن الـدارمي (٥١:١)
٦- انظـر سنن الـدارمى (٥٠/١)
٧- أنظـر سنن الـدارمى (١ / ٤٩)
٨- انظـر سنن الـدارمى (١ / ٥١)
٩- المـرجع نفســه
١٠- راجع تمهيدلتاريخ الفلسفة (١٥٢)
١١- راجع حجة الله البالغة (١ / ٢٨٩)
١٢- انظـر الكتاب بكامله فى اعـلام الموقعين
١٣- انظـر الرسالة (٦/٧)
١٤- انظـر اعلام الموقعين (١/ ٥٤) وجامع بيان العلم (٢ / ١٣٤)
١٥- الحديث
١٦- الحديث
١٧- الحـديث
١٨- راجع الاحكام لابن حزم (٥ ٩٢ / ٩٣)
١٩- راجع حجة الله البالغة (١/ ٣١٥)
٢٠- راجع اعـلام الموقعين
٢١- حجة الله البالغة (١٧ / ١٧٨)
٢٢- المـرجع نفســه .
٢٣- انظـر الاصابة (١١٣/٤) وبهامشها الاستيعاب (٤١٥)
٢٤- جـامع بيان العلم (١ /٣٣)
٢٥- خطط المقـريزى (١٤٣/٤)
٢٦- علقـه البخارى ، ورواه مالك فى الموطأ ، فانظره بشرح الزرقانى (١ / ١٠)١٧- ملخصا بشى من التصـرف من كتاب «حجة الله البالغة » (٣٠٥/١ / ٨ / ٣) ط مصـر ، ت سيد سابق .

اسـلامية المعـرفة

د . عبدالحميد احمد ابو سليمان

مقـدمـة :

سأحاول فـي هذا البحث ان أتعـرض لقضية أزمة المعـرفة فى واقع الامة الاسـلامية كسبب اساسي وجوهرى ومسبق لازمة وجود الامة الاسـلاميه فى العصـر الحديث واسباب ضعفها وتخلفها .

وسأحاول ان أوضح فكـرة المعهد العالمى للفـكر الاسـلامى والدور المأمول لـه فى علاج هذه الازمة .

القضية : اسـلامية المعـرفة :

لمـاذا نطـرح فكرة اسلامية المعرفة للبحث ، هل هو بحث نظر وترف عقلـى أم ان هناك قضية .

مـن الواضح لكل من له صلة ودراية بواقع الامة الاسـلامية ان هناك قضية .

ولكن هذه القضية تأخذ اشكالا ومظاهر واهتمامات متعددة بحسب موقع الناظـر والمتأمل .

فـهنـاك قضية تخـلـف الامـة

وهـنـاك قضيـة ضعـف الامـة

وهنـاك قضيـة جمود فكر الامـة

وهنـاك قضيـة الاجتهاد لـدى الامـة

وهنـاك قضيـة الغيـاب الثقـافى للامـة

وهنـاك قضيـة الغيـاب الحضارى للامـة

كل هذه القضايا والازمات والمشاكل تعبر بشكل أو آخر عن قضية المعرفة الاسلامية او المعرفة لدى الامة الاسلامية .

لاشك ان انحطاط المعرفة وجمودها وتخلفها لدى الامة الاسلامية في الوقت الذى يمنل مظهرا فهو يمثل ايضا سببا اساسيا لضعف وجود الامة وانحطاطها وغيابها الثقافى والحضارى فى عالم اليوم وما يتبع ذلك من مآس وأزمات سياسية واقتصادية وعسكرية .

اننا حين نتحدث عن أزمة الاجتهاد فى الفكر الاسلامى ،

وحين نتحدث عن أزمة الهوة بين ماضى المسلمين وحاضرهم ،

وحين نتحدث عن أزمة الهوة بين القيم والواقع،

وحين نتحدث عن أزمة ضعف وضمور واضمحلال الوجود والشخصية الاسلامية ،

حين نتحدث عن ذلك فاننا نتحدث ضمنا عن أزمة المعرفة الاسلامية (لدى الامة)كسبب اساسى مسبق لكل هذه العلل وشرط جوهرى لاى محاولة جادة لاصلاحها والخروج بالامة من متاهاتها .

الصورة الكبرى :

من السهل دائما ادارة الحوار السفسطائى انطلاقا من الجزئيات والتفاصيل فى غيبة الوعى عن الصورة العامة للمواقف والقضايا .

والمدرك للصورة الكبرى لتاريخ الامة وتجاربها يسهل عليه ادراك موضع قضية المعرفة فى أزمة واصلاحها .

فالامة الاسلامية على مدى القرون فى تخلفها ،

لم يكن تنقصها الامكانات المادية ،

ولم تكن تنقصها الامكانات البشرية ،

ولم يكن ينقصها التاريخ ،

ولم تكن تنقصها القيم فالـوحى والرسالة بقيمها ومبادئها الخالدة كانت ولاتزال بين يديها موثقة أفضل ما يكون توثيق المتون .

كذلك فان الامة الاسـلامية على مدى قرون تدهورها وتخلفها حاولت الاصلاح على أسس تقليدية ، حاولـت فى محـدودية اعـادة الصورة التاريخية ماديا على النحو الذى وعاه العقل التقليدى وقد تكرر ذلك على مدى القرون فى بلاد المغرب والسودان والجزيرة العربية وبلاد السند وسواها من البلاد الاسـلامية .

وانتهت كل تلك المحاولات الى تحريك مبدئى لابناء الامة فى الصحارى والبـوادى ولـكن يقصـر نفسهـم وينقطـع حبلهـم ويقصـر عـطاؤهم فـى حواضر الامة الاسـلامية وامام قضايا الوجود الاسـلامى المتحضر الضال المريض فى الامصار الاسـلامية الكبرى وامام القوى الثقافية والحضارية والفكرية والتنظيمية المعـادية المناجزة .

كذلك حاولت الامة الاسلامية فى تجارب عديدة مريرة أخرى ان تستلهم التجارب الاجنبية غير الاسـلامية علـى غيـر جدوى ، منها التجربة العثمانية التركية منذ عهد سليم الثالث وهى أقدمها وأشملها ، ومنها التجربة المصرية منذ عهد محمد على وسواها من التجارب .

فجربت المحاكاة الفنية والتنظيمية والفكرية المتحررة والدستورية السياسية والقومية والعلمانية وسيطرة الدولة وتدخلها مما هو معروف .

وانتهت حتى الان الى الفشل وبقيت تركيا وبقيت مصر أشد عجزا ومـرضا .

واذا كان اسلوب المحاكاة التقليدى التـاريخى و اسلوب المحـاكاة الاجنبى لم يسفر اى واحد منهما على مدى القرون عن الغاية المرجوة فان من الواضح ان الاصـلاح ما يزال يكمن فى تحديد أصيل مبدع

لقوى الامة الفكرية والثقافية والحضارية على اساس من قيمها ومبادئها ومنطلقاتها ودوافعها ونفسيتها وعلاقاتها وتاريخها ، وتكمن قضية المعرفة وتحديدها فى اساس ذلک کله .

كيف بدأت أزمة المعرفة :

من المهم ان نعلم كيف كانت المعرفة سببا فى ازدهار واصلاح حال الامة . فالاسلام منذ ظهوره كان يعنى ببناء كيان الامة الاسلامية وشخصيتها على اساس سليم من المعرفة التى ترتكز على هدى وتوجيه الوحى وعلى قدرة فاعلية العقل .

وكانت حياة الرسول عليه السلام فى الوقت الذى يوجهها الوحى ويرسم خطوطها وتصوراتها وغاياتها ويهدى توجهها وخطواتها فانها ترتكز الى العقل والتدبير والتخطيط والتفكير السديد وآيات القرآن الكريم فى تكريم العلم والمعرفة والخبرة اكبر دليل على ذلک و أول لفظ أنزل من الوحى هو دعوة الى العلم والمعرفة على اساس الغاية والهدى الربانى (اقرأ باسم ربک الذى خلق) .

ولم يكن احداكفاً قيادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم استشارة لاصحابه ولا تخطيطا ولاتدبيرا لامره وأمر جماعة المسلمين فى كل أمر وفى كل حال من سلم وحرب .

والغرب حين داهمته هجمة العثمانيين لم يتمكن من صد هجماتهم والتغلب عليهم الا بعد ان حقق نهضة فكرية ثقافية سميت بعصر التنوير كانت أساس اعادة تنظيم قوى الغرب وتفجير طاقاته .

واذا كان لنا من مقارنة فاننا نستطيع ان نقول ان الامة الاسلامية حين دهمها تغير موازين القوى بالغرب ودهمتها هجماته منذ عدة قرون فان رد فعل المسلمين كان فى جوهره عسكريا وسياسيا

ولم يكن ينقص الكثير من ابناء المسلمين الاخلاص والتضحية فى الدفاع عن الامة ومقدساتها ولكن باءت كل تلك الجهود وحتى اليوم بالفشل ولم تمثل سوى مزيد من الاستنزاف والتدهور والضعف والتمكين لاعدائهم فى رقابهم ومقدراتهم ومقدساتهم ولا يجد الدارسون فى جوهر تطور العلاقة الا اتساع الهوة فى خط بيانى لا يزيد الوقت الا تدنى اتجاهه لغير مصلحة الامة الاسلامية . وخلال هذه المسيرة يستطيع الناظر الموضوعى ان يرى فى اساس هذه المواجهة بين المسلمين ومناجزيهم واعدائهم تدهور المعرفة وضمورها وانحطاط النموذج المسلم وانحطاط نوعية ومصادر قدراته الفكرية والتنظيمية والثقافية والحضارية ويظل النموذج المسلم وان كان لم ينقصه عنصر الاخلاص والتضحية الا انه تنقصه قاعدة المعرفة والقدرة و تتبدى فيه ضمور الشخصية والفكر والثقافة .

ولكن أين ذهبت تلك القدرة والطاقة والتألق والمبادرة وانطلاقة الفكر وحسن المأخذ الذى عرفته الامة الاسلامية على عهد الصدر الاول الذى حققت به تكوين الامة وهزيمة قوى الهمجية والفوضى وقوى الظلم والفساد وكسبت به قلوب العرب وابناء الامم وحققت من الانجازات فى أقل من نصف قرن وأرست دعائم مجتمع وحضارة غطت جل سطح الارض فى زمانها وحقبا طويلة من التاريخ من بعدها ما يزال الدارسون فى حيرة من أمره وانبهار بمداه وانجازاته

أين ذهبت تلك القدرة .

وكيف تبددت تلك الطاقة .

وكيف انحسرت تلك الموجة .

وكيف تضعضعت تلك الشخصيـــــة .

وكيـف انهـــار ذلـك النظـــــــام .

انفصام القيـادة الـى فكرية و سياسيـــة :

ان النقطة الاولى لبداية التحول والسبب المادى المباشر كان هو انهيار دولة الخلافة الراشدة طامها فى المدينة المنورة على يد جند القبائل العـربية التـى تغلغلت واستولت علـى الجيش فى تطـورات حركة الدفاع والفتح الاسـلامى .

ولما لم يكن لرجال القبائل تربية وفكر جيش الاصحاب الذين بنوا دولة المدينة ونصامها ،

لـذلك كان لابد لجيش القبائل العـربية ان ينقلب علـى نظـام الخلافة الـراشدة وان يقيم نظاما جديدا هو خليط من القبلية والجاهلية والاسـلام كان بدءا لعصـور الانحراف والتحول .

ورغم ان الهيئة الحاكمة بقى لها ذات الانتماء القبلى القـرشى فان الحجـاز الذى يمثل القاعدة والعناصر الاسـلامية الواعية لم تسلم للنظام الجديد بل ثارت وقاومت بالسـلاح هذا الانحراف فى ثورات وحروب أهلية طاحنة متوالية على عهد الحسين بن على وعبدالله ابن الزبير محمد ذوالنفس الزكية وزيد بن على وسواهم .

ولضعف التـربية الاسـلامية فى جمهـور المسلميـن الجـدد فى الامصار وبتوالى انطواء الامـم تحـت مظلة الاسـلام بكل رواسبهـا الجاهلية كان لابد ان تنحصر الثورة والمقاومة المسلحة فى الحجاز ولكن انتهت القيـادة الفـكرية الاسـلامية الـى العـزلة عن القيـادة السياسية ومعارضتها ولذلك نجد اباحنيفة يموت فى السجن ولايقبل تولى القضاء ويضرب مالك بن انس صاحـب فتـوى طلاق المكره

والشافعي الذى ترك بغداد الى مصر هربا من بطش السلطة السياسية وابن حنبل صاحب المحنة وسواهم من اعلام الاسلام الذين بقوا على مر العصور سندا للحق والعدل ومعارضة لجور السلطة السياسيّة واستبدادها وعسفها ومظالمها .

وهذا الانفصام بين القيادة الفكرية والسياسية كانت له اضراره على القيادة السياسية وغشمها وعسفها وتدهور النظام الاجتماعي للامة .

الا انه هو السبب المبدئ لضمور فكر الامة وقيادتها الفكرية حيث انفصل الفكر عن الممارسة والخبرة والتجربة والتفاعل وكان لابد ان يصبح بالمعنى السلبى مجردا ونظريا .

هذا الضمور والعجز والاسلوب النظرى للفكر الاسلامى كان لابدان يزيد ويتفاقم بمضى الوقت وكان لابد لمحصلة الفكر الاسلامى التاريخية ان تفقد صلتها ودلالتها المباشرة مع واقع الامة وصور حياتها المادية المتطورة ومواقفها ومواجهاتها واحتياجاتها الامنية المتفاعلة المتغيرة .

ومن ناحية أخرى فان انحراف القيادة السياسية وفقد الثقة المفقودة بينها وبين القيادة الفكريةصعب مهمة القيادة الفكرية فى اقرار مبادرة فكرية من القيادة السياسية ومن اتباعها لما تخشاه من غايات واهداف القيادة السياسية مما أدى وبشكل مفهوم الى تصلب مواقف القيادة الفكرية دون اهتمام كبير بمخاطر السلبية النظرية فى الفكر خوفا من تاصيل الانحراف والظلم مما كان من اسباب ما عرف باقفال باب الاجتهاد واختزلت مهمة العلماء الى المحافظة على التراث والمتابعة النظرية على مر القرون للنصوص والمتون .

ولكن هناك معركة اخرى كان لها أبعد الاثر ـ فيما أرى ـ فى تحديد مسار المعرفة والثقافة الاسلامية فى العصور المتأخرة أدت الى قطع شرايين الامداد الفكرى لشجرة المعرفة والشخصية الحضارية الاسلامية وبتر جذور النماء فى أصولها .

وهذه المعركة هى علاقة العقل بالنقل فى اصول المعرفة والثقافة والحضارة الاسلامية .

فالدارس لعصر الصدر الاول لا يصعب عليه ملاحظة روح المبادرة والتفاعل وحسن المأخذ فى فكر الصدر الاول .

ولذلك نجد شجاعة الرأى وسداده والمبادرات والاجتهادات الكبرى تصدر من الأصحاب والخلفاء فى الصدر الاول عن روح الاسلام وغاياته بدءا بمفهوم ابى بكر عن معنى اسلام رجال قبائل العرب واستيعابهم لاركان الاسلام وواجباته ومن ذلك خضوعهم لولى الامر وأداء الزكاة اليه ومنها اجتهادات عمر فى الخراج وفى الطلاق وتمسك على رضى الله عنه بحق الاجتهاد ورغم انهم امتداد مباشر لعهد الرسول عليه السلام الا ان ملامح عصرهم وادارتهم كانت تنم عن الفهم الواعى المدرك لتوجيهات الوحى والشريعة وغاياتها والتزام هذه الروح فى مواجهة الاحداث والقضايا والتغيرات التى كانوا يواجهونها .

اما روح القولبة الشكلية القانونية والانغماسات الاكاديمية المدرسية فتلك ظاهرة لم تكن معهودة فيهم ولكنها أخذت تتضح وتنمو بظهور العزلة بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية .

ولم يكن عجيبا ان تخبو روح المبادرة والاجتهادات والتشريعات والسياسات الاسلامية الكبرى بمضى الزمن بفعل تراكم عوامل العجز

الفكرى الاسلامى بدل ان تتوقد وتثرى بفعل توالى الاحداث وغنى الخبرات وتباعد الزمن .

ففى ظل الخلافة الراشدة كانت القيادة ملتزمة بالقيم والغاية الاسلامية الكبرى وكانت موضع ثقة الامة .

لذلك كانت حصيلتها من التجربة والفكر مجندة فى خدمة المجتمع وتنظيماته المختلفة ، ولم يكن هناك مجال للتناقض بين العقل والوحى حيث أن العقل يصدر اصلا عن التزام وفى حدود هذا الالتزام وفى خدمته .

اما بعد انفصام القيادتين فان عنصر الالتزام لم يعد لدى القيادة السياسية قائما بالمعنى السابق واصبح العقل والتجربة لايصدران بالضرورة عن غايات الالتزام وفى خدمته .

ومن الناحية الاخرى فان خضوع أمم الارض المتحضرة للامة الاسلامية العربية واتصالها بها فى مصر و فارس وبلاد اليونان والرومان والهند . كل ذلك ادى الى انبهار عقلى وحضارى غير كامل الالتزام لدى المسلمين خاصة فى دوائر بلاطات الحكام والقيادات السياسية .

ولذلك نجد الترجمات والدراسات والمناظرات والاهتمامات لم تلتزم حدود الغاية والشخصية الاسلامية ووجدنا من ذلك ظهور بل رواج مباحث الكلام والفلسفة الالهية والنزعات الباطنية والصوفية وقرب الحكام الفلاسفة والمتكلمين والمعتزلة وظهرت حركة اخوان الصفا والحركات الباطنية والصوفية المتطرفة .

وكان من الواضح ان الحركة الفكرية واستخدام العقل فى هذه المرحلة ليس ملتزما الشخصية الاسلامية ومن أوضح الامثلة ان البحث

فى الذات الالهية ليس له مكان فى الفكر الاسلامى لان تعريف الذات الالهية وفقا لمفهوم الالتزام ليس لها مثال (ليس كمثله شئ) .. (الشورى ٤٢ : ١١) ولا يخضع لقانون السببية البشرى (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد) ... الاخلاص ٣:١١٢ .

ولذلك كان رد الفعل ضد هذه الحركة العقلية غير الملتزمة عنيفا من علماء الاسلام مثل حجة الاسلام ابى حامد الغزالى وشيخ الاسلام تقى الدين احمد بن تيمية الذين أفنوا جهدهم فى الرد على هذه الفرق والضلالات .

كانت حصيلة هذه التجربة الخاسرة مع الثقافة والعقل الوافد غير الملتزم ان يقف العلماء والمفكرون الاسلاميون الملتزمون موقف الشك والعداء من العقل فى صور الفلسفة والمنطق وان تميل المعرفة والدراسات الاسلامية على علوم النصوص الشرعية واللغة العربية والتراث الفقهى مما يؤدى الى مزيد من فكر المتابعة والقولية النصية القانونية الجزئية التاريخية وان تعجز وتغلق حلقات الدراسة الاسلامية امام الاجتهاد وتدور فى بطون المتون وترديدها والشرح النظرى تلو الشرح عليها .

وبذلك أصبحت الارهاصات والمبادى وأساليب البحث العلمى التى قامت فى أصول الفكر الاسلامى مثل الضرورة والمصلحة والاستحسان أقرب الى التعطيل بما فرض عليها من ممارسات وقيود نظرية لا تتفاعل مع حصيلة الممارسة والحاجة السياسية الاجتماعية .

أزمة الفكر الاسلامى المعاصرة :

هى اليوم أعمق ما تكون ليس بسبب العزلة الطويلة التى أورثت هذا الفكر عجزا وضمورا .

ولكن التفكير فى سبل اصلاح هذا الفكر لم تتبين التغير الذى طرأ على ميدان المعرفة والثقافة فى العالم المعاصر ولم تدرك نقاط القوة فى أصول المعرفة الاسلامية ولم تتبين الدروس من تجارب الماضى .

ولذلك كثر التاكيد على الحاجة الى فتح باب الاجتهاد او التاكيد عليها انه لم يغلق قط ومع ذلك يظل الفكر عاجزا والاجتهاد مفقودا وان بدت قبسات تظل استثناءات تلتصق بمصادفات التكوينات الخاصة باصحابها دون ان تتحول الى مدارس ومناهج فى إلمعرفة والثقافة والفكر .

ان الازمة تكمن فى انفصام العقل والنقل فى أصل المعرفة لدى الامة الاسلامية .

الازمة تكمن فى طبيعة منهاج الدراسة الاسلامية التى تتركز فى علوم النصوص واللغة والمتون الفقهية الموروثة .

الازمة تكمن فى ان العقلية الاسلامية تتجه نحو الفقيه بمفهومه التاريخى لكى يحل أزمة المعرفة والثقافة الاسلامية ويقدم الاجتهادات والحلول والبدائل الاسلامية الحضارية للامة فى مواجهة اعدائها .

أسس الاصلاح :

ان أسس الاصلاح الفكرى الاسلامى الذى يكون قاعدة المعرفة والثقافة والحضارة والمنطلق لتصحيح سير الحركة الاسلامية فى التاريخ والخطوة الاولى فى تقويم الشخصية وخطط العمل للدعوة الاسلامية يكمن فيما يلى :

أولا : تصحيح علاقة العقل بالوحى فى الفكر الاسلامى .

ثانيا : اعادة رسم وفهم مجال المعرفة والاجتهاد ودور الفقيه في الصورة الجذيدة للمعرفة والتفرقة بين الاجتهاد والافتاء فى الفكر الاسلامى المعاصر .

ثالثا : اعادة بناء خطة منهج التربية والتعليم الاسلامى بحيث تنتهى ازدواجية المعرفة العقلية والاجتماعية والذبذبة القانونية ، وازدواجية الفيادة السياسية والفكرية .

وفيما يلى توضيح ما سبق اجماله :ـ .

أولا : تصحيح علاقة العقل بالوحى فى الفكر الاسلامى :

من الواضح ان المعرفة والفكر والثقافة الغربية المعاصرة المتفوقة هى معرفة وفكر ونقافة عقلية بحتة لاصلة لها بالوحى حيث ان الفكر الغربى ليس وسيلة للمعرفة الربانية بسبب ما أصاب الوحى فى الرسالة اليهودية والمسيحية من تحريف وما لابس الممارسات اللاهوتية من انحراف .

ورغم النجاح الكبير الذى حفقه الفكر الغربى فى المجال العلمى التجريبى الا ان علماءه لايسعهم ان ينكروا التخبط الذى يعيشه المجتمع والفكر الاجتماعى الغربى وذلك لصعوبة العمل التجريبى الناجح فى المجال الاجتماعى الانسانى بل واستحالته فى اغلب الاحوال من ناحية ولتحكم الهوى واللذة من ناحية اخرى ولان العقل الانسانى ليس له ان يحقق الصواب والادراك الكلى الاجتماعى بمفرده ومن هنا كان التخبط والتنافض والنظريات المتلاحقة التى لا تستقر ولا تنقطع ولا تقطع فى أمر .

اما مصادر المعرفة الاسلامية فهى الوحى والعقل .

وليس فى القول بان الوحى او العقل هما مصدر للمعرفة

الاسلامية مشكلة ولكن المشكلة فى تحديد العلاقة بينهما وضبطها .

فلاشك ان الوحى فى الاسلام يمثل الغايات والضوابط ضد انحراف العقل وهوى النفس . ولكن القضية المهمة معرفة انه دون العقل يحدث سوء فهم الوحى نفسه .

ولذلك فان قصور العقل فى المعرفة الاسلامية لا يعنى ضياع العقل فقط بل ضياع الوحى معه واذا كان يخشى على غير المسلمين من ضلال العقل احيانا فان المسلمين اذا لم ينتفعوا من العقل فى مجال المعرفة عندهم فهم لايفقدون الفائدة المرجوة من الوحى فى تحديد الغاية وضبط مسيرة العقل فقط بل انهم قد يستطيعون ايضا فهم الوحى على غير ما يقصد منه وقد يكون ذلك مصدرا اضافيا للضرر بدلا من النفع .

وأمثلة ممارسات العلماء من منطلق الجهل وغيبة التحربة والعقل فى بعض الامور كثيرا ما ينتهى بهم الى مواقف مؤسفة غير معقولة ولا مقبولة ، ضررها اكثر من نفعها وقد تصد عن سبيل الله .

فالمشكلة اذا تكمن فى فهم معنى علاقة العقل بالوحى ومن الواضح انها علاقة تلازم بالضرورة ، فلا وحى دون عقل ولا عقل اذا انحرف عن التزام جادة الوحى .

فالمشكلة تتلخص فى كيفية استخدام العقل لافى ضرورة العقل من عدمها .

لابد من العقل كمصدر للمعرفة والفكر والثقافة الاسلامية ولكن لابد من استخدامه بوعى فى اطار الوحى وغايته اى لابد من انضباط والتزام فى استخدام العقل بحيث لايجرى ضد الغاية الاسلامية او الاطار الاسلامى بما لا يضيف معرفة ولا نفعا ولكن

يضيف تحوطا وممارسات نظـرية ضالة كمـا حدث فى ماضـى الامة والتاريخ الاسـلامى .

ومعنى هـذا هو استخدام العقل فى مجال المعرفة الاسـلامية بوعى وخطة وليس تخبطا وعشوائية وتناقضا وجهلا .

فليس من الاسـلام البحث اوالحديـث فى اى أمـر من منطلـق الجهل . وليس من الاسـلام اعنات الناس فى غير فهم ولارحمة باسم الاسـلام .

وليس من الاسـلام تجاهـل الاثـار والنتائـج وحاجات الناس .

وليس من الاسـلام العجز فى أمـر المسلمين او فى لقاء مناجزيهم وأعدائهم .

كذلك ليس من العقل الاسـلامى فى شئ جهل غايات الاسـلام وقيم الاسـلام وحدود الاسـلام .

ولعل فى المثالين التاليين ما يوضح هذا المعنى :

المثـــال الاول : مسألة التسعير :

فالحس المسلم لم يسمح للعلماء بالاصـرار على عدم التسعيـر عمـلا بظاهر النصوص حين رأو ما يقع على الناس من الظلم والغبن فليس قبول الظلم من العقل ولا من الاسـلام فى شئ ، ولذلك كان العقل الاسـلامى هو فى التزام قيمة العـدل وغاية العدل فى العلاقة الاسـلامية الاجتماعية .

واذا كان العقل الاسـلامى فى هذا الموضع من القدرة بحيث تبيـن أولوية قيمة العدل الا انه لـلاسف لم يتمكن من تحليل الظاهرة وفهمها بما يكفى لاعادة بناء السوق والتعامل الاقتصادى بما يعيد التـوازن العادل فى التعامـل واكتفى بالاجراءات الاستثنائية الوقائية لدرء الظلم

والغبن الظاهر فى التعامل .

المثـــل الثــــانى : الطهارة من نجاسة الكلب :

ما أورده صاحب « سبل السـلام شـرح بلـوغ المـرام من أدلة الاحكام » الامام محمد بن اسماعيل الصنعانى المتوفى سنة ١١٨٢ هـ فى مناقشته نجاسة لعاب الكلب والسبل الشـرعية لازالتها حيث اخضع الموضوع للنظـر العقلى وتوصـل الـى النتيجة العقلية الممكنة لادراك وعلوم زمانه فى ان لعاب الكلب ليس اشد نجاسة من العذرة ولذلک ازالتها هى الغسل ثلاثا كباقى النجاسات ، ولكن العقل الاسـلامى لا يمكنه ان يقف عند النظـر المجـرد من ضوابط الوحى .

ولذلک كانت نتيجة بحثه انه لابد من غسل لعاب الكلب سبعا احداهن بالتراب انصياعا لـلامر الشـرعى حيث لا حكمة ولا مصلحة انسانية او اسـلامية فى تجاهل امر الشارع .

، وكان لابد من مضى القـرون ليتعرف العقل والعلوم على انواع من النجاسات آثارها ابعد وأسوأ من الروائح والمناظر الـكريهة تسمـى الجراثيم والفيروسات والمكروبات وان من اسهـل وافعـل الوسائـل لازالتها الدلک وجريان الماء بقدر كاف عليها كاسلوب صحى وقائى فى ميسور كافة الناس فى كل الظـروف .

وهكذا يكون الجمع الواعى المنضبط بين حكمة الشـرع والعقل فى كل حالة بما يناسبها دون تعنت وشطط او تفسخ وفساد .

لذلک لابد ان يستقـر بوضوح فى الضمير والثقـافة والمعـرفة الاسـلامية تلازم العقل والوحى ،وان اى تعارض او اضطراب فى هذه العلاقة يمثل ظاهرة مرضية خطيرة فى جسد الفكر الاسـلامى يجب تمحيصها وعلاجها ولايستريح الضمير والفكر المسلم قبل ان يجد

المخرج العملى الواعى القادر السليم الذى يوفق ويلازم بين مسيرة العقل ودفعة وفاعليته وبين غاية الوحى وتوجيهه وهدايته بعيدا عن حصيلة التجارب المتميزة المريضة والافعال الطائشة والعشوائية وردود الفعل التلقائية المضادة .

ثانيا : اعادة رسم وفهم مجال المعرفة فى مصادر الاجتهاد ، ومعرفة حدود دور الفقيه وامكاناته فى تركيب دواليب عجلة المعرفة فى العالم المعاصر ، والتفرقة بين عمليات الافتاء والاجتهاد ومصادرها فى الفكر الاسلامى فى عالم اليوم .

من الاخطاء التى يقع فيها الدارسون الاسلاميون نتيجة سيطرة التجربة التاريخية على اسلوب نظرهم انهم ما يزالون ينظرون الى الفقهاء من دارس العلوم الشرعية فى اطارها التاريخى من علوم النصوص ومتون الفقه وتراكيب اللغة على انهم هم المسؤلون عن تجديد المعرفة الاسلامية وتقديم الفكر والاجتهاد المطلوب لتنظيم ومواكبة الحياة المسلمة المعاصرة والاستجابة للتحديات التى تواجهها وتقديم البدائل الاسلامية لها فى مواجهة التنظيمات الاجتماعية والحضارية المناجزة .

وهذا التصور خاطئ اساسه حيث انه يقوم على فرضية اساسية لاوجود لها فى عالم المعرفة اليوم وهى ان الفقيه يملك المعرفة اللازمة فى كل قضايا المجتمع وبذلك يكون قادرا على الفكر والنظر والاجتهاد وتقديم البدائل الاسلامية .

وهذاالتصور كان الى حد كبير صحيحا تاريخيا حين كان الفقيه تاجرا وفيلسوفا ورياضيا وطبيبا وكيميائيا وملما بكل علوم عصره بل مبرزا فيها او فى معظمهاكما ان كثيرا من الفلاسفة والعلماء دارسون

متمكنون للفقه والشـريعة .

ولذلک كان منهج الدراسة الاسـلامية شاملا وكان الفقيه مفكرا ايضا تنهل قدراته ومعارفه القانونية من قدراته ومعارفه العلمية الشاملة لمعطيات عصـره الاجتماعية والعلمية والفنية .

ولكن الامر المهم الذى يجب ان نتنبه له اليوم هو ان المعارف الانسانية والاجتماعية والفنية قد اتسعت حتى ليصعـب علـى الفـرد الواحد الاحاطة بها بفـروع العلم الواحد وان القدرة المطلوبة للنظـر المجتهد فى اى باب من هذه الابواب تحتاج الى النظـر المتخصص .

ولذلک فالعطاء والاجتهاد والتصورات والحلول والبدائل فى اى مجال من مجالات المعرفة الاجتماعية او العلمية لايمـكن ان تأتـى وتصدر عن المختص بالدراسات القانونية وحده .

فمن المشاهد ان القانونيين وان كانوا هم الذين يصوغون ويبوبون القوانين والتعليمات الخـاصة بالاقتصـاد او السيـاسة او الاعـلام او الصناعة او البحث العلمى او المرور فان الفكر الذى تصدر عنه هذه القوانين والتعليمات لايرجع الى القانونيين .

ولذلک فاننا بحاجة الى فهم خارطة المعرفة وتطوراتها المعاصـرة فلابد لمجال المعرفة الاسـلامية من اقتصاديين وتربويين واعلاميين ومن سياسيين واداريين وسواهم من اصحاب الاختصاص والمعرفة فى شئون الحياة الاجتماعية والفنية كافة .

ولابد لهؤلاء المتخصصين من وعى و ادراک مناسب للنصـوص والغاية والقيم الاسـلامية حتى يأتى نظرهم وممارستهم بتوجيه اسـلامى وحتى يكونوا مصدرا للفكر والتصورات والممارسات الاسـلامية كل فى اختصاصه وموقعه .

ومن حصيلة فكر هؤلاء واجتهاداتهم ونظراتهم وما يطرحون من تصورات وبدائل تكوين التراكمات التى يستقى منها القانونين اعمالهم القانونية والفقهية التى يتطلبها تنظيم الممارسة الحياتية والاجتماعية والفنية للمجتمع المسلم .

وبذلك نعرف موضع الافتاء والاختصاص القانونى فى خارطة المعرفة والاداء الاجتماعى فى عالم اليوم ولانحمله فوق طاقته وبعيدا عن غايته .

وبذلك يكون التوجه الصحيح لحل معضل الاجتهاد والفكر الاصيل والحلول والتصورات الاسلامية البديلة ليس بالنداء الضائع الى الفقهاء لتقديم التصور التاريخى ولا الى اصحاب اختصاص المعرفة والصياغة القانونية .

ولكن بالتوجه الى اعادة رسم خارطة المعرفة على اساس الوجهة الاسلامية وبناء الكوادر العلمية والفنية القادرة على العطاء الاجتهادى.

وكذلك تنظيم هذه الكوادر فى نظام يتكامل ويتساند ليوفر المعرفة ودليل العمل للمجتمع المسلم عن قناعة وقدرة وهى مهمة تتوزعها باكثر من صورة ونظام المجامع العلمية العليا والمؤسسات النيابية التشريعية فى النطق المسؤول الموثق بما تحتاج اليه سير حياة الامة ونظامها الاجتماعى وبذلك تتضح صورة الحياة الفكرية الزاخرة فى المجتمع وما تعج به من الخواطر والتاملات والاراء والاجتهادات وما يجمع عليه جمهور الامة ويعتمده من الفتوى والقانون اللازم للمارسة الاسلامية فى حياة الفرد والجماعة .

ثالثا : بناء منهج التربية والتعليم الاسلامى بحيث تنتهى ازدواجية المعرفة الاجتماعية والدينية القانونية وازدواجية القيادة

السياسية والقيادة الفكرية .

من الواضح ان ازدواجية القيادة السياسية والفكرية تاريخيا كانت خلف ضعف المعـرفة والثقافة فى المجتمع الاسـلامى وخلف غشـم وجهالة واستبداد القيادة السياسية .

وفى العصـر الراهن بتأثير السيطرة العسكرية والسياسية والثقافية الاستعمارية الغـربية ونتيجة للفـراغ التاريخى قامت ايضا ازدواجية فى المعرفة .

فهناك معرفة دينية اسـلامية قانونية محدودة لايزيد الزمن دائرتها الا انحسارا حتى ان بعض دول المسلمين العلمانية لم تعد تستثنى حتى قانون الاسرة والاحوال الشخصية من التغيير والتحوير .

وهناك معـرفة علمانية اجتماعية فنية مستوردة تطغى وتمتد الى جوانب الحياة كافة وتستجيب لمحاكاة العصـر ومظاهر تطوره وتحدياته وتقوم على خدمتها ونشرها المعاهد والجامعات والمؤسسات .

ومن الواضح ان كلا الشجرتين عاجزة عن النمو ، لانعدام اسباب النمـو لـلاولى ولغـربة الثـانية عن ارض وشعـب الاسـلام وغاياتـه ودوافعه .

ولذلك فان اصـلاح منطلقات المعرفة والثقافة الاسـلامية واعادة بناء كيانها انما يقصد منه اعادة قدرتها على العطاء والنماء .

ولكى يكون لهذه القدرة ثمرة ومعنى فلابد من اعادة بناء مناهج التربية والتعليم .

فالكوادر الملتزمة اسـلاميا القادرة فنيا هى الجواب العملى الوحيد لامكانية اعادة وحدة القيادات ووحدة المعارف .

لابد من التزام الشخصـية والقيـم والغـاية الاسـلامية فى تربية

الكوادر الشبابية .

ولابد من تزويدها بالاساس من النصوص والمعرفة الاسلامية وكيفية فهمها والتعامل معها بعد اعادة تبويبها وتبسيط وتسهيل مناهج دراستها .

ولابد من توفير القدر الضرورى من النصوص والمعرفة الدينية لكل اختصاص ليكون الموجه والمكون لعقلية الدارس ثم بعد ذلك لابد من اقامة مختلف دراسات المعرفة والخبرة فى كل الفروع الاجتماعية والفنية على أسس وغايات اسلامية وكاجزاء متكاملة متناسقة فى وحدة المعرفة والثقافة الاسلامية فلامجال بعد هذا الى جامعة اسلامية وجامعة علمانية ، ولامجال لاقتصار الغاية والفكر والمنهج الاسلامى على دراسات قانونية لغوية بل هى دراسات اسلامية الغاية والضوابط والمنهج فى العلوم الاجتماعية والانسانية والطبيعية ... الخ .

وهذا يشمل المنهج الفنى والخلق والالتزام المهنى والغاية الاجتماعية فى كل حقل بما يلائمه ويتطلبه الاسلام فى المجتمع المسلم .

الاصول : المنهج التاريخى للفكر الاسلامى :

من الضرورى عند الحديث عن اسس الاصلاح التعرض لمنهج الاصول فى الدراسات الاسلامية ومعرفة موقعه المحدود من عملية الاصلاح .

فقد لاتتضح الصورة للدارس بين كل ما سبق ان ذكرناه عن المعرفة واعادة بناء كيانها ومنهجها وبين الاصول بمفهومها التاريخى والاصلاحات التى لابد ان تشملها .

فالاصول القصد منها بشكل عام هو المصادر والمنهج للدراسات الاسلامية .

ومن الواضح مما سبق ان ذكرناه ان منطلق الاصلاح لايبدا من قضية الاصول بل يسبق ذلك الى البدء بمصادر المعرفة الاساسية وهى الوحى والعقل وتوضيح العلاقة العضوية بينهما كمنطلق للمعرفة الاسلامية .

كما سبق ان بينا شمولية المعرفة والفكر والاجتهاد الاسلامى الى كافة مناحى الحياة ورفض محدودية المعرفة والفكر وازدواجيته فى المجتمع الاسلامى فى معرفة قانونية لغوية تاريخية ومعرفة علمانية اجتماعية فنية .

ولكى نتعرف على التوجهات اللازمة لاصلاح منهج الفكر الاسلامى لابد من التعرض لعلم الاصول وتحليل مكوناته ومفاهيمه الرئيسية ومعرفة مجالات الاصلاح فى ميدانه .

والاصول هى كلمة شاملة تجمع العديد من القضايا المتباعدة التى سمحت الظروف التاريخية بجمعها فى وعاء واحد ، أصبحت فى تصورى اليوم مصدرا للتعقيد الفكرى والمنهجى .

فالاصول تضم مادة الوحى والرسالة الالهية والتطبيقات والتوجيهات النبوية القيادية ، وهما القرآن والسنة .

كما تضم الاجماع وهو مادة تشريعية فكرية تمثل الاجماعات التى تنتهى اليها الامة وهو منهج واسلوب فى الوصول الى المادة التشريعية والفكرية .

كما تضم مناهج واساليب فى الدراسة والبحث للوصول الى المادة والفكر الاسلامى كالقياس..

كما تضم مقاييس وضوابط للمنهج كالضرورة والمصلحة والاستصحاب والاستحسان .

ولابد من دراسة متأنية موضوعية لهذا الاطار وتتبع نموه والمؤثرات المختلفة في تكوينه حتى يمكن تطويره الى الوضع الذى يخدم المعرفة والثقافة والتشريع الاسلامى بشكل فعال .

ورغم ضئالة بل انعدام الدراسات المتخصصة فى المنهج الذى صدر عنه فكر الصدر الاول الا ان من السهل لمس الفارق في الحيوية والمبادرة والشجاعة والنفاذ فى فكر ذلك الجيل .

ومن السهل ملاحظة لمسة الركود والجمود والشكلية المدرسية التى أخذت تزحف على المنهج الاسلامى ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح فى مفهوم الاجماع عند الاصوليين .

ومن المهم ادراك ان الاصول بمفهومها الحاضر قدتمت بلورتها فى فترة مبكرة وانها بذلك قد استجابت للحاجة القائمة فى ذلك العصر .

اما اليوم فيجب اعادة التبويب وملاحظة التطورات والتغيرات فى الواقع الاسلامى لمعرفة التعديلات التى لابد من ادخالها على منهج دراسة الوحى وخوض غمار المعرفة .

ومن اهم ما نلاحظه انه نتيجة للتغيرات والتطورات الهائلة من صور الحياة الانسانية وامكاناتها فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والاعلام والتعليم والتربية والمواصلات والانتاج وسوى ذلك لابد من ملاحظة عنصرى الزمان والمكان وتأثيرها على فهم كل نص على حده ومجموع النصوص ذات العلاقة وفى اطار غايات الرسالة والوحى .

فعلى سبيل المثال اذا حفلت الاحاديث النبوية والكتب الفقهية

بتفاصيل دقيقة لكيفية جمع الزكاة من النبات والحيوان حيث كانت مصدر الثروة فى الجزيرة العربية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم التى يؤخذ منها حقوق الضعفاء والمحرومين وحاجات المحتاجين ونجد فيها الاعفاء والتجاوز للصناعة والتعدين والعقار لما كانت عليه حالة الثروة والانتاج على عهد الرسول عليه السلام .

فاننا نجد اليوم ثروة الجزيرة فى التعدين (البترول) بشكل غير معهود فى التاريخ ومصادر ثروة الاثرياء من العقار ومستقبل الامة يكمن فى الصناعة .

وكل هذه التطورات لابد ان تلقى عناية وتركيزا واهتماما جديدا بما يحقق ذات الغايات السامية رعاية للمحرومين واصحاب الحاجة فى كل زمان ومكان .

ان تأثير الزمان والمكان لابد ان ينعكس على دراسات المنهج خاصة فى فهم جملة السنة النبوية المتعلقة بتوجيهات وتدبيرات الرسول عليه السلام لمجتمع المسلمين ودولتهم على عهده .

ولابد ان تتطور دراسات السنة النبوية بوجه خاص على هذا الاساس الى دراسات شاملة متكاملة لنصوص السنة فى كل موضوع وفى علاقات المواضيع المختلفة بعضها ببعض فى ضؤ الغايات التى هدفت الى تحقيقها فى مجتمع المدينة والجزيرة على عهد الرسول عليه السلام ، ولعل مقدمة الدراسة لنظرية الاسلام الاقتصادية التى نشرت ضمن مطبوعات اتحاد الطلبة المسلمين بالولايات المتحدة وكندا باللغة الانجليزية Contemporary Aspects of Economic & Social Thinking in Islam وهو وقائع المؤتمر الثالث لمنطقة الساحل الشرقى عام ١٩٦٨ م تمثل نموذجا للدراسة المتكاملة لمجموعة من

الاحاديث فى الموضوع الواحد وهو هنا موضوع الربا وكيف تتضح الحكمة والغاية والسياسات النبوية التى قصدت اليها ولا يبقى نص من النصوص قلقا او مهملا لقصور الدراسة .

كما ان تأثير الزمان والمكان وضرورة شمولية الدراسة للنصوص ذات العلاقة والموضوع فى اطارها الزمانى والمكانى سيجعل اهمية خاصة لاسلوب القياس الشامل للقضايا والصور المتكاملة باعتبار الغاية التى هى فوق اعتبارات الزمان والمكان وذلك فى فهم ودراسة السنة النبوية والاستفادة منها .

وسيضع حدا للمعارك المستديمة للاستدلال الجزئى بالنصوص الجزئية والمتفرقة فى غيبة الصورة الكاملة والمؤثرات المختلفة للواقع الحى المعاصر للنصوص والذى يمزق الامة ويعيد طرح القضايا الثانوية والجزئية عودا على بدء لعجز المنهج ان يقول كلمته فى مواجهة هذا المأخذ القاصر والضار فى الدراسة والتوجيه .

ان الفضية الجزئية مهما كان توثيقها ليست بالضرورة هى القضية الصحيحة وفد تكون النقيض لصحة القضية الكلية اذا لم تلاحظ الكليات ومن مؤثرات الزمان والمكان على تلك القضية ومفهومها والغاية المطلوبة منها .

ان الامل عندى كبير فى اعادة النظر فى منهج المعرفة والدراسة الاسلامية بحيث يأخذ العقل موضعه السليم الى جانب الوحى وفى خدمته وتوجيه منه وبتكامل الاستنباط والاستقراء فى خدمة المعرفة الاسلامية وبحيث يأخذ القياس الكلى والنظر الشامل وعنصر الزمان والمكان مكانه فى منهج الدراسة الاسلامية حينئذ يعاد بناء منهج التربية والتعليم بحيث تتوحد القيادة وتتوحد المعرفة .

اسلامية العلوم الاجتماعية :

واحدى الخطوات نحو الاصلاح الاجتماعى واحدى الثمار لاصلاح بناء المعرفة والمنهج الاسلامى فى المعرفة هو اصلاح العلوم والدراسات الاجتماعية والانسانية .

والى جانب كل ما سبق ذكره من الجهود المطلوبة لاصلاح بناء المعرفة والثقافة الاسلامية . فان هناك جهودا اضافية محددة لتحقيق تلك الغاية وهى جهود أسلمة العلوم الاجتماعية .

وحين ناديت باقامة جمعية علماء الاجتماع المسلمين فى اطار نشاطات اتحاد الطلبة المسلمين فى الولايات المتحدة وكندا كان ذلك امتدادا لاهتمامى بامر تجديد المعرفة والثقافة الاسلامية فى جهود الاتحاد ونشاطاته ومطبوعاته الفكرية والثقافية .

وكانت من أهم الغايات عندى لاقامة تلك الجمعية هى تجنيد الاسلاميين الملتزمين من علماء الاجتماع للعمل على اسلامية تخصصاتهم فى العلوم الاجتماعية حيث يتوفر لهم الالتزام والخبرة والدراسة الفنية بالمنجزات العلمية والمنهجية العقلية ، والمطلوب هو تجنيد جهودهم وتنسيقها وتعميق معلوماتهم والتزامهم الاسلامى وتوفرهم للعمل والدراسة فى حقول تخصصاتهم للبحث والتنقيب والنقد والتحليل فيما لديهم من مناهج ومعارف فى ضؤ القيم والغايات والقواعد الاسلامية .

وحين توليت أمر بناء الامانة العامة للندوة العالمية للشباب الاسلامى بقى الجانب الثقافى وترقية نطاق ومناهج المعرفة والتربية الاسلامية غاية لى .

واليوم حين ناديت باقامة المعهد العالمى للفكر الاسلامى

وشاركت فيه مع رفاق افاضل يشاركونى عمق الايمان بهذه القضية واهميتها وأولويتها فى هذه المرحلة من مراحل جهاد الامة نحو العطاء والبناء .

فان المأمول ان تثمر هذه الجهود مع ما يمكن ان توفره من اهتمام وتعاون ومشاركة من الرجالات والمؤسسات الاسلامية كافة لتحقيق غاية اثراء وانماء دوحة المعرفة الاسلامية وصقل الشخصية الاسلامية واسلامية العلوم الاجتماعية .

غايات المعهد العالمى للفكر الاسلامى ومنهاجه فى العمل :

غايات المعهد هى العمل فى المجال الفكرى والثقافى الاسلامى والمساهمة فى انماء المعرفة الاسلامية واعادة بناء كيانها ومناهجها واعطائها الاولوية التى تستحقها فى هذه المرحلة كشرط ضرورى مسبق لانجاح الجهود الاسلامية فى اعادة البناء ومتابعة المسيرة .

والغاية تقديم تصورات متكاملة للمعرفة ومصادرها ومناهجها الاسلامية .

والغاية تأصيل المنهج السليم فى فهم المبادىء والقيم الإسلامية حتى تستقيم التصورات والعلاقات ومناهج التربية وتصقل الشخصية وتصح النظم تثمر الجهود الاسلامية فكثيرا ما تؤدى جزئية النظرة الى تشوه التصورات والقيم والشخصية الاسلامية وتأتى ثمار الاخلاص والالتزام بعكس ما هو مرغوب او مطلوب للقيادة والاصلاح الاجتماعى والاسلامى .

والغاية تجنيد جهود الباحثين والعلماء الملتزمين والمخلصين وتنسيقها لاعادة بناء كيان المعرفة الاسلامية واسلمة العلوم الاجتماعية على وجه الخصوص وتوفير المادة العلمية والكتب

المدرسية الجامعية المختصة فى هذه المجالات .

والغاية اصدار عدد من الدوريات المعينة للباحثين الاسلاميين مثل دوريات التعريف والنقد الموضوعى للكتاب الاسلامى ونلحض قضاياه الاساسية للقراء .

والغاية اصدار الدوريات والموسوعات المختصرة لتقديم الجديد فى باب المعرفة والمنهج الاسلامى .

والغاية التدريب والندوات واللقاءات العلمية بين العلماء والمفكرين والكوادر القيادية الاسلامية فى سبيل مجتمع مسلم أفضل .

والغاية هى ان تصبح المعرفة والاجتهاد والقدرة الاسلامية منهجا ومدرسة وليست استثناءات عملاقة تباعد بين أفرادها الاجيال والقرون .

والنشرة التعريفية بالمعهد متوفرة باللغتين العربية والانجليزية وفيها تعريف بالمعهد وغاياته ومهماته بمزيد من التفصيل فى الموضوع لمن أراد المزيد .

اننا لانريد للاسلام ان يقبع منطويا فى الزوايا والاروقة ولا نريد للاسلام وهدى الاسلام ان ينحسر كلما امتد من الصحراء الى ميدان الحواضر وتحدياتها .

ولانريد للاسلام ان يظل معزولا خلف حجب الزمان والمكان .

ان هذه الغايات اكبر من المعهد ومن اية مؤسسة لوحدها مهما كانت ... الا بالاخلاص والتعاون بين العاملين المخلصين الاسلاميين ومؤسساتهم حيثما كانوا فى ارجاء الارض .

فبالاخلاص والتعاون بين المخلصين العاملين المستنيرين وبين مؤسسات الريادة العلمية الاسلامية كل فى موقعه ، وكل فى اختصاصه،

وكـل حسـب امكانيته يصبح كل ذلك ممكنا ويصبح كل ذلك سهلا باذن الله .

وان هذه الندوة ما هى الا احدى النماذج التجريبية التى نأمل ، أن تنمـو وجوه التعاون على غـرارها ، بين مؤسسات التعليـم والثقـافة الاسـلامية ، وننتظـر مـن ورائها الخير كل الخير ان شاء الله .

نظـــرية التقادم فى الشـــريعة الاســـلامية

ساجد الرحمن الصديقى الكاندهلوى

طلع القرن الخامس عشـر من الهجرة النبوية ـ على صاحبها الف الف صلاة و تحية ـ بتباشير صحوة اسـلامية كبيرة ، وجهود جبارة فى سبيل تطبيق الشـريعة الاسـلامية ، فى جميع ميادين الحياة ، ونرى معالم هذه الصحوة واضحة فى اهتمامات الشباب المسلميـن الذيـن زالت عن أعينهم غشاوة الجاهلية الحديثة . وأخذ المسلمون المثقفون فى كل مكان يفهمون فهما جيدا أن الاسـلام وحـده ، هو الديـن الكامل لـلانسان وأن تطبيقه تطبيقا جديا فى جميـع نواحى الحياة يحل المشاكل الاجتماعية التى يعانى منها الانسان المعاصـر .والمسلمون المثقفون فى جميع انحاء العالم عامة وفـى باكستـان خاصة جعلـوا يدركون أن أهداف الاسـلام ومقاصده ، موقع ثقتهم بقدرة الاسـلام على التكييف من واقع العصـر فى كل مجالاتـه العلمية والسياسـية والاقتصادية بل وأكثر من ذلك قدرته الكاملة على انقـاذ البشـرية مما تتـردى فيه اليـوم من أزمات مادية وروحية يأخذ بعضها بخناق بعـض .

ونحن على يقين واثق وايمان كامل أن الارض ستتشـرق بنور ربها وتنعكس الأضـواء الربـانية من مغـربها ، وأن فجـر الاسـلام سيطلع من قريب ، وينفجـر فى الكون نور جـديد ، وستنهار جيوش الظـلام ، ويهبط من السماء ملائكة السـلام ، وتلجأ الانسانية الى كنف الاسـلام عن طواعيتها ، وتكون كلمة الله هى العليا ـ

وقـد ظهرت ، والحمـد لله ، تباشـيـر هذا الفجـر الجديـد فى الجمهورية الاسـلامية الباكستانية بعد الحركة الجماهيرية التى قام بها الشعب الباكستانى والحكومة الباكستانية لتطبيق الشـريعة الاسـلامية فى عام ١٩٧٧ م .

وفعـلا أصدر الرئيس الباكستانى مراسيم رئاسية تحتوى أحـكام الحدود طبقا للشـريعة الاسـلامية فى ١٢ ربيـــع الاول ١٣٩٩ هـ . الموافق ٩ فبراير ١٩٧٩ م . وتضم جميع أحكام الحدود المتعلقة بجرائم الزنا والسـرقة والحـرابة والقذف وشـرب الخمـر .

وبعد هذه الخطوات الجبارة فى سبيل تطبيق الشـريعة فى البـلاد تخطت هذه البـلاد خطوة كبيرة فى هذا الطريق ، وأنشئت المحكمة الشـرعية العليا . وبدأت هذه المحـكمة تسمـع المرافعـات المتعلقة بالحدود و على الأخص الدعاوى التى تتعلق بجريمة الزنـا . وهنـا ظهرت نظرية التقادم فى العقوبة على هذه الجريمة ، وفكرت المحكمة الشـرعية ان كان هناك أى تأثير لتأخير الشهادة على اجراء حكم فى قضايا الحدود .

فـأردت أن أكتـب نبـذة قليلة فى نظـرية التقـادم فى الشـريعة الاسـلامية ، عسى أن تكون هذه الكتابة فتحا لباب مزيد من البحوث والدراسات فى هذا الموضوع ، ولعـل الله يوفق بعد ذلك علمائنـا وفقهائنا أن يدرسوا هذا الموضوع دراسة منقحة .

معنى التقادم فى الفقه الاسـلامى أن تمضى فترة من الوقت بعد ارتكاب الجريمة دون أن تترتب الشهادة القائمة على هذه الجريمة ، أو البنية الثابتة لها أمام القضاء ، أو تمضى مدة من الزمان بعد الحكم بالعقوبة دون أن تنفذ على المحكوم عليه (١).

وقد اعتبر فقهاء الأحناف فى ضؤ الحديث النبوى (صلى الله عليه وسلم) ((ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم)) تأخير الاثبات فى جرائم الحدود شبهة ساقطة فى الحدود الثلاثة ـ حد الزنـا ، والسرقة ، وشرب الخمر (٢).

وهنا تفاصيل نجدها فى كتب الفقه حول موضوع التأخير فى تقديم الشهادة أمام محكمة القضاء وتأثيره فى تنفيذ الحد وأن عدم التقادم شرط فى الحدود الثلاثة المذكورة وفى جميع التعزيرات مالم يكن هناك حق العبد ، فاذا جاء حق العبد فى الحدود والتعزيرات لم يبق عدم التقادم شرطاً لتنفيذ الحكم .

ونحن نجد اختلافا فقهيا فى هذا الموضوع يجب علينا أن نوضحه، فقد لخص الامام الحنفى الكبير ابن الهمام هذا الخلاف فى أربعة أقوال . وقد أورد فقيه العصر الامام محمد أبو زهرة هذه الاقوال كمايلى :(٣)

الاول : رد الشهادة بمضى مدة معلومة كان يمكن أن يقوم بها فيها ، ولم يقم فى كل الحدود ، ويقبل الاقرار فى غير حد الشرب ، وهذا رأى محمد بن الحسن ، فهو يقوم على رد الشهادة ، وقبول الاقرار فيما عدا الشرب .

الثـاني : ردها وقبول الاقرار فى جميعها حتى فى الشرب ، وهو قول ابى حنيفة وأبى يوسف ، لان الاقرار لاشبهة فيه ، وتأخيره لاينقص من قيمته فى الاثبات به قوة لانه يكون بعد تردد ثم اقدام .

الثـالث : أن التأخير فى الشهادة والاقرار لايمنع قبولها اذ لاشبهة فى ذلك لأن تأخير قول الحق لايدل على بطلانه ، وهذا قول جمهور الفقهاء ، ومنهم مالك والشافعى و أحمد رضى الله تعالى

عنهم أجمعين .

الـرابـع : أن التاخيـــر فى الاقـرار والشهادة يكون شبهة فى الاثبات فى كل الاحوال فى جرائم السـرقة والزنا والشـرب .

ونستطيع أن نلخص هذه الاقوال الاربعة فى نظريتين :

النظرية الاولى التى تقوم على أساس مذهـب الامـام مالک (٤) والشافعي وأحمد بن حنبل (رضى الله عنهم) أن عقوبة الحد لاتسقط مهما مضى عليها من الزمن دون تقديم الشهادة أمام محكمة القضاء ، أومهما مضى من الوقت دون تنفيذ الحد بعد القضاء بها على المحكوم عليه به ، وأن الجريمة ايضا لاتسقط ، وان مضى عليها مدة طويلة دون الشـروع فى المحاكمة .

ولكن اذا كانت المصالح الملكية والمصالح العامة تقتضى تقرير التقادم شبهة دارئة لعقوبات التعازير ولجرائم التعازير فيمكن للمحاكم أن تسقط جريمة التعزير وعقوبتها وفقـا لهذه المصالح . وأصحاب هذه النظرية يقولون أنه ليس هناک دليل شـرعى يؤيد نظرية التقادم أو يرجع أن الشهادة فى جرائم القصاص والحدود اذا تأخرت وقتاماتؤثر فى اثبات الجريمة وتكون التأخير شبهة دارئة للحد ، لأنه ليس هناک أى نص شـرعى من القرآن والسنة (عدا ماروى عن عمـر) يقتضى اسقاط الجريمة أو العقوبة بالتقادم أو المضى بمدة معلومة . أو اسقاطها بأى حال ، لان عقوبات الحدود حق الله تعالى ، ولايستطيع أو لو الامـر أو المحاكم أو المحبنى عليه أن يعفو هذه العقوبة أو يسقط الجريمة .

أما عقوبات التعازير فتنطبق عليها القواعد الفقهية العامة وفيها مجال كبير لاولى الامـر وللمحاكم للزيادة فى التعزير أو النقص فيها أو للعفو عن الجريمة أو اسقاط عقوبتها كاملة . لان لولى الامر حق

العفو عن الجريمة و العقوبة فى جرائم التعازير . واذا كان لولى الامر أن يعفو عن العقوبة فيسقطها فورا فان له أن يعلق سقوطها على مضى مدة معينة ان رأى فى ذلک ما يحقق مـصلحة عامه أو يدفع مضـرة (٥).

والنظـرية الثانية التى تقوم على أساس تفكير الامـام العبقـرى ابوحنيفة وأصحابه توضح أن التقـادم أو تأخيـر الشهادة فى اثبـات الجريمة ليس لهما أى أثر فى العقوبات المقررة لجرائم القصـاص والدية وفى جريمة القذف .

أما بقية جرائم الحدود أعنى حد الزنا وحد السـرقة وحد الخمر فيؤثر فيها التقادم كما يؤثر فى جميع عقوبات التعازير أيضا .

والتقادم غير مانع من حقوق العباد ، ولذلک لايمنع حد القذف لما فيه من حق العبد ، وهو دفع العارعنه ، ولان الدعوى فيه شـرط فيحمل تأخير الشهود فى أداء الشهادة على انعـدام الدعوى (٦).

أما زفر من فقهاء الحنفية فانه لايؤيد هذه النظرية ويرى رأى الائمة الثلاثة ـ الامام مالک والامام الشافعى والامام أحمد بن حنبل .

يقول الامام الكاسانى ان من شـرائط البينة القائمة على الحد عدم التقادم وانه شـرط فى حد الزنا والسـرقة وشـرب الخمر ،وليس بشـرط فى حد القذف . والفرق أن الشاهد اذاعاين الجريمة فهو مخير بين أداء الشهادة حسبة لله تعالى ، لقوله عزوجل : وأقيموا الشهادة لله ، وبين التستر على أخيه المسلم ، لقوله عليه الصلوة والسـلام : من ستـر على أخيه المسلم ستر الله عليه فى الآخرة ، فلما لم يشهد على فور المعانية حتى تقادم العهد دل ذلک على اختيار جهة الستر ، فاذا شهد بعد ذلک دل على أن الضغينة حملته على ذلک فلا تقبل شهادته لما روى عن سيدنا عمـر رضى الله عنه أنه قال : أيمـا قـوم شـهـــدوا

على حد لم يشهدوا عند حضرته فانما شهدوا عن ضغن ولا شهادة لهم . ولم ينقل أنه أنكر عليه منكر فيكون اجماعا؛ فدل قول سيدنا عمر رضي الله عنه على أن مثل هذه الشهادة شهادة ضغينة ، وأنها غير مقبولة ، ولان التأخير والحالة هذه يورث تهمة ولا شهادة للمتهم على لسان رسول الله صلى لله عليه وسلم ، بخلاف حد القذف ، لان التأخير ثمة لايدل على الضغينة والتهمة ، لان الدعوى هناك شـرط ، فاحتمل أن التأخير كان لتأخير الدعوى من المدعى ، والدعوى ليست بشـرط فى الحدود الثلاثة فكان التأخير لماقلنا ،... ثم التقادم انما يمنع قبول الشهادة فى الحدود الثلاثة اذا كان التقادم فى التأخير من غير عذر ظاهر ، فأما اذا كان لعذر ظاهر بأن كان المشهود عليه فى موضع ليس فيه حاكم ، فحمل الى بلد فيه حاكم ، فشهدوا عليه ، جازت شهادتهم ، وان تأخرت ، لأن هذا موضع العذر فلا يكون التقادم فيه مانعا (٧)

وقد أوضح نظرية التقادم مع أدلتها بشى من البسط والتفصيل فقيد العلم والاسـلام الاستاذ الامام محمد أبـو زهـرة . وقـال ان القـول باسقاط الشهادة بسبب تأخيرها أمام محكمة القضاء تعتبر شبهة دارئة للحد ولكن لاتعتبر تأخير الاقـرار شبهة .

ودليل هذا القول يقوم على شطـرين ، شطـر يعتبر تأخير الشهادة أمام محكمة القضاء ومضى المدة دون أدائها شبهة دارئة للحد ، وشطـر يفرق بين الشهادة والاقـرار .

حجة الشطـر الاول : أن الله سبحانه وتعالـى أمـر عبـاده بأداء الشهادة ، فقـال : وأقيمـوا الشهادة لله ، واستشهدواشهيديـن من رجالكم ، فأشهدوا عليهن اربعة منكم . وستر المسلم أيضا مطلوب لان

الله سبحانه وتعالى لايحب أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ولان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : من ستر على مسلم ستر الله تعالى عليه فى الدنيا والآخرة .

فالشاهد متردد بين امرين : أن يؤدى الشهادة رفعا للفساد واقامة الفضيلة وتنفيذ حدود الله ، وبين أن يستر على مسلم ، فعليه أن يوازن بين أكثر الواجبين نفعا: أداء الشهادة أم الستر ، فان الشاهد يكون مخير بين هذين الامرين ، وهو أمين على حق الله تعالى وحق المجتمع، أن يقدم الشهادة أمام القضاء يحمى المجتمع من شر الجانى الآثم ، وأن يستتر على عثرة المسلم .

والواجب أن يختار بين هذين الامرين فورا ، فان تأخر مدة لم يكن فيها عذر ولم يكن هناك حارج مادى أو معنوى فى سبيل تقديم الشهادة كان تقديم الشهادة بعد مضى مدة طويلة يعتبر مظنة اثارة العداوة أو حقد طارئ . ولايعتبر شهادة الظنين فى الاسلام ، كما قال الرسول عليه الصلوة والتسليم . فان سكوته عن أداء الشهادة قديجعله متهما . وقد صرح عمر رضى الله عنه بذلك فيما رواه الامام محمد عنه : « أيما شهود شهدوا على حد لم يشهدوا عند حضرته فانما شهدوا على ضغن فلا شهادة لهم » .

لاشك أن السكوت عن الشهادة لايخلو من مظنة ضغن أو فسق ، وهذه المظنة كافية لايجاد شبهة فى اثبات الجريمة التى تندرئ بها الحدود .

والمظنة فى تأخير الشهادة ظاهرة . أما الفسق فلقوله تعالى : لاتكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه ، فيكون الشاهد فاسقا فكتمانه الشهادة .

وبهذا يتقرر أن حدود السرقة والزنا والشرب يسقطها تأخير الشهادة ، أما الاقرار فتثبت به جرائم الحدود ، مهما مضى على الاقرار زمان ، ولايضر التأخير فيه شيئا لانه لايوجد فى الاقرار مظنة ضغينة ، لان الانسان لايعدو نفسه ، لاسيما اذا كان الاقرار يثبت جريمة ذا عقوبة قاسية .

وقال محمد بن الحسن : ان التأخير فى الاقرار فى جريمة الشرب يؤثر فى اثبات الجريمة ، ولايقبل هذا الاقرار ، لان الصحابة اجتمعوا على حد شرب الخمر اذا كانت رائحة الخمر تنبعث من فم الشارب ، لان عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) اشترط لاقامة الحد أن يؤتى بالشارب وأثر الخمر لايزال قائما ولاشك أن التاخير فى الاقرار فى جريمة الشرب يذهب بكل أثر للخمر فى عقله وجسمه (٨).

ومن المناسب هنا أن نبين رأى الفقيه القاضى ابن أبى ليلى وهو يرى أن التأخير فى اثبات الجريمة ومضى المدة على اتيان الشهادة على الجريمة والاقرار بها يسقط الحدود ، لان هذه العقوبات القاسية قد شرعت فى الاسلام للانزجار والردع . وهذا المقصود يحصل عند وقوع الجريمة على الفور ، ولايحصل هذا المطلوب بالتأخير فى الشهادة والاقرار ، وانه من الممكن أن يتوب الجانى ويقر على نفسه لتطهير قلبه من الذنوب ويتوب الى الله توبة نصوحا . ولهذا القول مكانة من الفقه ، لان الفقهاء قرروا أن التوبة مانعة من اقامة الحد (٩)

وكل ما بيناه حتى الآن كان نوعا من التقادم الذى يظهر من طريق تأخير الاثبات لجريمة الحد ، أما نوع التقادم الذى يظهر من طريق تأخير تنفيذ عقوبة الحد بعد اثباتها فيقول الامام الاعظم أبو حنيفة

وصاحباه أبو يوسف ومحمد (رضى الله تعالى عنهم أجمعين) ان التأخير فى نفاذ الحد على المحكوم عليه يجعل تقادما مانعا من اقامة الحد .

وقال ابن الهمام :„ ثم التقادم كما يمنع قبول الشهادة فى الابتداء يمنع الاقامة بعد القضاء خلافا لزفر ، حتى لوهرب بعد ماضرب بعض الحد ثم أخذ بعد ما تقادم الزمان لايقام عليه الحد ، وقول زفر هو قول الائمة الثلاثة „ (١٠).

اختلفت آراء الفقهاء الحنفيه فى تعيين مدة التقادم ، فقد ذكر فى الجامع الصغير أن مدة التقادم ستة شهور ، وروى عن محمد أيضا تقديره بشهر ، وهو مروى عن أبى حنيفة وأبى يوسف أيضا . وذكر قاضى خان أن الشهر وما فوقه متقادم .

والراجح عن أبى حنيفة أنه لم يقدر مدة معينة للتقادم وأنه فوض ذلك الى تقدير القاضى فى كل عصر . وقدروى عن أبى يوسف رحمه الله أنه قال : كان أبوحنيفة رحمه الله لايوقت فى التقادم شيئا وجهدنا به أن يوقت فأبى (١١).

وقد احتج أبو حنيفة فى عدم التقدير لمدة التقادم بأن التأخير قد يكون لعذر والاعذار فى اقتضاء التأخير مختلفة ، فتعذر التوقيت فيه ، وفوض الى اجتهاد القاضى فيما يعد ابطاءًا ومالا يعد ذلك (١٢) ويتعين مدة التقادم فى شرب الخمر بزوال رائحتها (١٣).

وفى الاختتام أود أن ألخص ماورد فى هذا المقال المتواضع من النقاط الهامة :

١- ليس هناك نص قاطع من الكتاب التى يوضح كون تأخير الاثبات فى جريمة الحد أو جريمة التعزير شبهة دارئة للحد والتعزير

عدا ماروى عن عمـر رضى الله تعالى عنه من قوله : « أيما شهود شهدوا بحد لم يشهدوا بحضرته فانما هم شهود ضغن » . ولكن هذا الاثر مرسل مروى من الحسن ، ومـراسيل الحسن ليست بالقوية (١٤).

٢ـ ان جمهور الفقهاء مع اختلافهم فى اثر التقادم على جرائم الحدود وعقوباتها متفقون على أن التقادم فى التعزير يجوزأن يسقط الجريمة وأن يسقط العقوبة اذا رأتـه المحكمة وفقا للمصالح العامة .

٣ـ ان التقادم أو التأخير فى اثبات الجريمة لايقسط الجريمة أو عقـوبتها ابتـداءًا بل يكون شبهة فى الاثبـات . والحـدود تنـدرى بالشبهات ، يعنى ان كان هناك تأخير فى الاثبات فى بعض الجرائم والقاضى لايتصور هذا التأخيـر من ضغينة الشاهـد ، ولايتصـور هذا التأخير شبهة فى اثبات الجريمة ، فانه من الممكن أن تمضـى المحكمة فى القضاء وتحكم على الجانى مهما كان الحكم . يعنى ان قبـول التقادم شبهة دارئة للحد وليس بلازم على المحكمة .

٤ـ ان التأخير الذى يحدث شبهة فى الاثبات يشترط أن يكون بغير عذر كمرض الشاهد أو كونه فى سفـر طويل أو كونه مقيما فى جهة نائية من محكمة القضاء ، أو كونه تحت سطوة جابرة من جانب الجانى أو غير ذلك من الاعذار التى تقررعنها المحكمة أنها أعذار صالحة للقبول .

٥ـ التقادم ليس له أثر فى حد القذف ، لان فيه حق العبد عند جمهور الفقها ، وقال الشافعى انه حق خالص للعبد ، وان التأخير فى حقوق العباد لايسقط الدعوى .

والشـريعة الاسـلامية قد لاحظت هذه القاعدة فى جريمة السـرقة أيضا ، يعنى اذا اندرأ حد السـرقة بسبب نوع الشبهة فلا يسقط بهذه

الشبهة أداء المال الذى أخذه السارق ، بل يجب عليه رد المال .

وفى حد القذف لاينفصل حق العبد عن حق الله تعالى ، ولذلك تقبل الشهادة والاقرار مع التأخير أيضا ، لان من حق العبد سلامة عرضه ونفى التهمة عن نفسه ، وذلك لايكون الا بالعقاب الذى قرره الشارع الحكيم (١٥).

٦ـ يمكن للسلطات التشريعية والمحاكم العدليةأن تقرر مدة التقادم فى الحدود والتعزيرات التى يتصور أداء الشهادة بعدها . وينبغى ان تكون هذه المدة التى تقررها المحاكم والسلطات متناسبة من حيث الطول والقصر مع الجريمة ومع العقوبة . ويعتبر انقضاء هذه المدة تقادما وتأخيرا فى الدعوى واثبات الجريمة . ومن الممكن أيضا أن لاتعين هذه المدة وتنظر المحكمة القضائية فى كل قضية جنائية تقادم عهدها وتقدر هل وقع فيها أى تأخير مؤثر فى الاثبات أم لا (١٦).

وفى الختام أريد أن أشير الى أمر هام ، وهو أن نظرية التقادم فى الشريعة الاسلامية أشمل وأجمع وأوسع من القانون الوضع الذى يحدد مدة الدعاوى (Law of limitations) ويقرر أن بعد انقضاء هذه المدة المعينه لا يسمح للمدعى أن يرفع الدعوى أمام المحكمة فان نظرية التقادم أوضح بكثير من ذلك .

●●●

المـــــــراجـــــع

(١) الدكتور عبدالعزيز عامر : التعزير فى الشـريعة الاسـلامية ، ص ٥٢٠ ، طبع مصر .

(٢) الكاسـانى : بدائع الصانع فى ترتيب الشرائع ، ج ٧ ،ص ٤٦ ، طبع مصر .

(٣) الامام ابن الهمام ، فتح القدير ، ح ٤ ص ١٦٢ ، طبع مصـر .

(٤) تقطع اليد عند مالك فى جريمة السرقة وان تقادم العهد وتأخرت شهادتها . الامام مالك ـ المدونة الكبرى ، ج ١٦ ، ص ٨٦ ، طبع مصـر .

(٥) التشريع الجنائى الاسـلامى ، لعبد القادر عودة ، ج ١ ،ص ٧٧٨ ، طبع مصـر .

(٦) اللباب للميدانى ، ج ٣ ، ص ٥٨ ، حاشية ابن عابدين ، ج ٣ ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ البدائع للكاسانى، ج ٧ ، ص ٤٦ ، ٤٧ عبدالعزيز العامر : التعزير فى الشـريعة الاسـلامية .

(٧) الكاسانى : كتاب بدائع الصانع فى ترتيب الشرائع ج ٧ ، ص ٤٦ ـ ٤٧ مصـر .

(٨) بدائع الصانع ، ج ٧ ، ص ٤٧ ، ٥١ ، ٦١ ، مصـر فتح القـدير ، ج ٤٢ ، ص ١١٢ ، ١٦٢ ، مصر، الـزيلعى ، تبيين الحقائق ، ح ٣ ، ص ١٨٨ ، وما بعدها ابوزهرة ، العقوبة فى الفقه الاسـلامى ، ص ٤٤ وما بعدها ، مصـر .

(٩) ابوزهرة ، العقوبة فى الفقه الاسـلامى ، ص ٤٨ .

(١٠) كمال الدين بن الهمام ، فتح القدير ، ج ٤ ، ص ١٦٤ ، مصـر .

(١١) أحمد فتحى بهنسى . العقوبة فى الفقه الاسـلامى ، ص ٢٢٣ ، مصـر .

(١٢) التعزير فى الشـريعة الاسلامية ، ص ٥٢٥ ـ البدائع ج ٧ ، ص ٤٧ .

(١٣) أحمد فتحى بهنسى : العقوبة فى الفقه الاسـلامى ص ٢٢٣ ـ مصر .

(١٤) ابويعـلى : الاحكام السلطانية ، ص ٢٤٨

(١٥) أبوزهره . الجريمة والعقوبة فى الفقه الاسـلامى ص ٥٤ .

(١٦) التعـزير فى الشـريعة الاسـلامية ، ص ٥٢٧ .

هـــــواجـــــع

مهـاغريب

ربـاه يا واهـب الانسـان دنيـــاه
جئنـاک نـرجـو الهـدى والعفـو ربـاه
كيف السبيل الى المنجـاة يا صمـــدا
وآخر الليل للـمكلـوم أشـــــقاه
يارب علمتنا أن التقـى وهــــج
لايوشـک المرء فی الظلمـــــاء الاه
وأن يسـرک صحوفی ضمـــائـرنـــا
وأنـک المرتجـی والخـلد والجـــــاه
وأنـک العالـم الأسـرار ، أيقنهـــــا
وأنـک الـواحـد المعبـــــود والله
وأنـک الـرب رب العـزة أنتلقـــــت
فی العـرش نـورا ، تعـالـی فی مزاياه
وأنـک الواحـد البـاقـی فـــــلا أزل
الا ضـياؤک يـــوم الحشــــر نلقـــاه

✡✡✡

يارب علمتنـا دينـــا يـــوحـــدنـــا
فـكل حی بما حـــاكـــت نــــواياه

وخير حى من الايمان مشـــر به
وخيـــرنا من زكت فيه ســجاياه
وأن أكرم خـلق الله أصـدقهم
وجوهـر المؤمن الصديق تقـواه
يارب عـلمتنا أن التقـى ورع
وأن ايمـاننا فى القـلب مثواه
وأن صلب التقى عقـل نميـزبـه
عظيـم خيـرك من شـر أمناه
علمتنا فنسـينا ما أمـرت بـه
وبئس عبد من الشـيطان أنسـاه
نـاءت خطانا بوزر العيش فا حتملت
من الـذنوب غثاء ساء مرعـاه
صرنا على ديننا عيبا ومشـأمـة
ويلاه من ذكـوهـا يارب ...ويلاه
هذى الخطايا جبال كيـف نحملها ؟
ما أتعس المرء أن تربو خـطاياه
رباه رباه هذا الجـرح فى كبدى
نزيفـه الصـبر والآلام والاه
ماذا أقول ؟ وسـرى أنت تعلمـه
وأوجـع السريا ربـاه أخفـاه
لـى ألف ألـف حديث عن هواجعنا
وأنت وحـدك تـدرى مرفحـواه

تناسلت فى دمـى الأوصــاب واشتعلت
طـى الضلوع شجون من حميـاه
فليس من لجة للنور ترفعنى
وليس من شاطئ يدنى ذراعـاه
كأنما الريح تدنينى وتبعدنى
من الضياء فلا أجلو مرايـاه

★ ★ ★

اسائل النفس والتسآل يسحقنى
أيقهـر الليل الا من تحـداه؟
أيبصر النور قلب شفه سقم
ويدرك الحق من ابليس أغـواه؟
أيبلغ المجد قوم سادهم شغب
هـذا جحود ،وذاك المال أعماه؟
أيبلغ المجد قوم بينهم حجب
من الظلام ، وبغض جاز أقصاه؟
أنطلب العزوالاحقاد تأكلنا
والمسلم الحق من للخير مسعاه
أنجعل الحقد والبغضاء ديدننا
والمسلم الحق هذ ان عـدواه
أمسلم كاذب كلاويا عجبى
من مسلم أصبح البهتان مأواه؟
أمسلم من له من دون خالقه
أرباب عز وأما الله فالجـاه؟

أمســلم من اذا ناداه بـــــارئـه
الـى الجهــاد تــولى وهـو ينعـــاه؟
أمسـلم من اذا وافــاه مبتئـــــس
أضنـاه زجــرا وتعــذيبــا و آذاه؟

★ ★ ★ ★

مــاذا أقـول وحزنـى فيـــض ملحمــة
أواه مما بصـــدرى ألـــــــف أواه
يارب عـــلمتنا معنــى الاخــاء فمــا
بالمســلم الحـــق من ساءت نواياه
ألســت يـارب مـوصـيه بـأمتـــــه
خيــرا ، فان مسـلم نـاداه ،لبـاه؟
أمـا جعـلت نبيـا للهــدى بشــــرا
مـا عــابـــرفاء ، الافيـــك آخـاه
سـميتـه الصــادق المحمـــود فافتخـرت
بـه الشــمائل يحيــاهاوتحيــاه
هـو الأمـــين وخيـــر المسـلمين همو
مـن عــاهــدوا الله واسـتوفوا وصـاياه

★ ★ ★ ★

ونحـن يـاربنـا ضـلت ســـفينتنـا
وهـال أربـابهـــا قيـــس وعـــزاه
مثــل الـذى اسـتوقـد النيـران فى غلس
واذ أضـاءت ،أتـى ليـــل ففشـــاه
منـاة والـلات والعـــزى له وثـــن
وكل شئى ســـواها ليس يخشـــاه

ونحـن ركبانهـا جبـن يعاضـده
جهـل ،فما واحـد يشتف مسراه
كل تبـرأ مـن ايمـانـه فمضـى
كهائـم فـى الـدجى يشدو لليـلاه
فـلا وفـاء بعهـد لا ولاعمـل
ؤاك يخـلد بعد الموت ذكـراه
تفـاقـم الشـرحتـى لا خصـوم له
فما يفـكر مخلـوق بـأخـراه
هـذا يسـبح باسـم المـال يعبـده
وذاك باسم الحجـى قـدسـاء عقبـاه
يهيم بالـزيـف لا عـلما ومعـرفـة
لكنمـا بهـرج يغـرى ضحـايـاه
سـطحيـة أعمت الاجيـال فانطلقـت
سـكرى تجر فـلول الخـزى جـراه

* * * *

اين العفاف يصـون النفس عـزتها
أين الحيـاء واين الفضـل نلقـاه
انى لأعجب كيف البعض تبهـرهـم
أضـواء مـن نظـروا للمرء دنيـاه
ألا يـرون الى القـرآن يلهمهـم
ان الحـداثـة فى التمـدين مغـزاه
هو الأصـول التى تبنـى بحكمتهـا
خيـر الفـروع فـكيف اليـوم ننسـاه؟

هـو المنظـم للأخـلاق بينتهـا
ونعـم مـرء الـه العـرش ربـاه

★ ★ ★ ★

قـد كان للمسلم الصـديق تجـربـة
عبـر العصـور أضاءت مـن حنايـاه
فعـلم الناس أن الصدق مـأثـرة
والحـق نـور بعـين العـلم محيـاه
قـد صير الـفكر جنـات مفتحـة
والخـلق فـى حضنهـا ظل وأمـواه
فتـح تـأتى بـأذن الله فانبجسـت
منـه الحضـارة ،تـروى مـن عطايـاه
واليـوم مـاذا جـرى ؟ ربـاه قـل لهـم
ويـلاه مـما بقومـى ألـف ويـلاه

★ ★ ★ ★

سئمت يـارب تشـتيتًـا وتفـرقـةً
وظلمـةً تسـلب الانسـان معنـاه
سئمـت قـولا بـلا فعـل يصـدقـه
ودعـوةً لجهـاد مـا أطعنـاه
كأنمـا الظـلم طـوفان ألـم بنـا
فمـن رأى الحـق أراده و واراه
هـى الجهـالـة قـد أعـمت بصائـرنا
ومعظـم الخـلق فى أحـلاكها تاهوا
والجـاهلية أمسـت طوع همتنـا
فما أتـت باطـلا الا أتينـاه

بعض يكيـد لبعض دونمـا حـــــرج
كأنمـا حبـه ، للظـلمِ أعمـــاه
هـذا يقتـل قـومـا دونمـا ســـبب
وذاک يثبـــت بالبطــلان دعـــواه
والقــدس قابعـة فـى ظـل غاصبهـــا
تبـكى الجـهـــاد وقـد شلـت مطايـاه
تبـكى المـذلة ،تبكى جـرح مقـدسـها
كالنار تـرفض اطفـاءً او تـأبـــاه
خنســاء تشــكو لصخـرذل علتهـــا
وأين صخــر غـداة الـروع تلقـــاه
وأين صخــر مـن الخـذلان ينقـذهـــا
وصخـرهــا اليـــوم سيف كل حـداه ؟
وأين أبنـاؤهـا يـرعـون حـــرمتهـا
ويسـفكون هـــوانا كـم شــربنـاه
لاشئـى ،لاشـئى غيـر القهـو فانتحـبى
أيـاخنـــاس عـلى عـز أضعـــناه
دمـى فـداؤک عنـد البيت أســفحـــه
لاعـــاش مـن يـرتضـى فىٰ الذل محياه
لاعـاش قـوم اذا مـا الـذل دنســـهم
فـلم يثـورواعـلى عـار أبينـــاه
لاعـاش قـوم أذلـوا فـى ديــــارهم
ولـم يغـيروا عـلى الباغـى وطغـواه

ها قـد جمعنا ليـوم الفصـل عـدتنـــا
يـارب ، فـاحـذ الهـدى ، وابعث سراياه
تأبى الـكرامـة فـى الاسـلام مسـكنـة
فشـمخـة الحـر فى الاسـلام تفــواه
وشـمخـة الحـر حـق يستعــزبـه
ومـن رعـى الحـق فـى الاسـلام ، أعـلاه
مـن يطلب المجـد لا يـحصـى خسائـره
وأثمـن المجـد أعـلاه واغــلاه
فجـاهـدوا فى سبيل الحـق فى أنـف
فالسـيف أصـدق مـن وعـد سنمنـاه
ان تنصـروا الله ينصـركـم فلا تهنــوا
هيهـات يـزهـق حـق صـانـه الله

مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية
باللغة العربية

الرسائل القشيريه للامام أبى القاسم القشيرى

تحقيق : الدكتور بير محمد حسن (مع الترجمة الاردية)

⁕

معدن الجواهر فى تاريخ بصرة والجزائر للشيخ نعمان

تحقيق : البحاثة الدكتور محمد حميدالله

⁕

الكندى و آراؤه الفلسفية

للدكتور عبدالرحمن شاه ولى

⁕

مقصود المؤمنين لبايزيد الانصارى

تحقيق : الدكتور ميرولى خان

⁕

كتاب الانفعال للامام الصغانى

تحقيق : الأستاذ أحمد خان

★ ★ ★ ★ ★

AL-DIRĀSĀT AL-ISLĀMIYYA

ARABIC JOURNAL

OF THE

ISLAMIC RESEARCH INSTITUTE, ISLAMABAD, PAKISTAN

Vol. XVII No. 3 **May-June 1982**

* * * * *

	Inside Pakistan	Outside Pakistan	
Annual Subscription	Rs. 30.00	$15.00 or	£7.50
Single Copy	Rs 6.00	$3.00	£1.50

(Rates applicable from 1st July 1982)

* * * * *

All business correspondence
should be addressed to :

The Circulation Manager

Islamic Research Institute

ISLAMIC UNIVERSITY
ISLAMABAD - PAKISTAN

Printed at Islamic Research Institute Press,
Published by Muhammad Sami'ullah for the Islamic Research Institute, Islamabad

مجلة اسلامية علمية

تصدر بعد كل شهرين

وتبحث فى الدين والثقافة والتاريخ والآداب

يوليو - أغسطس ١٩٨٢م　　رمضان - شوال ١٤٠٢هـ

مجمع البحوث الاسلامية

الجامعة الاسلامية

اسلام آباد - الباكستان

الدراسات الاسلامية

مجلة مجمع البحوث الاسلامية

الجامعة الاسلامية

اسلام آباد ـ الباكستان

يوليو ـ أغسطس ١٩٨٢ م   رمضان ـ شوال ١٤٠٢ هـ

العدد الرابع   المجلد السابع عشر

هيئة التحـــــريـــــر

المحتـــوى

ضيوف العدد

***

*** الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ***

رئيس قسم الفقه الاسلامى بكلية الشريعة ، جامعة دمشق ، وصاحب مؤلفات عديدة في الفقه والشريعة والفكر الاسلامية ، أحد كبار الدعاة .

***

*** الأستاذ محمد سميع الله ***

أحد الكتاب المعروفين والدعاة البارزين فى باكستان ، ووكيل مجمع البحوث الاسلامية ، وطابع مجلتكم المتواضعة

***

كلمـــة العـــــدد

ان أهم ميزة تمتاز بها الدعوة الاسـلامية انها انتشـرت بالاقناع والافهام ، ولم تنتشـر بالترغيبات المادية ، ولم يكن فى انتشارها دور لاجبار الحكومات ولا لاكراه السـلاطين والملوک . ولاشک أن هذه الميزة سابقة لاتجارى ، وان هذا الفضل حمى لا يطأه سوى الاسـلام من الملل والنحل . وأنى يدرک الظالع شأو الضليع .

وأما النظريات والملل والنحل الأخرى فقد انتشرت وراجت اما تحت تأثير ترغيبات مادية ، أو باجبار الحكام واكراه الملوک . فتدين النظرية الشيوعية لانتشارها الى تأثير الحكومات الشيوعية ونفوذها فى سياسات العالم وانظمة البلاد . ولم يتمكن التبشير المسيحى من التقدم والازدهار الا من أجل مساعدة الحكومات المسيحية وتعاونها . ولم تنتشر الدعوة العلمانية الاتحت تأثير الثقـافة الاوربية السائـدة فى العالم والحضارة الغربية المسيطرة على الانسان المعاصر . ولم يتجه الانسان المعاصر الى الانحراف الفكرى والالحاد الثقافى الا بجهود الحكومات والقوى الكبيرة العالمية .

وانظر على العكس من ذلک الى النظرية الاسـلامية ، فنجد ها لم

تنتشر فى يوم من الأيام الا بالدعوة والاقناع والتبليغ والافهام . ويعلم كل مطلع خبير أن تاريخ الاسلام الزاهر لشاهد عدل وصدق على هذه الحقيقة . فمن ذاالذى لايعرف حياة الصحابة وكيف تحملوا الشدائد والمشاق والمتاعب فى سبيل دعوة الاسلام وكيف تهافت الصحابة على دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم تهافت العطشان على الماء ؟ ومن ذا الذى لايعرف أن الصحابة رضى الله عنهم ضحوا بنفسهم ونفيسهم من أجل الاسلام ؟ هل كان هذا كله من أجل الترغيبات المادية أم كان منبعه الايمان الصافى الواثق والاقتناع التام بالمبادئ الاسلامية ؟ هل جاهدوا بأموالهم وانفسهم لحفظ الانفس وكسب الاموال ؟ أم كان جهادهم من أجل الحب فى الله والبغض فى الله والتفانى فى سبيله والتبتل اليه تبتيلا كاملا ؟ بل هم رجال صدقوا ما عاهدوالله عليه .

* * * * *

ولعل أحسن مثال وأروع نظير لقوة الاسلام الروحية وفعاليته الاقناعية وسرعة تغلغله وسريانه فى روح الانسان و أعضاءه وجوارحه هو دخول التتار فى دين الله أفواجا ، وتحولهم من ألدّ أعداء الاسلام الى المجاهدين فى سبيله .

كان قوم التتار بادئ ذى بدء من أشد أعداء الاسلام وألد خصومه، واجتاحوا العالم الاسلامى كالسيل المتدفق وجاءوا عليه كالجراد لايبقى ولايذر ، فاطاحوا بالحكم الاسلامى فى كثير من البلاد ، وقتلوا ملايين المسلمين الابرياء وشردوا الملايين ، وكانت قلوبهم لاتعرف اللين ، ولم تأخذهم بالمؤمنين رأفة ولم تكن فى صدورهم للمسلمين رحمة . وهم الذين زعزعوا الخلافة الاسلامية فى بغداد ، وهم الذين

مزقوا وحدة الاسلام وجعلوا الأمة عروة عروة . وضاعت على أيديهم آلاف المكتبات وملايين الكتب ، حتى اسودت مياه الآبار والانهار .

وهنا وقعت معجزة الاسلام ، فسرعان ماتم انتصارهم العسكرى ضد العالم الاسلامى بدأ انهزامهم الفكرى واستسلامهم الثقافى وتضعضعهم الحضارى أمام المسلمين ، ولم يستطيعوا القيام أمام الفكر الاسلامى ، ولم يقدروا على مقاومة الثقافة الاسلامية ولم تكن حضارتهم توازى حضارة الاسلام ، فاعترفوا بهزيمتهم أمام هذه القوى الروحية والثقافية ودخلوا فى دين الله أفواجا ، وأقبلوا على بكرة أبيهم فاع عن الاسلام واستعدوا قضا وقضيضا للذب عن بيضة المسلمين .

ومع أن التاريخ لم يسجل اسماء المجاهدين الكرام البررة الذين لعبوا دورا رائدا فى اقناع التتار بحقانية الاسلام وادخلوهم فى الاسلام ، ولكن الحادث العظيم ان دل على شئ فانما يدل على قوة فكر الاسلام ومنعة ثقافته وتماسك حضارته ، ولعل هذا هو الحادث الوحيد فى تاريخ الاسلام ، بل فى تاريخ البشرية ، أن الذين أوقعوا على غيرهم هزيمة قصماء فى ساحة القتال ونضال السلاح انهزموا فى مضمار الفكر والثقافة ونضال العلم والحضارة

★ ★ ★ ★ ★

وما يوم الشرق الاقصى ببعيد ، فان الاسلام دخل هذه المنطقة بمجرد قوته وفعاليته وحيويته . وهذه المنطقة التى تضم اليوم أكثر من مأتى مليون نسمة من أبناء الاسلام وبناته كانت مسكن الهنود ومأوى البوذيين . وكان يحكم جزر هذه المنطقة الكثيرة وارخبيلاتها العديدة

مئات من الحكام والراجاوات الهنادكة ، وكانت لهم صلات تاريخية وثقافية بالديانه الهندوكية الأم فى الهند ، اذا جاز التعبير . واستمرت السيطرة الهندوكية على هذه البلاد وأهلها وذويها حتى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، ولم يكن للاسلام أى تاثير كبير أو دور ملموس فى حياة أهل هذه المنطقة قبل نهاية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) .

ولاشك أن الدعاة المسلمين الذين بلغوا دعوة الاسلام الى هذه البقعة النائية من أرض الله الواسعة لم تكن لديهم قوة سياسية ، ولم يكونوا يتمتعون بنفوذ عسكرى أو دبلوماسى ، ولم يكن تعضدهم حكومة قوية ، ولايؤيدهم جيش عرمرم . كلا انه لم يكن عندهم شئ من ذلك . بل كل ماقاموا به من الدعوة الى الله قاموا به متوكلين على ربهم ، مستندين الى بساطة الاسلام ، معتمدين على سذاجة رسالته ، واثقين بجزالة انظمته .

وسرعان ما رأى التاريخ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، وأصبحت جزر شرق الهند وملايا جزءا من دارالاسلام ـ ولما تجول الرحالة ابن بطولة فى هذه البلاد فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى رآى أن الاسلام قد انتشر انتشارا كبيرا فى جزر سماطره وملايا ، وتأسست فى مناطقها الساحلية عدة دويلات اسلامية . وهذا الانتشار السلمى التلقائى للاسلام فى هذه البقعة من الارض ان دل على شئ فانما يدل على قوة الاسلام وحيوية رسالته .

★ ★ ★ ★ ★

والتبليغ والارشاد ما نراه اليوم من انتشار دعوة الاسـلام فى بلاد افريقيا وأوربا وأمريكا ـ فان الأحوال هنا غير مساعدة للدعاة المسلميـن ، والاجـواء غيـر موافقة لدعـوة الاسـلام ، والأزمنة بالنسـبة للعيشة الاسـلامية مظلمة حالكة ، والبيئات التى يسكن فيها المسلمون قاتلة فاتكة . ولكن على الرغم من ذلك نرى دعاة الاسـلام يعملون فى بلاد هذه القارات المختلفة ، ويكافحون من أجل دينهم ، يهدون الى الحق وبه يعدلون .

فماهى القوة التى يزداد من أجلها عدد المسلميـن فى افريقيـا الوسطى وافريقيا الجنوبية ؟ ولماذا يتضاعف عدد المسلمين فى بلاد اوربا المختلفة ؟ هل أكرههم أحد على اعتناق الاسـلام ؟ أم هل دخلوا فى الاسـلام لنيل أهدافهم المادية ؟ كلا ، انهم لم يسلموا الا لأنهم رضوا بالله ربا ، وبالاسـلام دينا ، وبمحمد (صلى الله عليه وسلم) رسولا ، واطمئنوا اليه ، واقتنعوا بحقانية الاسـلام وصدق مبادئه وأبدية أحكامه وآخرية شريعتـه .

ان الدعوة الى الله وتبليغ دينه الى كافة البشـر لم يكن فى يوم من الايام بل وفى لحظة من اللحظات عبر التاريخ الاسـلامى الطويل مهنة من المهن يمارسها الناس ويتفرغوا لها مقابل أجر يأخذونه ، بل كانت الدعوة الى الله وتبليغ دينه الى الناس فريضة واجبة على كل مسلم ومسـلمة يقـومون بها أينما كانوا واينما حلوا ، فان الاسـلام لايتصور مسلما لايكون داعية ومؤمنا لايكون مبلغا . ولذلك كان سلوك دعاة الاسـلام مختلفا عن سلوك الدعاة فى سائـر الملل والنحـل . فان

التبشير عند المسيحيين مهنة من المهن يتخذها الطالب ويختارها الشاب لنفسه كما يتخذ الناس مهنا أخرى . وهم لايتفرغون لعمل التبشير الا مقابل أجور ضخمة وتسهيلات رائعة ، ولايقومون بالتبشير الا كما يقوم التاجر بتجارته وصاحب المهنة بمهنته بل الموظف الادارى بوظيفته لاذوق عنده ولاحب لما يقوم به ، فلا يتفانى فى سبيله ولايهيم من أجله ، وليست حياته الفردية والاجتماعية نموذجا لعمله ، ولاتتجلى فى شخصيته النظرية التى يعمل من اجلها ، ولاينعكس فى حياته الهدف التى يقتات منه القوت .

ولذلک لم نر فی التاريخ الاسلامی الطويل أن حكومة من الحكومات الاسلامية خلال هذا التاريخ فتحت معاهد لتربية الدعاة ، ولا حاكما من الحكام المسلمين أسس مجامع لاعداد المبلغين . نعم ، انهم فتحوا معاهد لتربية العلماء ، وأسسوا مجامع لتدريب الأجيال ، وبنوا مدارس لتعليم الاطفال ، وانشأوا زوايا لتزكية النفوس وتطهير الأرواح ، وشادوا مراكز لاعداد المجاهدين وتدريب المقاتلين . وبذلک ربوا جماعات من علماء كانوا دعاة الى الله ، ودربوا أجيالا عملت لنشر الاسلام ، وعلموا أطفالا كرسوا حياتهم لبث رسالة الله وزكوا نفوسا ضحت بنفسها ونفيسها فی سبيل دين الله ، وطهروا ارواحا فدت نفسها لاعلاء كلمة الحق ، وأعدوا مجاهدين جاهدوا فی الله بأموالهم وانفسهم لايخافون فيه لومة لائم ، ودربوا مقاتلين يقاتلون أئمة الكفر ويقاومون أساطين الضلال ويكسرون شوكة الطواغيت .

* * * * *

ان من طبيعة الانسان أن لايبادر الى الاقتناع بنظرية جديدة والايمان

بمبدأ جديد بمجرد سماعه وعلمه ، لأن الانسان العادى لايملك عقلا يدرك به أبعاد هذه النظرية وحكمة هذا المبدأ . فاذا سمع شيئا جديدا يختلف عما كان يسمعه ، أو دعى الى شئ جديد لم يعتده ، أو رآه بديهة ، هابه وكان ردفعله الابتدائى عبارة عن مخالفة عنيفة ، لأنه لايعرفه ، والناس اعداء لما جهلوا . ولكن اذا خالطه معرفة يأنسه ويألفه.

نرى هذه الحقيقة واضحة جلية فى تاريخ انتشار الاسلام فى العهد النبوى . فان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا قومه الى ربه لمدة تنيف على عشر سنين ، وواصل ليله بنهاره يكافح من أجل ارشادهم وهدايتهم الى سواء السبيل . ولكن الذين اقتنعوا بحقانية الاسلام وصدق رسالته وصلاح نظامه وعدل شريعته خلال هذه المدة الطويلة لايبلغ عددهم ألفا ــ رجالا ونساءا ، أطفالا وشيوخا ــ وأما الاغلبية الغالبة من الناس فبقوا على كفرهم وأصروا واستكبروا ، استكبارا .

ولكن تغيرت هذه الحالة بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة ، حيث شكل مجتمعا اسلاميا فى صورته الحقيقية ، وأرسى دعائم دولة اسلامية ، وبدأ يطبق نظام الاسلام ويعلى شريعته الغراء ، فلما رأوا الحقيقة بأم أعينهم وشاهدوا النظام الاسلامى فى صورته العملية وعاشوا فى المجتمع الاسلامى تغير سلوكهم وبادروا الى قبول هذه الدعوة وبدأوا يدخلون فى دين الله أفواجا حتى بلغ عدد من دخل الاسلام قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مليون نسمة ، وتوسعت ثغور الدولة الاسلامية الى آفاق الجزيرة العربية بل والى خارجها ، وانتشرت الدعوة الاسلامية خارج البلاد

وبلغت الى الهند وافريقيا وبلاد أوربا و غيرها من البلاد النائية . فرب حال أفصح من مائة لسان .

فاذا أراد المسلمون أن يقوموا بواجب الدعوة الاسلامية حق قيام فيجب عليهم قبل كل شئ أن يشكلوا مجتمعهم على قواعد اسلامية صالحة ، وأن يرسوا دعائم دولتهم على أسس اسلامية صحيحة ، وأن يطبقوا النظام الاسلامى بصورته الحقيقية ، وأن يعملوا لاعلاء شريعة الاسلام سلوكا ومنهجا ونظاما للحياة . هذا هو السبيل الوحيد للدعوة الى الاسلام ، وهو أسهل طريق وأسرعه وانفعه ، وأجدى من الغيث فى أوانه .

محمود أحمد غازى

علـى ضـوء منعطف قـرن جـديد
خطوط عريضة فى منهج الدعوة الى الاسلام

د . محمد سعيد رمضان البوطى

نحمد الله ونستعينه ونستهديه ، ونستلهمـه الصـواب فى الفـكر والقول وبعد : لعل سائر مظاهـر التخلف التـى رانـت علـى العالـم الاسـلامى ، خـلال النصف الأول من هذا القرن الذى نشهد اليوم اختفاءه فى مغرب التاريخ ، تتلاقى تحت سلطان عاملين اثنين :

أولهما : الانبهار الذى غُشيت له أعين الأمة الاسـلامية ، من مظهر النهضة الأوربية التي تحققت فى أعقاب تحرر أوربا من سلطان الكنيسة ، وانطلاقها فى ميادين البحث والعلم ، فقد أورث المسلمين هذا الانبهار شعورا بالنقص، وريبة فى حقيقة الدين ، ورغبة فى أن يعامل الاسـلام هنا كما عوملت النصـرانية هناك .

ثانيهما : بقايا الثورة الهائجة ، على قيود الكنيسة وآثارها ، فى نفوس الغربيين عموما . وهو الأمر الذى جعلهم يتبرمون بحقيقة الدين ، ويلوذون منه بالنعيم المحسوس والحياة المادية ، جامدين كل ماقـد يلوح للذهن أو الخيال وراءهما .

وقد أورث الغربيين ذلك التبرم بجواهر الدين وهذا الاقبال على قول المادة ونعيمها نظرة ازدراء الى الاسـلام وأهله ، ثم راحوا يقومون سائر مبادئه وأحكامه من خلال هذه النظرة ، فكم من مبادى شوهوها ،

وكم من قيم وأحكام زيفوها ، وكم من حقائق تاريخية نكسوها ... .

وكان طبيعيا أن تنعكس نظرتهم هذه الى الاسلام ، على نفوس المسلمين آنذاك بالتأثر أولا ثم القبول والرضا بتلك النظرة ثانيا ، وعذرهم ذلك الانبهار الذى كانت تعانى منه أبصارهم ،ومشاعر النقص التى كانت تهيمن على نفوسهم فازدادوا ريبة بالدين وأحكامه ، وتطلعا الى حركة اصلاحية تسرى الى جملة أسسه وبنيانه .

ولقد كان من آثار هذا الانعكاس أن استشرى المد الاستعمارى فى أقطار كثيرة من العالم العربى والاسلامى . وأخذ كثير من المسلمين يتململون من التبعية الحقيقية للاسلام ونظامه . واتخذ هذا التململ أشكالا وتعابير مختلفة . فاتخذ شكل المجابهة الصريحة للاسلام جملة وتفصيلا عند كثير من الناس ، كما اتخذ شكل القبول له ظاهرا واستبطان الكفر به حقيقة عند آخرين ، أما عند فئة ثالثة فقد اتخذ مظهر الرغبة فى اصلاحه والاهتمام بتطويره ، تأسيا بما فعله الغرب بنصرانيته فى بلاده .

هذه الفئات الثلاث من المسلمين ظلت تسير على خطوط مستقله متوازية ردحا من الزمن . ولكن ما ان تبين أن شعار الرغبة فى الاصلاح والتطوير هو الذى بدأ يروج ويتغلب ، حتى انضوى الجميع تحت لوائه . الا أنهم لم يلتقوا تحت هذا الشعار ، الا فى ظاهر الأمر ، فلا جرم أن كلا منهم أسر من وراء ذلك الفكر الذى يتبناه ، والهدف الذى يسمى اليه .

وتحت هذا الشعار أصاب الاسلام كثير من التشويه والتغيير ، بدءا من حقائقه الاعتقادية الى الكثير من أحكامه العملية وآدابه السلوكية ،

الى التشكيک بصـلاحيته للحكم واتساعه لمقومات الدولة .

تلک بارقة سـريعة من صورة الواقع الاسـلامى الذى نما واشتد فى ظل أحداث وظـروف عالمية ، لامجال للخوض فى تفصيلاتها فى هذا المقام .

ولكن فما الذى طـرأ على ذلک الواقع من بعد ؟

لقد طرأ امران رئيسيان أعقبتهما اتجاهات ايجابية جديدة لم تكن فى الحسبان . أما الأمران الرئيسيان فهما .

١ـ زوال الانبهار الذى كان قد غشى على أبصار الأمة الاسـلامية فى اعقاب النهضة الغربية . فقد عادت مقاييس الضياء متسقة مع طاقة الابصار . وأخذ الشراب يتميز عن السراب . وتجلت فوارق مابين الحق والباطل ، والاصيل والدخيل .

٢ـ سكنت بقايا تلک الثورة المعتلجة فى صدور الغربييـن علـى الكنيسة والدين ، فتهيأت من ذلک الفرصة لفحص ثمـرات الحيـاة المادية عندما تكون اليها القيادة وبيدها وحدها الزمام . وأمكن رصد الحناظل المشقية بل المميتة من بين تلک الثمار ... فقد عاد أكثـر منجزات المدنية والعلوم ، بسببها ، الى مصائب وأمـراض تجـاوزت هيكل الجسم الى طوايا النفس والروح ... الروح التى طالما نسيها بل أنكرها المتمتعون بها ، أيام كانت سكرة النعيم هى السائدة ، وسلطان المادة هو الحاكم الغلاب .

ولكن السكرة لاتدوم ، والعـرض ـ كما يقولون ـ لايستقر . فقد انحسر ذلک النعيم كله عن نفوس كثيرة تتشهى الموت وتترامى بين أذياله ، على الرغم من بوارق المدنية ومغرياتها ،وعن صدور ران عليها

الكرب الخانق . فهى تبحث عن متنفس بعيدا عن دنيا هذا الصخب ودخانه ، وعن قلوب لم تعد ـ كما كانت من قبل ـ تنبع برحيق الحب والرحمة ... ذلك الرحيق الذى كان محورا للدائرة الأسرة ، وحبلا يصل مابين ذوى القرابة والرحم ، ونسبا يشد صوة الانسان الى آخيه الانسان ، لقد أحالها صقيع الحياة المادية الى قطع صخرية متجمدة ، لانبعث منها صدى ، اللهم الا ان يكون صدى ماقد ينقر علينها من درهم أو دينار .

أجل ... هما صحوتان ، احداهما أدركت العالم الاسلامى ، والثانية ظهرت فى ربوع الغرب . ومن خلالهما وعلى أعقابهما تبدلت أمور كثيرة ، وتحققت اتجاهات هامة جديدة ، لم تكن فى الحسبان .

أما فى العالم الاسلامى ، فقد ذهب عصر الريبة بالاسلام . فأصبح جل المسلمين اليوم يعتنقونه عن يقين علمى بجوهره ، وقناعة عامة بصلاحيته ، وانقضت أو ابتعدت تلك المقارنة التقليدية الجاهلة بين العلم والدين (وهوهنا الاسلام) فى ظل ذلك الانبهار الذى ران ردحا من الزمن على النفوس . وأقلت زمام العلم من أيدى المتلاعبين بألفاظه ، وعادبرهانا يملأ عقول الباحثين يقينا بصدق كل ما يتضمنه الاسلام من حقائق الايمان وأنظمة الحياة والسلوك . فكان من آثار ذلك أن اتجهت الآمال الصادقة ، فى معظم الاقطار الاسلامية الى اليوم الذى يهيمن فيه الاسلام نظاما للحكم ومنهجا للحياة .

وأما فى الغرب ، فقد أخذ تيار الاشمئزاز من الدين تخف حدته ، نم لم تزل تخف ، حتى ارتفعت الأصوات من كل جهة ، تشكو من شقاء المادة التى أنست الانسان الغربى نفسه ، وأحالته الى مايشبه

قطعة صغيرة فى آلة كبيرة فتنسحق فى حـركة لا وعى لها . وأخذت الأفكار تتجه الى نوافذ الفرار والخلاص ... فكان الاسـلام ـ ولا ريب ـ واحدة من هذه النوافذ التى وقفت عندها أنظار وأفكار كثيرة ... وأما هذه المشاعر والآمال الجديدة ، تحول الحديث عن الاسـلام ، على كثير من الألسن ، الى رغبة جادة فى تفهمه ودراسته ، بعد أن كان مجـرد افنئات عليه وتشويه له وسخرية منه .

واتجهت تطلعات كثيرة الى المناقشة والحوار ، والى البحث عن جذور توحد الأديان وتعقد بينهما صلحا حقيقيا يمكن الاعتماد عليه فى حل مشكلة الحضارة والتخلص من أوضارها . وفى ظل هذه الرغبة أصبح احتكاك الغربين بملايين المسلمين الوافدين عاملا على تهدئة الصـرع القديم ، بعد أن كان عاملا على تقويته ، وموجبا لمزيد من التفهم لـلاسـلام بعد أن كان سببا فى مـزيد من كراهيته .

واننا لنستطيع أن نتبين بعـد ما بيـن الصورتيـن ، من موففيـن متناقصين وففتهما الـكنيسة الانكليـكانية من الاسـلام ، خلال هذا القرن الهجرى الذى تصـرم .

أما الموقف الأول فملى بماشئت من دلائل السخـرية والازدراء بالاسـلام ونظمه . وكان عقب الحرب العـالمية الأولـى ، وبعـد أن استولت بريطانيا على استنانبـول عام ١٩١٨ م . فقـد وجهت هذه الكنيسة ستة أسئلة الى المشـيخة الاسـلامية ، تتضمـن فى جملتها اثارات لمشاعر المسلمين انتقاصا للاسـلام ، وطلبت الـكنيسة ، فى صلف وكبرياء ، أن يأتيها الجواب فيما لايزيد على ستمائة كلمة .. وفد كان طبيعيا أن تفعل الاثارة فعلها المتوقع فى صدور أولئك الذيـن

وجهت اليهم هذه الأسئلة . فكان الجواب عليها هو : „ أن هذه الأسئلة لايجاب عليها بستمائة كلمة ، ولابست كلمات ، ولابكلمة واحدة ، بل ببصقة واحدة على أفواه السائلين „ (١) .

وأما الموقف الثانى ، فيفيض بماشئت من معانى التنويه بأهمية الاسلام ، وسعة سلطانه فقد وقف المطران الانكليكانى فى العام الماضى يقول مشيدا بالاسلام وما يلقى من قبول لدى الأوربيين عموما والبريطانيين خصوصا :„ الاسلام اليوم دين يعتنقه مليون سخص من مواطنينا البريطانيين „ . .

ان بعد مابين هذين الموقفين ، ناتج والا ريب من فرق مابين المواقعين ... وهى مساحة اعتبارية هامة تجاوزها العالم كله خلال قرن من الزمن .

على أن هذا التحول لم يكن محصورا فى نطاق العالم الغربى الذى آمن بالمادة ايمانا نفسيا أعزل ، أى قفزا من فوق قرارات العلم والعمل وأسوارهما بل تعداه أيضا الى الأقطار الشيوعية ، حيث لايزال يكره كل من العفل والعلم على جحود الدين ونكران الخالق ، وعلى اليفين بأن المادة هى محور الاشياء كلها ، وحيث يحمل كل منهما حملا على الافرار بذلك عن طريق صياغة فلسفية علمية راسخة .

ففد عادت هذه الأقطار ذاتها تخفى ـ مضطرة ـ فدرا كبيرا من عدائها للأديان عامة ، وللاسلام خاصة ، وتتخذ لمواجهتها سياسة جديدة ، بعيدة عن أسلوب السحق والمحق الذى قامت الثورات الاستراكية على أساسه .

وانما سبب ذلك ماتلاقت عليه التقارير الخفية المختلفة ، من أن

الاسـلام لم يعد كما كان يظن : طاقة بائدة . بل انه اليوم عنفوان مقبل، وطـاقة مستشرية ، وظاهرة كهذه لاجدوى من مواجهتها بعنف ، مهما كان الموقف الحقيقى تجاهها ، بل لابـد من مصـانعتها والالتفـاف حولها .

ومعلوم أن الزعيم الشيوعى الايطالى „ تولياتى » الذى توفى فى أوائل الستينات ، ضمن وصيتـه الاخيـرة كشفـا عن هذه الحقيقة ، وتحذيرا لسائر الرفاق من الاستمرار فى سياسة المواجهة والعنف ، بل حتى من الاستمرار في السياسة السلبية تجاه الأديان عامة والاسـلام خاصة . وأهاب باستغلال الطاقات الدينية والاسـلامية . بدلا من أن يعادوها فيخسـروها فتتألب عليهم .

ولقد لقيت هذه الوصية أصداء ايجابية لـدى سائر زعماء المادية الماركسية ، سـرعان ماتغلبت على تلك المعارضات الضـعيفة التـى كانت لاتزال متمسكة بالتعاليم اللينينية العتيقة .

هذا وقد كان لابد أن تنعكس آثار هذه التحولات ، جملة ، على واقع القارة الافريقية التى طالما اشتدت عليها قبضة الاستعمار صنوفا وألوانا ، واتجهت ، اليها مكائد التبشيـر متسـربلة بأردية الترغيـب والاغـراء آنا ، ومقنعة الترهيب والعدوان آنا آخر .

فلقد أريقت على عرض تلك القـارة السـوداء وطـولها أمـوال لاتحصى ، وجهود لاتكاد تصدق . ولقد ظهر من وراء ذلك بعض الثمار التى أيقظت آمالا جسيمة فى نفوس المتربصيـن بالاسـلام وأهلـه ، ولدى قادة الاستعمار والمتخصصين بنهب الخيرات والثروات . ولكن سـرعان ماهبت رياح الايمان فى كثير من جنباتها ، فاعتصفت الثمار

وبددت معظم الآمال ... واستيقظت نوازع الفطرة الاسلامية فى كثير من النفوس ، تغالب أغشية الجهل وأقنعة الخرافة حتى غلبتها .

وبعد ، فليس المهم لنا فى هذا المقام أن نرصد موقف العالم من الاسلام اليوم ، وأن نضبط مؤشرات درجة الاقبال اليه أو الاعراض عنه . انما المهم أن نملك من خلال هذا التحليل الموجز الذى عرضناه ، تصورا سليما ، يخولنا القدرة على اجابة سديدة عن السؤال التالى :

ترى هل لهذه التحولات التى تبدت واضحة خلال هذا القرن الذى نعيش الآن أيام توديعه ، من أثر على تقويم حقيقة الدعوة الاسلامية ، سواء من حيث أهميتها الذاتية أو من حيث ما قد يجب أن تتقيد به من منهج وأسلوب ؟

وأقول في الاجابة على ذلك :

اما الأهمية الذاتية للدعوة الاسلامية ، فلا ريب أنها قد تضاعفت، وأن واجب النهوض بها فى أعناق المسلمين أصبح أشد أهمية وأكثر اتساعا . فلقد كان القيام بهذه المهمة من المفروض الكفائية فى أكثر الأحقاب التى خلت ، أما اليوم فلا نبعد عن الحق ان قلنا : ان القيام بهذا الأمر غدا اليوم من الفرائض العينية التى يتوجه الخطاب التكليفى بها الى كل مسلم وعى الحقائق الايمانية والواجبات السلوكية للاسلام على نحو سليم ، ولم يعد خاصا بفئة أو جماعة من المسلمين، وذلك للسببين التاليين :

السبب الأول :أن واقع الصحوتين اللتين أدركتا العالم الاسلامى وأمم الغرب والشرق معا ، مما سبق الحديث عنه ، لم يبدل

من حال الأعداء التقليدين للاسلام شيئا (وانما نقصد بأعدائه التقليديين ، أولئك الذين يتبوأون مراكز القيادة والحكم فى ربوع الغرب على اختلافها ، ولا يزالون يحلمون بآمال سيادة الرجل الأبيض على بقاع المعمورة ، ان لم يكن بأساليب الاستعمار القديم فبوسائل جديدة أشد ذكاء وأعلى خطورة وأوغل خفاء) كل مافى الأمر أنهم أداروا الأشرعة نحو مسرى الرياح ، وركبوا الموجة المقبلة ، وأبروا أن يخادعوا العقول ويجاملوا النفوس ، بدلا من أن يعاندوها ، فيزيدوا الى الوعى الذى استيقظ ضدهم ، الكراهية التى قد تقطع سبيل الحوار منهم .

ولاريب أن هذا الأسلوب الجديد أحرى أن تبذل الجهود للوقوف فى وجهه ، وأن ينبه اليه ويحذر منه ، على ألسنة الداعين الى الاسلام، من المسلمين عموما ، وقادة المسلمين بوجه خاص ، من ذلك الأسلوب التقليدى العتيق الذى لم يعد يفيد أربابه شيئا .

السبب الثاني : أن العهد الذى يقبل الناس الى الاسلام تمسكا به أو تفهما له ، أحوج ال المرشدين والدعاة ، من العهد الذى يدبر فيه معظم الناس عن الاسلام . ذلك لأن أثر الدعوة الى الاسلام فى صفوف المقبلين اليه ، أسرع ظهورا وأقرب جدوى وأهم فائدة ، منه فى صفوف المتأبين عليه والمحجوبين عنه .

وقد تكاثر اليوم عدد المقبلين الى الاسلام داخل ربوعه ، كما تضاعف عدد الراغبين فى فهمه خارج بلاده . وأن بهؤلاء وأولئك لحاجة ماسة الى من يعرض حقائق هذا الدين لهم بأسلوب علمى مبسط ، ويزيح عن طريقهم اليه الغشاوات المصطفعة والشبهات

المختلفة . فان لم يسرح من المسلمين الصادقين من ينهض بمسؤولية هذا الشرح والبيان على أتم وجه ، أوشك أن يسبق اليهم من اولئك الأعداء التقليديين وجنودهم ، من يجهض لديهم تلك الرغبة ، بابتداع صور منوهة كاذبة عن الاسلام يضعونها نصب أعينهم . ثم يتسللون بها الى ممكن الوعى من نفوسهم . فاما أن يعرضوا بعد ذلك عن الاسلام ويرجعوا الى شر من الحالة التى كانوا عليها من قبل . واما أن يعتنقوا اسلاما باطلا مزيفا ، لايصلح فسادا ولايتفق مع علم ولاعمل . كما آل اليه حال كثير ممن دخلوا فى الاسلام فى كثير من جهات أوروباء وأنحاء أمريكا . ثم لم يجدوا من يبصرهم بحقيقة ماهم عليه وبعده عن الاسلام الذى يطمحون اليه .

واننا لنسمع اليوم نداءات ، بل استغاثات ، تتوارد الى مختلف الأقطار العربية والاسلامية مقبلة اليهم من شتى أنحاء آسياء وأورباء وأفريقيا ، تهيب بالمسلمين أن ينجدوهم بمن يعلمونهم مبادى الاسلام وأحكامه ، وان يتداركوهم بالكتب والنشرات الاسلامية المبسطة ، التى تصلح أن تكون معتمدا كافيا بين أيديهم لتتعلم أسرهم وأولادهم كل مايجب أن يتعلموه من مبادى هذا الدين .

غير أن ما يلقاه أصحاب هذه النداءات من الاستجابة ، لايبلغ الا النزر القليل من الحاجة الكبيرة التى يعانون منها .

فبناء على هذين السببين ، لانشك فى أن النهوض بأعباء الدعوة الاسلامية قد غدا اليوم واجبا عينيا ، يتحمل تبعته كل مسلم أخلص لله فى اسلامه ، وان كانت دائرة هذا الواجب تتسع وتضيق ، حسب تفاوت الامكانات والقدرات الثقافية والعلمية مابين فرد وآخر .

نعم ، لقد كانت مهمة الدعوة الاسلامية من الفروض الكفائية ، قبل هذا العصر ، كما قال علماء الشريعة الاسلامية آنذاک ، ولكن المجتمعات الاسلامية والانسانية كانت تسير يومها في طريق الاسلام ، دون أن يكون على متنه أو عن يمينه أو يساره من يتربص بها الدوائر ويختلق لها العقبات ، ويصد ها عن الوصول الى الغاية بفنون عجيبة من التلبيس والتشويه والاغراء ، أما اليوم وقد جندت كل امكانات الدنيا ، وجميع شهواتها وأهوائها في سبيل الصد عن صراط الله والخضوع لأحكامه ، فقد أصبحت مهمة الدعوة الاسلامية فرضا من الفروض العينية يخاطب به كل مسلم ، ولم تعد مقتصرة على ثلة من الناس مهما بلغ شأنها وكانت أهميتها .

صحيح ان دعائم أحقية الاسلام ، لم تتجل للابصار والبصائر ، كما تجلت في هذا العصر ، لا لأقوام من الناس بأعيانهم ، بل لأهل الأرض جميعا . الا اننا مع ذلک نعيش في عصر تحاول فيه نيران الأهواء والشهوات والمغريات (وهي الأسلحة الحديثة في أيدي محترفي الغزو الفكري اليوم) أن تلتهم بنيان الاسلام بأكمله ، وفرق الاطفاء قليلة عاجزة عن الوقوف وحدها في وجه هذه النيران . اذن لابد من أن ينهض الكل على اختلاف قدراتهم ، لصد هذه النيران عن بنيان الحقائق الاسلامية ، ولفتح السبل اليه أمام الملايين التي تسعى جاهدة لفهمه ، او تعزم صادقة على الرجوع اليه والاستمساک به .

*****

ذلک هو مايجب ان نعلمه عن الأهمية الذاتية لمهمة الدعوة

الاسلامية فى هذا العصر . أما عن المنهج الأمثل للدعوة ، على ضوء هذا المنعطف الزمنى الذى سيسلمنا عما قريب الى قرن جديد ، فان الحديث عنه متشعب الأطراف ، طويل الذيل . وانه لجدير أن يعالج فى كتاب جامع مستقل .

غير أن من الممكن فى هذا البحث ، أن نرسم خطوطا عريضة لهذا المنهج . ولعل هذه الخطوط أن تدل الباحث المتدبر على الفروع الجزئية التى تنبثق عنها ، فيكون فى هذا التلخيص غناء عن التفصيل والتطويل .

ان أهم الدعائم الكلية الهامة ، لنجاح المسلمين فى القيام بأعباء الدعوة الاسلامية ، على ضوء الوقائع والتطورات التى أوضحنا تحليلا موجزا لها ، يتمثل فى اتباع الشروط التالية .

الشرط الاول : أن يكون الداعى على بينة ، قبل كل شى ، من حقيقة الاسلام الذى كلفه الله أن يصطبغ به ، وأن يعرف الناس ، ويدعوهم اليه .

ترى أهو مذهب فكرى أو سلوكى يقارع غيره من المذاهب المماثلة ؟ أم هو نظام ينافس الانظمة الأخرى ؟ أم هو جملة تشريعات وقوانين تنسخ بها بقية التشريعات ؟ أم هو يمين فى مواجهة يسار، أم يسار فى مواجهة يمين ؟

ان على الداعى أن يكون على بينة تامة ، قبل كل شى بأن الاسلام ليس شيئا من هذا ولا ذاك . ولكنه كما يدل عليه اسمه : استسلام مطلق لألوهية الله وحده ، ثم الصياع لأمره ونهيه وقضائه . ولا يرتكز هذا الاستسلام الا على يقين كامل فى القلب ، ولا يعمر

الايمان الحقيقى المقلب الا بعد خلوه عن الأغيار وتزكيته عن الأوضار، وانقطـاعـه عن علائق المحرمات من الشهوات والأهواء .

واذا استقام الايمان على هذا النحو فى الفؤاد ، خاليا عن الزغل ، نقيا عن الدرک ، تحققت مظاهر الاستسـلام كلها فى كيان الانسان لأوامـر الله ونواهيه وسائر أحكامه وتشـريعاته بدون عظيم جهد ولا طويل نقاش أوعناء .

زارنى فى العـام الماضـى ثلة من الرجـال والنسـاء الأوربييـن والأمريكيين ، قد اعتنقوا الاسـلام . وقد لفت نظرى التزامهم الدقيق بالسلوک والمظهر الاسـلامى رجالا ونساء ... فهل تتصورون أنهم قد وصلـوا الى الالتزام بتلک الأحكام السلوكية من خلال اجتياز مرحلة طويلة من النقاش تمت فى أعقابها القناعة بها واكتشاف وجوه الفائدة والمصلحة فيها ؟ .

معاذ الله .. لقد تحولوا من منتهى التفلت والتحرر ، الى الالتزام الكامل بالسلوک الاسـلامى خلال أيام قليلة . وكان الجسـر الوحيد الذى نقلهم من ذلک التحرر الى هذا الالتزام ، اكتشافهم بأنهم عبيد مملوكون لله عـزوجل ، ويقينهم المطلق بألوهية الله وحكمتـه التـى لاريب فيها ، فى كل ما يأمر به وينهى عنه .

ولو أخذت تناقشهم دهرا طويلا فى الدفاع عن تلک الأحكام ، قبل رسوخ هذا اليقين العظيم فى قلوبهم ، لما اقتنعوا من ذلک كله شى .

ومن هنا كان قوام الدين الحق الذى ألزم الله به عباده مكونا من ثلاثة أركان : ايمان ، واسـلام ، واحسان ، فمغرس الايمان فى القلب ،

ومكان الاسلام الجسم كله ، ومستقر الاحسان صلة مابين القلب الذى آمن والجسد الذى استسلم . ولا ينفرد واحد من هذه الأركان الثلاثة بوجود مستقل مفيد . بل الدين انما يتكون من تألف هذه الأركان الثلاثة التى لاتعدو أن تكون جذورا وفروعا وشرايين تنقل الحياة من هنا الى هناك .

والمسلم اذا عاش فلهذا الدين يعيش ، وان دعا الناس فالى هذا الدين يدعو .

ومعاذ الله أن يكون دين هذا شأنه وجوهره مجرد نظام بين الأنظمة أو مجرد مذهب من المذاهب .

ليس للأنظمة التى يتطاحن أهلها عليها اليوم الا وجود خارجى يبدأ وينتهى فى ساحة المشاهدات والمحسوسات . وانه لوجود ما أيسرأن يكون قناعا يستتر خلفه النفاق الوانا ، ويكمن وراءه الكيد والخداع أشكالا .

أما الاسلام فوجوده شعاع يمتد فى كينونة الانسان كله ، بداء من باطن القلب الى ظاهر الجوارح ، من شأنه أن يحرر الانسان من أنانيته وآفات نفسه ، ثم يخضعه لأحكام ربه .

واذا تشبع الداعى الى الله تعالى بهذه الحقيقة ، وتمثل هذا المعنى الكلى للاسلام ، ثم اتجه الى الناس يذكرهم بهذا الحق ، ويوقظ فيهم مشاعر عبوديتهم لله عزوجل ، مستعينا بلواعج الصدق والاخلاص لله فى قلبه ، وبدلائل المنطق والعلم على لسانه ـ: أشرق من كلامه قبس وهاج فى طوايا قلوبهم (ان هم اصغوا الى الحق بموضوعية وتجرد) واستطاع أن يسير بهم من أقرب طريق الى

الخضوع لسائر الأحكام والشرائع الاسلامية التى ليست فى حقيقتها الا ثمرات وفروعا لذلك المعنى الكلى العظيم ، وان لنا فى قصة أولئك الأجانب الذين حدثتكم عنهم آنفا أبين شاهد على ما أقول .

ولكن اذا حصر المسلم نفسه من الاسلام فى منشورات فروعه وأحكامه وتشريعاته ، ثم راح ينبه الناس من الاسلام كله الى هذه الفروع ، وأخذ يبذل كل جهده فى اقناعهم بمزايا هذه الأنظمة والتشريعات وأفضليتها على ما سواها ، فان دعوته هذا لن تثمر شيئا لأنه يقدم لهم هذه الأنظمة والأحكام منفصلة عن منبتها وجذورها . فهو كمن يقدم اليك غصنا أخضر يانعا ، بعد أن اقتطعه من شجرته الراسخة الباسقة ، هل تنتظر به الا عاقبة الذبول والانمحاق .

وهى حتى لو أثمرت فأيقن المخاطبون بمزايا التشريع الاسلامى وأفضليته ثم انصاعوا له نظرا الى مافيه من المزايا القانونية التى ترجحه على غيره ، فان هذا الانصياع لايمت بحد ذاته الى جوهر الاسلام بشى ، ولا يقربهم الى الله شِرْوى نقير ، اذ هو ليس انصياعا دينيا منبعثا عن الخضوع لحكم الله تعالى وسلطانه ، ولكنه مجرد اختيار له من بين سائر الشرائع الأخرى من حيث المرجحات المصلحية فى نطاق الأهداف الدنيوية المجردة ... ولذلك كان من اليسير أن تجد سرعة الرضى والقبول بأعتماد فقرة : (الفقه الاسلامى مصدر للتشريع) فى صلب أكثر الدساتير القائمة اليوم فى أكثر البلاد العربية والاسلامية ، ولكن ليس من اليسير أبدا أن تحصل على مثل هذا الرضاء لاعتماد فقرة أصغر منها ، وهى :(الاسلام دين الدولة) ذلك لأن هذه الفقرة تعبير موجز عن الخضوع الكلى والاستسلام

المطلق لربوبية الله وحكمه . أما الفقرة الأولى فمجرد التزام بجانب قانونى من بنية الاسلام . وما أيسر أن يتلاقى عليه المسلمون وغيرهم .

ومع هذا ، فان أكثر مظاهر الدعوة الاسلامية اليوم انما يتحرك ضمن هذه الأجزاء الجانبية أو الداوائر الفوقية . وهى قلما تثمر الا مشادة حاقدة من نوع تلك المشادات التى تقوم بين أصحاب المذاهب الفكرية والسياسية المتناحر ة . ذلك لأن الاسلام الذى يعرض فى هذه الخصومة انما هو اسلام فكرة ونظام مجتثين من كلى الحقيقة الاسلامية المنزل من لدن رب العالمين الى الناس أجمعين ، يقارع بهما الأفكار والانظمة الأخرى مقارعة مقايضة ومباهاة ، فى مشادة لايمكن أن تنتهى الا مثل ماتنتهى اليه خصومة أى نظامين أو مذهبين متكافئين فى أن كلامنهما ليس فى حقيقة أكثر من نظام يوازن بنظيره من الأنظمة الأخرى .

ومن شأن الذى يدعو الى الاسلام بوصفة مجرد فكرة ونظام بين مختلف الانظمة ، ان يفقد من بين جوانحه مشاعر الشفقة على أولئك الذين يدعوهم ، ودوافع الغيرة على سعادتهم الاجلة والعاجلة ، وهو المعنى الانسانى الذى اتصف به الانبياء والربانيون ، فكان سر نجاحهم واقبال الناس عليهم ، والتأثر بكلامهم .

فلماذا يفقد هذا الصنف من الدعاة تلك المشاعر والمعانى الربانية الشفوقة ؟ لأن الذى يهيم فى طريق الدعوة الى الاسلام ، بعيدا عن المثول فى محراب التبتل ومعانى العبودية لله عزوجل ، مندفعا بالأسباب ذاتها التى تدفع صاحب أى مذهب أو مبدأ الى الدفاع عن مذهبه ودعوة الناس اليه ، لابد ان ينسى الله تعالى فى غمار

دعوته تلك . ولابد أن ينجرف فى تيار الأنانية ورغبة الانتصار للذات شأن سائر الدعاة الى مختلف المذاهب والأحزاب . وهيهات حينئذ أن يتأثر بدعوته أحد ، اللهم الا أن يكون تأثرا مصلحيا قائما على مناورة أو على الرغبة في الوصول الى أمان ومصالح دينوية . ذلك لأن الناس لايصعب عليهم أن يشموا رائحة حب الانتصار للذات ، من خلال هذه الطريقة فى الدعوة . وانما انتبهوا لذلك ، فلا بد من تغيير فى هذا السلوك للحصول على التفاهم والوئام .

اننى أستطيع أن أقرر أن جهد هذا النوع من المسلمين جهد صنائع ، مقضى عليه بالخيبة وان تراءت له بعض الثمار والآثار السطحية السريعة ، لان صورة الاسلام فى أذهان هؤلاء الناس ، لاتتناول أكثر من أنظمة فوقية مبتورة عن أصولها مجتثة عن تربتها ، فهم انما يقومون ويقعدون بالحديث عنها والموازنة بينها وبين غيرها . وما أكثر مايجلس أحدهم ليتكلم متحمسا فى هذه الأمور أو ليناقش فى أمور الدعوة ومناهجها ، فينسى فى غمار حديثه ونقاشه أهم الواجبات الدينية التى أناطها الله فى عنقه ، كالقيام الى الصلاة فى اوقاتها مثلا، ولعله لايصحو اليها الا فى آخر الوقت ، ثم لاينهض اليها الا متثاقلا ويؤديها بسرعة خاطفة شأن من يريد أن يسرع فيتخلص من عبء يلازمه .

والخلاصة أنه لاقيمة لدعوة الناس الى اختيار منهج معين فى السلوك ، أو نظام متميز للحياة ، الا أن تكون آتية من وراء دعوتهم الى الاصطباغ التام بالعبودية المطلقة لفاطر السماوات والأرض ، وايقاظهم الى الحقائق الكبرى الكامنة فى قول الله عزوجل :

(قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لاشريك له . وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين) (الأنعام : ١٦٢ ـ ١٦٣)

الشرط الثانى : أن تشيع الدعوة أولا فى صفوف المسلمين أنفسهم ، حتى اذا استقام أمرهم على النهج السليم ، وتجسدت فى حياتهم حقائق الاسلام وفطرته وأخلاقه ، انبثق لهم من ذلك لسان مبين يدعو الأمم الأخرى الى اتباع دين الله عزوجل ، وتجلى ، من سلوكهم أمام تلك الأمم خط مضيئى يشق سبيله وسط أمواج الظلام وعكر المذاهب والأفكار المنحرفة . فكان من ذلك أهم عامل يحمل تلك الأمم على مزيد من الاهتمام بفهم الاسلام أولا ، ثم الاعتناق له والانصباغ به ثانيا .

وان من أكبر الأخطاء التى يقع فيها بعض المسلمين ، انصرافهم ـ فى غمرة فرحهم باقبال كثير من الغربيين الى دراسة الاسلام ـ عن النظر فى اصلاح أنفسهم ومن حولهم من عامة المسلمين . مستعيضين عن ذلك بالاتجاه الى الأمم الأخرى ، يدعونهم فيما يزعمون الى الله ويرشدونهم الى الاسلام والتمسك به . ذلك لأن تلك الأمم محجوبة عن الاسلام وحقيقته وحب الاقبال اليه ؛ بما تراه من واقع المسلمين وسوء حالهم ، أكثر من أن تكون محجوبة عنه بالجهل أو لسوء الفهم له .

يعرف هذه الحقيقة جيدا ، رؤساء تلك الأمم وقادتها ، وهم الذين ما زالوا يتربصون بالاسلام وأهله الدوائر ، لذا تراهم يسلكون الى حجز الاسلام عن شعوبهم أقصر الطرق وأيسرها ، الا وهو الامعان فى

حمل المسلمين أنفسهم على التنكر لاسلامهم ، بالوسائل المتنوعة وفي مقدمتها اغراقهم بشتى صنوف الملهيات والمنسيات ، وتقطيع سبيل مابينهم الى التشاور والتناصح والتضامن . حتى اذا رأوا بأعينهم سوء حال المسلمين في أخلاقهم وسائر أوضاعهم ، ووقوفهم - في الجملة - على طرف النقيض مما يعرفون به ويدعون اليه ، فعدوا مطمئنين الى واقع شعوبهم ، ولم يبالوا عندئذ أن يقوم فيما بينهم آحاد المسلمين يدعونهم الى الاسلام أو يشيدون على أراضيهم المساجد ، أو ينشرون بينهم كتبا ونشرات تعرف بالاسلام فانهم يعلمون جيدا أن هؤلاء المسلمين مهما نجحوا في ابراز جوهر الاسلام ناصعا قويا أمام أنكار شعوبهم ، فان في ذلك الواقع السئ المؤلم الذي يرزحون تحته مايضمن الا تكون لتلك الجهود الكلامية أو الكتابية أي تأثير خطير . فمن هذا الذي سيصغي بتأثر واعجاب الى ذلك الذي يتحدث عن كنوزه وأمواله الوفيرة ، والناس جميعا يرون مايعانيه من بؤس وضنك ، ويرون يده الممتدة بذل المسألة الى القادين والرائحين ؟

ولعل من أبرز المظاهر التي تؤكد هذه الحقيقة ، ماتراه من سياسة دولة كأمريكا تجاه مسألة الحريات ، في كل من داخل بلادها وخارجها فمن المعلوم أنها تذهب في تقديس الحريات الانسانية داخل بلادها الى ابعد مدى ممكن . وبموجب ذلك يحق لكل انسان أن يمارس نشاطه الديني على النحو الذي يشاء ، كما يحق للمسلمين أن ينشطوا في دعوة الناس الى الاسلام وتعريفهم عليه بالطريقة التي يحبونها .

الا أنها ترقب النشاطات الاسلامية للمسلمين في بلادهم بمنظار آخر ... فهي لاتبالي أن تنسف شعار الحرية التي تعتزبه في بلادها ،

من أساسه ، اذا رأت حرية الدعوة الاسلامية قائمة فى جهة ما من بلاد المسلمين ، بجد وعلى قدم وساق ... وربما استعانت بجهود من قد نراهم أعداء لها من أجل القضاء على تلك الحرية ، واغلاق أو تضبيق السبل أمام الدعوة الاسلامية الجادة ، أن تبلغ مداها الأخير .

وواضح أن السبب فى اتخاذها هذين الموقفين المتعارضين ، أنها تخشى من الاسلام اذا تحرك ونشط بجد فى بلاد المسلمين ، أكثر مما تخشاه اذا نشط على أيدى آحاد المسلمين داخل بلادها .

نعم ، قد نرى ـ على الرغم من هذا الذى نقرره ـ أناسا فى ربوع أوربا وأمريكا ، يقبلون الى الاسلام ويعتنقونه ، دون ان يصطدموا بالسوء الذى يعانى منه المسلمين . الا أن هذه الظاهرة لا بد أن تعود الى أحد سببين :

فاما أنهم لحسن حظهم احتكوا بأشخاص مسلمين صادقين مع الله فى اسلامهم ، فتنسموا فيهم عبير الفطرة الانسانية الصافية ، وآنسوا فيهم الخلق الاسلامى الكريم، وأحسوا بنور الهداية الربانية يعمر قلوبهم ، فيرتفع بها صعدا عن الشهوات الأهواء الجانحة. فوجدوا فى ذلك الضياء والأنس أعظم ملاذلهم من ظلمات حياتهم الخانقة ، فدخلوا فى دين الله تعالى من هذا الطريق . وهذا السبب يؤكد الحقيقة التى نحن بصدد بيانها وتقريرها .

واما أنهم أقبلوا الى دراسات فكرية حرة عن الاسلام وحقيقته . فوجدوا حقائقه الناصعة وبراهينه العلمية والعقلية القاطعة ، فازدادت كراهيتهم للباطل الذى يتقلبون فيه ، وتلاقى لديهم من اشمئزازهم مما هم تائهون فيه ، ومن يقينهم الفكرى بالحق الذى وقعوا عليه ، عامل

حررهم من أسر شهواتهم وأهوائهم ، ثم وضعهم على رأس الطريق الى صراط الله عزوجل الهادى الى السعادتين الدنيوية والأخروية .

وايا كان السبب : هذا أو ذاك ، فهى على كل حال حالات نادرة لاتشكل تيارا ، ثم لا علاقة لأمر الدعوة الاسلامية بها .

انما المهم على كل حال ، أن يعلم المسلمون أينما كانوا ، أنهم فى اليوم الذى يتحققون فيه بمعانى الاسلام على وجهه الصحيح ، بدءا من أعماق أفئدتهم الى ظواهر أحوالهم : ستفتح أبواب الاسلام على مصاريعها أمام شعوب أوربا و أمريكا وغيرها . وسوف يدخلون فى دين الله افواجا كما دخلوا فيه من قبل افواجا .

فأما ، والمسلمون على هذه الحالة التى هم عليها ، فان جهود الدعوة كلها يجب أن تنصرف الى اصلاح حالهم . وكل حديث يصطنع التباكى قبل ذلك ، على الاسلام خارج بلاد المسلمين ، دون التفات جاد الى واقع المسلمين أنفسهم ، لابد أن يكون مرده اما الى سذاجة متناهية فى معالجة الأمور المترابطة بعضها ببعض ، واما الى كيد خبيث يستهدف شغل المسلمين عن البلاد المستشرى فيما بينهم، وصرف طاقاتهم لتتبدد فى الفضاء ثم لاتعود الى أصحابها بشئ.

الشرط الثالث : أن تتلاقى متناسقة على طريق الدعوة الاسلامية ، جهود الأفراد والشعوب مع الطاقات التنفيذية التى يملكها القادة والحكام .

فلا قيمة لما قد تنفرد به فئات أو أفراد من المسلمين ، فى نطاق العمل الاسلامى ، اذا لم يكن للدولة الحاكمة فى ذلك دور أساسى فعال . ولئن ظهر بعض الفوائد والآثار ، فهى لاتعدو أن تكون آثارا

جزئية ، ويغلب أن تكون مع ذلك سطحية وموقوتة .

ويتجلى دور الدولة الحاكمة على صعيد العمل الاسلامى ، فى النهوض بجانبين اثنين ، ان هى تهاونت فيهما ، لم يصلح أن ينوب عنها فى النهوض بهما أحد .

أحدهما جانب داخلى يتعلق بحال المسلمين أنفسهم ، ثانيهما جانب خارجى يتناول علاقة المسلمين مع غيرهم .

أما بيان الجانب الأول ، فيتلخص فى أن نجاح الدعوة الاسلامية فى صفوف المسلمين ، فى ظل الواقع الذى أوضحناه يتطلب مع وسائل الارشاد والبيان قوة التنفيذ والحماية وتهيوء المناخ المناسب .

ومعلوم ان الارشاد والبيان وتوابعهما ، من وظيفة الأفراد والجماعات الذين أوتوا القدرة على النهوض بهذا الواجب . على أن جميع المسلمين المتبصرين بحقيقة الاسلام ، يتساوون فى واجب النهوض بقاسم مشترك من هذه الوظيفة وهو ما قد تساووا فى معرفته من حقائق هذا الدين وأحكامه .

ولكن الذين يرشدون ويوجهون ، انما يجتازون بالناس عقبة نظرية فقط . وتبقى من بعدها مرحلة السعى الى التنفيذ . وهى مليئة بالعقبات و المعوقات التى تصد السالكين عن بلوغ الغايات ، بل تقطعهم حتى عن مواصلة السير فى الطريق . ولا يقوى على تذليل تلك العقبات وازاحة المعوقات ، الا قادة المسلمين وأولو الأمر فيهم . فان هم أعرضوا عن القيام بهذا الواجب ، لم ينب عنهم فى النهوض به أحد .

رب انسان أيقن منه الفكر واللب بحقائق الاسلام وأحكامه ،

ولكنه مشدود بحبال نفسية الى الانحراف وسلوك مسالك الضياع بسبب المناخ الذى يحيط به ... فمن ذا الذى يملك أن يطهر هذا الجو الذى يعانيه ، من الملهيات والمهيجات ، غير الحاكم المسلم الذى اليه تصريف الشؤون وادارة أحوال البلاد ؟ .

ورب أناس يصغون الى كلمة الحق مفعمة بالروح والبرهان ، فتستقر فى عقولهم وتشرق فى قلوبهم ، ولكنهم مايكادون يشعرون بنعيم الهداية والعرفان ، حتى تنتصب أمام أعينهم ، وتتساقط فى أيديهم ، وتسرى الى آذانهم ، كلمات الختل والتشويه والدس والخداع ، تأخذ طريقها اليهم من خلال المنشورات والمجلات والأندية والاذاعة ، فمنذا الذى يملك أن يحرس الكلمة (مكتوبة كانت أو مسموعة) أن لاتجعل مطية للدس والافتراء غير الحاكم الذى بيده تدبير ذلك كله ؟ .

ورب مؤتمرات وندوات عقدت على عرض البلاد الاسلامية وطولها ، لخدمة الاسلام وابلاغ دعوته ، طرحت الآراء السديدة ، ثم انتهى المؤتمرون الى قرارات أو توصيات هامة ومفيدة ، فلما انفض الوفود ، بقيت تلك التوصيات الفاظا مسطرة واوراقا مطوية .

ولاشك أن المسؤولية ليست مسؤولية الذين قرروا ثم انصرفوا ، لأنهم لايملكون أكثر مما فعلوا . ولكنها مسؤولية من قد عهد اليهم بأمر التنفيذ ، ممن يملكون أسباب ذلك ثم لم يفعلوا ولم ينفذوا .

وما أظن الا أن هذه المسؤولية هى التى يجسدها ويعبر عنها الأثر القائل : ان الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن .

وأنا لست أعنى بهذه المهام الداخلية التى يجب أن ينهض بها

قادة المسلمين (كما قد أصبح واضحا من الأمثلة التى ذكرتها) مجرد تلك المسؤولية التقليدية التى تتمثل فى رسم القوانين الاسلامية ، ثم اعتمادها فى نطاق السلطة القضائية ، فهذا جزء يسير جدا من مجموع الحقيقة الاسلامية التى يجب على الناس أن يأخذوا أنفسهم بها أفرادا وجماعات ، بل ربما كان موقع هذا الجزء من الأجزاء والجوانب الأخرى موقع النتائج من الأسباب والمقدمات . بل رب حاكم خبيث الطوية عميق المكيدة ، يتشاغل بوضع القوانين الاسلامية فى نطاق الحكم والقضاء ، ليصرف نفسه ، وليصرف انظار الناس معه ، عن واجب النهوض بالحقيقة الاسلامية المتكاملة ، والمتمثلة فى اليقين الذى يجب أن يستحوذ على العقل ، والخلق الذى يجب أن يصطبغ به السلوك والنظام الذى يجب أن تنضبط به أصول المعايش والحياة كلها.

فأنا انما أعنى بمهام الحاكم المسلم هذه الجوانب المتلازمة كلها،

وأما بيان الجانب الثانى ، فيتلخص فى أن شطرا كبيرا من مهام الدعوة الاسلامية ، يجب صرفه الى مقاومة ذلك العدوان الخفى المتسلل من خارج حدود البلاد الاسلامية ، والذى يمارسه أولئك الأعداء التقليديون الذين سبق الحديث عنهم فهؤلاء يكيدون للاسلام والمسلمين خارج بلاده . ولا يعجزهم بطبيعة الحال أن يسخروا لذلك كل الطاقات الفكرية والنفسية ، وأن يجندوا له سائر رسل التبشير والاستشراق ، وأن ينفقوا فى سبيله الأموال الطائلة وأن يستعينوا حتى للعمليات العسكرية اذا اقتضى الأمر ذلك . فمنذا الذى يملك أن يجابه عدوانهم هذا بوسائلهم هذه ، غير قادة المسلمين ، وأولى السطوة والسلطان فيهم ؟ ...

نعم ان للشعوب الاسلامية دورا كبيرا فى صد العدوان الخارجى على الاســلام والمسلمين ، ولكن لابد أن يكون ذلك بوساطة قادتهم وأولي الأمر فيهم ، اذ انهم دون غيرهم ، الذين يشكلون أداة الاتصال بين شعوبهم وقادة الغزو الفكرى .

فاذا تبين من خلال هذا الكلام مدى أهمية الدور الذى يتحمله قادة المسلمين فى نطاق العمل الاسلامى والدعوة الاسلامية ، فلا مناص من أن نقـرر بكل صراحة ، ومع قدر كبير من الأسف ، بأن هذا الشـرط الثالث لم يتحقق منه شي الى هذا اليوم ، على وجهه السليم ، اللهم الا فى أضيق الحالات ، وعلى مستوى سطحى ، لايكاد يعطى ثمرة مفيدة .

فالدعوة الاسلامية انما تمارس الى الآن ، من قبل فئات وهيأت شعبية فقط ، دون أن تشد من أزرها ، بشكل متناسق وبالمعنى الذى أوضحنا ، أى سلطة حكومية . فلا ريب أن عمل هذه الفئات الشعبية يشبه الى حد كبيرة راحة يد واحدة تسعى جاهدة أن تتلاقى على نفسها لتصفق بمفردها ، أو يشبه حالة من قد فتح صنبور ماء على حوض كبير، تفتحت فى أسفله ثقوب واسعة كثيرة ، دون أن يجد من حوله من يعينه فى سدها . فأخذ الماء ينهمر فى الحوض ، وظلت الثغوب تبتلعه ، وبقى الحوض فارغا لم يصبه من الماء الا الرشاش والبلل .

ولعل من الخير أن نبحث عن السبب الذى أفقد روح التعاون الحقيقى بين المتحرقين على الدعوة الاسلامية من احاد المسملين ، والقائمين على أمرهم من القادة والحكام ...

ان السبب ، بكلمة جامعة مختصرة ، هو السياسة ... نعم السياسية

بطبيعتها الجديدة ، ومفهومها الذى يفرض نفسه على كل من قضى عليه أن يدخل فى غمارها ، ويستسلم لتيارها ...

لقد كانت كلمة « السياسية » تعنى فيما مضى ، سلوك سبيل الحكمة والتعقل الى الهدف المنشود . فكانت مطية ذلولا وسبيلا معبدة الى بلوغ الغايات السامية ، ولما كان اقامة سلطان الدين على المجتمع وفى النفوس أسمى الغايات وأنبلها ، فلا غرو ان تكون السياسة هى الخادم الأمين لتحقيق هذه الغاية .

ولكن هذه الكلمة غدت اليوم عنوانا على الوان معقدة من المناورات والمحاولات ووجوه التعامل بين القادة والحكام بعضهم مع بعض . وفى ظل هذا المعنى المتشابك المعقد ، الذى آلت اليه الكلمة ، أخذت السياسة تتحول شيئا فشيئا من وضعها السابق الذى كانت فيه مجرد وسيلة وطريق ، الى أن أصبحت فى أكثر الأحوال والظروف غاية بحد ذاتها ، أو بتعبير أدق ـ غاية ووسيلة بآن واحد ...

وما ينبغى أن نستغرب هذا ، فان الطريق اذا كثرت تضاريسه ، وتعقدت منافذه ، واشتدت عقباته ، يوشك ان يتحول الجهد الدائب للتغلب عليها أخيرا ، الى حركة مستمرة ضمن نطاق محدود ، لاتهدف بمجموعها الى شى آخر غير ذاتها .

على ان الأمر لم يقف عند هذا الحد فقط . بل غدت السياسة هى المحور الثابت ، وتحولت الأهداف والغايات الأساسية الى وسائط تدور فى فلكها وتقوم على خدمتها .

ونظرنا ، فاذا الدين ذاته واحد من هذه الوسائط الخادمة ... فما أكثر مايستنطق الدين بما تهواه السياسة أو يقتضيه أسلوبها . وما أكثر

ماتسخر الفتاوى لتوسيع مواقفها عندما تعوزها البراهين والمؤيدات ...

بل لقد نظرنا ، فاذا للدين الحق الذى نؤمن جميعا به ، أحكام متناقضة ومواقف متعارضة مابين سياسة وأخرى :

ان عليه ان يدافع عن مواقف الرضاء والاستسلام للعدو الغاصب المنكل ، وعن مديد الموالاة والتعاون اليه ، بكل وجه وعلى أى حال ... وعليه أيضا أن يتحول فيصبح نصيرا لكل ما تقترحه أو تخطط له رعونات الثأر والانتقام ، ويتطلبه غليل القلوب الحاقدة ورغبات النفوس الهائجة ، دون أى تفريق بين ما شرعه الله من ضرورات الحرب والجهاد ، وما حذر منه من لواعج الثأر والانتقام ...

ثم على الدين أن لايتخلى عن وظيفة التأييد لكل مايقتضيه الوضع السياسى ، من أتباع مذاهب معينة تتعلق بمبادى الملكية والاقتصاد ، أو قضايا الاخلاق والاجتماع .

هذا كله ، مع العلم بأن الله جل شأنه ، ما أنزل الدين الحق على عباده الا كبحا لجماح الرعونات ، وجمعا لشتات الآراء ، واذابة لاحقاد القلوب وسخائم النفوس . فمعاذ الله أن تكون له وجوه متعددة يصانع بها أرباب السياسة وأبطال الكروالفر ، ليفوز برضوان الجميع ...

وان المصيبة هنا لم تعد واقفة عند مشكلة انصراف القادة عن رعاية الدين واهمال مبادئه . فذلك أمر يسير بالنظر الى ماهو أدهى وأمر .

اذ ان امر الدين عندما يصبح مسخرا بيد السياسة وأربابها ، ويتجلى ذلك لكل متأمل ومتدبر ، يتكون من ذلك برهان وأى برهان ، لأولئك الذين ظلوا يقررون بأن الدين فى جوهره ، ليس أكثر

من مؤيدات ذات قداسة مصطنعة ، ابتدعها على مر التاريخ الانسانى أولئك الذين يبالغون فى الاعتداد باتجاهاتهم وآرائهم ، ويسعون الى فرض أفكارهم على أكثر قدر من الناس خلال أطول حقبة من التاريخ ... أجل فما أيسر أن يردد أولئك المبطلون هذا الكلام ، ويجعلون من هذه المظاهر المؤسفة أبين شاهد عملى على مايقولون .

ونحن وان كنا على يقين بأن هذا اللغو فى تفسير الدين الحق وتصوره ، لايمكن أن يعلق بذهن أى انسان عاقل يريد أن يتعرف على هذا الدين من داخله ، ومن خلال التعرف على جوهره ومصادره ، الا أننا على يقين أيضا بأن كثيرين هم أولئك الذين يستعيضون عن دراسته بالقاء نظرة على بنيانه الخارجى وبالاصغاء الى مايقوله عنه هؤلاء المبطلون ، ثم من خلال هذه المشاهد السياسية التى تجعل ـ فى كثير من الأحيان ـ من الدين مطايا لتحقيق المآرب والمطامع الشخصية والنفسية ذات الدوافع المتنوعة .

فاذا أضفنا الى هذا أن كثيرا من الرعونات التى تشمئز منها الموازين الانسانية الصافية ، والتى تهيج فى نطاق المدافعات السياسية ، ترتدى فى كثير من الأحيان كسوة الاسلام وتنطق بلسانه ـ فان بأمكاننا أن نتصور مدى النكسة التى يصاب بها كثير ممن تفتحت عقولهم ونفوسهم لدراسة الاسلام وفهمه ، فى مختلف الأقطار والبلاد ، اذ ماتكاد تواجههم هذه المشاهد حاملة راية الاسلام ، حتى ينكفئوا على أعقابهم ، وقد تعقدت نفوسهم تجاه الاسلام بجملته وتفصيله وعادوا فى كراهيتهم له واشمئزازهم منه الى شرمما كانوا عليه من قبل . فما تكاد آذانهم تتفتح بعدها لسماع كلمة عن الاسلام وما

يتعلق به ...

وهكذا ، فان بوسعنا أن نتصور بعد الفجوة الفاصلة بين ماينهمك فيه كثير من أفـراد المسلمين وفئاتهم فى سبيل العمل الاسـلامـى وتقريب الاسـلام الى عقول الناس وتحبيبه الى قلـوبهم ، ومـا قد ينحرف فيه كثير من الساسة من قادة المسلمين وأولى الأمر فيهم .
وليتها ظلت مجرد فجوة ... انها تتحول فى كثير من الحالات الى تشاكس فى السعى وتناقض بين عملية البناء والهدم والتقريب والتبعيد...

*****

على أن من الحق أن أعود فأقول : لعل « السياسة » بمعناها الذى يفرض نفسه اليوم تحمل تأثيرا يشبه أن يكون سحريا ، على كل من قد ينجرف فى تيارها . فهى تعدمه القدرة على تمييز الوسائل عن الغايات، كما تعدمه القدرة على اعطاء كل منهما حقه من الرعاية والاهتمام .

ومن يدرى ؟ ... لعل ناقدا مثلى ، لو ابتلى ـ والعياذ بالله ـ بالوقوع فى دوامة العمل السياسى ، لنسى كل هذا الكلام التوجيهى ، ولأعجزته المشكلات المتسارعة عن ان يعالجها بصفاء ذهنى وقدرة ذاتية على تسخير سلسلة الأحداث كلها فى سبيل رعاية الحق الذى يتمثل فى الاسـلام عقيدة وأخلاقا وحكما ، ولتمزق بين المتطلبات المختلفة التى تفرض نفسها عليه من كل صوب .

ولكن مهما يكن ، فان المسألة لاتعدو أن تكون مشكلة تحتاج الى حل . ولا ريب أن على قادة المسلمين أن يبذلوا كل جهودهم مادامو صادقين فى الاسـلامهم ، لحل هذه المشكلة ، ولضـبط النشاطـات

السياسية ضمن حدود الوسائل والأسباب ، كما أن عليهم أن يفعلوا كل مايمكنهم للتحرر من دوامها ، وامتلاک ناصيتها ، ثم السيربها فى الطريق الى خدمة هذا الدين ورفع مناره وترسيخ سلطانه .

ان علينا جميعا أن ندرک بأن العمل السياسى فى أيدى قادة الأمة الاسلامية ، ليس الا سلاحا لخدمة الاسلام واقامة المجتمع الاسلامى فوق أرفع ذرى الأرض . فان هم عجزوا أن يتخذوا من السياسة والحكم سلاحا لذلک فقد تحول كل منهما فى أيديهم الى باطل من السعى وعبث من الجهد والعمل ...

ودعونى أيها الاخوة أضع بين أيديكم وصية توجه بها السلطان محمد الفاتح رحمه الله الى ابنه أورخان ، عندما شعر بدنو أجله ، متمنيا أن يعدها كل واحد من قادة المسلمين اليوم ، تطرق سمعه ، وصية موجهة اليه ، عساها توقظنا جميعا من دوامة هذا التخبط الذى نعانيه :

(هاأناذا أموت ، ولكنى غير آسف ، لأنى تارک خلفا مثلک . كن عادلا صالحا رحيما بالناس جميعا . وابسط على الرعية حمايتک بدون تمييز ، واعمل على نشر الدين الاسلامى ، فان هذه هى واجبات الملوک على الأرض ... قدم الاهتمام بأمر الدين على كل شى ، ولاتفتر فى المواظبة عليه ، ولاتستخدم الاشخاص الذين لايهتمون بأمر الدين ولايجتنبون الكبائر وينغمسون فى الفحش ، وجانب البدع المضرة ، وباعد الذين يعرضونک على الحقد والظلم ... وسع للمعوزين قوتهم ، ولا تمد يدک الى مال أحد من رعيتک ، وابذل عطفک واكرامک للمستحقين ... وبما أن العلماءهم بمثابة القوة المبثوثة فى جسم الدولة

فاعطف عليهم وشجعهم. حذار حذار ، لايغرنك المال ولا الجند ، ولا تبعد أهل الشريعة عن بابك ، ولاتمل الى عملٍ يخالف أحكام الشريعة فان الدين غايته والهداية منهجنا ... خذ منى هذه العبرة : حضرت الى هذه البلاد كنملة ضعيفة فأعطانى الله هذه النعم الجليلة . فالزم مسلكي واحذ حذوى ، واعمل على تعزيز هذا الدين المحمدى وتوقير أهله مع سائر رعيتك المطيعة ، ولاتصرف أموال الدولة أكثر من اللزوم ولاتضن على أخلافك بنصائحك ..(١)

وبعد ، فتلك خطوط عريضة ثلاثة فى طريق الدعوة الى الله عزوجل . بسطت الحديث عنها بالقدر الممكن ، وتحت كل واحد من هذه الخطوط ملاحظات وآداب تفصيلية . لاضرر فى طى الحديث عنها ، لوضعنا سلامة العمل بخطوطها الرئيسية العريضة .

فاذا تذكرنا أن واجبنا الذى شرفنا الله تعالى به ، قادة وشعوبا ، انه ـ هو اقامة دينه وتنفيذ شرعه ، وارتداء جلباب العبودية له وان اليه المرجع والمآب : علمنا مدى ضرورة النهوض بهذا الذى ذكرناه ، والله المستعان فى الهداية والتوفيق .

المراجع

(١) من كتاب : العاهل العثمانى أبو الفتح السلطان محمد الثانى . تأليف على همت ، ترجمة محمد احسان عبدالعزيز ، ص ١٤٢ ـ ١٤٦ .

تقــريــــر
حــول
أوضـــاع الجـــاليات الاســـلامية
ومشاكلها و احتياجاتهـا فى
امــريــكا الوسطــى والجنــوبية وبــلاد الكريبيين

محمد سميع الله

ان امريـكا الـلاتينية تبـــرز أمـــام الـعـــالـم كـقـوة عـظيمـــة في وقـت تميــل كتـلات القــوى النـاشـئة بعـد الحـــرب الـى الانهيـار والانـكســـار . ونجــد اليــوم هـذه القـــارة علـى استعــداد لتلقى الــرسـالـة السـمـاية التى جـاء بها القــرآن ويمكـن أن نعتبـرهـــا مثـــل القـــارة الافــريقية فـى كـونها رصيـــدا ثمينـا لمعتنـقى الاســـلام . ومـع وجـود عـوائق متعـــدد ة فان هنـاك الآلاف من النفـوس المتعطشـة التـى تتطلـع الى دين الله تطلـعـا حقيقيـا ويكادون ان ينضـــموا الـــى صـفـوفه اذا ما دعـوا اليـــه بالحـــكمة والمـــوعظة الحسنة . ولـــكنـه مـع الاسف لمـأســأة للمســلمين انهم من ناحيـة لايقـومون بواجبهـم الدينـى فـى الـدعوة الـى الله عـــزوجـل وينقصـــهم أيضـــا التمثـل فى

حياتهم الفـردية العـمـلية بسيـرة الاسـلام النقـية الجلية من ناحـية أخـرى وبـذلك انهم يرتكبـون اثمـا عظيمـا وتغـافـلا خطـيرا عما فـرض الله عليهم من واجب ـ

ولايـوجـد أى نشـاط للدعـوة الـى الاسـلام فى امـريكا اللاتينية الـذى يجـدر بالـذكر غير أن هناك بعض المجمـوعات مـن الأشخـاص يقـومـون بعمـل مفيـد فى مجـال التبـليغ فى البـلاد الناطقـة بالانكليزية مثل باربادوس وتـرينداد وكيانا (GUYANA) وبانامـه . ولكـن العمـل على نشـر الـدعوة الاسـلامية على نطاق واسع أمـر مهم جـدا . وهناك حاجـة ماسـة الى تـرسيخ أنشطـة الـدعوة بين الطلبـة المسـلمين والمعتنقين الجـدد للاسـلام مـن خـلال زيارات متتالية تتم الـى هـذه البـلاد مـن قبل العـلماء المخلـصين الـداعين الى الله من مختلف البـلاد الاسـلامية وهـذا سـوف يحث المهـاجـرين المسلمين والطلبـة الـدارسيـن هنـاك علـى تفقـه دينهـم وتطـبيـق أحـكامـه وهـم يعيشـون فى هـذه البئيـة الاجنبيـة ، ويجـب فـى نفس الـوقـت أن تكـون هناك متابعـة مستمـرة واهتمام بالـغ مـن الـدول الاسـلامية لتقـوية حمـاس هؤلاء الـطلبة والعـامليـن المسلمين .

وكذلك ومع الأسف الشـديد ينقـص بعـض البـلاد امـريـكا الـوسطـي والجنـوبية النشـاط الـلازم للـدعـوة

والارشاد فى الحياة اليومية ولا تتحسن هذه الأوضاع المحزنة الا بتوفير عدد كاف من الأئمة المتفرغين للجاليات المسلمة فى عواصم الدول على الأقل حتى يمكن للمسلمين أن يرجعوا اليهم عند الحاجة .

وينبغى ايفاء متطلبات الشباب المسلم بادخال وسيلة مخيمات الشباب فى أمريكا اللاتينية حيث يدعى مجموعة من الشباب المسلم وتلقى دروس ومحاضرات تغطى مختلف جوانب المنهج الاسلامى للحياة وتشرح لهم مقومات الحياة الاسلامية . ويجب أن يكون الهدف الرئيسى لهذه النشاطات تحسين اوضاع سبابنا الدينية وتكييفهما تكييفا اسلاميا ليكونوا شبابا مسلمين حقا فى عقيدتهم وسيرتهم فخورين بدينهم وبانتماءهم اليه وغيورين على ايمانهم به . وبهذه الطريقة يمكن لمسلمى امريكا اللاتينية أن يحافظوا على مستقبلهم الاسلامى .

ولابد هنا من الاشارة الى أهمية اللغة الأسبانية لعمل الدعوة ومدى ارتباطها بالتاريخ الاسلامى المجيد لأسبانيا خلال الحكم الاسلامى فيها الذى دام سبعة قرون وهذه اللغة مع كونها احدى اللغات الخمسة لهيئة الامم المتحدة فهى لغة ذات أهمية عالمية تنافس الفرنسية والألمانية ولايقل عدد

الناطقين بها عن ٣٠٠ مليون شخص فى ٢٠ دولة فى أمريكا الوسطى والجنوبية علاوة على أسبانيا . ومع الأسف الشديد لاتوجد أى كتب حول الاسلام فى الأسبانية وهناك ضرورة ملحة لترجمة أسبانية للقرآن الكريم التى تكون موثوقة بها حتى تجد الأقليات المسلمة فى أمريكا اللاتينية الى معانى الذكر الحكيم سبيلا .

ومما يبشر بالخير أنه قام أخ مسلم من أسبانيا المسمى بالبيرو ماجوردوم كومنس (أحمد عبدالله) بترجمة معانى القرآن الكريم الى اللغة الأسبانية وسوف تكون هذه الترجمة فى عدة مجلدات . ولكن المجلد الأول الذى يحتوى الى نهاية سورة آل عمران قد طبع بدون النص العربى ولم تأت الى الآن مرحلة طبع المجلدات الأخرى لعدم توفر الامكانيات المالية حسب ما أخبرنا الأخ المترجم. وان المترجم لايتمتع بسمعة طيبة لدى المسلمين فى أسبانيا لسببين (١) .أنه ليس بمسلم عامل بنفسه وان معرفته للغة العربية وادراكه لروح القرآن ليسا بالدرجة المطلوبة فلملأ هذا الفراغ بادرت الجالية الاسلامية بغرناطة التى هى عبارة عن معتنقى الاسلام الجدد الذين يتبعون السلالة الزرقاوية الصوفية ،

بتشكيل لجنة تضم أربعة أشخاص وكلفت اللجنة بترجمة معاني القرآن الكريم الى اللغة الأسبانية . وهذه اللجنة تريد طبع الترجمة في اسبانيا مع النص العربي . وان امامهم الشيخ محمد دل بوزو الأندلسي هو المشرف على هذا المشروع . وان اللجنة المذكورة قد ترجمت الى الآن معاني نصف المصحف الشريف وانها تزاول عملها في الوقت الحاضر . وقيل لنا أن أعضاء اللجنة على اتصال بجامعة القرويين في فاس (المغرب) لمراجعة ترجمتهم . ولاتنكر أهمية هذه المراجعة نظرا الى أن هؤلاء الاخوة المسلمين حديث عهد بالاسلام ولم يضطلعوا بعد بالشريعة الاسلامية واللغة العربية حق الاضطلاع فلا ينبغي لهم أن يتحملوا هذه المسئولية المهمة بأنفسهم .

وبالاضافة الى ترجمة القرآن الكريم الى الاسبانية نقترح أيضا تولية الاهتمام البالغ بترجمة معاني القرآن الكريم الى اللغة البرتغالية أيضا التي يبلغ عدد الناطقين بها الى ١٥٠ مليون نسمة تقريباً ١٢٠ مليونا في برازيل ، و ٣٠ مليونا في البرتغال ، وانجولا وموزمبيق ، وغيني بساؤ وكيب وردي . وان التراجم المتوفرة حاليا للقرآن الكريم في اللغة البرتغالية (وعددها خمسة) كلها باقلام غير المسلمين فلا تكاد توثق بها اما لنقصها أو لكونها مشوهة وان

مترجميهاهم من المستشرقين أو رجال الكنيسة المسيحية . فأدرك الدكتور حلمي نصر المصرى الذى يشتغل منذ ١٩٦٢ م كأستاذ اللغة العربية والدراسات الاسلامية بجامعة ساؤبولو (برازيل) هذا الوضع المحزن وأخذ على نفسه العمل على ترجمة معانى القرآن الكريم الى اللغة البرتغالية . وان الدكتور حلمى نصر مسلم متدين قد درس فى الأزهر تسع سنوات ثم أخذ شهادة الدكتوراة من جامعة سوربون بباريس . ويرجى أنه يوفق فى تكميل ترجمته مع انتهاء عام ١٩٨٣ م ويؤمل أن الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة سوف تلتزم بطبعها ونشرها ان شاء الله تعالى .

ولاينكر أهمية اخراج تراجم صحيحة وموثوقة بها للقرآن الكريم بجميع اللغات المهمة الرائجة فى العالم حتى يمكن لكل من المسلمين وغير المسلمين الاستفادة والاستنارة من رسالة الله الخالدة التى يحملها القرآن الكريم للبشرية جمعاء . وان هنا الكتاب هو أصل العلم مطلقا وهو الذى يضمن الهداية للانسان ليخرجه من الظلمات الي النور . وما أحسن ماكتبه الدكتور اسرار أحمد فى تفسير سورة العصر أن القرآن يطالب من كل مسلم خمسة أمور تالية :

١ـ يطلب من المسلم الايمان بكون القرآن وحيا من عندالله وكلاما الهيا .

٢ـ يطلب منه تلاوته يوميا بانتظام .

٣ـ يطلب منه أن يفهمه حق فهمه .

٤ـ يطلب منه أن يطبق تعاليمه حسب وسعه وطاقته .

٥ـ يطلب منه أن يبلغ تعاليمه الى الآخرين .

وعلى هذا المعنى يدل أمر الرسول عليه الصلوة والسلام في قوله : بلغوا عني ولو آية فثبت من هذا أنه لم يستثنى أحد من مسئولية نشر تعاليم القرآن الكريم وان هذا الواجب (أى واجب نشر الدعوة الاسلامية فى كل بقعة من بقاع المعمورة الذى الزمت الأمة الاسلامية بأداءه الى الابد) يختلف بالنسبة لكل شخص فان هذا الواجب على أهل العلم والمعرفة يكون حسب علمهم وعلى عامة الناس حسب المستطاع والمطاق . فاذا قدر أحد على قراءة القرآن فحسب فعليه أن يعلمه الآخرين والذى حفظ القرآن كله عليه أن يساعد الآخرين فى حفظه فالذى يقدر على ترجمة معانيه وشرحه عليه أن يعمله للآخرين فالذى أووتى العلم بمعانيه ومعارفه عليه أن يفسرها للآخرين وكذلك الذى عرف معنى سورة من سورة وشرحها للآخرين فقد أدى واجب نشر القرآن وتعليمه حسب وسعه ولكن المسئولية الاجتماعية للأمة الاسلامية قاطبة لن تؤدى الا بنشر نص القرآن الكريم ومعانيه وتعاليمه ومحتوياته الى العالم أجمع والى كافة الناس فى مشارق الأرض ومغاربها .

ونقدم فى الصفحات التالية استعراضا موجزا لوضع كل دولة من دول أمريكا اللاتينية حتى يمكن لنا تقييم الأوضاع والامكانيات المتوفرة للدعوة الاسلامية واختيار السبل والوسائل المناسبة لهذه الدعوة فى البيئة الغير اسلامية .

بـرازيل :

ان برازيل دولة ذات جوانب قارية يبلغ عدد سكانها الى ١٢٠ مليونا فينتمى أكثرهم الى المذهب الكاثوليكى ويوجد فيها أيضا

مسلمون من أصل عـربى يبلغ عـددهم الى مليون واحد . ويسكـن أكثرهم فى ولاية ساؤبولو حيث بنى أول مسجد فى برازيل فى بداية الخمسينـات وبنى بعد هذا اثنا عشـر مسجدا ومنها المسجد الذى بنى فى ريودى جنريو المدينة التى كانت عاصمة برازيل حتى عام ١٩٦٠ م وهذا المسجد الى الآن تحت البناء .

وا لمسلمون العرب فى برازيل منذ جيليـن أو ثلاثة أجيـال بعدوا عن الاسـلام بعدا . فبألاضافة الى الجهل عن المبادئ الاساسية للدين (فلايقدر بعضهم حتى على تلاوة البسملة) فقد بدأ الجيل الناشئ يندمج فى المجتمع البرازيلى الغير اسـلامى بالزواج (حتى الفتيات المسلمات يتزوجن بغير المسلمين) فتنقطـع بذلک صلتهم بالعالم الاسـلامى . وشرب الخمر والاختلاط الحربين الجنسين كانا ضربا قاسيا على المجتمع الاسـلامى . وتأثرت الحيـاة الاجتمـاعية للمسلمين بالتقاليد والعـادات الغـربية وانتشـر هذا التأثيـر الغـربـى بسرعة بين أبنـاء الاســلام فقلمـا يراعـى الاحتشـام فى السلـوک والمـلابس . ومع وجود جهود شخصية من قبل بعض المتدينين فان هناک حاجة ماسة الى احياء التقاليد والقيم الاسـلامية وتمكين الروح الدينية فى نفوس المسلمين فى هذا البلد .

والمسلمون العـرب فى برازيل يشـكلون طبقة متخلفـة نسبيا وتنحصـر نشاطاتهم فـى مجال التجارة والصناعة بدون أى تمثيل لهم فى البرلمان أو فى الجهاز الحكـومى بينما المسيحيون مـن العـرب البالغون عددا الى ٤ ملايين طبقة ثرية يحسب لها الحساب فى الحياة السياسية والاقتصادية لبرازيل . فبالاضافة الى ٣٨ عضوا من أصـل

عـربى فى البرلمان الفيدرالى ، هناك وزيـران فى مجلس الـوزراء الفيدرالى وحاكم فى أحـدى الولايات ورئيس القضاء الأعلى للدولة كلهم من أصل عـربى ولانذكرهنا عديدا من الأطبـاء والمهندسيـن والأساتذه الذين هم من أصل مسيحى عـربى أيضا . ويقال أيضا أن تسعة من عشـرة مليونيرات الذين هم من كبار أقطاب الصنـاعة فى برازيل أيضا مسيحيون عـرب فانهم يمتلكون مراكز الاذاعة المسموعة والمرئية والصحف الأسبـوعية . كمـا يعيش منهم فى برازيـل بعض الكتاب ورجال العلم والصحافة .

ومع أن عدد اليهود فى برازيل لايزيد على ٤٥٠،٠٠٠ فان نفوذهم كبير وخاصة فى وسائل الاعـلام . فانهم يمتلكون أهم الصحف البرازيلية وحتى فـى المؤسسات الصحفية المسيحية فاليهود يمارسون تأثيرا بالغا فى نشـر الأخبار وعـرض الأفكار . والهنادكة تغلغـلـوا أخيرا فى المجتمع البرازيلى مع عددهم الضئيل الذى لايتجـاوز مأة وذلك بواسطة فـرق اليوغا وهـرى كرشنا التى تمكنت خلال السنوات الأخيرة من اخـراج مايزيد على ٢٤ كتابا فى اللغة البرتغالية .

وان انتشار هذه الطوائف الروحانية فى برازيل ان دل على شيئ فانما يدل على فشل المذهب الكاثوليكى فى مواجهة التحدى الذى تمثله الأوضاع الفوضوية والتدهور الاخلاقى الذى استحوذ على المجتمع البرازيلى والذى يزداد خطورة بمرور الأيام . ولايختلف من هذا حال الدول الناطقة بالاسبانية فى هذه القارة . ومن أجـل هذا الاضطراب العقلى والانحطاط الأخلاقى تبحث مجتمعات هذه القارة عن ملجأ ومأوى روحى لايوجد الا عند الاسـلام وهذا يحملنا مسئولية

تقديم تعاليم ديننا الحنيف أمام هذه النفوس المتعطشة . وادراكا لهذه الأوضاع ولاستعادة الرصيد الاسلامى الموجود فى هذه البلاد المتمثل فى الجالية العربية المسلمة ولصيانة أجيالهم القادمة من التغرب والانحراف والاندماج فى المجتمع الغير اسلامى وضعت رابطة العالم الاسلامى خطة لاحياء عمل الدعوة فى بلاد أمريكا اللاتينية فعقدت الرابطة مؤتمرها المحلى بترينيداد فى عام ١٩٧٧ م الذى توصل الى وضع مشروع انشاء اتحاد للجمعيات الاسلامية وبناء مساجد ومدارس ومراكز اسلامية حيث تتوفر أيضا تسهيلات الألعاب الرياضية للشباب والتى تعنى أيضا باقامة مخيمات للشباب وبتنظم ارسال الطلبة المسلمين للدراسة فى الدول الاسلامية وبالحصول على مدرسين للعلوم الاسلامية . ولكن لم يبرز حتى الآن أى شيئى من هذه المشاريع الى حيز التنفيذ .

وهناك مشروع آخر بالغ الأهمية يستحق العناية وهو اعداد وتوزيع الكتب الاسلامية باللغتين الأسبانية والبرتغالية . وفى برازيل بالذات هناك مليون مسلم بأشد الحاجة الى هذا نظرا لتغرب أجيالهم الناشئة من الاسلام ولخطر اندما جهم فى المجتمع الغير اسلامى كما أسلفنا . ويجب توفير الكتب الاسلامية والمجلات الدينية الى هؤلاء المسلمين باللغة الاسبانية والبرتغالية لتقوية صلاتهم الروحية والفكرية بالدين . فاذا بقيت هذه الجاليات الاسلامية الكائنة فى الدول الكبرى مثل ارجنتينا وبرازيل غير قادرة على استيفاء هذه المتطلبات الدينية فكيف يتوقع منها أن تساعد وترشد أخواتها من الجاليات الاسلامية الصغيرة فى أماكن أخرى وهذا مايؤكد ضرورة

توفير عدد مناسب من العلماء والائمة الى المسلمين فى برازيل و أرجنتينا و يجب لهؤلاء الأئمة والعلماء أن يكونوا مضطلعين بعلم الشريعة ومقارنة الأديان المعاصرة كما ينبغى لهم أيضا أن يجيدوا اللغة الاسبانية البرتغالية بمستوى عملى على الأقل .

وان الفرص والامكانيات الموجوده لنشر دعوة الاسلام فى أمريكا الجنوبية ليست بأقل من أى مكان فى العالم الغربى . فان معظم الكنائس أصبحت خالية من أتباعها والناس كلهم يمرون بمرحلة الفراغ الروحى وكما يقول الكاتبان سيرل بيتس وباك فى كتابهما „ امكانيات للمسيحة فى العالم „ (المطبوع فى نيويورك ، ص ١٧٤) أن الانسان الأمريكى اللاتينى لايتوجه الى الكنيسة لحل مشاكلة الروحية والمادية ، فان أغلبية سكان أمريكا اللاتينية مسيحيون بالتقليد فقط لا بالاقتناع والايمان فملايين من سكان هذه المنطقة يتيهون فى ظلمات الضلال الروحى فان لم نحمل الى هؤلاء دعوة الاسلام فسوف نكون مجرمين أمام الله تعالى . فان رغبة الناس قد اشتدت وازدادت فى التطلع الى الدين الحق خاصة بعد أن ظهر فشل الكنيسة المسيحية فى مكافحة الجرائم والقضاء على الانحلال الأخلاقى فى برازيل والدول الأخرى الناطقة بالاسبانية . كما يدل على ذلك اهتمام جامعة برازيليا بعقد ندوة عالمية حول „ الحضارة الاسلامية „ فى أكتوبر ١٩٨٠ م التى دعيت لمشاركتها جميع السفارات الاسلامية .

ان برازيل هى الدولة الوحيدة الناطقة باللغة البرتغالية فى أمريكا الجنوبية ولكنها بحجمها وعدد سكانها تساوى سائر الدول

الأخرى بمجموعها فى أمريكا الجنوبية . فمن الضرورى جدا أن نتخذ من هذه البلاد الواسعة معقلا للدعوة الاسلامية . ومع كونها بلدا كاثوليكيا فانها لاتعيق منح التأشيرات الى المبلغين الغير كاثوليكيين بشرط مراعاة الأنظمة واللوائح المحلية . فيجب علينا أن ننتهز هذه الفرصة وأن لا نفقدها .

وأما الوضع العام الذى يعيش فيه أهل الاسلام فى برازيل فليس على ما يرام من وجهة النظر الاسلامية . مع أن اخواننا يكسبون أموالا كثيرة ولكنهم قلما يلتفتون الى الجانب الدينى أو الثقافى للحياة . فباستثناء قليل من المساجد والمدارس لاتتوفر التسهيلات والامكانيات لتربية الأولاد الدينية . (فالأجيال الحديثة للمسلمين العرب تتلقى دراستها فى المدارس الحكومية ولاتتكلم اللغة العربية). وغفل عن هذا الجانب الأساسى الآباء والأمهات لانهماكهم فى كسب الأموال وجلب المنافع المادية . فما أحوج هؤلاء المسلمين والمسلمات الى عناية العالم الاسلامى ومساعدته لاصلاح أحوالهم الدينية . وقد تم ابادة الجالية المسلمة الافريقية التى كانت معروفة فى التاريخ منذ عهد قديم فى اقليم باهية ولكننا علمنا من المصادر المطلعة أنه يمكن احياء هذه الجالية الاسلامية من جديد بالعمل التدريجى المخطط فالحاجة ماسة الى وجود بعض الشيوخ المسلمين الأفارقة من نائيجريا أو مالى ليقوموا باستعادة هذه الجالية السوداء فى باهية التى بلغت الآن الى حالة غفلة تامة عن الاسلام فاذا ماذكر هؤلاء الناس بأن آباءهم وأجدادهم لم يكونوا مسلمين فحسب بل كانوا حملة لواء هذا الدين الحنيف فانهم ان شاءالله تعالى سوف يعودون الى

الاسلام مرة أخرى . ويجب انشاء مسجد مركز اسلامى فى باهية على الفور ليبدأ فى هذه العملية . فاذا عاد شعور هؤلاء الناس بالاسلام فهذا سوف يؤدى ان شاء الله الى احياء المسلمين فى الأقاليم (الولايات) المجاورة حيث يواجه المسلمون مشكلة قلة المرشدين والدعاة الاسلاميين .

وكان الجزء الشرقى الشمالى لبرازيل قاعدة للاسلام فى نصف الكرة الغربية فى مرة من المرات . وكان تجار العبيد الأوربيون يأتون بالعبيد الافارقة ليعملوا لهم فى حقول قارتى جنوب أمريكا وشمال أمريكا . وان كثيرا من هؤلاء الأفارقة كانوا مسلمين لما جاءوا أوجيئى بهم هنا فعملوا كل مافى وسعهم للاحتفاظ بدينهم ولكن اضطهاد سادتهم كان مفرطا لهم وكانت عيشتهم ضيقة ولم يكدو يتحملون هذا السلوك اللا انسانى فبمرور الوقت اندثرت فيهم آثار العقيدة الاسلامية لأنه لم يعد بالامكان نقل التراث الدينى من جيل سابق الى جيل لاحق . فمن هذه الدفعة(٢) الثانية من القادمين المسلمين لاترى الآن الا قلة ضئيلة فالمجموعة من المسلمين التى حافظت على اسلامها لمدة أطول نسبيا هى تلك التي اشتملت على المسلمين الأفارقة الذين جيئى بهم الى برازيل . فان هؤلاء المسلمين احتفظوا بدينهم طوال قرون عديدة وقد ثاروا على سادتهم عدة مرات خلال القرن التاسع عشر . ولكن الاضطهاد والتعذيب العنيفين من قبل السلطات البرازيلية قضت على هذه الثورات وعلى كل مؤسسة اسلامية فى البلاد وبالتالى أدت الى قطع صلات هذه المجموعات ، تدريجيا بالاسلام وتعاليمه . ولكنه مع كل هذا لايفوت

أى زائر لباهية حتى اليوم الملاحظة أن بعضا من العائلات السوداء لازالت باقية على اسلامها . وان هذه العائلات المسلمة تتمتع بوضع اقتصادى جيد ولكنها تستنجد المسلمين للمساعدة والمساندة لتقوية وضعها الدينى . فان تلقت هذه المساعدة بدون فقد مزيد من الوقت فعسى أن يصبح أعضاءها حملة نور الاسلام فى قارة جنوب أمريكا مرة أخرى . وان من واجب المسلمين الذين يعيشون فى بلاد الاسلام الحرة أن يبادروا الى امدادهم وانقاذهم فان هؤلاء المسلمين السود فى باهية بلغوا مرحلة الانحلال والاندماج الى درجة أنه يستبعد بقاء الاسلام فيهم بدون المدد والسند من الخارج .

أرجنتينا :

ان أرجنتينا هى أكبر دولة ناطقة بالاسبانية فى قارة جنوب أمريكا . وهى تجاور المحيط الأطلسى وجبال انديس (Andes) ويوروغوائى وباراغوائى من الجهات الأربعة . وان اقتصادها زراعى الى حد كبير ولكنها تملك رصيدا صناعيا كبيرا وتنتج فعلا كل الحاجيات التى تستهلكها . وسكان أرجنتينا عامة ، أناس أقوياء مغرمون بالرياضة . (٣)

ومساحة أرجنتينا ١٠٩٩٩٥ ميل مربع كما يبلغ عدد سكانها ٣٠ مليون نسمة نصف مليون منها مسلمون من أصل عربى . (كما يوجد فى أرجنتينا مليون و نصف مسيحى عربى الذين يحتلون مراكز جيدة فى مجالات مختلفة . مع أنه يوجد فى برازيل فى مختلف مدنها ١٢ مسجدا ولكن أرجنتينا بأشد الحاجة الى المساجد . فلايوجد هناك مسجد واحد فى أرجنتينا كلها ويوجد اقتراح بناء مسجد فى بوينوس

آئرس (العاصمة) وقد تم الحصول لهذا الغرض على قطعة من الأرض قبل سنوات عديدة ولكن مجلس الادارة ليس جديا فى الموضوع . ويقابل هذا وضع اليهود فى أرجنتينا الذين لايزيد عددهم على عدد المسلمين ولكن مع ذلك فان لهم مالايقل عن ٦٠ كنيساوا ٩٠ مدرسة مستقلة .

والمسلمون فى أرجنتينا ـ ومعظمهم من المهاجرين من بلاد لبنان و الشام وفلسطين ـ قد اختاروا سنة الحياة الغربية ومعرفة كثير منهم بدينهم قليلة جدا وكذلك نسبة الملمين منهم باللغة العربية والناطقين بها ضئيلة وهكذا لايوجد فى أرجنتينا شيئى من الأدب الدينى الا نادرا . والترجمة الاسبانية لمعانى القرآن الكريم الذى قام بها رافائيل كاستيتانوس أحد المسيحين بالاشتراک مع أحمد عبود أحد المسلمين الشيعيين خطوة جيدة نحو هذا الاتجاه . وقد صدرت أخيرا طبعتها الثالثة ولكنها لاتحتوى على النص الاصلى وتقول المصادر المطلعة أن هذه الترجمة تحتاج الى مراجعة دقيقة قبل أن تقترح مطالعتها وتعرض على القراء المسلمين وغير المسلمين . وان خمس أهم مدن أرجنتينا ـ بوئنوس آئرس ، وروزاديو وقرطبة ومیندوسا وتكومان تحتاج علىٰ الفور الى العلماء المسلمين ليقوموا بتربية المسلمين تربية دينية وخاصة فى العقائد الاسلامية وأحكام الشريعة الضرورية حتى يميزوا بين الحلال والحرام ويعيشوا عيشة صالحة اسلامية حسب ماتقتضية الشريعة . ان للمسلمين فى أرجنتينا مبنى كبير للمركز الاسلامى ولكن لايوجد لهذا المركز أى نشاط اسلامى تقريبا ماعدا اقامة

صلوة الجمعة التى لايحضرها أكثر من [٣] ٣٠ أو ٤٠ شخصا . كما يحضر هذا المركز ٣٠ ـ ٤٠ من الاولاد الصغار (ومعظمهم مسيحيون) لتعلم اللغة العربية . ان الامام الحالى لهذا المركز الاستاذ ارشاد الاعظمى المنتدب من دار الافتاء أخ مسلم طيب من لكنو (الهند) ولكنه مع الاسف لايعرف اللغة الاسبانية وهذا ينقص صلاحيته للعمل الاسلامى .

فالوضع الدينى لمسلمى أرجنتينا لوضع خطير فعلا . وانهم مع وضعهم الاقتصادى الجيد متخلفون جدا من الناحية الدينية ويحتاجون الى اهتمام بالغ وارسال عدد كاف من الائمة والمدرسين والواعظين والدعاة المؤهلين من حيث معرفتهم بالاسلام من ناحية وبمقارنة الأديان المعاصرة والشئون الدولية العامة من ناحية أخرى . كما يجب أن يكون هؤلاء الدعاة مضطلعين باللغة الاسبانية حتى يكونوا قادرين جيدا على الاتصال والارتباط بالجالية التى يقومون بخدمتها .

ولاتوجد فى بلاد أمريكا اللاتينية عامة أى تسهيلات لتوفير اللحم الحلال لاستهلاك المسلمين هناك . وان أرجنتينا وبرازيل تصدران لحومهما بكميات هائلة الى الدول العربية و تضعان عليها علامة الحلال بدون أن تهتما بمراعاة أحكام الشريعة فى ذبح الحيوانات ولاتوظفان أى جزار مسلم لهذا الغرض ونرى من ناحية أخرى أن اليهود يضمنون توفير لحم كوشر حيثما وجدمنهم عدد ولو قليل . ولكن المسلمين الذين يعيشون فى مئات الالوف فى أرجنتينا وبرازيل وكولمبيا وبيرو وتشيلى ووينيزويلا والمكسيك لايبالون مع الأسف ، بتوفير اللحم الحلال لأنفسهم لقلة غيرتهم الدينية ولبعدهم

عن الاسلام على مر العصور وكر الدهور وهذه الظاهرة ولو كانت تبدو أمرا بسيطا تمثل الصلات المتضعضعة لأهل الاسلام بأحكام الشريعة وتشير الى تأثرهم بالحضارة الغربية . فهذه القضية أيضا من ضمن الأمور التى تدعو الى الاهتمام والعناية من الدول الاسلامية . ويجب علينا أن ننظم جهودنا ونضع خطة العمل للارشاد والدعوة لنكسب هؤلاء المسلمين المفقودين فى المجتمع الأرجنتينى ونأتى بهم مرة أخرى الى مخيم المسلمين ليلعبوا دورهم فى نشر الاسلام فى أمريكا اللاتينية حيث لم تعرض الى الآن رسالة الاسلام الخالدة التى هى رسالة السلام والسعادة على الوجه المطلوب لغفلة الحكومات والمنظمات الاسلامية .

وهناك أمكانيات كبيرة لنشر الاسلام فى أرجنتينا أيضا مثل أى مكان آخر فى قارة أمريكا الجنوبية . ولكن يجب قبل كل شئ معالجة المسلمين الذين أصبحوا غرباء عن دينهم حتى لايقول الناس أن « الأولى بالطبيب أن يعالج نفسه أولا » فالاحصائيات التى طبعتها الحكومة السعودية عن الحج خلال عام ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م) تفيد بأنه لم يأت من أرجنتينا أحد لأداء فريضة الحج وأما من برازيل فلم يحضر الاثمانية حجاج فقط . فتجاوب هؤلاء المسلمين مع هذا الركن الأساسى للاسلام يكفى دليلا على بعدهم عن تطبيق أحكام الشريعة واقامة سعائر الدين . فلذلك يجب أن لانضيع مزيدا من الوقت ونعمل فورا على اعادة تنظيم شئون المسلمين على الوجه الشرعى الأمثل و أن نضع خططا بعيدة المدى للدعوة والارشاد فى هذه المنطقة وأن نعتبر هذا الامر فى أعلى قائمة أولياتنا .

وهناك حاجة ملحة على فتح مراكز الدعوة فى جميع مدن أرجنتينا الرئيسية لنشر معرفة الاسلام . فان المسلمين من سكان أرجنتينا لايشعرون اطلاقا بأهمية هذه الضرورة وهذا هو السبب وراء كون الاسلام غريبا فى هذه البلاد . فان من واجب كل انسان مسلم أن يتعاون مع اخوته المسلمين فى كل مكان على عمل الدعوة الى الاسلام وتعليمه وتبليغ كل آية تلقاها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فالسنة النبوية ، على صاحبها ألف ألف صلوة وتحية التى أصبحت مجهولة ، يجب على كل مسلم احياءها ونشرها وتلقينها للآخرين فالالتزام بسنته عليه الصلوة والسلام هو الذى يقوى ايماننا بالله ويزينه .

ان حياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها قضيت فى عمل دعوة الناس الى الاسلام وبعد أن ذهب عليه السلام الى الرفيق الأعلى أصبح عمل الدعوة مسئولية كل انسان مسلم على وجه الأرض وهذه المسئولية لابد من أداءها على كل حال وعلينا أن نتبع فى أداءها خطواته عليه السلام . فان أول عمل قام به عند قدومه الى المدينة هو بناء مسجد والمسجد فى الاسلام ليس مركزا للصلوة والعبادة فحسب (لان الأرض كلها جعلت مسجدا). بل انه فى نفس الوقت مركزا للتعليم والتثقيف و مركز للفلاح الاجتماعى ولتدبير كل أمر يتعلق بفلاح الأمة وصلاحها . فيجب علينا من حيث المسلمين أن نبذل جهودنا لتحقيق أمنية المسلمين فى بناء المسجد المقترح فى بوئنوس آئرس ، فهو المشروع الذى مضت عليها سنوات عديدة دون أن يدخل مرحلة التنفيذ . وننظر أيضا بعد بناء المسجد فى استعماله

لخدمة الدين على الوجه المطلوب ليؤدى المسجد دوره المأمول بمعناه الواسع كما ذكرنا آنفا حتى يكون هذا المسجد وسيلة حقيقية لتطبيق تعاليم الاسلام فى حياة المسلم الأرجنتيني ولدعوة الناس الآخرين الى الدين الخالص . ونؤكد هنا على ضرورة توحيد صفوف المسلمين فى أرجنتينا ليقوموا بأداء مسئولياتهم الدينية بالتعاون والتناسق وانهم سوف يحققون هذه الغايات النبيلة ان شاء بتوفيق الله ونصرته اذا جمعوا شملهم وتعاونوا على البر والتقوى من خلال هذا المركز الاسلامى المقترح انشاءه فى أرجنتينا التى هى مركز الاعصاب للقارة الأمريكية الأسبانية .

وينزويلا :

هى خامس أكبر دولة منتجة للزيت فى العالم . وهى عضو بارز فى منظمة ١٣ دولة مصدرة للنفط (الاوبيك) ومساحتها ٣٥٠،٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها يزيد على ١٤ مليون نسمة .

دخل الاسلام هذه البلاد على أيدى المهاجرين العرب خلال النصف الاول من القرن العشرين . ويبلغ عدد سكانها المسلمين الى ٥٠،٠٠٠ معظمهم من أصل شامى وفلسطينى كما يوجد بينهم بعض المسلمين من شبه القارة الهندية . الباكستانية . ويسكن المسلمون غالبا فى كارا كاس (العاصمة) وفى المدن التالية :ماراكى ووالينسيا وماراكائبو وموررون وما غاريتا . وقد أنشى المركز الاسلامى لوينزويلا (Centro Islamico de Venezuela) فى عام ١٩٧٢ م وهذا المركز عبارة عن كوخ اشترته الجالية الاسلامية ليستخدم كمصلى ومدرسة للأطفال المسلمين (وفى الوقت الحاضر

هناك ٦٤ طفـلا مسلما يدرسون على النحو التالى : خمس ساعات للمواد العادية وساعتين للغة العـربية والدراسات الاسـلامية) ويعمل فى هذا المركز أيضا شيخ مصـرى اسمه الشيخ مصطفى الحشـرى من خـريجى الازهـر . وهو رجل صالح مخلص يتقـن اللغتيـن العـربية والفـرنسية ومنذ خمس سنوات الماضية هو يعمل فى المركز كامـام ويهتم بالشئون الـدينية الأخرى . ويجدر هنا أيضا بالذكر شخصـية اسـلامية أخـرى وهـو الشيـخ اسماعيـل الـرئيس الحالـى للجمعية الاسـلامية الذى اهتم بفتح دكان للحوم والبقالة حـرصا منه على توفير اللحم الحـلال للمسلمين كى لايضطروا الى أكل مالم يذكر اسم الله عليه .فان هذا الشيخ يذهب بنفسه الى مركز الجـزارة بعد منتصف الليل ليذبح البقـرات والخرفان والدجاجات وان هذه التضـحية الشخصـية التى يقدمها الشيخ فى سبيل الاسـلام لهو أمـر يسـر النفوس .

ان المركز الاسـلامى (Centro Islamico) مؤسسة وحيدة تعمل فى كاراكاس . وهناك حاجة ماسة الى ايجاد مراكز مماثلة لتنظيم المسلمين هناك ولمساعـدتهم علـى حمـاية النـاشئة المسـلمة من الانحطاط الـدينى المـزيد والتغـرب التام عن الاسـلام .

ان حكومة وينزويلا قد خصصت قطعة من الأرض بمساحة ٧٦٠٠ متـر مربع لبناء مسجد فى مدينة كاراكاس منذ أكثر من أربع سنوات . ووضع حجـر أساسى للمسجد فى ربيع الثانى ١٣٩٩هـ (الموافق مارس ١٩٧٩ م) ولكنه لم يبدأ الى الآن بناء المسجد . وقد عوضت حكومة وينـزويلا الساكنين الـذين كانوا يحتلون هذه القطعة (التى خصصت الآن للمسجد) تعـويضا مناسبا ولكن بما أن المسلمين

لم يبادروا الى بناء المسجد على الفور لم يعد هؤلاء الناس مستعدين لمغادرة المكان ومازالوا يحتلونه . فنتيجة لهذا الوضع أصبح مشروع بناء المسجد أمرا غير موثوق به لكسل المسلمين المحليين ولا مبالاتهم . ونحن نناشد البعثات الاسلامية المقيمة في كاراكاس أن تعمل سيئا على الفور لازالة هذا التعطل القائم حتى يتم بناء المسجد المنتظر في هذه البلاد النائية .

سرينام

سرينام ـ التي كانت تسمى سابقا بغيانا الهولنديه . تقع على الساحل الشرقي الشمالي لأمريكا الجنوبية وهي تتوسط غيبيين أخريين . فعلى غربها تقع غيانا التي كانت تسمى سابقا بالغيانا البريطانية كما تقع على شرقها الغيانا الفرنسية . وهي تجاور برازيل على حدودها الجنوبية كما تطل من الشمال على البحر الأطلسي . وهي تتسع على مساحة ١٦٠،٠٠٠ كلوميتر مربع وتمتاز المنطقة بجمال طبيعي خاص وبمناخ استوائي . واستقلت سرينام في ٢٥ نوفمبر ١٩٧٥ م

. ويقارب عدد سكانها نصف مليون نسمة تقريبا . ونسبة المهاجرين الهنود فيها هي ٣٦٪ وهي تشكل أغلبية خفيفة بالنسبة الى الأفارقة الذين يشكلون نسبة ٣٤٪ كما تبلغ نسبة الأندونيسيين الى ١٨٪ ونسبة زنوج الأدغال والهنود الأمريكيين الى ١٢٪ وأما البقية من سكان سرينام فهم صينيون وأوروبيون وأمريكيون ويهود .

وهناك مأة ألف مسلم في سرينام ٣٠٪ منهم من أصل هندى و ٧٠٪ البقية من أصل أندونيسي . وفي السنوات الأخيرة أثار

القاديانيون (الاحمدية) اضطرابا فى اذهان المسلمين وسوشوا قلوبهم بدعايتهم الخبيثة فالمسلمون فى هذا البلد ينتمون غالبا الى طبقات متوسطة أو فقيره من الناحيه الاقتصادية . والمشكلة الكبرى التى يواجهها أبناء الاسلام فى سريبام أيضا هو عدم وجود العلماء المطلعين والأئمة المؤهلين كما لاتوجد عندهم مكتبات اسلامبة أو دور العلوم الدينه أو مراكز اسلاميه . وهناك مايقارب ٧٠مسجدا فى باراما ديبو ومناطق أخرى وهى تحت اشراف المسلمين من الجاليين الأندونيسية والهنديه . ومع شديد أسفنا نرى أنه لايوجد بين هاتين المجموعين أى اتحاد أو تناسق وقلما يقوم بينهما أى اتصال أو ارتباط وهذا يضر بمصلحة الاسلام ويتعارض مع مبدأ الأخوه والوحدة الاسلامية . ولابد من تحسين هذا الوضع فان كثيرا من المساجد أصبحت خالية أو متعطلة للانسقاق الطائفى المؤسف بين فرقتى الديوبندية والبريلوية من المسلمين . ولايوجد مسجد فى سرينام كلها غير واحد أو اثنين حيث تقام الصلوات الخمسة اليومية كلها بالجماعة . وهناك سبب آخر لقلة حضور المصلين فى المساجد وهو أن كثيرا من العائلات المسلمة غادرت الى هولندا قبل استقلال سريبام مباشرة خوفا من التعسف والاضطهاد على أيدى الزنوج الأفارقة كما حصل خلال مرحلة الاستقلال فى غيانا . فهناك حاجة ماسة الى جهود مكثفة للتبليغ حتى يمكن اعادة هذه المساجد الى وضعها الطبيعى السابق . ويمكن ملأ هذا الفراغ بارسال بعثات الدعوة الاسلامية من الهند وباكستان وأندونيسيا .

ومع أن المسلمين فى هذا البلد ربع سكانها ولكنهم

لايتمتعون بمكانة النفوذ على المسرح الوطنى بحكم نسبتهم الفوية فلايوجد لهم تمثيل كاف فى وظائف الحكومة ولافى المؤسسات الأخرى . ويحتفل بعيد الفطر كعطلة وطنية ويحاول المسلمون أن يكون يوم مولد النبى صلى الله عليه وسلم أيضا عطلة رسمية . ويذهب من سريبام كل سنة عشرون حاجا تقريبا لأداء فريضة الحج .

ان اتباع جميع الديانات يتمتعون بحرية العبادة فى سرينام . وتزداد رغبة الناس فى الاطلاع على الاسلام أكبر فأكثر وخاصة بين الأفارقه الذين ينتمون الى طوائف مسيحية مختلفة . ولكن الحاجة ماسة الى مساعدة الدول التى فيها أغلبية المسلمين ودعمها الفورى لحمايه العقيدة الاسلامية ولنسرها بين المتطلعين اليها . وهذه المساعده مطلوبة فى صورة علماء الدين ومدرسين أكفاء فى مجال الشريعة ليميموا فى سريبام مدة يدربوا خلالها الناس المحليين ويعدوهم للفيام بوظائف الائمة فى المساجد ومدرسى الفرآن الكريم واللغة العربية وأيضا بالتوجيه والارشاد فى السئون الدينية الخ .

فوضع السباب المسلم فى سرينام لوضع محزن للأسباب التى ذكرت آنفا وأهمها نقص العلماء والكتب الدينية وقلة الوسائل المالية لتنظيم التربية الدينية للسباب والناشئة فى المساجد . ولابد من وفاية الشباب من تأثير النظريات الأجنبية والطوائف الهندوكية النشيطة فى هذا البلد . ومن ناحية أخرى نجد أن المبشرين المسيحين يفومون بساط كبير فى سرينام ووراءهم فى هذا العمل كل عون ومدد من حكومتى هولندا والولايات المتحدة الأمريكية .

فجمهورية سرينام التى يسكن على ترابها أكبر مجموعه

السكان المسلمين فى فارة أمريكا الجنوبية بأسد الحاجة الى مايلى :
١ـ العلمـاء والائمة ، والأشخاص المتدربون فى الشئون الدينية .
٢ـ جامعة اسـلامية مع مكتبة مزودة بجميع الكتب الضـرورية فى المواد الاسـلامية ومـدارس تابعة لها تقـوم بنسـر النفـافة والتـربية الاسـلامية وخاصة بتعليم العفيدة وأحكام السـريعة .
٣ـ مطبعة تعنى بطبع الأدب الدينى .
٤ـ دعم مالى لانساء مركز لتدريب الدعاة فى باراماريبو العاصمة .
٥ـ فتح السفارات والفنصليات والبعثات التجارية للدول الاسـلامية (ولاتوجد حاليـا لأى دولة مسـلمة بعثة مقيمة فى سـرينـام ماعـدا أندونيسا) .
٦ـ اتصـال وارتبـاط دائـم بالمنظمـات الاسـلامية فى الـدول الاسـلامية .
٧ـ نسريات اسـلامية باللغة الهولندية (وفـد تفيـد أيضـا كتـب وكتيبات دينية باللغتين الانكليزية والأردية لأنه يمكن ترجمتها الـى الهولندية من فبل بعض المسلمين المحليين) وباللغة ـــ الاندونسية .
وعدم توفر المواد المذكورة أعلاه يجعل عمل الدعوة والتربية الدينية صعبا للغاية . اذا لم نقل محالا واستيفاء هذه المتطلبات أمـر يدعو الى الاهتمام الفورى بدون تضييع مزيد من الوفت وفى الوفت الحاضـر يعمل فى سـرينام منتدبان أندونيسيان خـريجـا الجـامعة الاسـلامية بالمدينة المنورة بين مسلمى جاوا الذين يسكنون فى سـرينام . ولابد من وجود عدد أكبر من العلماء أمنالهما لرفع مستوى مسلمى سـرينام الدينى . وتوجد هناك ثلاث تراجم هولندية للقـرآن الكريم . اننتان

منهما للأحمديين المنتميين الى الفرقتين للاهورية والربوية والترجمة الثالثة هي لأحد المستشرقين البروفيسور ج . ايش . كريمرز (J. H Kramers) فلا يوجد هنا أى أدب دينى ذوقيمة فى اللغه الهولنديه .

وهناك فى سرينام عدة طوائف هندوكية تعمل تحت سعارات الحركات الروحيه الاجتماعية والحكومة الهندية تساعدها وتساندها كما تسجع أيضا نشاط المراكز الثقافية الهندوكية كما يوجد للأحمديين أيضا نشاط فى الدعاية وهم يحتلون مراكز مهمة فى البلد فهناك شخص أحمدى يمتلك محطة مستقلة للاذاعة. فمن واجبنا نحن المسلمين أن نحمى مسلمى سرينام من خطر النظريات الهدامة للاسلام . ولذلك نرى أن ضرورة انساء مركز لتدريب الدعاة على الفور حاجة ملحة لمسلمى سرينام ويجب انجازة فى أسرع وقت ممكن قبل أن نتاخر كثيرا .

غيانا:

هناك ما يقارب مأة ألف مسلم فى غيانا . وهم يشكلون ١٠٪ من مجموع سكانها . وتوجد هناك أيضا جماعة للقاديانيين . فلهم جمعية (باسم أحمدية أنجمن اشاعت اسلام ص .ب . ١٠٦٩٢ ، جورج تاؤن) فعالة جدا فى شبكة دعايتها .

ويوجد هناك ١٢٠ مسجدا . ٦٥٪ منها تقريبا بنيت بالقبة والمناراب وهذه المساجد منتشرة على طول الساحل الأطلسى لغيانا . وتوجد منها ستة مساجد فى مدينة جورج تاؤن العاصمة وتجاور بعض هذه المساجد مدارس دينية حيث تعلم قراءة القرآن الكريم والأحكام

الشـرعية الأساسية .

ويسكن المسلمون في جميع مناطق الساحل الأطلسي لغيانا . ويشتغلون غالبا بالمهن التالية : الـزراعة وصناعة السـكر (بالمصنع والمزرع) والتجارة والوظائف الحكومية . ويحج من مسـلميها كل سنة ١٥ شخصا تقريبا . والاجـراءات الحكومية التى تتخذ على طلبـات الحج من المسلمين هي معقـدة وطويلة الى درجة أنها تساوى الحظـر بالفعل . ولكن المسلمين في غيانا فخـورون بدينهم وغيورون على عقيدتهم ويحاولون بكل اخلاص الـدفاع عن دينهم وعن سخصية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضد دعاية الأعـداء الكفار الـذين يحاولون دوما أن يشوهوا وجه الاسـلام الصافي بأكاذيبهم وهفواتهم كي يضلوا الناس عن سواء السبيل .

يسمح للمسلمين في غيانا الاحتفال بعطلتيـن وطنيتيـن في يومي عيدالاضحي ومولـد النبي عليه السـلام . كما تمنـح للعامليـن المسلمين الـرخصة لأداء صـلوة الجمعة بناءا على طلبهم ولكنه لاتتوفر في المدارس أى تربية دينية رسمية ويتعـرض الطالب المسلم للهجوم على عقيدته من فبل القوى المعادية لـلاسـلام طوال أربع وعشرين ساعة من يومه . ولذلک هناک ضـرورة ملحة علـى تنظيـم التـربية الاسـلامية الخـاصة للـطلبة المسلميـن من خلال تقـوية المـدارس الموجودة التابعة للمساجد التى ذكرناها آنفا . وتظهر في هذا البلد منظمات اسـلامية من حين وتتكاثر مثل الفطـر بدون أن تكون عندها أى جدية تجاه الاسـلام وقضاياه وانه لمن ضـرورات الساعة أن تقضي علـى خلافـاتها وتتحـد تحـت لواء واحـد لخـدمة قضايـا الاسـلام

والمسلمين فى غيانا بفعالية ونشاط مجمع تحتاج اليهما الجالية الاسلامية أيما احتياج .

ان المهاجرين الافارقة (الذين جاء بهم المستعمرون البريطانيون لاستغلالهم كعمال زراعيين) يشكلون ٤٠ ٪ من مجموع سكان غيانا . وانهم الآن بدأوا يتحررون من أوهام المسيحية ومن اباطيل الاشتراكية اللتين فرضتا عليهم فرضا .

والاسلام هو دين أسلاف الأفارقة سواء أكانوا فى افريقيا أو خارجها فى الكيربيين أو فى شمال أمريكا أو فى جنوبها (٤) وعندما ما بعث الله تعالى رسوله بالهدى ابتدأ دعوته بالعرب والأفارقة الموجودين فى الجزيرة العربية حتى انه لم تأت السنة الخامسة من بعثته عليه الصلوة والسلام الا وقد دخل الاسلام بلاد الحبشة فى افريقيا . وبفضل عزائم المسلمين الأفارقة وهممهم وتعاونهم مع اخوانهم العرب انتشر الاسلام عبر القارة الافريقى وفى انحاء العالم الأخرى خلال مدة قصيرة فى التاريخ . وأود الاشارة بهذا الصدد الى ماقاله الشيخ الحاج صلاح الدين بى . تايو أحمد العلماء المشاهير من غانا ان الاسلام هو أفضل دين للأفارقة فى كيربيين وبلاد أمريكا الشمالية والجنوبية لأنه ، هو الدين الوحيد الذى تمكنوا بفضله ومن أجله من استعادة تراثهم المفقود وكيانهم المجهول . فعسى أن يوفقهم الله تعالى للعودة الى أصلهم الاسلام ، دين الانسانية جمعاء (٥) .

كولمبيا :

كولمبيا دولة واسعة تجاور برازيل وفنزويلا وايكوادور

وبانامه . وعدد سكانها ٢٥ مليونا ومنها مايزيد على ١٠٠،٠٠٠ مسلم وهم غالبا من مهاجرى الشام وفلسطين وجنوب لبنان . وقد جاء اللبنانيون الى كولمبيا قبل الناس الآخرين فى سنة ١٨٩١ م . وبعد ذلك كانت الهجرة انر انتهاء الحرب العالمية الأولى لما تدهورت الحالة الاقتصادية فى بلاد الشرق الأوسط هاجر كثير من الناس الى كولمبيا بحثا عن مصادر كسب الرزق . كما يعيش فى كولمبيا ٢٥٠،٠٠٠ مسيحيون عرب وهم فى وضع اقتصادى أحسن بالنسبة للعرب المسلمين .

ولكن الحالة الدينية لمسلمى كولمبيا سيئة جدا مع الأسف . فانه لايوجد فى كولمبيا كلها أى مسجد أو أمام مؤهل . وتوجد فى ماكوربونا ونتورا غرفة أو غرفتان للصلوة ولكن لاتوجد هنا أى ترتيبات لاقامة صلوة الجمعة . وما أحوجت الجالية المسلمة هناك الى هذه التسهيلات والترتيبات لتحسين أحوالها الدينية . وان المسلمين ناسدوا عدة مرات فى الماضى المنظمات الاسلامية الدولية المسئولة فى هذا الصدد ولكن كل هذه المناشدات لم تلق الا آذانا صماء عند المسئولين عن هذه المنظمات . ويجب على المسلمين أن يعملوا شيئا لأداء هذا الواجب الدينى فى الوقت الراهن قبل أن يطفأ نور الاسلام فى هذه البلاد .

ويجب هنا أن نعترف بفضل المسلمين المهاجرين من الهند والتزامهم بالدين فى دول أمريكا الجنوبية مثل سرينام ، وغيانا وترينيداد الخ . فان هؤلاء المهاجرين الهنديين بنوا مساجد يذكر فيها اسم الله وأنشأوا مدارس دينية حيثما ذهبوا واستوطنوا . فهناك

مأة ألف مسلم فى غيانا (منل عـدد المسلمين العـرب فى كولمبيا) ولكن لهم مالايقل عن ١٢٠ مسجد فى مختلف مناطق غيانا حيت تقام الصلوات الخمسة بالجماعة ولكن يقابـل هذا وضـع المسلميـن فى كولمبيا الذين لايملكون مسجدا واحدا فى كولمبيا كلهـا . وهذا يسير الى ابتعاد المسلمين العـرب عن الاسـلام ورغبتهم المفـرطة فى جلب المنافع الاقتصادية . ومع الأسف النسـديـد يظـل هذا الوضـع قائمـا باستمرار فى كولمبيا ويقتضى أن يعالج فى أفـرب وقت ممكن حتى يضئى نور الايمان فلوب جميع المسلمين من كل عـرق ، ولون وخلفية تاريخية .

ومـع أن كولمبيـا دولة فقيـرة ولـكنها معـروفة فى أمريـكا الـلاتينية للتهريـب وتجـارة المخـدرات وقطـع الطـريـق ومهربـوا الحسيس يملكون مصانعهم و طائراتهم الخاصة وكل هذا نتيجة للنفوذ الصهيونى فى هذه البـلاد . وهناك سفارتان مسلمتان فقط هما السفارة اللبنانية والسفارة المصـرية . والمسلمون يعيشون غالبـا فى جنـوب كولمبيا . وفى بوجوتا (العاصمة) عددهم قليل . وهنا معظمهم تزوجوا بنساء كولمبيات ويوجد فى العاصمة نادى عـربى ـ كولمبى . وكمـا يظهر من اسمه لايعنى هذا النادى بالاسـلام . وانشاء اتحاد وجمعية للمسلمين بدون أى أساس اسـلامى لايكون مجديا فالحاجة ماسة الى توحيد المسلمين فى كولمبيا على أساس كتاب الله تعالى وسنة رسوله .

تتسـيلى :

نقع تسيلى على نهاية الطرف الجنوبى لقارة أمريكا الجنوبية ويبلـع عدد سكانها ١٢ مليون نسمة ويسكن فيها ٢٠٠٠ مسلم الذين

هاجروا من الشام وفلسطين ولبنان خلال العقدين الأولين من هذا القرن . وكثير منهم جاءوا وحدهم وتزوجوا بنساء تنسيلى المسيحيات . وكان هؤلاء المسلمون فى غفلة وجهل عن دينهم فاندمجوا فى المجتمع التنسيلى ولو لم يفقد المسلمون كيانهم الدينى بالزواج بالمسيحيات وبالارتداد لكان عدد المسلمين اليوم أكبر من خمسة آلاف .

وتوجد هناك جمعية اسلامية باسم „ الاتحاد الاجتماعى لمسلمى تشيلى „ (Social Union Musulmana de Chile). ويرأس هذه الجمعية الأخ توفيق رومية من سوريا . وهو يتلقى معونة رمزية رابطة العالم الاسلامى بمكة لدفع أجرة المبنى الذى يستعمل كمكتب وبيت للأخ المذكور . وتقام صلوة الجمعة فى حجرة سكنه ويقوم الدكتور عبدالسلام من مصر بالامامة . والدكتور المذكور يدرس اللغة العربية فى جامعة سانتياجو . ويتطلع الناس فى تنسيلى الى معرفة شيئى عن الاسلام ويقوم الأخ توفيق رومية بشرح بعض نواحى الدين والحضارة الاسلامية ويوفر لهم بعض المطبوعات عن الاسلام فى حدود امكانياته الضئيلة ....ويهم بعض المسلمين الجديين مستقبل أولادهم الدينى . وهناك مشروع لبناء مسجد ومدرسة لأطفال المسلمين ولكنه يحتاج الى معونة من الخارج . ويخشى أن هذه الجالية الاسلامية الصغيرة سوف تزول من الوجود ان لم يول اهتمام مناسب وفورى بالتربية الدينية للمسلمين وتعليمهم مبادى منهج الحياة الاسلامى . وهذا مما يخشى حدوثها مع نهاية القرن الجارى . ويجب على السفارات الاسلامية الثلاثة المقيمة للسعودية ومصر وسوريا فى تشيلى أن تقوم بكل ما أمكن من عمل

بصورة فعالة للحيلولة دون هذا الزوال المستمر قبل أن يفوت الأوان .

بيـــرو :

ان بيـرو بلـد غني و جميل يقع في وسط أمريكا الجنوبية تقريبا ويجاور برازيل وتشيلي وبولوويـا وايـكوادور . ويـزيـد عـدد سكانه على ١٤ مليون نسمة .

والمسلمون في بيـرو أكثر من خمسة آلاف نسمة وهم ليسوا في وضع جيد لانهم تنقصهم الوحدة كما تنقصهم الرغبة في الدين . ومع أن حكومة بيـرو حكومة كاثوليـكية ولـكن المسلميـن يتمتعـون بالحرية والاحترام مع كونهم أقلية . وهم غالبا مهاجرون من فلسطين ولبنان وسـوريا واستوطنوا في بيـرو في بداية القرن العشـرين . وكان من هؤلاء المهاجرين الأوائل بعض المسلمين المخلصين الذين قاموا بجهود لنشـر الاسـلام فاعتنق كثير من السكان المحلييـن الاسـلام نتيجة لجهودهم . ولكن وضع الجبل الجديد الديني سيئي جدا . فلا يوجد مسجد أو مكان للصلوة في بيـرو كلها . كما لاتوجد هناك أي تسهيلات لتعليم مبادئ الدين الاسلامي للأطفال المسلمين.ولا توجد أي ترتيبات حتى لأداء صلوة الجمعة وصلوة العيدين . ويوجد هناك نادي فلسطيني (يضم العـرب المسيحين والمسلمين) ولكنه يعنـى بالدعاية السياسية فقط . وبالاضافة الى ذلك تتقوى الحركة البهائية نتيجة للحياة الغير اسـلامية للمسلمين . والحاجة ملحة على اضاءة نور الايمان بين المسلمين كي لاينطفئ تماما .

ويعتقد الأخ محمد على لوئيس ، أحد معتنقي الاسـلام من بيـرو والـذي يدرس حاليا في الجامعة الاسـلامية بالمـدينة المنورة أن

حاجة المسلمين فى بيـرو أمس الى المدرسين والدعاة الاسـلاميين من غير العـرب ليعملوا على اعادة المسلمين الضالين الى الصـراط المستقيم وعلى تنظيم عمل الدعـوة الاسـلامية بيـن سكان بيـرو . وهناك ١١ مليون هنود حمـر يتفتحون على أى عقيدة تعـرض عليهم بالحكمة والموعظة الحسنة وهم يحتاجون الى من يهديهم الى طريق الاسـلام وينبغى أن تهتم دار الافتاء بالرياض بالموضوع وتعتبره فى أوليات أعمالها وترسل فورا مجموعة مخلصة من خريجى الجامعات الاسـلامية لا الى بيـرو فحسب بل الى دول أمريكا الـلاتينية كلها حيث لم تغـرس الى الآن شجرة الاسـلام بين أهليها . ولابد من انشاء مسجد أو مـركز اسـلامي على الأقل بأسـرع وقت فى لاما لتنظيـم شئـون المسلمين على أساس الكتاب والسنة .

بـولـــوويا :

هنـاك عشـر عائلات عـربية مسلمة فى لاباس العـاصمة . كما يسكـن فى سانتاكروث ، احدى المدن الرئيسية لبولويا ، بعض المسلمين . ولكن لايوجد مسجد أو أى نشـاط اسـلامى من أى نوع .

الأخ بيـــاب خليل (ص ب ٢١٦ ، لاباس) شـــاب مسلم يحب أن يعمـل شيئا لـلاسـلام فى هذا البلـد . فنأمـل من العاملين المسلمين والمنظمات الاسـلامية المخلصة لـلاســلام أن تتصل بالأخ المـذكور .

بيليث :

هناك مأة مسلم من أصل أفريقى وحوالى خمسين مسلمـا عـربا (وهم غالبا تجار من لبنان و سوريا) فى هذه الدولة الواقعة فى

أمريكا الوسطى . والانكليزية هى اللغة الرسمية لأنها كانت مستعمرة بريطانية سابقا ولكن الأسبانية أيضا تنطق فى المناطق المجاورة لجوتنى مالا ومكسيك . وتوجد ترتيبات فى مدينة بيليث العاصمة لأداء صلوة الجمعة ويوجد هناك مشـــروع لبناء مركز اسلامى ايضا .

ويشكو الأخ محمد رئيس أحد معتنقى الاسلام الشباب من بيليت أن الناس عندما يتحدثون عن المسلمين فى بلاد الكربيين ينسون بيليث مع أنها دولة ناطقة بالانكليزية مثل ترينداد وغيانا ومسلموها يشتاقون الى الاتصال بسائر أبناء الأمة لتقوية التضامن الاسلامى وصلات الأخوة الاسلامية بهم . وأرسل الأخ نورى محمد امام البعثة الاسلامية (ص ب ٧٤٥ مدينة بيليت العاصمة) الى كاتب هذه السطور رسالة يطلب فيها نسخا من خطبات رسول الله صلى الله عليه وسلم التى همنا بطبعها مع ترجمتها الانكليزية كما يقول امام الجالية الاسلامية بناسانت فى رسالة أخرى تلقاها الكاتب أيضا :

« اننا بأشد الحاجة الى أى مواد مطبوعة تتوفر لديكم والتى تساعدنا على كسب مزيد من المعرفة عن الاسلام ونرجوا أنكم لاتترددون فى ارسالها الينا » . وناسانت هى كانت تسمى سابقا بهندوراس البريطانية وهى لازالت شبه معتمدة على بريطانيا . وهذه المنطقة تمتاز بأمطار غزيرة وغابات استوائية ومواصلات ناقصة . وعدد سكانها يزيد على نصف مليون نسمة .

فى كامبيناس بولاية ساؤ بولو (ببرازيل) فى ١ ـ ١٠ فبراير ١٩٨١ م قد برز جانب جديد للنشاط الاسلامى واذا توبع هذا العمل على خطوط سليمة فانه بالامكان مواجهة التحدى الذى ظهر بالوعى

الاسـلامى الملموس فى بلاد أمريكا الجنـوبية الوسطـى . فان هذا المخيم الذى قامت ندوة الشباب الاسـلامى العالمى بعقده قد أحدث وعيادينيا بين الشباب المسلـم الـذى كان يزداد غرابة عن الاسـلام لتعـرضه لأخطار المجتمع المسيحى الذى يحيط به وكان يخشى اندماج هذا الشباب فى المجتمع الغير اسـلامى . ونحن نقترح انشاء مكتب دائم لنـدوة الشباب العالمى فى أرجنتينا أو برازيل أو سـرينام التى توجد فيها أكبر مجموعات السكان المسلمين فى أمريـكا الـلاتينية حتى يسهل تدريب الشباب المسلم للدعوة الاسـلامية . وانشاء مؤسسة اسـلامية مستقلة فى هذه البـلاد سوف يكون مفيدا لثـلاثة أغـراض خاصة : هى ترجمة الكتب من العـربية والانكليـزية الـى الاسبـانية والبرتغالية ، البحوث الاسـلامية وتدريب الشباب المسلم للعمـل فى مجال الدعوة . واذا تم انشاء هذه المؤسسة المقترحة ولو كان على نطاق متواضع فى البداية فى الدول الصغيرة مثل بيليث يكون بامكان هذه الموسسة تنسيق النشاطات الاسـلامية مثـل.مخيمـات الشبـاب والندوات العلمية والعـروض وسوف تصبح المؤسسة نقطة الانطـلاق لاحياء المسلمين فى هذه القارة .

جــوئتــى مالا :

ان جوئتى مالا هى أكثر الـدول تقدما فى الصناعة والـزراعة فى أمـريكا الوسطى . وعــدد سكانها ٧٢٠،٠٠٠ نسمة . وخمســون بالمأة من الناس المحليين هنود حمـر ولكن الهنود الحمـر المحليين لايتمتعون بحقوق اقتصادية و اجتماعية كاملة ولذلك هم ليسوا مقتنعين بوضعهم . وبين جاليات الهنود الحمـر تعمل أربع طوائف عصابات

ضـد الحكومة بنجـاح .

وتوجد لدينا شهاذة وجود المسلمين العـرب فى جوئتى مالا ولكن لم يستعـرض هذا الوجود الى الآن . وليـت جمـاعة التبليـغ الاسـلامى تعـد برنامجا للـدعوة وترسيل بعثة من أعضاءها بطريـق الشارع التى تبدأ رحلتها من ميكسيكو الى تشيلى حتى تغطى بهذا السفـر جميع دول أمـريكا الـلاتينية و سوف تتوفر لهم فى هذه الرحلة فـرصة دراسة أوضاع المسلميـن وأحـوالهم ومشـاكلهم وامكانيـات الـدعوة الاسـلامية فى هذه المناطق . وهذه البعثة سوف تلعب دورا مهما فى تخطيط مشـروع لنشـر دعوة الاسـلام فى أمـريكا الـلاتينية. والمسـلمون الأوائل الـذين جاءوا الى هذا العالم الجديد ربما كانوا ملاحين مسلمين من لسـبن فى برتغال الحديثة حسب ماقاله العالـم الجغـرافى الكبير الادريسى . كما عبر المحـيط الأطلسى كثيـر من الحـرفيين المسلمين المغلوبين على أمـرهم والذين دخلوا فى فنانة أسبانيا الكاثوليكية مع اخوانهم الأندلسيين الذين أجبروا على الارتداد الى المسيحية . ومعظم هذه الرحلات ، كمـا يلاحظ الدكتورتـى بى ارونج ، أحد الكتاب الكبار حول أسبانيا المسلمة ، تمت بصفة سـرية وقام بها المسلمون باسماء خـرافية غير اسـلامية . ولم يكن يسمح عادة (للمهاجرين أن يصحبوا أزواجهم ولـكن مع ذلك فانهم ــ يمثلون السكان الأساسيين للمسلمين فى العالم الجديد وخـاصة فى بلاد الكرببين والأندية .

ونحن نعتقد أنه لابد لهؤلاء المسلميـن العائشيـن فى هذه البـلاد النائية أن يبادروا الى العمـل الاسـلامـى بأنفسهم قبـل أن

تساعدهم حكومة اسلامية ما أو مؤسسة تعليمية ما . ويجب أن يكون لكل مدينة من مدن أمريكا اللاتينية مسجد حيث يعبدوا الناس ربهم تضرعا وخفية . كما يجب بناء مقابر خاصة للمسلمين فى كل مدينة يسكنها المسلمون . ولا بد أيضا أن يتحرر نظام المدارس ومناهجها من اشراف حكومة فاتيكان .

ان مجموع سكان بلاد أمريكا اللاتينية يشتمل على ذرية الناس القادمين من افريقيا الوسطى وأسبانيا والشرق الأوسط الذين كانوا مسلمين من قبل لما كانوا فى أوطانهم وما أحوج علماء الاسلام اليوم الى أن يقوموا بدراسة أمريكا اللاتينية وكل دولة منها على حدة . حتى يعرفوا كل ٢٤ منها ويعيدوا كتابة تاريخها من جديد منذ الوقت الذى يسمى « باكتشاف » أمريكا على يد كولمبس وحتى قبل ذلك العهد . فالاخوة المغاربة الذين يعرفون الأسبانية سوف يشكلون كتيبة خاصة فى جند هؤلاء العاملين العلماء ويجب علينا أن لاننسى أن الأسبانية ليست لغة أسبانيا فقط بل انها لغة أمريكا الجنوبية والوسطى كلهاباستثناءبرازيل التى تتكلم البرتغالية . فاذا أريد كسب هذه البقعة من الأرض للاسلام فلا سبيل الى ذلك الا بواسطة الكتب حول تعاليم ديننا الحنيف التى نقدر على تقديمها اليهم بلغتهم حتى نخاطبهم بلسانهم لنبين لهم .

كوستاريكا :

كوستاريكا دولة ديموقراطية حقيقية بدون جيش لها . فالدولة لها أساتذة أكثر من رجال الشرطة وليست فيها أى مشاكل عرفية أو دينية . وهى تجاور نكاراجوا من الشمال وبانامة من جنوب

الشـرق . وعـدد سكانها أكثر من مليونين . ومعظم سكانها من أصل أسباني . وواحد بالمأة منهم هنـودو ٢٪ من أصل جيميكاوى .

وصـادراتها الرئيسية هى البـن والموز ولحم البقـر .

وهناك بعض المسلمين العـرب ولكن عددهم الصحيح ليس بمعلوم على وجه الدقة وفى مدينة سان خوسى يوجد مركز اسـلامى ويقوم امامه الأخ مصطفى محمد بجهود متواضعة لنشـر تعاليم الاسـلام .

بانــامـه :

مساحتها ٢٨،٥٧٥ ميل مربع وعدد سكانها مليـون ونصف وهـى بـلاد جبلـية جميلـة تنزل فيها الأمطار بغـزارة . ومنـاخها حـار ورطب طول السنة . ووسائل المواصلات فيها متقدمة . وقد زادت أهميتها لكونها ممرا مائيا دوليا يعتبر (قناة بانامة) أحسن طريـق للسفن الدولية من الناحية الاقتصادية منذ ظهوره فى عام ١٩١٣ م . وقد اكتمل مشـروعه التذكارى الضخم بتـكاليف ٣٨٧ مليـون دولار أمـريكى .

وطول قناة بانامه خمسون ميلا من الميـاه العميقة للمحيط الأطلسى الى المياه العميقة للمحيط الباسيفيكى . والسفينة العـادية تعبرها فى تسع ساعات وتقـوم لجنة قنـاة بانامـه التـى هى مؤسسة أمـريكية حكومية ، بتشغيل القناة . ويتشغل فى اللجنة ٨٠٠٠ مؤظف طبقا لبنود اتفاقية قناة بانامة (التى تمت فى أكتوبر ١٩٧٩م . وتعهدت الولايات المتحدة بتسليم القناة الى بانامة فى ٣١ ديسمبر ١٩٩٩م .

وبانامـه دولة صغيرة جـدا ولكن توجد فيها أربع مجموعات

عرفية متميزة من الهنود (الحمـر) . وكان اكتشاف بانامه مقدمة له
الهجرة اليها من خمس دول ونتيجة لهذه الهجرة أصبحت بانامه
على حد تعبير أحـد كتـاب القصص من بانامـه « بوتقة العـروق »
وأصبحت بانامه جمهورية مستقلة فى عام ١٩٠٣ م وكانت قبل ذلك
جزءا من كولمبيـا . ويقـول بعض النـاس أن بانامـه دولة أخترعـت
لـلاحتياج الى القناة . واليهود متغلبون علـى التجـارة فى بانامـه .
والبهائيون أيضا ناشطون جدا . ولهم فيها معبد كبير . وهم يحاولون
للتغلغل فى أمريكا الوسطى والجنوبية وللتمكن فى أرضها .

وقد وضع حجر أساس أول المساجد فى أمريكا الوسطى فى
مدينة بانامة فى شهـر رمضان المبارك ١٤٠٠ هـ (الموافق أغسطس
١٩٨٠ م) وكان انشـاء هذا المسجـد نتيجة لجهود أحـد التجـار
المسلمين المعروفين (سليمان بهيكو من ولاية غجـرات بالهنـد)
الذى يعيش هنا منذ خمسين سنة الماضية . وقد قدرت تكاليف بناء
المسجد بمبلغ ٥٠٠،٠٠٠ دولار أمريكى وسوف يتسع المسجد لجلوس
٣٠٠٠ مصلى . وسوف يكتمل بناء المسجد خلال سنة وعندئذ سيكون
لمسلمى بانامة الذين عـددهم (٦١) ١٥٠٠ مركزا دائما للعبادة بحول الله
تعالى . وقد تقدم هذا المشروع الى الامام بمساهمة البعثة الدبلوماسية
الليبية التى فتحت فى بانامة أخيرا . فاشتركت هذه البعثة فى تحمل
تكاليف شـراء الأرض وبناء المسجد مع الأخ سليمان ـ ١ ـ بهيكو
المذكور الذى يمتلك عدة مؤسسات سياحية فى بانامة .

وان مؤسسة الدعوة الاسلامية التى أنشئت فى بانامة لنشـر
تعاليم الدين الحنيف ولتوحيد كلمة أهل الاسـلام فى هذا البلد تنتظر

التعاون من العاملين المخلصين فى حقل الدعوة فى أنحاء العالم الأخرى . وان أمير هذه المؤسسة (أحمدى ف . بهيكو ، ص . ب . ٢٥٠٨ ، زونا ٣ ، بانامه ر ـ ب ـ) مستعد للقيام بأى خدمة للاسلام فى هذه المنطقة .

ان ابتئاس شعب بانامه من المؤسسات الدينية التقليدية (المسيحية) قد سبب تفرقا وتشتتا بين أبنائه وخيبة أمالهم . فانهم لذلك يميلون بالقوة الى اعتناق الاسلام فعلينا أن ندعوهم اليه بالحكمة والموعظة الحسنة . فانهم يبحثون فى اضطرابهم عن دين يضمن لهم السلام والسكينة والارتياح . فنجاح الدعوة الاسلامية فى هذا البلد مرهون بالوقت .وامكانيات العمل فى حقل الدعوة تتسع فى القرن الخامس عشر .

وهذا ليس أمرا جديدا فى تاريخ الاسلام . فكان ٩٠ ٪من سكان اندونيسيا بوذيون قبل ٥٠٠ سنة تقريبا ولكن الآن ٩٥ ٪ منهم مسلمون . كيف حدث هذا ؟ لقد حدث بفضله سبحانه وتعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام . وفى أمريكا اللاتينية أكثر من ٩٥ ٪ من سكانها مازالوا مسيحيين ولكن هل يتصور أنه يأتى يوم تدخل فيه أغلبية أهل القارة فى السلم كافة ؟ وما ذلك على الله بعزيز .

واذا بينا للناس فى أمريكا اللاتينية المنافع والمحاسن الأخلافية والروحية والاجتماعية لاعتناق الاسلام وعضوية الأمة الاسلامية العالمية سيكون تجاوبهم عظيما وسوف يصبحون وسيلة ذات أهمية استراتيجية كبيرة فى ادخال جموع من الناس فى الأخوة الاسلامية الكروية . والاقبال العام على الدين الحق سوف

يكون حتمية تاريخية بمـرور الزمن انشاء الله تعالى .

المـكسـيک :

المكسيک هى دولة ناطقة بالأسبانية تقع فى قارة أمـريـكا الشمالية ولها حد طوله ٢٠٠٠ ميل مع الولايات المتحدة الأمريكية . وقد فقدت المكسيک نصف أراضيها الى الولايات المتحدة فى ١٨٤٨م ولا زالـت فـى ذاكـرة الشعب المكسيكى التجـربة المرة لاستغلال الشركات الأمريكية للعمال الرخيصين وللموارد الغزيرة الأخرى . ولكنه منذ عام ١٩٧٢ م لما ظهرت خزائن الثـروة البتـرولية واحـدة بعـد الأخرى فى المكسيک حاولت الولايات المتحـدة مغـازلة الصـداقة العميقة مع هذه الدولة الغنية لتضمـن توفـر „ الذهـب الاسـود " (البتـرول) بثمن بخس ليبقى اقتصادها „ صحيحا " و „ غنيـا " و „ حكيما " .

وهنـاک عـدد قليـل من المسلميـن (٣٠٠ ـ ٢٠٠) فى المكسيک يشتملون غالبا على الدبلوماسيين من الدول الاسـلامية .

وتوجد هناک فى الوقت الحاضر تسع سفارات للدول الاسـلامية فى المكسيک بما فيها سفارة نائيجـريا أيضا ولكن المؤسـف المؤلم أنه لا توجد أية ترتيبات حتى لأداء صـلوة الجمعة فى العاصمة . ولا بد هنا من وجود اسلامى منظم لأهمية هذه المنطقة . وينبغى أن لاننسى أن المكسيک هى ثالث أكبر دولة فى القارة الأمريكية من حيـث عـدد السكان (٧٠ مليونا) . وينبغى انشـاء مركز اسلامى فعال هنا ليعمل على توحيد الجـالية الاسـلامية ولنشـر دعـوة الاسلام بيـن شعـب المكسيک الذى ينتظـر دعوته لاشـعوريا .

وبعد مضى سنوات على الاهمال الخجل للهنود الحمر البالغين عددا الى عشرة ملايين ، بدأت المكسيك فى محاولاتها لتحسين حالتهم البائسة وسوف تساعد البترودولارات العائدة من صناعة النفط المؤممة على هذه العملية . ولكن المسئلة هى فى جوهرها مشكلة الاحتفاظ بهوية كل من الحضارات المختلفة الموجودة فى البلاد فللناظرين السائحين يشكل الهنود الحمر جزءا رائعا من التاريخ المكسيكى . ولكنهم فى أعين المكسيكيين ليسوا أكثر من أناس حمقاء وانجاس وكسالى . ولكن الواقع أنها قضية شعب بدائى أغارت عليه الحضارة الغربية ودمرته ففى الاسلام ودعوته جاذبية كبيرة لهؤلاء البائسين المضطهدين وأسرع ما نتحرك فى تبليغ الدعوة اليهم ليكون أحسن وأيقن لنجاحنا ولنجاتهم .

ترينداد :

هناك مايقرب من ١١٥،٠٠٠ مسلم فى جمهورية ترينداد وتاباجوولهم ٧٠ مسجدا . ولكن المسلمين أقلية فى ترينداد (ونسبتهم فى سكانها ١٠ ٪) وأما نسبة الجماعات الدينية الأخرى فهى على النحو التالى : المسيحيون الكاثوليك (٣٠ ٪) والهنادكة (٣٠٪) الانجليكية والطوائف المسيحية الأخرى (٢٠٪) . وبالاضافة الى الجماعات الدينية المذكورة هناك بعض المنظمات التى تنبت من حين لآخر وتجد فى هذه الجزيرة أرضا خصبة لنموها أمثال سائى بابا وحركة هرى كرشنا التى جلبت اهتمام بعض الجهلة من المسلمين فالتفوا حولها .

وهناك حاجة شديدة الى نشر معرفة الاسلام الصحيحة

وترسيخ عقيدته وسلوكه فى حياة المسلمين . كما يفقد مسلمى ترينداد كأخوتهم المسلمين فى بلاد الكريبيين الأخرى الاتصال الدائم مع العالم الاسلامى ليستفيدوا من العلماء والدعاة الخبراء من أجل توجيبيههم وجهة اسلامية صحيحة فى القيام بمسئولياتهم الدينية تجاه الجالية الاسلامية فى ترينداد .

كما تحتاج الجالية الاسلامية فى ترينداد الى العلماء المضطلعين باللغتين العربية والانكليزية بالاضافة الى معرفتهم وخبرتهم فى مجال الدعوة . ويجب أن لا يكون هؤلاء العلماء من أتباع أية منظمة وأن يؤكدوا فى عملهم على نشر عقيدة التوحيد وتمكينها فى نفوس المسلمين وازالة أوهام البدع والضلالات التى سممت أفكار بعضهم ويستحسن لهؤلاء الدعاة أن يعرفوا كيف يختلطوا مع عامة الناس وأن يكونوا متواضعين فى سلوكهم . ومن الأفضل محاولة ايجاد الدعاة من نفس الدول التى يعملون فيها ولذلك يجب أن تخصص لطلبة الأقليات المسلمة مقاعد ومنح أكثر فى الجامعات الاسلامية وخاصة السعودية وتقدم لهم المعونات المالية بحيث أنها تكفى لهم ولعائلاتهم (أى تكفى لتسديد نفقات كل طالب وزوجه وأولاده).

وجمهورية ترينداد بلاد غنية بكميات هائلة من الزيت الذى يصدر الى الخارج مع الأسفلت والنرجيل ويشكل السود من الأصل الافريقى مجموعة كبرى فيها . فنسبتهم تبلغ الى ٥٠٪ وتليها المجموعة المهندية الأصل (٤٣٪) وأما نسبة البيض والمخلوطين فهى ٧٪. ومعظم الأفارقة مسيحيون لأن ثقافتهم الاسلامية دمرت من قبل

القوة الاستعمارية . وجيئى بالهنود هنا لاستغلالهم كعمال وكانت رتبتهم دون العبيد بقليل وكان يسمح لهم بالبقاء على تراثهم الدينى والثقافى . وتاباجو متنزه سياحى . وفيها ٢٠٠ ـ١٥٠ مسلم ولكن لا يوجد لهم مسجد . وهناك مشروع لبناء مسجد / مركز اسلامى وقد تم له شراء قطعة أرض من قبل الجالية الاسلامية هناك .

ان السفارة الوحيدة المتواجدة للسعودية فى جميع بلاد أمريكا الوسطى والكيريبيين لمنح تأشيرات الحج هى فى وينزويلا . فالمسلمون من جزيرة ترينداد وغيانا والآخرون من سرينام يضطرون كل عام الى السفر الى وينزويلا للحصول على تأشيرة الحج كى يسافروا الى الحجاز . وبعض المسلمين السريناميين يسافرون حتى الهولندا للحصول على تأشيرة السعودية . كما أن بعض المسلمين الآخرين من غيانا وجزر ترينداد وتوباجو يسافرون عبر لندن حيث يأخذون التأشيرة فى طريقهم الى السعودية . (ولاحظنا أن المسلمين فى المناطق الريفية أكثر تواضعا وتصبغا بالنسبة للمسلمين العائشين فى المدن).

• باهاماس :

ان باهاماس مجموعة ٧٠٠ جزيرة تمتد من جنوب شرق فلوريدا (الولايات المتحدة) الى شمال غرب كوبا وعدد سكانها ٢٥٠،٠٠ نسمة تقريبا . ومدينة ناساؤ ، عاصمة باهاماس ، هى مركز جميع النشاطات فى باهاماس . وهى من أكبر مراكز السياحة فى نصف الكرة الغربية و ٧٥ ٪ من الدخل القومى يحصل من السياحة بعد التجارة المصرفية .

وبعد ٣٠٠ سنة من الحكم الاستعماری نالت باهاماس استقلالها في يوليو ١٩٧٣ م . ويشتمل اليوم ٨٥ ٪ من السكان على ذرية العبيد الأفارقة المسيحيين وهم المستولون على الحكم .

ودخل الاسلام باهاماس قبل ١٢ سنة على أغلب الظن وعدد المسلمين الآن أقل من مأة ولكن هذه الفئة القليلة من أبناء الاسلام تحتاج الى دعم كبير لتقوية ايمانها وترسيخ عقيدتها وتوحيد صفوفها للعمل على تعليم الدين الحق . « وجماعة الاسلام » هی المنظمة الاسلامية الوحيدة فی باهاماس التی تم انشائها قبل ثلاث سنوات وهذه الجماعة تكافح لاعلاء كلمة الله فی هذه البلاد النائية وتستحق من المسلمين كل عون ومدد فی صورة النشريات الاسلامية والمدرسين والدعاة . واذا تلقت جماعة الاسلام المساعدة المطلوبة فانها ستكون أقدر على نشر دعوة الاسلام فی كومنويلث باهاماس كلها .

باربادوس :

أن عدد السكان المسلمين فی هذه الجزيرة الواقعة فی غرب الهند ١٠٠٠ نسمة فقط بينما تبلغ مجموعة سكانها الى ٣٥٠،٠٠٠ نسمة و كثير من هؤلاء المسلمين من أصل هندی كما ينتمی بعضهم الى جزر الكيربيين المجاورة . وقد اعتنق ٣٠ شخصا من السكان الاصليين الاسلام أخيرا . و ٩٩٪ من السكان تحتوی على أناس من أصل أفريقی الذين جاء بآبائهم الاستعمار الغربی من افريقيا كعبيد خلال العهد الاستعماری .

هناک مسجدان فی مدينة برج تاؤن اللذان بنيا قبل ٢٠ عاما.

وفيها نشاط لابأس به لجماعة التبليغ التى يشرف عليها أميرها الشيخ محمد يوسف الهندى (رقم الهاتف : ٦٧ ٨٧ ٦) وترسل الجماعة بعثات المبلغين الى الجزر المجاورة مرة كل سنة . وبتوسع الجالية الاسلامية مست الحاجة الى ايجاد مركز اجتماعى للجالية ليهتم بالتعليم الاسلامى والنشاطات الرياضية والاحتفالات الأخرى . فأنشأ فى يناير ١٩٨١ م مركز اسلامى فى كرائست تشرش ((Church Christ) قرب مدينة برج تاؤن . وتحقق هذا بالدعم المالى من قبل الحكومة السعودية وبعض الأشخاص السعوديين وبعض الشخصيات الاسلامية فى ترينداد وباربادوس . ونرجو أن هذه الجهود المخلصة سوف تثمر بنتائج طيبة وسوف تؤدى الى انشاء أول مدرسة أو كلية اسلامية فى باربادوس .

جيميكا :

دولة جيميكا التى استقلت من بريطانيا فى ١٩٦٢ م تشتمل على مساحة ٤٤١١ ميل مربع وعدد سكانها مليون . وانها تعتبر لؤلوة الكيربيين بأرضها الخصبة ومناظرها الطبيعية الجميلة وهى تجلب أنظار السائحين من كل مكان .

وتهب الرياح السياسية فى الكيربيين يمينا وشمالا . وقد ظهرت فى هذه السنة أو استمرت فى سبعة أقاليم التى هى عبارة عن جزر حكومات تتراوح اتجاهاتها من الاعتدال الى المحافظة . وقد وقع تغيير جوهرى فى جيميكا عندما صوت المواطنون لعزل حكومة الوزير الأول اليسارى الموالى لكوبا ميتشيل مانلى التى دامت ثمانى سنوات بعد أن أشرفت هذه الجزيرة الرافهة على الافلاس .

وقد خلف مانلى ادوارد سيجا الذى هو اقتصادى وقائد حزب العمال فى جيميكا . وهو وعـد شعبه بعد تسلمه زمام الحكم بأنه يوطـد العلاقات مع الولايات المتحدة لاعادة بناء اقتصاد الجزيرة . وان انتاج الموز هو من أهم مصـادر كسب العملة الأجنبية ويليه انتـاج كوكوا وقصب السـكر . والحكومة الجديدة اتخذت قـرارا تعتبـر بمـوجبها العملة الأجنبية العائدة من تجارة ماريخوانا شـرعية وتقدر عائداتها الى بليون دولار أمـريكى (٧).

ويزيد عـدد المسلمين فى جيميكا على ٢٥٠٠ وهم بأشـد الحاجة الى المساعدة للمبادرة فى عمل الـدعوة وتنظيمها فى هذه المنطقة . وهناك مسجدان أحدهما فى سينـت كاثريـن والآخـر فى ويست مورلاند . وتمس الحاجة الى انشاء مساجد أخرى لاستيفـاء المتطلبات الـدينية والـروحية للجالية الاسـلامية .

كـو راكـــو ا :

وتقع هذه الجزيـرة الجميلة ، التـى هى لازالـت مستعمـرة هولندية ، فى الكيربيين قـرب الساحل الشمالى لوينزويلا . ومن أهم مصـادر دخلها مصفاة الزيت ، والملاحة والفوسفيت والملح والبرتقال . ومسـاحتها ٢١٠ ميل مـربع وعـدد سكانها ربع مليون .

وهناك ٢٠٠ مسلم فى كـوراكوا ومعظمهم من أصل لبنانى . ولهم مسجد جميل فيه امام جيد من خريجى الأزهر ولكنه لايوجد مع الأسف ، نشـاط اسـلامى بالمستوى المطلـوب فى هذه الجزيـرة . ويمكن للـدعاة المسلمين من الخارج أن يوقظـوا هؤلاء المسلمين من سباتهم .

برمودا :

وهى مجموعة جزر بريطانية وتقع فى شرق جنوب كيرولائنا بالولايات المتحدة وهى تعتبر متنزه محبوب لدى الأمريكيين خلال موسم الشتاء .

ويوجد حسب معلوماتنا ٣٠٠ ـ ٤٠٠ مسلم فى برمودا . ويوجد مسجد ـ مركز اسلامى أيضا فيها . وهناك حاجة الى تدريب عملى أكثر على الحياة الاسلامية لمسلمى برمودا الذين أكثرهم معتنقون جدد للاسلام .

غرناطة (Grenada) :

وهى جزيرة صغيرة ولكنها من أجمل الجزر الواقعة فى الكيربيين . ولها مساحة ١٣٣ ميل مربع وهى كلها مغطاة بغابات مكثفة وجبال ومن أهم انتاجاتها الزراعية الفواكه وكوكوا والتوابل . وعاصمتها سينت جورج . واستقلت غرناطة التى كانت مستعمرة بريطانية من قبل فى مارس ١٩٦٧ م . ومعظم سكانها البالغ عددهم الى ١٠٠،٠٠٠ من أصل زنجى غالبا .

· دومينكا :

ان كومنلوث دومينكا تقع فى غرب الهند وهى منتشرة فى مساحة ٣٥٠ ميل مربع وعدد سكانها ٩٠،٠٠٠ نسمة . ونالت استقلالها فى ٣ نوفمبر ١٩٧٨ م ودخلت فى هيئة الأمم المتحدة فى ٢٠ ديسمبر ١٩٧٨ م وأهم انتاجاتها الفواكه والتوابل والسكر . ومدينة روزو هى العاصمة .

وهناك خمسون مسلما فى هذه الجزيرة التى أغلبية سكانها

مسيحيون (٩٩٪) والمسلمون هم الذين اعتنقوا الاسلام خلال ٦ ـ٧ سنوات الماضية . ومعظم هؤلاء المسلمين يجتمعون للصلوات اليومية وصلوة الجمعة فى بيت أحد الأخوة . وهذه الجماعة القليلة من المسلمين تحاول فى حدود امكانياتها المحدودة لنشر دعوة الاسلام بين السكان المحليين وهم بحاجة الى أى نوع ممكن من الدعم الخارجي . فانهم يريدون انشاء مركز اسلامى لينشروا من خلاله تعاليم الدين الحنيف بين الأوساط الشعبية بعمل منظم . وليس بين هذه الجماعة أى عالم ولامسجد ويتوفر لديهم قليل من الأدب الاسلامى ولايتزودون الابمعرفة أساسية بالاسلام فجل زادهم التقوى والايمان بالاخرة . ويمكن تنظيم العمل فى مجال الدعوة هنا باقامة مركز اسلامى يديره ، ويسهر عليه اخوة متفرغون تحت اشراف وتوجيه من العلماء طبقا لتعاليم الكتاب والسنة .

سينت وينسنت (St. Vincent):

ان هذه الجزيرة الواقعة فى غرب الهند لازالت مستعمرة بريطانية وهناك ٣٠٠ مسلم تقريبا حسب معلوماتنا ويوجد هناك مسجد ولكن تنعدم التسهيلات الدينية الأخرى . وبعض من المسلمين ملتزمون بالاسلام ولكن بعض الآخرين يتطلع الى معرفة أكثر والاهتداء بنور الاسلام . و ٩٥٪ من المسلمين من أصل أفريقى ومجموع سكان الجزيرة يبلغ ١٠٠،٠٠ والانتاجات الرئيسية هى السكر والقطن والفول السودانى .

بو يرتو ريكو :

سلمت أسبانيا هذه الجزيرة الواقعة فى غرب الهند الى

الولايات المتحدة الأمريكية فى ١٨٩٨ م . وهى ترتبط بعلاقات كومنولث الحرة مع الولايات المتحدة الأمريكية منذ ١٩٥٢ م . وأهم انتاجاتها السكر ، والتبغ والأقمشة والحديد والمعدن النفيس والملح والرخام والطين الأبيض الخ . وعاصمتها هى سان خوان .

ومجموع مساحة بويرتوريكو يبلغ الى ٣،٤٢٣ ميل مربع ويزيد عدد سكانها على ثلاثة ملايين نسمة . وهم غالبا من أصل وأروى ويميلون الى الاسلام ميلا ملموسا ويمكن كسبهم وادخالهم فى الاسلام بعمل منظم وجهد متواصل .

أن أمريكا اللاتينية تشهد فى الوقت الحاضر اضطرابا روحيا وسياسيا والناس يعانون من فراغ روحى وفوضى فكرى بالأخص شبابهم . ففى هذه الظروف توجد فرص كبرى لنشر الاسلام فى هذه البقعة من الأرض ويناديـنا الاسلام فى أمريكا اللاتينية أن ننصره بالرجال والمادة وهناك ركام هائل لانجاز أعمال الداعية المسلم .

والشعب الأمريكى اللاتينى مبتئس وملول من الديانات والفلسفات التافهة التى وضعها الانسان والتى أحله دار البوار . وهو بدأ الآن يبحث عن بديل أحسن لهذه الديانات والفلسفات الذى يضمن له الأمن والاستقرار والسكينة والارتياح . ولايروى هذا العطش الروحى الا الاسلام . ولكن الواقع المؤسف هو أنه لم يهتم الى الآن أى داع من دعاة الاسلام بهذه البلاد وأهلها اهتماما جادا ولم يتوفر الى حد الساعة أى أدب اسلامى بلسان العصر المقنع باللغتين الأسبانية والبرتغالية لهذا الشعب الحائر الباحث عن طريق الحق .

فنرى من ضروريات الساعة بذل جهود مكثفة لانشاء مراكز اسلامية فى طول أمريكا اللاتينية وعرضها على أن يقوم بادارتها نخبة من العاملين الصالحين المخلصين فى دعوتهم الى الله فى هذه البلاد النائية فان سعادة الاسلام لم تبلغ الى الآن هؤلاء الناس لمجرد غفلة الدول الاسلامية وكسلها حكومات وشعوبا ومنظمات .

ومما لاشك فيه أن الاسلام هو الحل الوحيد لجميع مشاكل سكان هذه القارة الذين لاينتمون غالبا الى اية ديانة بصورة رسمية بالرغم من الجهود المنظمة المتواصلة المبذولة من قبل البعثات التبشيرية المسيحية منذ عدة قرون ماضية . ويعلق المراقبون الغير متحيزون الآن أن الكنيسة المسيحية تشن حربا كتبت فيها هزيمتها .

واذا نظرنا الى أمريكا اللاتينية من ناحية حجم نسبة السكان المسلمين (التى لاتزيد على ثلاثة ملايين فى مجموعة سكان ٣٠٠ مليون) لوجدنا أن الواقع الحالى ليس فى صالح الاسلام . فتترتب على المسلمين مسئولية ضخمة فى نشر دعوة الاسلام وكسب الشعب الأمريكى اللاتينى فى معسكر الاسلام . وأهم وسيلة فى تحقيق هذه الأمنية هى تمثل المسلمين بالسيرة والسلوك الاسلاميين وبدون هذا التطبيق العملى للأخلاق الاسلامية فى حياة المسلمين انفسهم لايمكننا أن نأمل مستقبلا للاسلام فى هذه المنطقة .

وفى كسب أمريكا اللاتينية للاسلام تترتب على الدول الاسلامية الغنية المسئولية الكبرى فان عليهم أن يبادروا الى تمويل نشاطات الدعوة الاسلامية فى هذه القارة كما تنفق الدول الأوروبية

والولايات المتحدة الأمـريكية على عمل التبشير المسيحى واذا نجحنا بتوفيق الله ونصـره ، في تحريك عجلة الدعوة الاسـلامية على الخط التقويم فنحن سوف نرى الناس يدخلون فى دين الله افواجا و سوف تكون هذه القارة حصنا منيعا لـلاسـلام فى نصف الكرة الغـربية وان شاء الله سوف يأتى هذا اليوم فى حياتنا عندمـا نرى رأية الاسـلام ترفرف علـى ربـوع أمـريـكا الـلاتينية وسهولها وجبـالها وأوديتها ويومئذ تتحقق سعادة كبرى لا للمسلمين فحسب بل لـلأمة الانسانية قاطبة .

المــــراجــع

١ـ فأقيم أول مخيم لشباب لأمركا الجنوبية فى ساؤبولو (برازيل) فى فبراير ١٩٨١ م تحت رعاية كل من ندوة الشباب العالمية والأمانة الاسلامية بجدة .

٢ـ كانت الموجة الأولى لقدوم المسلمين صادفت اكتشاف القارة الأمريكية . وهناک شهادة قوية من التاريخ تدل على أن المسلمين الأندلسيين زاروا القارة الأمريكية قبل الأوربيين بكثير (الشبان المغروريين) ومن المعروف أيضا أن مكتشفى طريق يعرفوا أمريكا من أسبانيا وبرتغال قد استعانوا بالملاحين المسلمين الأندلسيين الذين كانوا يعرفون عروض البحار أكثر من غيرهم وان بعض المكتشفين كان من أصل اندلسى (وربما كان مسلما سرا) كما هو أيضا معلوم تاريخيا أن المهاجرين الأندلسيين المسلمين فى الرباط وساله (Sala) على الساحل المغربى قادوا الحرب ضد السفن الأسبانية والبرتغالية فى المحيط الأطلسى حتى سواحل الكربيين . وعندما بدأ استعمار الأوروبيين لأمريكا الجنوبية والشمالية اندمع المسلمون الأندلسيون أفواجا مع الجيوش الأسبانية والبرتغالية الى القارة الجديدة وهم يحملون أسماءا مسيحية التى فرضت عليهم . ولكن كثيرا منهم احتفظوا بدينهم الاصلى كما تدل عليه الأحكام القضائية للاستجواب القاسى . الصادرة من الامبراطور البرتغالى للمستعمرات البرازيلية ضد الأندلسيين . والتى نفذت ضد الأندلسيين فى المستعمرات البرازيلية . وهؤلاء المسلمون الأندلسيون وصلوا الى مايسمى اليوم بأريزونا وفلوريدا وكاليفورنيا وان هؤلاء المسلمين قد هاجروا من أوروبا خوفا من الاستجواب القاسى من الأسبانيين والبرتغاليين ولكنهم تعرضوا فى أمريكا لنفس الاضطهاد والتعذيب ولم يتمكنوا من ترسيخ عقيدتهم وحماية كيانهم الاسلامى ففشلت بذلک أول خطوة لاقامة دعائم الاسلام فى البلاد الأمريكية .

(مالى كتابى ـ الأقليات الاسلامية ـ نشرة المؤسسة الاسلامية ، بلندن ، ص ٢٢ـ ٢٣)

٣ـ ويلاحظ مع الأسف الشديد باستمرار تغيب السفراء المسلمين علانية من صلوة الجمعة ويجب على جميع الحكومات الاسلامية بما فيها حكومة

باكستان أن تولى عنايتها بهذا الأمر لأن هذا الوضع المؤسف المؤلم قائم في معظم عواصم الدول الغربية حيث تنظر الجاليات الاسلامية الى سفراء الدول الاسلامية باشتياق ليشتركوا معهم فى صلوة الجمعة . فالقران الكريم (فى سورة الجمعة) يأمر بكل صراحة تعطيل كل النشاط والأشغال ويأمر بالسعى الى ذكر الله اذا نودى للصلوة من يوم الجمعة . ولكن السفراء المسلمين يستهترون بهذا الشعار الاسلامى بكل جراءة وبذلك يفضحون المسلمين ويحرجونهم ويسيئون بالتالى سمعة بلادهم .

٤ـ ان جامعة رتجرز بالولايات المتحدة الأمريكية قد طبعت كتابا بقلم أنيوان فان سيرتيما يثبت فيه المؤلف أن المسلمين قد اكتشفوا أمريكا واستوطنوا فيها على نطاق واسع قبل أن يصل اليها كولمبس . ان الكتاب الذى سماه « هم جاءوا قبل كولمبس » يلاحظ أن المؤرخ العربى الاسلامى ابن فضل الله العمرى ...... يسجل ذكر بعثتين قام بهما الماليون فى بداية القرن الرابع عشر . وكان ملك مالى أبوبكرى الثانى يقود البعثة الثانية التى بدأت من ساحل سيبى غامبيا الذى كان الحد الغربى لسلطنة مالى ـ السلطنة التى تفوقت على الامبراطورية الرومانية فى قوتها وحجمها وثروتها . فالموجات ، التى تسمى فى الروايات المالية المسموعة ، بالأنهار تتحرك فى وسط البحر مثل خطوط المواصلات المبتدئة من أفريقيا والمنتهية الى أمريكا . وكان مسلمو مالى يعرفون كيف يستخدموا هذه الموجات ويهتدوا بها للسفر بين القارتين بسهولة

٥ـ الاسلام والأفارقة ، نقلا عن مجلة رابطة العالم الاسلامى (الانكليزية) عدد شوال ١٤٠٠ هـ (الموافق سبتمبر ١٩٨٠ م) .

٦ـ وينقسم المسلمون على النحو التالى :

المسلمون من أصل عربى :١٠٠٠ (وهم من الأردن ولبنان الخ)

المسلمون من غجرات (الهند) :٣٠٠ .

المسلمون المحليون : ٢٠٠ .

٧ـ صحيفة تائم ، ٢٤ نوفمبر ١٩٨٠ م .

******

مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية
باللغة العربية

الرسائل القشيرية للامام أبى القاسم القشيرى
تحقيق : الدكتور بير محمد حسن (مع الترجمة الأردية)

معدن الجواهر فى تاريخ بصرة الجزائر للشيخ نعمان
تحقيق : الجائة الدكتور حميدالله

*

الكندى و آراؤه الفلسفية
للدكتور عبدالرحمن شاه ولى

*

مقصودالمؤمنين لبايزيد الأنصارى
تحقيق : الدكتور ميرولى خان

*

كتاب الانفعال للامام الصغانى
تحقيق : الأستاذ أحمد خان

★ ★ ★ ★

مجلة اسلامية علمية

تصدر بعد كل شهرين
وتبحث فى الدين والثقافة والتاريخ والآداب

ستبمبر ـ اكتوبر ۱۹۸۲م   ذوالقعدة ـ ذوالحجة ۱۴۰۲

مجمع البحوث الاسلامية
الجامعة الاسلامية
اسلام آباد ـ الباكستان

الدراسات الاسلامية

مجلة مجمع البحوث الاسلامية
الجامعة الاسلامية
اسلام آباد - الباكستان

سبتمبر - اكتوبر ١٩٨٢م   ذوالقعدة - ذوالحجة ١٤٠٢هـ

العدد الخامس   المجلد السابع عشر

المحتـــوى

***

ضيــوف العــــدد

*** الأستاذ الدكتور طه جابر العلوانى ***

استاذ الشريعة ، بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

الرياض ـ المملكة العربية السعودية

*****

*** الأستاذ الدكتور محمد معروف الدواليبى ***

أحد كبار علماء العالم الاسلامى المعاصر ورئيس مؤتمر العالم الاسلامى

*****

*** الأستاذ الدكتور احسان حقى ***

من أبرز المفكرين فى العالم الاسلامى المعاصر وصاحب مؤلفات عديدة فى التاريخ والفكر الاسلامى ومقارنة الاديان

*****

***الأستاذ فواد محمود سندى ***

عالم سعودى ومدرس بأحدى

المؤسسات التعليمية بمكة المكرمة

*****

*** الأستاذ الدكتور تهامى نقرة ***

مفكر وكاتب اسلامى معروف ، من علماء تونس ورجالات فكرها
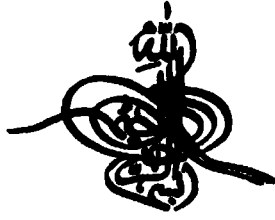
كلمة العـــدد

ان هذا العصر الذى نعيش فيه هو عصر الطواغيت ، فانه عصر كثرت فيه الطواغيت ، وكثرت فيه أنواع الكفر والطغيان ، وتنوعت فيه أقسام الشرک والعدوان . وزادت خطورة هذه الاقسام ومفاسد تلک الأنواع عن خطورة أخواتها التى تواجدت فيما مضى ، وتضاعفت مفاسدها عن مفاسد أمثالها ونظائرها فى فائت الزمان وغابره .

كانت طواغيت العصور الفائتة قزما بالنسبة لطواغيت العصر الحاضر . فكانت تجول وتصول فى نطاق واحد أو نطاقين اثنين ، وكانت سيئاتها منحصرة فى دائرة نشاطاتها المحدودة . فكان طغيان الفراعنة فى ادعائهم بالالوهية ، وكان طغيان قوم سيدنا لوط ـ عليه السلام ـ فى ارتكابهم ذلک المنكر الفاحش الشنيع ، وكان طغيان أصحاب الأيكة فى التطفيف وبخس الناس اشياءهم ، فكانوا اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، وقس على هذا طغيان الامم الاخرى وعدوان الشعوب البائدة .

وأما طواغيت هذا العصر فليست جولاتها وصولاتها منحصرة فى دوائر محدودة أو معلومة ، بل انتشر فسادها فى الآفاق كلها ،

واكتسحت العالم كله بمفاسدها وسيئاتها ، وفاقت أسلافَها بسعة طغيانها ، وشدة كفرها ، وشناعة عدوانها ، وكثرة تعدادها وأنواعها . ولعل عدد الطواغيت فى عصرنا هذا وعدد أنواعها بلغ مبلغا لم يكن يتصوره أبناء العصور القديمة ، وجادت قريحة عصر العلم والحضارة والتكنولوجيا فى ابتكار انواع الشرك والطغيان واختراع اقسام الكفر والعدوان بما لم تخطر ببال أحد فى عصور الجهل والبداوة .

فنرى طواغيت يطغون على الوحى والديانات ، وطواغيت يطغون على ثروات الناس وأموالهم ، التى اكتسبوها بأيديهم وأنفسهم ، وطواغيت يطغون على حريات الشعوب والدول ، وعلى استقلال البلاد والأمم ، وطواغيت يطغون على الآداب وفضائل الاخلاق ، وطواغيت يطغون على أعراض الناس ودمائهم ـ ـ ـ ـ ،

ولعل أكبر الطواغيت وأخطرها فى عصرنا الحاضر هو الذى طغى على الانسان وانسانيته ، وأنكر كرامة الانسان ، ونادى اتباعه بحيوانية الانسان ، وسعوا فى الأرض فسادا بنظرياتهم الباطلة وأفكارهم المنحرفة ، فجاسوا خلال الديار . فنرى هذا النوع من الطواغيت يحتقرون بأصل الانسان ، ويستصغرون مكانته ، و يتهاونون بكرامته ، ولايبالون باحترامه .

* * * * *

يعتبر الاسلام الحياة الانسانية منحة وموهبة من الله عزوجل منحها الانسان وشرفه بها . وهذه الحياة ليست عبثا كما يقول بعض الفلاسفة ومن تبعهم من أهل الغرب والشرق . فان الله تعالى خلق الموت والحياة ليبلوهم أيهم أحسن عملا . وليست الحياة تطورا طبيعيا بحتا أوظهورا تلقائيا كما يزعم داروين ومن تلاتلوه ، ولا هى

لعبة من لعب الخالق الاكبر الذى خلقها لهوا ولعبا وتسلية لنفسه كما يعتقد الهندوس .

الحقيقة هى على العكس من ذلك كله تماما ، فاعلن القرآن بصراحة : وماخلقنا السموات والارض ومابينهما لاعبين ، ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون .

فبما أن الحياة فى هذه الدنيا ليست عبثا ولالهوا ولالعبا ، وانما هى امتحان وبلاء ، فمن واجب الانسان أن يحفظ حياة اخوانه ويحميها . ومن حقه بل واجبه أن يحتفظ بحياته . وبما أن الناس كلهم سواسية في هذا الامتحان والبلاء فلم يكن لأحد مهما كانت مكانته عالية وسلطته قوية أن يغصب هذا الحق الطبيعى من اخيه الانسان . ولذلک اعتبر الاسلام الاعتداء على نفس واحدة اعتداءًا على الانسانية جمعاء . فمن قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما احيا الناس جميعا . وذلک لان الجناية على نفس واحدة هى فى الحقيقة جناية على حق الحياة الذى يصون للناس حق حياتهم جميعا . فالاستهتار بهذا الحق استهتار بالحياة الانسانية بأجمعها واستهتار بالكيان البشرى فى العالم كله . وأما المحافظة على هذا الحق فهى محافظة دماء الناس ومحافظة البشرية كلها .

★★★★★

ويتصل بمبدأ حرمة الحياة الانسانية مبدا كرامة الانسان بل يسبقه . وكل واحد منهما متلازمان ومتوقفان على الآخر . فلاحرمة للحياة الانسانية بدون كرامة الانسان . ولا معنى لكرامة الانسان اذا لم تكن لحياته حرمة .

ويتجلى مبدأ كرامة الانسان فى الاعلان القرآنى : لا اكراه فى الدين قدتبين الرشد من الغى . فى هذا الاعلان احترام ارادته وفكره ومشاعره واحساساته وانطباعاته . يترک الاسلام امره لنفسه يختار له مايشاء من هدى وضلال . فانه تعالى خلق النفس الانسانية ، وهو الذى ألهمها فجورها وتقواها .

وليس هناک دين من الاديان أو فلسفة من الفلسفات سبقت الاسلام الى هذه الاعلانات الانسانية العالمية لكرامة البشر وحرمته وعظمته . وهذه الاعلانات وجهت الى البشرية جمعاء لا الى امة من الامم أو طائفة من الطوائف .

وليست المساواة التامة بين أفراد البشر على أساس الشريعة الاسلامية وفى اطار النظام الاسلامى إلاضمان كامل لكرامة الانسان . ومن حق كل انسان بل من واجبه أن ينال الكرامة اللازمة من المجتمع وان يعامل معه بما هو مقتضى كونه انسانا . فان الكرامة مضمونة لجميع بنى آدم . « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

★★★★★★

وهناک ناحية أخرى لكرامة الانسان . ان الله تعالى حمّل خلافته فى كونه على كل انسان من حيث كونه انسانا . فكل انسان ظهر على وجه الأرض خليفة الله فى ارضه بالقوة لو لم يكن خليفته بالفعل . ولعله هو السر فى أن القرآن الكريم لم يستعمل الخليفة بصيغة المفرد الا للانبياء ، وأما لمن عدا الانبياء من المؤمنين الصالحين والمسلمين فيطلق عليهم كلمة الخلفاء بصيغة الجمع .

وسرّ هذه الخلافة الالهية للانسان هو العلم الذى شرفه به خالقه

يوم أن خلق أبا البشر، والحكمة التى عبرها بالخير الكثير . فالعلم والحكمة هما المؤهلان اللذان يؤهلان الانسان للخلافة الالهية والامانة الكبرى التى عرضها الله سبحانه وتعالى على السموات والأرض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان .

ويعتبر الاسلام النيل من كرامة الانسان جاهلية . فروى الأمام البخارى أن أبا ذر تغاضب مع بلال الحبشى (رضى الله عنه) مولى أبى بكر رضى الله عنه وتسابا . فقال له أبوذر يا ابن السوداء ، فشكاه بلال الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم لأبى ذر : «أعيّرته بأمه ؟ انك امروء فيك جاهلية . فمن كرامة الانسان أن لايعير بلونه أو نسبه . فان الناس فى نظر الاسلام سواسية كأسنان المشط ، ولكل فرد من افراد الانسانية حق الكرامة الانسانية . وهم سواء فى ذلك . فقال عليه السلام : كلكم لآدم وآدم من تراب ، لافضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

والمساواة من اهم النتائج المنطقية لمبدأ كرامة الانسان . وشهد التاريخ الانسانى مساهد ومواقف عظيمه للمساواه الانسانيه التى نادى بها الاسلام وعملت بها وطبقتها الامة الاسلامية .

ان المجتمع الانسانى الامثل الذى يقيمه الاسلام بهدى القرآن وفى ضوء سنة نبى الاسلام عليه أفضل صلاة وتحية مجتمع على أعلى مراتب الاخلاق والآداب ـ له اخلاقه السامية وأدبه الرفيع . يتمتع كل فرد فيه بالكرامة الانسانية . ويتمتع كل واحد فيه بأخلاقه السامية وأدبه الرفيع . ولذلك اعتبر الاسلام انتهاك كرامة واحد منهم انتهاكا لكرامة الجميع ، وانتهاك حرمة الواحد انتها كا لحرمة الجميع ، كما أن قتل نفس بغير نفس أو فساد فى الأرض كقتل الناس جميعا .

وللحفاظ على هذه الكرامة الانسانية والحرمة الطبيعية للانسان وللحمبتع الانساني يستجيش الاسلام عواطف الاخوة الايمانية والصداقة الاسلامية الوثيقة ، فيحصل على الكثير والكثير فى هذا الاتجاه مالا يمكن الحصول عليها .

وأعلن القرآن الكريم أن من انتهک حرمة أخيه وكرامته فكأنما انتهک حرمة نفسه وكرامة نفسه . فنهانا الكتاب الحكيم ان لانلمز انفسنا (ولاتلمزوا أنفسكم) فالمراد منه لاتلمزوا اخوانكم ، فان أحدا لابلمز نفسه ، ولكنه اذا لمزأخاه فكانما لمزنفسه . ويوجب الاسلام أن يكون كل انسان حرا من أن يكون عرضة لظنون الناس السيئة . فان الظن لايغنى من الحق شيئا ، بل يؤدى الانسان الى احتقار أخيه .

ومن كرامة الانسان أن يحتفظ بأسراره ويحافظ على عوراته ، وأن لايكون عرضة للتجسس والتتبع بدون أى سبب شرعى . فان كتاب الله الحكيم نهانا عن التجسس . لأن التجسس فى أسرار الناس وتتبع عوراتهم وكشف سوءاتهم اتجاه لئيم ، وعمل دنى يدنس المجتمع وينجسه . وكل انسان له حريته وكرامته له عورات من جسده ، وعورات من عاداته ، وعورات من ادوات منزله ، وله الحرية والحق فى أن يبعدها عن أعين الناس . فلا بد من ان تكون هذه الحرية مأمونة من الانتهاک فى أى شكل أو صورة ، ليبقى كل واحد آمنا على نفسه ، آمنا على بيته ، آمنا على عوراته ، آمنا على أسراره . والى هذا المعنى أشار النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : انک ان اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت ان تفسدهم . (رواه ابو داؤد)

محمود أحمد غازى

دور الحنفية فى تدوين علم الاصول

د .طه جابر العلوانى

ذهب بعض مؤرخى « أصول الفقه » الى أن أبا يوسف القاضى ، ومحمد بن الحسن ـ رحمهما الله ـ قد كتبا فى الاصول (١) . ولكن هذه الدعوى لم تثبت .

وقد نقل صاحب كشف الظنون (٢) عن علاء الدين قوله فى كتابه « ميزان الاصول » : اعلم أن « أصول الفقه » فرع لعلم أصول الدين ، فكان من الضرورى أن يقع التصنيف فيه على اعتقاد مصنف الكتاب ، وأكثر التصانيف فى « أصول الفقه » لاهل الاعتزال المخالفين لنا فى الاصول ، ولاهل الحديث المخالفين لنا فى الفروع ولا اعتماد على تصانيفهم .

وتصانيف أصحابنا قسمان : قسم وقع فى غاية الاحكام لصدوره ممن جمع الاصول والفروع ، مثل « مأخذ الشرع » و« الجدل » لابى الحسن الماتريدى.

وقسم وقع فى نهاية لاتحقيق فى المعانى ، وحسن الترتيب لصدوره ممن تصدى لاستخراج الفروع من ظواهر المسموع ، غير أنهم لما لم يمهروا فى دقائق الاصول ، وقضايا العقول : أفضى رأيهم الى رأى المخالفين فى بعض الفصول ، ثم هجر القسم الاول اما لتوحش

الالفاظ والمعاني ، واما لقصور الهمم والتواني .

وفى هذا القول مجال كبير للنظر وان صدر عن حنفى ، ولكنه قريب الى الواقع فى بيان دور الحنفية فى تطوير " أصول الفقه " . ففى الفترة الاولى انصرف علماؤهم قبل الماتريدى لمناقشة بعض ماورد فى رسالة الامام الشافعى كما فعل عيسى بن أبان وغيره .

أما فى الفترة الثالثة لتلك فان من أبرز ماكتبوا " أصول الكرخى " (ت ٣٤٠ هـ)، وهى صفحات معدودة طبعت مع كتاب ابن زيد الدبوسى " تأسيس النظر " المطبوع فى القاهرة طبعات عدة .

وتلاه الجصاص (ت ٣٧٠ هـ) ، فكتب " أصوله " ليكون مقدمة لكتابه " احكام القرآن " ، وقد حققه أحد الباحثين رسالة للدكتوراه ولم يطبع لحد الآن .

ويمكن أن يعتبر بدء التطور فى كتابة " أصول الفقه " عند الحنفية على يدالامام ابى زيد الدبوسى (ت ٤٣٠ هـ) ، فقد كتب كتابيه " تقويم الادلة " حققه أو بعضه أحد الباحثين ، ولم يطبع لحد الآن ، و " تأسيس النظر " ، وقد استفاد أبو زيد من أصول سابقيه خاصة الكرخى والجصاص ، لكنه وسع وفصل ، كما تطرق باشارات موجزة الى ما اتفق فيه الحنفية مع غيرهم ، وما اختلفوا فيه من الاصول .

ويتبعه فخر الاسلام البزدوى (ت ٤٨٢ هـ) فألف كتابه الشهير "كنز الوصول الى معرفة الاصول " فتناول فيه المباحث الاصولية عامة ، وقد اهتم به الحنفية كثيرا وكتبوا عليه شروحا كثيرة أهمها وأحسنها "كشف الاسرار " لعبدالعزيز البخارى (ت ٧٣٠هـ) ، وقد طبع فى الاستانة ومصر .

كما كتب شمس الائمة السرخسى (ت ٤٨٣ هـ)« أصول السرخسى » المطبوع بجزئين فى مصر ، والكتاب يعتبر نسخة معدلة عن كتاب « تقويم الادلة » للدبوسى وقد استأثر كتابا البزدوى والسرخسى على اهتمام علماء الاصول من الحنفية وعكفوا عليها فترة طويلة .

ومما تقدم يتضح أن « أصول الفقه » بوصفه علما مخصوصا قد تكامل نموه واتضحت مباحثه وانحصرت مسائله فى القرن الخامس ، وفيه دون علماء المذاهب أصولهم بشكل متكامل .

طريقة الشافعية أو المتكلمين وطريقة الحنفية .

وقد تم تدوين الاصول بطريقتين عرفت احداهما بطريقة الشافعية أو المتكلمين ، وهى الطريقة التى سار عليها الشافعية والمالكية والحنابلة والمعتزلة (٣) وقد غلب عليها لقب « طريقة المتكلمين » لان الكتب المكتوبة بهذه الطريقة اعتاد أصحابها أن يقدموا لها ببعض المباحث الكلامية كمسائل « الحسن والقبيح » و « حكم الاشياء قبل الشرع » و « شكر المنعم » و « الحاكم » .

ولانهم يسلكون فى تقرير قواعد الاصول مسلكا استدلاليا قائما على تقرير القواعد ، والاستدلال على صحتها ، والرد على المخالفين من غير أن يولوا الفروع التى تندرج تحت هذه القواعدكبير اهتمام ، أو يراعوا تطبيق الفروع عليها .

طريقة الحنفية :

أما الحنفية فقد سلكوا فى كتابة أصولهم سبيل تقرير القواعد الاصولية على مقتضى الفروع المنقولة عن أئمتهم : فالقاعدة مستنبطة

من الفروع دائـرة حولها ، لاالعكس ، فالدارس لاصول الفقه بهذه الطريقة يجمع الفروع التـى أفتـى بهـا الائمة ، ويقـوم بتحليلهـا ، وتقريراتهم انما افتوا بها بناء على أصول يتوصل اليها فيقـررها قواعد لتلك الفتاوى .

يقول الدهلوى : « ... واعلم أني وجدت بعضهم يزعم : أن بناء الخلاف بين أبى حنيفة والشافعي ـ رحمهما الله ـ على هذه الاصول المذكورة في كتاب « البزدوى » ونحوه ، وانما الحق أن أكثرها أصول مخرجة على قولهم ، وعندى : أن المسألة القائلة بأن الخاص مبين ، ولايلحقه البيان ، وأن الزيادة نسخ ، وأن العام قطعى كالخاص ، بأن لاترجيح بكثرة الرواية ، وأنه لايجب العمل بحديث غير الفقيه اذا انسد باب الرأى ، وأن لاعبرة بمفهوم الشرط والوصف أصلا ، وأنه موجب الامر ـ هو الوجوب البتة ، وأمثال ذلك : أصول مخرجة علـى كلام الائمة ، وأنه لاتصح بها رواية عن أبى حنيفة وصاحبيه ، وأنه ليست المحافظة عليها ، والتكلف في جواب مايرد عليها من صنائع المتقدمين في استنباطاتهم كما يفعله البزدوى وغيره أحق من المحافظة علـى خلافها والجواب عما يرد عليه » (٤) . ثم استطرد ـ رحمه الله ـ فى ضرب الامثلة على ذلك .

علم أصول الفقه فى القرن السادس وما تلاه .

بعد أن ضمت مباحث هذا العلم ومسائله فى الكتـب الاربعة «العهد » و « المعتمد » و « البرهان » و « المستصفى » على طريقة المتكلمين ، قام امامـان جليـلان من أئمة المتكلميـن بتلخيص هذه الكتب الاربعة هما الامام فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ) الـذى

لخصها بكتابه « المحصول » الذى تشرفت بتحقيقه ، وقامت جامعة الامام بطبعه ونشره .

والامام سيف الدين الآمدى (ت ٦٣١ هـ) وقد لخصها فى كتابه « الاحكام فى أصول الاحكام » الذى طبع فى الرياض والقاهرة وغيرهما .

والكتابان من الكتب المبسوطة الميسرة بالنسبة الى غيرها ، والمحصول أوضح عبارة وأكثر تفصيلا . وتوالت الاختصارات والشروح والتعليقات على هذين الكتابين فاختصر « المحصول » تاج الدين الارموى (ت ٦٥٦ هـ) بكتابه « الحاصل » الذى حقق رسالة للدكتوراه فى الأزهر ، ولم ينشر لحد الآن . واختصره محمود الأرموى (ت ٦٧٣ هـ) بكتابه « التحصيل » وقد حقق ، ولم ينشر كذلك . واختصره الفخر الرازى نفسه بكتاب سماه « المنتخب » يقوم أحد الباحثين بتحقيقه . واختصر « الحاصل » القاضى البيضاوى (ت ٦٨٥ هـ) بكتابه « منهاج الوصول الى علم الاصول » اختصارا شديدا بلغ حد الالغاز ، فانبرى لشرحه كثيرون ، وأحسن شروحه شرح الاسنوى (ت ٧٧٢ هـ) المسمى ب « نهاية السول » وهو الذى عكف عليه المشتغلون بهذا العلم فترة طويلة من الزمن ، ولايزال الشافعية ـ من الازهرالاه الازهريين عليه عاكفين .

أما كتاب الآمدى « الاحكام » فقد اختصره ابن الحاجب المالكى (ت ٦٤٦ هـ) بكتابه الشهير لدى المالكية « منتهى السول والامل فى علمى الاصول والجدل » وأفضل شروحه المتداولة شرح عضد الدين (ت ٧٥٦ هـ) ، وعليه حواشى وتعليقات .

وكل هذه الكتب كتبت على « طريقة المتكلمين » تقرر القواعد ، وتقام الادلة عليها ، ويحاول المخالفون لها حتى يستسلم أحد الفريقين .

أما الحنفية ـ فقد شغل أصوليوهم كذلك بالعكوف بالدراسة على كتابى « البزدوى والسرخسى » ، وظل الحال كذلك حتى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع حيث اتجه الاصوليون الى طريقة جديدة فى كتابة الاصول ـ هى : طريقة الجمع بين طريقتى المتكلمين والحنفية لتخرج كتب تجمع أصول الفريقين ، وتوائم بين الطريقتين .

فكتب مظفر الدين الساعاتى (ت ٦٩٤ هـ) كتابه « بديع النظام الجامع بين كتابى البزدوى والاحكام » ، وهو من الكتب المطبوعة المتداولة .

وكتب صدر الشريعة (ت ٧٤٧ هـ) كتابه « تنقيح الاصول » لخص فيه « المحصول وأصول البزدوى ومختصر ابن الحاجب » ، ثم شرح كتابه هذا بشرح سماه « التوضيح » كتب عليه التفتازانى (ت ٧٩٢هـ) حاشية سماها « التلويح » والتنقيح والتوضيح والتلويح كلها مطبوعة متداولة . وكتب تاج الدين السبكى ـ من الشافعية ـ كتابه الشهير « جمع الجوامع » ، ذكر فى مقدمته أنه جمعه من مائة كتاب أصولى وقد اهتم الكثيرون بشرحه والتعليق عليه وأهم شروحه وأكثرها تداولا شرح الجلال المحلى الذى بقى عمدة الدراسات الاصولية لدى الشافعية خاصة . كما شرحه بدر الدين الزركشى (   ) بشرح سماه « تشنيف المسامع » طبعت قطعة منه فى القاهرة مع تعليقات للشيخ المطيعى ـ رحمه الله ـ   (   ) ويقوم أحد الباحثين بجامعة الامام

بتحقيقه رسالة للدكتوراه .

كما كتب الزركشي كتابه „ البحر المحيط “ جمع فيه أقوال الاصوليين مما يزيد على مائة مصنف . ويقوم أحد الدارسين بتحقيقه مع أحد أساتذة كلية الشريعة بجامعة الامام في الوقت الحاضر .

وكتب ابن قدامة (   ) من الحنابلة كتابه „ روضة الناظر وجنة المناظر “ لخص فيه المستصفى للغزالي وضم اليه فوائد أخرى مما خالف فيه الحنابلة غيرهم وقد طبع عدة مرات ، وعنى به الحنابلة ، واستغنوا به عما عداه . وقد اختصر الروضة سليمان الطوخى (   ) ، ثم شرح مختصره بمجلدين .

وكتب القرافى (   ) من المالكية كتابه „ تنقيح الفصول فى اختصار المحصول “ كما شرح المحصول بكتاب ضخم سماه „ نفائس الاصول “ .

مباحث الاجتهاد :

كانت مباحث الاجتهاد فى الكتب الاصولية تأخذ بابا أو كتابا من أبواب أو كتب تلك الكتب ، يتناول فيه الاصوليون تعريف الاجتهاد وبيان شروطه وأنواعه والكلام عن تعبد رسول الله بالاجتهاد ، وعدم تعبده به ، وهل الصحابة فى عهده متعبدون بالاجتهاد أم لا ؟ وهل المصيب واحد من المجتهدين ، أو يجوز بعدد الصواب ؟ ومايجوز الاجتهاد فيه ومالايجوز . ثم يتناولون „ مباحث التقليد “ بنفس الاسلوب .

وفى القرن الثامن كتب ابراهيم بن موسى (ت ٧٩٠هـ) كتابه „الموافقات “ الذى تكلم فيه عن „ الاجتهاد “ باعتباره عملية فكرية

تعتمد على دعامتين الدعامة الاولى معرفة تامة بقواعد اللغة العربية ، وأساليب التعبير فيها ، وهذه تركها الرجل للمصنفين فى اللغة العربية ، وللمؤلفين الاخرين فى « أصول الفقه » .

أما الدعامة الاخرى للاجتهاد ـ فى نظره ـ فكانت المعرفة بمقاصد الشارع الحكيم مما شرع . هذه المقاصد ماكان الاصوليون الذين سبقوا الشاطبى يولونها الكثير من العناية ، بل كانوا يبحثونها فى ثنايا الكلام عن أقسام « العلة » أما الشاطبى فقد وضع كتابه هذا للكلام فى هذا الموضوع ، وهو بالغ الخطر ، شديد الاهمية ، ضرورى لادراك حكم الشارع ومقاصده . ولكن هذا الكتاب قد لقى من اهمال الباحثين فى الاصول مالا يستحق ، لما استقر فى أذهان الدارسين : من أن التعليل بالحكم لايجوز ، لانها غير منضبطة ، وما دام الامر كذلك فان البحث فيها ـ فى نظر الكثيرين ـ يعد من قبيل الترف العقلى . والكتاب مطبوع متداول ، وليت القائمين على تدريس « أصول الفقه » أو وضع مناهجه يلفتون أنظار الدراسين اليه خاصة أولئك الذين يدرسون مباحث « القياس والتعليل والاجتهاد » .

وألف ابن الهمام (ت ٨٦١ هـ) كتابة « التحرير » ، وشرحه تلميذه ابن أمير الحاج (ت ٨٧٩ هـ) بشرح سماه « التقرير والتخيير » والكتاب وسرحه مطبوعان ، وهو من الكتب التى كتب بطريقة الجمع بين طريقتي « الحنفية والمتكلمين » وله شرح آخر مطبوع لامير بادشاه اسمه « تيسير التحرير » .

وكتب القاضى علاء الدين المرداوى (ت) مختصرا « لاصول ابن مفلح » (٥) (ت) سماه « تحرير المنقول وتهذيب علم الاصول"

وقد قام بتحقيقه أحد الباحثين ، ويتوقع نشره قريبا .

وألف بعد ذلك ابن النجار الفتوحى الحنبلى « مختصرا » «لتحرير المرداوى » ثم شرح ذلك المختصر بشرح جيد يعتبر من أجمع الكتب الاصولية المتأخرة وأحسنها وقد طبع فى مصر ناقصا ، ثم حققه استاذان جليلان هما الدكتور نزيه حماد والدكتور محمد الزحيلى ، وقام بنشره مركز البحث العلمى فى كلية الشريعة بمكة المكرمة ، وقد ظهر منه مجلدان ، ومابقى منه تحت الطبع .

وفى القرن الثانى عشر الهجرى كتب محب الله بن عبدالشكور البهارى الحنفى (ت ١١١٩هـ) كتابه الاصولى « مسلم الثبوت » ، وهو من أدق وأجمع ماكتب متأخروا الحنفية ، وقد طبع منفردا ، كما طبع مع شرح له فى الهند ، وطبع مع شرحه المشهور « فواتح الرحمات » بحاشية « مستصفى الغزالى » عدة طبعات .

وهذه الكتب ـ كلها ـ قد كتبت بالطرق التى تقدم ذكرنا لها ، وكلها كانت تتركز حول ابراز مذاهب أصحابها ، وأبطال مذاهب المخالفين ، ولم نجد منذ القرن السادس الهجرى حتى يومنا هذا كتبا عنيت بتقديم « أصول الفقه » على أنه منهج بحث للفقيه المسلم يعصم ذهنه من الخطأ فى الاجتهاد الفقهى .

وفى القرن الثالث عشر الهجرى كتب القاضى الشوكانى (ت ١٢٥٥هـ)كتابه الاصولى « ارشاد الفحول » ، وفى هذا الكتاب ـ على صغر حجمه ـ عرض جيد لمختلف الآراء الاصولية ، مع ذكر أدلة أصحابها باختصار غير مخل ، مع ترجيح بعض مايراه راجحا ، والكتاب يصلح للدراسة الاصولية المقارنة لدارسى« أصول الفقه » وقد طبع عدة

مرات ، ولم يقرر للدراسة فى أى معهد من معاهد العلم ـ التى نعرفها ـ مع صلاحه لذلك .

ولخصه محمد صديق خان (ت ١٣٠٧ هـ) فى مختصره „ حصول المأمول من علم الاصول „ ، وهو مختصر مطبوع .

وبعد ذلك نجد أن الدراسات الاصولية قد أخذت اتجاهين :

الاول : كتابة المذكرات والمداخل والملخصات .

التى يقوم باعدادها الاساتده المتخصصون لتيسير دراسة هذا العلم على طلابهم فى الكليات المتعددة بعد أن رأوا عزوف طلابهم عنه أو عجزهم عن دراسته وهى مذكرات ودراسات لم تقدم لهذا العلم كثيرا فهى ـ فى الكنير الغالب ـ اعادة لكتابة بعض مسائل هذا العلم بلغة عصرية : فكتب الشيوخ المرصفى والمحلاوى والخضرى وعبد الوهاب خلاف والشنقيطى والسايس ومصطفى عبدالخالق وعبدالغنى عبد الخالق وابوزهرة وابو النورزهير ومعروف الدواليبى وعبدالكريم زيدان وزكى الدين شعبان ومحمد سلام مدكور وغيرهم كتب كانت عبارة عن تحرير لمحاضرات القوها على طلابهم فى كليات الحقوق او الشريعة .

والاتجاه الثانى : كان كتابة الرسائل الجامعية فى بعض مباحث هذا العلم ، اوتحقيق كتب قديمة من المخطوطات . ولاشك أن هذا الاتجاه بشقية قد قدم خدمات جليلة لهذا العلم ولكن هذه الخدمات ـ على تقديرنا البالغ لها ـ لم تزل دون الطموح المطلوب فلا يزال هذا العلم واقفا فى نفس الموضع الذى تركه فيه اسلافنا فى القرن السادس الهجرى .

ومن خلال العرض الذى قدمناه نستطيع ان نستخلص النتائج التالية :ـ

١ـ ان هذه القواعد التى عرفت ب „ أصول الفقه “ لم يظهر سى منها فى عصر رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولافى عصر اصحابه بألفاظه الاصطلاحية ، وان كانت معظم المعالجات الاجتهادية فى العصرين المذكورين يمكن ان تندرج تحت هذه القواعد ـ وذلك لانهم كانوا يستخلصون الاحكام الفقهية الجزئية من مداركها ومصادرها التفصيلية سليقة ، كما كانوا يتكلمون اللغة العربية سليقة دون ملاحظة قواعد النحو التى ماعرفت الا بعد ذلك .

٢ـ ان قواعد علم „ اصول الفقه “ أول من جمعها فى كتاب هو الامام محمد بن ادريس الشافعى المولود سنة (١٥٠ هـ) والمتوفى سنة (٢٠٤ هـ) ، وان اول كتاب جامع فى هذا العلم هو كتابه „ الرسالة “ التى ألفها بناء على طلب الامام عبدالرحمن بن مهدى (١٣٥ ـ ١٩٨ هـ)، وذلك بعد قيام المدرستين الفقهيتين الشهيرتين : مدرسة „ أهل الحديث التى كان مقدمها الامام مالك بن انس (٩٣ ـ١٧٩ هـ) ومدرسة „أهل الرأى “ التى كان مقدمها الامام ابو حنيفة (٨٠ ـ١٥٠ هـ) وبعد أن انتشر فقه المدرستين ، ونشب بين أتباعهما مايمكن تسميته بالصراع الفقهى (٦) . الذى اضيف الى النزاعات السياسية والكلامية والفلسفية التى نشبت فى تلك الفترة .

٣ـ ان علم „ أصول الفقه “ هو منهج البحث عند الفقيه (٧) فهو

كالمنطق بالنسبة الى الفلسفة (٨) . ولذلك عرفوه بأنه « مجموع طرق الفقه ـ على سبيل الاجمال ـ وكيفية الاستـدلال بهـا ، وكيفية حال المستدل بها » (٩) .

« فأصول الفقه » اذن قانون كلى يعصم ذهن المجتهد من الخطأ فى الاستدلال على الاحكام الشرعية من طرقها المختلفة (١٠) . ولكنه لم يستخدم بهذه الصفة الاعند الشافعى ـ رحمه الله ـ فى فقهه الجديد .

٤ـ ان من الحقائق الهامة ـ التى لاينبغى أن تغرب عن البال : ان الناس فد خاضوا فى الفقه ، وقالوا فيه ـ قبل أن يتكلموا فى اصوله (الا ماكان من الشافعى فى فقهه الجديد)، ولذلك كان « اصول الفقه » فد أخذ عند غيره ـ دور المبرر للفتاوى الجزئية ، وقاعدة الجدل والحجاج عما قالوه فيها ، لادور القانون الكلى ومنهج البحث الذى يحكمها : فان الفقهاء درجوا على ان يردوا المسائل والوفائع الى الادلة التفصيلية مباشـرة دون احسـاس بالحاجة الى توسط « القواعد الكلية التى جمعت فى علم «اصول الففه » . فالامام ابو حنيفة ـ رحمه الله ـ فد افتى فيما يقرب من نصف مليون مسأله من المسائل الفقهية (١١) . تناقلها اصحابه ولكن « القواعد الاصولية » التى فرع الامام عنها فتاواه تلك لم تنقل بسند متصل اليه (١٢) . غير عبارات قليلة تعرض ـ رحمه الله فيها لبعض مصادر استنباطاته واجتهاداته ، منها قوله رحمه الله ـ « ... آخذ بكتاب الله فان لم اجد فبسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فان لم أجد فى كتاب الله ولاسنة رسوله ـ

صلى الله عليه وسلم ـ أخذت بقول اصحابه ، آخذ بقول من شئت منهم ، وأدع من شئت منهم ، ولا أخرج عن قولهم الى قول غيرهم فاذا انتهى الامر الى ابراهيم والشعبى وابن سيرين والحسن وعطأ وسعيد بن المسيب .. فقوم اجتهدوا فاجتهد كما اجتهدوا (١٣) . وحين حاول البعض استعداء الخليفة العباسى المنصور (   ) عليه كتب ابوحنيفة رحمه الله ـ للمنصور يقول: «...... ليس الأمر كما بلغك يا أمير المؤمنين انما اعمل بكتاب الله ، ثم سنة رسول الله ـ صلى عليه وسلم ـ ثم بأقضية أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ـ رضى الله عنهم ـ ثم بأقضية بقية الصحابة ، ثم أقيس ـ بعد ذلک ـ اذا اختلفوا وليس بين الله وبين خلقه قرابة » (١٤) .

ولما اتّهم ـ رحمه الله ـ بتقديم القياس على النص قال :« ... كذب والله وافترى علينا من يقول : اننا نقدم القياس على النص ، وهل يحتاج بعد النص الى قياس » ؟ (١٥) .

٥ـ ان من الامور المسلمة أنه منذ بداية العهد الأموى الى أن هدمت الخلافة الاسلامية كان أمر السلطان والقيادة فى الامة الاسلامية الى غير المؤهلين للاجتهاد « كان أمر الاجتهاد الى علماء لاسلطان لهم ، ومن المتعذر استثناء أية حالة غير الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز ـ رضى الله عنه حيث رويت عنه اجتهادات فقهية ، وقد كان لهذا أثر بالغ فى فصل « الفقه واصوله » عن جوانب هامة من حياة المسلمين العملية ليتجه فى كثير من القضايا اتجاها نظريا ومثاليا (١٦) . جعلهما يعبران

عما يطمح ان تكون عليه حياة المسلمين ، لاعما هو واقع فى حياتهم ، اويمكن أن يكون .

٦ـ أن الكاتبين ـ فى هذا العلم ـ والمؤرخين له قد صنفوه ضمن العلوم الشرعية النقلية (١٧) . وان كان بعضهم قد نص على ان مبادئه مأخوذة من العربية وبعض العلوم الشرعية والعقلية (١٨) .

كما أن واحدا من أبرز الكاتبين فيه وهو الامام الغزالى قد قال "... وأشرف العلوم ما ازدواج فيه العقل والسمع واصطحب فيه الرأى والشرع ، وعلم الفقه واصوله من هذا القبيل فانه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل ، فلا هو تصرف بمحض العقول ـ بحيث لايتلقاه الشرع بالقبول ولا هو مبنى على محض التقليد الذى لايشهد له العقل بالتأييد والتسديد (١٩) .

ولعل ماقاله الامام الغزالى وغيره من الاصولين يتيح لنا أن نقول : بأن طرق الفقه ثلاثة .

أ) الوحى : بشقيه المتلو المعجز ، وهو الكتاب ، وغيره وهو السنة.

ب) العقل لتفسير النصوص ، والبحث فى سبل تطبيقها وربط الجزئيات بالكليات ، واستنباط العلل ، لما لم يعلل والحكم فيما لم ينص الشارع على حكمه ونحو ذلك مما يمكن تحديده وتفصيله .

ج) التجارب والاعراف والمصالح . وعلى هذه الاسس الثلاثه يمكن توزيع سائر " الاصول الفقهية " المتفق عليها ، والمختلف فيها ، وهى : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ، وكون الاصل فى المنافع الاباحة ، وفى المضار المنع

واستصحاب الحال ، والاستحسان ، وقول الصحابي اذا انتشر بين الصحابة ولم يخالفه احد منهم ، والأخذ بأقل ما قيل ، والأخذ بالاخف ، والاستقراء الناقص ، والمصالح المرسلة والعرف ، والاستدلال على عدم الحكم بعدم ما يدل على حكم ، وشرع من قبلنا سد الذرائع .

٧ـ ان هناك عوامل في تاريخنا كالذى اشرنا اليه في الفقرة (ب) ـ قد فرضت علينا مخاوف أدت الى وضع كثير من القيود نجم عنها تحول العقلية الاسلامية والتوجه الفكرى فيها نحو الامور الجزئية ، والابتعاد عن التفكير الكلى الشمولي ـ الذى يعتبر طابعا مميزا للتفكير الاسلامى ، وكان لذلك اثره البالغ في حلولنا ومعالجاتنا الفقهية ، حيث وسمت بهذه السمة ، وأخذت هذا الطابع .

٨ـ ان من الامور المعروفة : أن في كل علم أو شأن من شئون الحياة أمورا تقبل التطور وتحتاجه ، وربما لاتتحقق الا به ، وامورا أخرى ثابتة ، والمنطق الاسلامى يوجب أن يكون هناك تكامل بين الاثنين ، ولذلك كان لاصول الفقه قواعد ثابته لاتقبل تغييرا ، واخرى تعتمد على التطور والتجدد الدائمين ، وذلك واضح في « مسائل الاجتهاد » .

وعلى هذا فانه ـ في الوقت الذى تدعو فيه جميع أهل العلم ان لايبدأوا من فراغ وان يستفيدوا من اجتهادات من سبقهم من مجتهدى الامة وعلماءها فاننا نؤكد انه لا أحد يستطيع أن يدعى فرصية متابعة أى مجتهد في أمر اداه اليه اجتهاده فقط ، فان

ذلک اقصى مايقال فيه : انه رأى والرأى مشترک (٢٠) .

٩ـ تبين لنا ـ من خلال الدراسة لمناهج السلف ـ أن الهدف ليس معرفة الحکم ولاصدور فتوى فيه ، وانما هدفهم دائما اقامة حکم الله في تطبيقة ، وهذا مايوجب عدم فصل ظروف تطبيق الحکم وشروطه عنه .

اذا تبين ذلک واردنا أن نعيد هذا العلم الى وضعه الصحيح بين العلوم الاسلامية وتحويله الى منهج بحث فى الأدلة الشرعية لنستفيد منها احکاما ومعالجات وحلولا لسائر قضايانا المعاصرة لتبسط عليها حاکمية الشرع ، لاسواه فاننا نحتاج الى مايلى :

١ـ اعادة النظر فى المباحث التى يشتمل عليها هذا العلم وتخليصه مما لايحتاجه الفقيه الاصولى نحو مباحث « حکم الاشياء قبل الشرع » والنزاع فى مسألة « شکر المنعم » و « مباحث حاکمية» ، والعناية الزائدة بالحدود والتعاريف والانشغال بمناقشتها .

کذلک التخلى عن المباحث المتعلقة بنزاعهم فى مسائل «القراءات الشاذة » وعربية جميع القرآن » وحسم النزاع الطويل فى « خبر الواحد » بان يعتبر خبر الواحد ـ اذا استوفى شروط التصحيح ، وثبتت صحته ـ مقبولا تؤخذ منه الاحکام واعادة النظر فى سائر الشروط التى وضعها بعض الأئمة لظروف خاصة املتها عليهم ککون الحديث غير مخالف لقواعدهم العامة ، أو کونه مرويا من غير فقيه ، او مخالفا لقياس ، او مخالفا لما عليه العمل فى المدينة ، اولظاهر القرآن ، او وارد فيما تعم به البلوى ولم يشتهر ،

او غير ذلک من شـروط كانت ولايزال موضع جدل ، ومصدر اختلاف وخصام بين المسلمين ، وشغـلا شاغلا للدارسين .

٢ـ ولابد من دراسة لغوية فقهية تدرس من خلالها اساليب التعبير لدى العـرب في عصـر الرسالة ، وملاحظة التطورات التى مرت بها هذه الاساليب ، ومفاهيم المفردات اللغوية كذلک ليتمكن الفقيه من فهم النصوص الفهم المطلوب .

٣ـ ايلاء الادلة أو الاصول « الاجتهادية » كالقياس والاستحسان والمصـلحة وغيرهـا عنـاية خاصة ودراستهـا ودراسة تاريخهـا والظروف التى املت على المجتهدين القول بها ، ومحاولة تنمية الحس الفقهى بها لدى الباحثين فى مجالات الفقه والاصول .

٤ـ لابد من ادراک ان من غير الممكن أو الميسور فى عصرنا هذا وجود المجتهـد المطلق ومادام الامـر كذلک فان«المجامـع العلمية » هى البديل للمجتهـد المطلق .

ولتتمكن هذه المجامع من تلبية احتياجات الامة فى قضايا التشريع لابد أن تتالف من خبراء تتناول اختصاصاتهم جميـع مناحى الحياة ويستطيعون ان يتبينوا اى قضية تعرض من جوانبها المختلفة ، ولهم مع ذلک معرفة تامة بالقواعد والاصول العامة للشريعة الاسـلامية ، ويكون من بينهم فقهاء على اعلى مستوى ممكن فى العلوم الشرعية والادلة التفصيلية ـ ولعـل فقهاءنـا رحمهم الله ـ كانوا يشيرون الى هذا المعنى حين طلب بعضهم من الذى يريد الفطر فى رمضان أن يستفتى طبيبا مسلما عدلا ، فاذا افتاه ان الصيام يضره جاز له الفطـر .

٥ـ وهذا يقتضى فيما يقتضى بتيسير العلوم الشرعية وتسهيل دراسة مايحتاجه منها اولئك المتخصصون فى علوم أخرى .

٦ـ كما اننا فى حاجة شديدة الى معرفة فقه الصحابة والتابعين ، والقواعد التى استنبطوا منها ما استنبطوه وخاصة فقه الخلفاء الراشدين ومعاصريهم من أهل الفتوى من الصحابة وكبار التابعين ، لتكون هذه الدراسات بين ايدى أولئك الذين يرادمنهم ، الاستجابة التشريعية لمتطلبات مجتمع اسلامى معاصر .

٧ـ الاهتمام بمعرفة „ مقاصد الشريعة » ، وتنمية دراساتها والعمل على وضع قواعد او ضوابط لها .

وختاما فلعل المعهد العالمى للفكر الاسلامى خطوة فى هذا السبيل ان شاء الله تعالى .

والله ولى التوفيق .. »

المراجع

١ـ راجع مناقب المكى (٢٤٥/٢) ومقدمة أصول السرخسى (٣/١) ، ومفتاح السعادة (٣٧/٢)، والفهرست لابن النديم الذى استند جميع من ادعى ذلك الى عبارته فى ترجمة محمد بن الحسن : „ وان له فى الاصول كتاب الصلاة ، الزكاة ، الحج وظاهر أنه يريد بهذا أصول الدين .

٢ـ أنظر (١١٠/١ ـ ١١١)

٣ـ وكل فريق من هؤلاء كان يزيد علماؤه فى كتبهم الاصول التى ينفردون بها عن غيرهم ، ويبينون ما يخالف قواعدهم بنفس الاسلوب الاستدلالى المشار اليه .

٤ـ أنظر حجة الله البالغة (٣٣٦/١ ـ ٣٤١)، وكتابه الانصاف فى بيان سبب الاختلاف (٣٨ ـ ٤٠) ط . السلفية .

٥ـ الذى حقق أحد الباحثين بجامعة الامام قسما منه لرسالة الماجستير ، ويقوم بتحقيق مابقى منه لرسالة الدكتوراه .

٦ـ أنظر مقدمة ابن خلدون (١١٦٣/٣ ـ٦٤) ط . وافى .

٧ـ راجع مناهج البحث للنشار (٥٥).

٨ـ وراجع : مسلم الثبوت وشرحه بحاشية المستصفى (٩/١ ـ١٠) حيث نفى صاحبه أن يكون المنطق كذلك ، وزعم ان نسبة « المنطق الى الفلسفة والاصول الفقة واحدة ولعلة بأثر يقول من قال : ان المنطق مخبار العلوم .

٩ـ المحصول (١ ـ).

١٠ـ راجع مناقب الشافعى للرازى (٩٨) ومابعدها ومناهج البحث (٥٥)

١١ـ أنظر كتاب « الامام الشافعى » لمصطفى عبدالرازق ص (٤٥).

١٢ـ أنظر الانصاف للدهلوى ( ) وابو حيفة لابى زهرة (٢٢٣) ومابعدها .

١٣ـ أنظر تاريخ بغداد (٣٦٨/١٣) ، والانتقاء (١٤٢)، ومشايخ بلخ من الحنفية (١٩٠)

١٤ـ راجع الميزان (٥٢/١) والطبقات السنية (١٤٣/١)، ومشايخ بلخ (١٩٣)

١٥ـ المراجع السابقة .

١٦ـ راجع تاريخ الفقه لمحمد يوسف موسى (١٦٠).

١٧ـ راجع مفاتيح العلوم للخوارزمى (٦ـ٨) والمقدمة (١١٢٥/٣ـ١١٢٨ و ١١٦١ ـ ١١٦٦)

١٨ـ راجع مفتاح السعادة .

١٩ـ أنظر المستصفى للغزالى (٣/١). وللغزالى غير المستقصى « المنخول » ولاشفاة الغليل فى بيان الشبه والمخيل ومسالك التحليل ، و « تهذيب الاصول » وكلها تعتبر من أهم الكتب الاصولية

٢٠ـ من كلام سيدنا عمر رضى الله عنه .

آفـاق الدعـوة الاسـلامية فى القـرن الخـامس عشـر الهجـرى

د . معروف الدواليبى

(قدم هذا المقال فى ملتقى الفكر الاسلامى المنعقد فى الجزائر فى ١٩٨٠ م)

١ـ وبعد فاننى عندما ألقيت نظرى على جدول الأعمـال الـذى ستدور جوله كل المحاضرات والمناقشات فى « الملتقى الرابع عشر للفكر الاسـلامى » فى الجزائر العاصمة ، كما شرحه لنا معالى وزير الشئون الدينية السيد بوعلام باقى فى كتاب دعوته للمسـاهمة فى أعمال هذه الدورة ، لم أتردد منذ القراءةالاولى فى اختيار الموضوع الثالث من المواضيع الاربعة ، وهو ((آفاق الدعـوة الاسـلامية فى القرن الخامس عشر الهجرى)) ، معتبرا أنه الاشمل من المواضيع الاسـلامية الثلاثة التى كان أولها ((الاسـلام والمذاهب الاجتماعية الحديثة) ، وثالثها (فلسفة التـربية فى الاسـلام) ، تاركا الموضوع الأول حول (الونشـر يس قلعة من قلاع العلم والنضال) لأصحاب المعرفة فيه .

٢ـ غير أن كلمة « آفاق » من عنوان « آفاق الدعوة الاسـلامية فى القرن الخامس عشر الهجرى » وقد عرضت أمام نظرى « آفاقا » للدعوة الاسـلامية لاحصر لها ، وخاصة وعلى الأقل فى آفاقها العامة

التالية .

أولا ...... العقائدية

ثانيا ...... الاجتماعية

ثالثا ...... الاقتصادية

رابعا ...... الثقافيــــة

خامسا ...... الساسيـة

سادسا ...... الانســانية

سابعا ...... التشـريعية

وكلها آفاق هامة فى الدعوة الاسلامية ،وضرورية ومحببة الى ولا سبيل الى الكتـابة فيها كلها ، لانها تخرجنـى تمامـا عن الوقـت المحدود بثلاثين دقيقة ، فضلا عن ضيق أوقاتى لاعداد هذه البحوث العلمية المتكاملة ، وهذا مايجعلنى لا أشك فى أن الذين سيختارون معى هذا الموضوع من الزملاء الكرام سوف لاتكون أبحاثهم فى أفق واحد ، وفي ذلك ان شاء الله للخير كله ، راجين أن يكون فى بحوثهم المختلفة « الآفاق فى الدعوة الاسـلامية » مايجعل منها ثروة علمية فى الموضوع لاغنى لنا عنها .

٣ـ هذا ولقد طالت حيرتى مدة أسبوع لا أدرى على أى أفق أستقر، لولا أن ألهمنى الله أخيرا أن أطرق أفقا حيا رأيت أنه الاليق بمطالب عصـرنا الجديد ومشكلات الانسانية فيه . وأنه يصلح لأن يكون مدخلا لكل تلك الآفاق المختلفة للدعوة الاسـلامية فى هذا العصـر ، وذلك من ناحية أن الدعوة الاسـلامية هى دعوة الى الحياة علـى أسـاس السـلام للانسان » .

٤ـ ولما كانت الحياة الانسانية متطورة مع الزمن ، فانه قد يكون لكل طور من أطوار الحياة على مدى العصور مشكلات وتحديات خاصة به مما يستدعى أيضا معالجة خاصة ، ويساعد على « آفاق الدعوة الاسلامية » لمعالجة تلك المشكلات والتحديات فى عصرما .

فما هى مشكلات عصرنا وتحدياته ؟

وهل للدعوة الاسلامية باعتبارها « دعوة الى الحياة على أساس السلام للانسان » دور للمساهمة فى خدمة الانسانية ؟

٥ـ وقبل أن أدخل فى الموضوع أريد أن أقول أولا : أن تحديدنا للدعوة الاسلامية . بأنها ، « دعوة الى الحياة على أساس السلام للانسان » ليس فيه تزوير للحقيقة ، أو تضخيم ، وانما هو الحقيقة القرآنية نفسها حينما جهر القرآن الكريم فقال الله سبحانه وتعالى فى دعوته الى الاسلام ((يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم)) وقال ((والله يدعو الى دارالسلام)) وقال ((وان جنحوا للسلم فاجنح لها)) واخيرا جعل الاسلام من كلمة ((السلام)) وحدها شعارا للتحية ايناسا للانسان ، وتذكيراله على الدوام بالالتزام الواجب للسلام .

٦ـ ولذلك كله فان الدعوة الاسلامية كانت منذ ظهورها حتى اليوم « دعوة الى الحياة والسلام للانسان » لاشك فيها ، غير أنها دعوة الى نوع جديد من « الحياة الانسانية المتقدمة » ولا عهد للمجتمع البشرى فى مفاهيمها الاسلامية لا من قبل ولا من بعد وذلك من خلال : الايمان بالله الذى خلق الانسان على الأرض : مسئولا عن القيام بعمارتها فى ظل السلام للانسان ،

ومكلفا بعبادة الله فيها من أجل سلام الانسان ،

وندعوا الى التعاون فيما بين شعوبها على البر والتقوى لاعلى الاثم والعدوان وعلى أساس من الحرية المسئو لة والكرامة للجميع من غير تمييز بين الاعراق والالوان ، والاجناس ، والأديان ووفقا فى كل ذلک لشريعة الله من أجل سلام الانسان أيضا .

٧ـ وبعد فان تقدم العلوم فى هذه العصور الحديثة وانتشارها السريع اليوم وكذلک تقدم التكنولوجية المتطورة ، قد كان لهما نتيجتان حتميتان هما :

أولا : شعور كل انسان بوجوده ، وبكرامته وبحقه فى الحياة الكريمة من غير تمايز مابين انسان وانسان ، لافى القوميات ، ولا فى الاعراق ، ولا فى الاجناس ، ولافى الاديان .

ثانيا : زوال الحدود بين الامم والشعوب ، وتشابک مصالحها مما لم تعد تصلح معه الحياة فى ظل الانظمة العالمية السائدة والقائمة على التمايز فى الكرامة وفى المصالح الخاصة لدى بنى الانسان .

٨ـ وهكذا فان هذا التقدم السريع فى العلوم وفى التكنولوجية بنتائجه الحتمية المشار اليها قد أوجد مشكلات حيوية حادة فيما بين الأمم والشعوب وقد حرصت منظمة الامم المتحدة على العمل لحلها بكل الوسائل السليمة ، وقد عالجتها معالجة طويلة خلال نحو من خمسة وثلاثين عاما ، أى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اليوم ، لكن بدون أن تتقدم خطوة نحو السلام ، وذلک على الرغم من أن سيغة تأليف هذه المنظمة عقب تلک الحرب لم تكن الا وسيلة لحل لمشكلات الانسانية ، ولضمان السلم العالمى ، وفقا لميثاق هذه

المنظمة وملحقاته حتى اليوم .

٩ـ ولا يسعنا مع ذلك فى هذا المقام الا أن نسجل لمنظمة الأمم المتحدة اهتمامها الشديد الذى أبداه أعضاء المنظمة بالاجماع فى دورتيها الاستثنائيتين فى عامى ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ م اللتين عقدتا خصيصا للبحث عن حلول سلمية لمشكلات المجتمع الدولى التى أصبحت تنذر بسوء المصير للجميع .

١٠ـ كما لايسعنا الا أن نسجل باعجاب قرارهم الاجماعى الذى انتهوا اليه ، وما قد جاء فيه من صراحة جريئة حيث قالوا : ان المشكلات العالمية الحاضرة لا أمل فى ايجاد حل لشئ منها فى ظلال الانظمة الاجتماعية السائدة اليوم فى العالم ، وخاصة النظام الاقتصادى الخاص بكل شعب ولمصلحته وحده دون مراعاة مصلحة الآخرين فيه .

١١ـ ولقد أكدوا على ذلك بقولهم : ان البشرية قد تقدمت علميا وثقافيا ، وان التكنولوجيا المتطورة قد ازالت الحدود فيما بينهم ، وأنه لم يعد يصلحهم ويليق بهم الانظام عالمى جديد يقوم على قواعد انسانية جديدة ، وقد حددتها منظمة « اليونيسكو » بناء على طلب الأمم المتحدة ، وقالت فيها : انها تلك القواعد التى نلخصها فيمايلى، وهى التى :

تدعو الى « وحدة الأسرة البشرية » من غير تفاضل ،

وتؤمن بحق الجميع فى الحياة الكريمة من غير تمايز وتعتبر مصالحهم الاقتصادية واحدة ، ولايجوز التفاضل والتمايز فيها لحساب شعوب تعتبر نفسها ممتازة على حساب الشعوب الأخرى .

وأخيرا تدعو هذه القواعد أن نتخذ من « العدل » بين الجميع

القاعدة الحتمية لهذا النظام العالمى الجديد .

١٢ـ غير أنه يؤسفنا أن هذه الصرخة المدروسة من قبل الأمم المتحدة فى هيأتها العامة ، ومن قبل منظمتها العلمية « اليونيسكو » قد ذهبت أدراج الرياح ، وذلك :

لأنها تحتاج أولا الى « الايمان بها ايمانا عقائديا ».

كما تحتاج ثانيا الى « اقامة علم التربية وفلسفتها عليها » .

اذ لايكفى مجرد الدعوة اليها سياسيا تحت ضغط الاحداث ، ولا التوصية بها فقط كما كان شأن التوصيات بحقوق الانسان الواردة فى الاعلان العالمى لحقوق الانسان .

١٣ـ ولما كنا معشر المسلمين نؤمن بها وحدنا « ايمانا عقائديا » عملا بعقيدتنا الاسلامية ، لذلك وجب علينا أن نرحب أولا بهذا اللقاء مع الفكر الاسلامى ، كما وجب علينا أن نكون أولى الناس بتأييد هذه الصرخة العالمية الدولية ، وأن نكون أحق الناس بالدعوة اليها بكل حرارة ، وأن نجعل منها أبرز آفاق الدعوة الاسلامية فى هذا العصر للتعريف بالاسلام عن طريق بعض آفاقه الاجتماعية ، وأن نتخذ منها كقواعد اسلامية القواعد الأساسية لنظام المجتمع الإنسانى الجديد كما اتخذها الاسلام من قبل ، وأن نبحث على ضوئها عن حلول المشكلات الانسانية فى سبيل السلام على الأرض وأن نتقبل التعاون على أساسها مع من يرغب ، وأن نفتح الحوار من أجل ذلك مع أبعد الناس عنا فى الكفر والقيم ، وذلك من أجل سلام المجتمع والانسان .

١٤ـ واننا اذا تقبلنا الدعوة الى ذلك والحوار فيه فانما ننطلق من

منطلق اسلامى لاشك فيه ، عملا بما جاء فى القرآن الكريم حين دعى أهل الكتاب الى الحوار معهم اعتماداً فى الأصل على نقطة الوفاق معهم رغم أنه على خلاف أساسى معهم فيما عداها ، فقال لهم : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لانعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » وذلك اعتماداً أولا على نقطة الوفاق دون نقاط الخلاف ، لأن الخطر على الانسانية أصبح عظيما ، وأن الحاجة الى دفعه بأسرع ما يمكن واجب لاشك فيه فى مفهوم الدعوة الاسلامية وأن التعاون عليه أوجب واكد.

١٥ـ هذا ولايفوتنا فى هذا المقام الذى ندعو فيه الى التعاون فيما بين أبناء البشرية كأسرة واحدة أن ننبه الى خطر التبعية فى الدعوة الاسلامية ، للمذاهب التقليدية الاجتماعية الحديثة التى تسود العالم اليوم ، والتى قد تخطاها الزمن والعلم ، وأعترفت الأمم المتحدة ، وأجهزتها العلمية بعدم صلاحها بعد اليوم لمعالجة مشكلات العالم الانسانى كما مرمعنا من قبل .

١٦ـ ونضيف على ذلك هنا ماجاء فى كتاب « الديمقراطية الفرنسية » الذى وجهه الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان خلال فترة حكمه هذه الى الشعب الفرنسى فقال :((ان الماركسية والليبرالية التقليدية نظريتان ناقصتان ، وتتنكران للحقيقة الانسانية ، وانهما لم تعودا قادرتين على تفسير الواقع ولا على توجيه العمل وانهما تتفلتان بسهولة من قبضة البحث العلمى ، وأن التحيز يغلب عليها الى اليوم أكثر من العقل ، وأنهما لم تعودا تمثلان الوقائع المحسوسة فى مجتمعاتنا الا تمثيلا ضعيفا ، وانهما يتكيفان بصعوبة لايجاد حلول

لمشاكلنا الواقعية ، وأن الموقف الموضوعي يدعو الى ترك هذه النظريات غير المتكاملة والى البحث عن صيغة جديدة مقبولة)) .

١٧ـ وكذلك نضيف لكثير من الفائدة ما قاله حديثا أستاذ علم الاقتصاد فى احدى جامعات فرنسا الأستاذ جاك أو ستروى، رئيس هيئة علماء الاقتصاد في فرنسا ، فى كتابه ، « الاسلام أمام التطور الاقتصادى ، فقد قال هذا الباحث : « ليس هناك فى الحقيقة طريقة وحيدة وضرورية لابدمنها للتطور الاقتصادى كما تريد أن تقنعنا به المذاهب القصيرة النظر فى النظامين الاقتصاديين السائدين » ـ (الصفحة ١٦ـ ١٧) ، ثم ألح هذا الباحث الاقتصادى على ضرورة التماس المذهب الثالث فى الاسلام نفسه لأنه ليس فرديا ولاجماعيا ، ولكنه يجمع بين الحسنيين .. وكذلك ألح على المسلمين بضرورة العودة الى الاسلام نفسه والى دراسة قواه الكامنة فيه لشق الطريق نحو النهوض عن التقليد الاعمى ـ الصفحة ٨٠ ـ وجاهر بعد ذلك بأن الاسلام يتمتع بامكانيات هائلة ، وأنه اذا ما وجد الطريق الصحيح فان كثيرا من الصعوبات الاقتصادية التى ظهر للاقتصاديين تعذر التغلب عليها حتى الآن ، سوف يحلها الاسلام . الصفحة ١١٢ ـ ثم دعا هذا الباحث المسلمين الى الاسراع قبل فوات الوقت لوضع الطريقة المنبثقة عن خصائصهم وقواهم الكامنة المبدعة الهائلة ، ثم حذرهم بأنهم ان لم يفعلوا ذلك فسوف يجبرون على قبول تغيرات غير سليمة فى نظمهم الأساسية ، وذلك نتيجة لاتباع منهج فى الانماء مفروض عليهم ، وفى هذه الحالة سيقضى على الاسلام كمنهج حضارى مستقل ، ١١٢ ـ ١١٣ .

١٨ـ ولذلک كله يتوجب اليوم على الداعية الاسلامى التأكيد على ذاتية الدعوة الاسلامية فى جميع آفاقها ، وعلى استقلالها ، وعلى كمالها ، وعلى التأكيد خاصة على الجديد فيها الذى لابد منه لتقدم الانسان وسعادته .

١٩ـ واتماما للفائدة فها نحن أولا نشير بكل ايجاز الى « الجديد التقدمى فى جميع آفاق الدعوة الاسلامية التى أعددناها فى مطلع كلمتنا هذه من حيث آفاقها العقائدية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية ، والسياسية ، والانسانية ، والتشريعية ، وذلک تأكيد على ذاتية الدعوة الاسلامية وحاجة الانسانية الى الجديد فيها فى كل عصر ، وخاصة فى هذا العصر الذى تقدمت فيه العلوم الكونية والانسانية والاجتماعية ، وأخذ العقل العلمى مكانه فيها فى البحث والحكم كما يريده الاسلام .

٢٠ـ وايضاحا لذلک نقول : أن « الدعوة الاسلامية فى جميع آفاقها المذكورة قد قامت منذ نشأتها على قواعد ومبادئ جديدة ، ولاتزال كذلک فى جدتها بكل مافيها من معانى الجدة ، وفى جميع آفاقها من وجوه الحياة التالية الشاملة :

ففى آفاقها « العقائدية » أعلنت قبل أية أمة من الأمم الحديثة : حرية العقيدة وعدم جواز الاكراه فيها .

وفى آفاقها « الاجتماعية » أيضا وقبل أية حركة تحررية فى العالم الحديث ، شجبت بكل قوة أنظمة الطبقات المتفاوتة فى الحقوق والكرامة ، وأعلنت التساوى فى الحرية والكرامة الانسانية من غير تمييز بين انسان وآخر ، لافى الاعراق ولا فى الاجناس ، ولا فى

الاديان .

وفى آفاقها « الاقتصادية » قد فرضت الدعوة الاسلامية كل القواعد الأساسية للنهوض بالاقتصاد العالمى ، وذلك أولا فى «ايجاب العمل » من حيث هو ، وثانيا فى « ايجاب زيادة الانتاج » وذلك عملا بكثير من الآيات القرآنية فى ذلك ، وعملا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا حين قال : « لو أدرك أحدكم يوم القيامة وفى يده فسيلة ـ شجيرة ـ فليزرعها » ، وذلك حرصا على عدم اهمال الزيادة فى الانتاج لمصلحة الجماعة ، حتى فى تلك الساعات الحرجة التى يذهل فيها الانسان عن مصالحه الخاصة فضلا عن العمل لمصالح الجماعة . وأخيرا فقد فرضت الدعوة الاسلامية « العدالة » فى توزيع خيرات هذا الانتاج بحيث لايكون هناك محروم ، وذلك وفقا لقواعد الاسلام فى العدالة المطلقة فى « الحق بالحياة الكريمة » ومن أجل ذلك أوجب « نظام التكافل فيما بين الجماعة » على أرض الاسلام ، حتى ولو اختلفت بينهم الأديان .

وفى « الآفاق الثقافية » للدعوة الاسلامية قد جعل الاسلام «فريضة العلم » أساسا لهذه الدعوة كما هو معلوم ، وعاقب على تركها ، بينما لايزال موضوع العلم فى عالمنا الحديث المتقدم فى عداد الوصاية، وحقا من حقوق الانسان لا فريضة علمية كما جاء بها الاسلام .

وأما فى « الآفاق السياسية » فقد فرض « الشورى فى نظام الحكم من غير تمييز ما بين « أقلية » ولا « أكثرية » فى الشورى ولم يأخذ بالرأى فى هذه الشورى اعتمادا على عدد الأصابع المرفوعة ، وانما اعتمادا على التعمق فى الرأي وترجيح الراجح منه وفقا للمصلحة .

وذلك أيضا جديد فى مفهوم الحكم السياسى حتى اليوم .

وأما فى « الآفاق الانسانية » للدعوة الاسلامية فقد كان الاسلام ولايزال أول من أزال الفوارق بين أبناء الانسانية حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لافضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود » كما قال « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم اليه أنفعهم لعياله » مع وجوب مراعاة جميع حقوق الانسان الأساسية من ثقافية ، واجتماعية ، واقتصادية ، تجاه الجميع من غير تمايز .

وأما « فى الآفاق التشريعية » للدعوة الاسلامية ، فقد أقام الاسلام شريعته على أسس عالمية وانسانية ، مع التشديد على مراعاة العدل فيها ولو على الأنفس والاقربين .

٢١ـ وبهذا الاستعراض الوجيز لجميع آفاق الدعوة الاسلامية ، بعد التوسع مقدما فى بعض آفاق الدعوة الاسلامية من الناحية الاجتماعية بالنسبة للعصر الذى نعيشه ، نرجو أن نكون قد أعطينا موضوعنا حقه من الاشارة اليه ، تارة بالبسط وتارة بالايجاز . والله سبحانه وتعالى من وراء القصد .

تأملات فى اسباب سعادة المسلمين وشقائهم

ودور العلم فى النَهوض بالأمم

د . احسان حـقى

فى كل زمان وفى كل قوم يظهر بين حين و حيـن افـراد من العباقرة يفرضون شخصياتهم وعقولهم على قومهم او على كل العالم ، وكما يظهر افراد عباقرة تظهر اقوام عباقرة ايضا تفرض نفسها على غيرها بالحجة والمنطق والحكمة والعقل او بالقوة . واذا كان عدد افراد العباقرة قليل بالنسبة الى الاقوام العبقـرية فاننا ، مع ذلک ، نستطيع ان نقول بأنه لايوجد قوم من الاقوام العالمية الا وقد امتاز فى وقت ما بعبقـرية من العبقريـات . فلـو اخذنـا الاقـوام القـديمة كالفـراعنة والاشوريين والكلدانيين والحثيين والفنيقييـن والصينييـن ثم الذيـن يلونهم كاليونان والرومان والفرس والهنود ثم الذين يلونهم كالاتراک والعرب ثم بعض الاقوام الاوربية القديمة والحديثة كالاسبان والبرتغال والطليان والانكليز والافرنسيين والجرمانيين وغيرهم نجد ان كل هذه الاقوام قد مر عليها زمن من الأزمان كان لها فيه شأن وماض مجيد فى ناحية من نواحى الحياة العقلية او العلمية او الفكرية او الحربية او غير ذلک ، ثم نجد جذوة تلک العبقرية قد انطفأت فجأة كما ظهرت فجأة

ثم عادت تلك الامة خاملة متفسخة و كأنها لم تك شيئا مذكورا بالامس .

وقد يعجب المرء من نهوض تلك الامة المفاجىء ومن تدهورها المفاجىء ايضا ويكاد يشك بأن يكون هؤلاء الاولاد والاحفاد الصعاليك المفاليك هم من نسل اولئك الاجداد العظام الميامين ، ولكن لا عجب في ذلك فالامم تنهض بالسعي والجد والعمل وتضمحل وتتلاشى بالكسل والاتكال والجهل .

واذا حق لامة ، على ما هي عليه من خور وهزال وتفكك وتصدع ، ان تفتخر باجدادها وبماضيها فانما يحق لنا نحن المسلمين ذلك اكثر من اى امة اخرى لأن لنا ماضيا ساطعا كالشمس لا يمكن نكرانه او تجاهله واهماله لأنه شمل كل نواحي الحياة . وقاد العالم قرونا الى ينابيع العلم والعرفان .

واذا كان رجوعنا الى ذاك الماضي لايسمن ولا يغني من جوع لأنه اشبه برجوع التاجر المفلس الى دفاتر حساباته القديمة ليذكر ما كان له من دين على فلان وفلان وما كان عليه من واجبات قصربها ، فان هذا الرجوع لايخلو من فائدة لأن الذى ليس له تليد ليس له جديد،

ورجوعنا الى ذاك الماضي قد يحثنا على العمل لنستعيد ذاك الماضي ورجوع الاصيل الى اصله اهون من بلوغ الهجين مرتبة الاصيل .

واذا افتخرنا ، نحن المسلمين ، بماضينا فاننا نفتخر باجداد سطروا في سجل الدهر اروع نهضة امتازوا بها على جميع الامم التي سبقتهم او التي جاءت بعدهم لأن نهضتهم شملت جميع نواحي الحياة

من مادية ومعنوية وعلمية وعقلية وفلسفية واجتماعية واذا لم يكن للاسلام من فضيلة الا كونه ساوى بين البشر وقال لافضل لعربى على عجمي ولا لابيض على اسود الا بالتقوى لكفي فكيف به وقد قلب العالم كله فى تفكيره ومعتقداته ونظرتة الى الحياة ؟

لقد فتح المسلمون العالم ، الذى كان معروفا آنذاك ، من اسبانيا الى الصين ، فى اقل من قرن ولم يفتحوه عسكريا بل فتحوه فكريا وعقليا اذ قضوا على عبادة الاوثان ورفعوا شأن الانسان من مرتبة البهيمية الى مرتبة الانسانية العليا ونشروا لغة القرآن حتى اصبح العالم كله يدين بكل شى لهذا الدين العظيم .

يقول بعض علماء الغرب المتعصبين بأن المسلمين انما نشروا الحضارة اليونانية لأنهم ترجموا كتب اليونان وعملوا بها ، وهذا القول بقدر ما يدل على التعصب فانه يدل على الجهل لأن العالم يعلم بأن العلم لا يأتى ابتداعا بل يأتى اتباعا ، فالذى اخترع الصرف والنحو كان بحاجة الى الحروف الهجائية والذى اوجد الادب كان بحاجة الى الصرف والنحو وهكذا فان العلوم تبنى بعضها على بعض ولا تولد كاملة، وكل عالم يضع لبنة فى بناء علمه باستمرار و كلما وضعت لبنة جديدة زاد العلم تقدما ، وقول هؤلاء العلماء المتعصبين اشبه بقول احد الانكليز للشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية : ان كثيرا مما فى القرآن موجود فى الانجيل والتوراة اللتين بين ايدينا فما هو فضل القرآن ؟ فقال له الشيخ محمد عبده : لقد قال لنا الله هذا من قبل ان تقوله انت : اذ قال الله بشأن القرآن ، (ان هذا لفى الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى) فبهت الذى كفر .

الحقيقة ان المسلمين اخذوا علوم غيرهم فهذبوها ونقوها واضافوا عليها وظهر فى المسلمين علماء ما زال علماء الغرب الى يومنا هذا ينحون منحاهم وينحنون برؤسهم اكبارا واجلالالهم . واننا اذا نظرنا الى ما قدم المسلمون من خدمات للعلم لا نستطيع مهما كنا متحاملين عليهم ومغالين فى العداء لهم الا ان نكبر جهودهم الجبارة وعقولهم الناضجة اذ تناول المسلمون اصول المعارف الانسانية وغاصوا فى اعماقها وقسموها الى فروع قال صاحب كتاب (مفتاح السعادة) انها بلغت ثلاث مئة فرع .

وان ما تركه المسلمون ولا سيما في العصور الثلاثة الاولية من الاسلام من تراث ضخم لا يضارعه تراث فى العالم ، فالمسلمون اخذوا العلوم فجة وانضجوها وجعلوا لها قواعد ثابتة ومثال ذلك انهم اخذوا الطب عن بقراط (المتوفى سنة ٣٧٧ قبل الميلاد) وجالينوس (المتوفى سنة ٢٠١ ميلادية) وعن بعض الهنود والسريان ولكنهم لم يأخذوه كما هو من غير تمحيص بل اخذوه وهذبوه ونقوه من الشعوذة والتنجيم والسحر وادخلوا عليه نظريات جديدة و نقدوا مذاهب القدماء فى تعليل بعض الامراض واستحدثوا اشياء جديدة فى التشخيص المرضى كما انهم اوجدوا ادوية جديدة ، فالاطباء المسلمون هم الذين اكتشفوا علاج اليرقان والهيضة وهم الذين عالجوا الحميات والفالج بالفصد والتبريد على خلاف ما كانت عليه الحال من قبل وهم اول من استعمل المخدر فى الطب والكى فى الجراحة وصب الماء البارد على الرأس لقطع النزف ، واعظم من ذلك انهم توصلوا الى طريقة تفتيت الحصاة فى الكلية او المثانة ، كما استطاع ابوالقاسم الزهراوى خلف

ابن عباس (المتوفى ١١٠٦ ميلادية) ان يعين المكان الذى يجب ان يشق فى الجسم لاخراج الحصاة بعملية جراحية .

وكان ابوبكر الرازى اول من كتب فى امراض الاطفال وفى مرض الجدرى والهيضة وهو الذى استعمل الكحول للتطهير . اما الرئيس ابن سينا سيد الطب و جالينوس العرب ، كما يسميه الاوربيون ، فقد ظل قانونه شريعة الطب فى العالم زهاء ستة قرون وكان يدرس فى المدارس الطبية فى فرانسا وايطاليا وخاصة فى مونپيلييه ، فى فرانسا ، حتى وسط القرن التاسع عشر .

والمسلمون هم الذين وضعوا اصول علم الصيدلة وتركيب العقاقير وهم واضعو علم الكيمياء وهم الذين عرفوا فن التقطير والترشيح والتضفية والتذويب والبلورة والتكليس وهذا ما يعترف به الاوربيون .

وبرع المسلمون فى علم النبات ولا سيما ماله علاقة بالطب وغير ذلك من العلوم . فالمسلمون لم يكونوا ، اذن ، ناقلين للعلوم بل اخذوا علوم الغير واضافوا عليها وهذبوهاوكسوا اكثرها صبغته العلمية المتميزة بعد ان كان خليطا ليس له صفة مميزة .

وكان من البديهى ، بعد ان بلغ المسلمون هذه المرتبة الرفيعة من العلوم ، ان يعنوا بالكتب وحفظها فقد ذكر التاريخ انه كأن فى مدينة طرابلس (ليبيا) فى العهد الفاطمى مكتبة تضم ثلاثة ملايين مجلد ، احرقها الغربيون ابان الحروب الصليبية سنة ٥٠٢ هجرية ، وكان فى مكتبة العزيز بالله الفاطمى (نزار بن المعز المتوفى ٩٩٦ ميلادية) فى القاهرة مليون وست مئة الف مجلد اغرقت فى النيل او القيت فى الصحراء حتى صارت تلالا عرفت بتلال الكتب ، وكان فى مكتبة

الحكم الثانى المستنصر فى قرطبة ، المتوفى سنة ٩٧٦ ميلادية) ست مئة الف مجلد ، هذا بالاضافة الى ما حوت مكتبات العراق وفارس وسمرقند وبخارى وغيرها من كتب احرقها التتر او القوها فى دجلة .

قد لا يدرك ابن اليوم اهمية هذه الاعداد الضخمة التى كانت تحويها المكتبات الاسلامية لأنه يظن ان الذى يملك المال يستطيع فى ايامنا هذه ان يشترى ملايين الكتب فى اسابيع ولكن حينما يفكر بأن كل هذه الكتب كانت مخطوطة ، اذ ان المطبعة لم تكن موجودة ، وانه لم يكن يوجد من الكتاب الواحد ، فى العالم كله ، الا نسخة واحدة او بضع نسخ ، وان ثمن النسخة كان ، فى بعض الاحيان ، يوازى ثقلها ذ هبا يدرك عظمة هذه المكتبات وما انفق فى جمعها من جهد ومال وعلم ، ولا ادل على عظمة هذه المكتبات الاسلامية من ان ملك فرانسا شارل الخامس المعروف بلقب (LE SAGE) الحكيم) والذى تولى الملك سنة ١٣٦٤ ، اى بعد الحكم الثانى بنحو اربع مئة سنة ، لم يستطع ان يجمع فى مكتبته الا تسع مئة كتاب ثلثها كتب دينية مسيحية .

وكما اننا نحن الشرقيين نذهب فى ايامنا هذه الى الغرب (اوروبا وامريكا) لكى نتزود بالعلم فقد كان رجال العالم الغربى ، ابان النهضة الاسلامية وعصورها الزاهرة يقصدون البلاد الاسلامية ولا سيما الاندلس ليتزودوا بالعلم لأن العلم فى اوربا ، آنذاك ، كان محصورا برجال الدين وكان هؤلاء يخلطون الدين القائم على ما يعلمون من الانجيل والتوراة ، بالشعوذة ، فلما اتصلوا باسبانيا المسلمة استيقظوا من غفلتهم واخذوا يطلبون العلم على ايدى المسلمين، وفى

سنة ١١٣٠ ميلادية انشأ المسيحيون مدرسة للترجمة فى طليطلة تولاها اسقف واخذت تنقل الكتب العربية الى اللغة اللاتينية ، وهى اللغة العلمية الوحيدة فى كل اوربا آنذاك ، ثم انشئت مؤسسات اخر لمثل هذه الغاية وظلت تعمل ثلاثة قرون اى القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر وبلغ كل ما ترجموه ثلاث مئة كتاب ونيف وكانت كتب الرازى والزهراوى وابن سينا وابن رشد هى الكتب المفضلة لديهم وقد ترجموا بعض الكتب اللاتينية من ترجمتها العربية .

وقال المؤرخ الانكليزى جورج مولر فى كتابه :(فلسفة التاريخ) ان مدارس المسلمين فى اسبانيا كانت المصادر للعلوم وكان الاوربيون يأتونها من كل قطر يتلقون فيها العلوم الطبيعية والرياضيات وغيرها من العلوم التى لم يكن الغرب قد سمع بها .

وكما كانت اسبانيا مركزا عاما للثقافة فى العهد الاسلامى فقد كان جنوب ايطاليا ، بعد أن استولى عليه المسلمون ، واسطة لنقل الثقافة العامة الى اوربا وكان فى صقليه والبندقية مؤسسات لترجمة العلوم ولولاها لما ظفرت اوربا بكتاب من كتب اليونان ولا بشى من علوم المسلمين .

وكما ان بعض رجال الدين يتعصبون اليوم ضد تعلم بعض العلوم فقد كانت الحالة فى اوربا فى القديم ، يوم كان العلم وقفا على رجال الكنيسة ، مثل ذلك وكان رجال الدين يتعصبون ضد تعلم العلوم الاسلامية ومن ذلك ان راهبا افرنسيا درس فى اشبيليا وقرطبة الرياضيات والفلك ثلاث سنين ثم رجع الى بلاده ينشر العلم الحق فاتهموه بالشعوذة والسحر ورموه بالكفر ايضا وقد قاسى فى سبيل قول

الحق الامرين من قومه ولكن علمه تغلب على جهلهم وظل يرتقى فى سلك الكهنوت حتى اصبح بابا باسم سيلفستر الثانى وكان معدودا من علماء عصره وقد ترجم بعض الكتب العربية الى اللاتينية .

وقد انصف احد كتاب اوربا المسلمين اذ قال : ان العلم الحقيقى انما دخل اوربا عن طريق العرب لاعن طريق اليونان لأن اليونان امة فكر والمسلمون امة علم .

هكذا كنا ايها المسلمون فهل انتم عاملون حتى تقولوا بلاخجل او وجل : نحن ابناء اولئك العظماء واننا سنعمل مثلما عملوا وسنكون امة اعمال لا امة اقوال ؟

الاجمال والالباس فى النحو العربى

فواد محمود السندى

ان من أفضل ما رغب فيه الراغب ، وتعلق به الطالب ، معرفة لغة العرب التى نزل بها القرآن الكريم ، وجاءت بها احاديث الرسول الأمين . اذ بمعرفة قواعدها وتراكيبها يمكن الوقوف على معانيها وأسرارها .

وقد قيض الله عزوجل لهذه اللغة . من تعهدها بالصون والرعاية فى طليعة هؤلاء النحاة المخلصون الذين بذلوا جهدا يشكر ولا ينكر وقد اخترت من بين مباحث علم النحو موضوع الاجمال والالباس فى النحو العربى

وتبدأ صلتى بهذا البحث ، منذ وقوفى أمام الاشارات المتناثرة فى التراث النحوى حول اللبس ووجوب الحذر منه ، وضرورة ازالته عن الكلمة العربية مفردة ومركبة .

ثم سنحت لى الفرصة عندما التحقت بالدراسات العليا شعبة اللغويات وظهرت لى أهمية هذا الموضوع فى ابراز جهود النحاة فى حفظ اللسان العربى .

وقد حاولت فى هذا العمل المتواضع أن أقوم بتجميع التفصيلات والاشارات النحوية من مراجع البحث القديمة ، وأمهات الكتب العربية،

ثم أرتبهـا على أبواب النحو العربى ، ضاما كل شئ الى لفقه ، وكل شاهد الى نظيره وجامعا ـ جهد طاقتي ـ شوارد هذا الموضوع كلا تحت عنوان يخصها وقد جعلت حديثى فى هذا البحث ، فـى ستة فصـــول يتقدمها تمهيد وتعقبها خاتمة .

فالتمهيد : بينت فيه معنى الاجمال ومعنى الالباس فى اللغة وعند النحويين وأثبت فيه التفرقة بينهما (فالاجمال) هو ايراد اللفظ على وجه لا يفهم منه مراد المتكلم على وجه القطع واليقين .

وأما (الالباس) أو اللبس فهو ايراد اللفظ على وجه يفهم منه خلاف المراد . وأوضحت فى التمهيد ايضا موقف النحاة من اللبس والاجمال .

الفصل الاول : خصصته (لمواقع الاجمال فى النحو العربى) مقسما الاجمال الى نوعين : نوع فى المفردات . ، بأن ترد الكلمة المفردة بحيث تحتمل أكثر من معنى أو أكثر من وجه من نحو (فلك ودلاحص وهجان) وغيرها مما يحتمل أن يكون مفردا وأن يكون جمع مكسر . ومن مثل (حسان) فيحتمل أن يكون من الحسن فالنون زائدة والوزن فعلان والاسم ممنوع من الصرف كما يحتمـل أن يكون من الحسن فالنـون أصلية والوزن فعال والاسم مصروف .

والنوع الآخر اجمال حاصل من التركيب ، والاحتمال فيه عائد الى الهيئة الخاصة التى تركبت عليها المفردات . من ذلك مثلا . .

تكرار المستثنيات مع امكان استثناء بعضها نحو قولهم :

" له عندى عشرة الا أربعة الا اثنين الا واحدا "

فهذا يحتمل الاقرار بسبعة ـ باستثناء كل مستثنى مما قبله ، ويحتمل

نفس الوقت الاقرار بثلاثة . باستثناء مجموع المستثنيات من أصل العدد .

الفصل الثـاني : فى التزام أمور يوقع خلافها فى اللبس ، وهذه الأمور الملتزمة فى الأسلوب العربى أمعن فيها النحاة فرأوا أن السر الكامن وراء التزامها هو الابتعاد عن الالباس .. وهـذه الالتزامات متنوعة وفى كل منها عدة مسائل من ذلك مثلا : التزام تقديم حال النكرة عليها فى نحو (رأيت قائما رجلا) اذ لوأخرت الحال لالتبست بالصفة ومن ذلك :

(التزام بقاء النون فى ذان وتان) وعدم جواز حذفها فى حالة الرفع لما فى الحذف من الالباس بالمفرد ذا وتا .

وفى الفصل الثـالث : أوضحت وسائل دفع الاجمال ووسائل أمن اللبس مما يشهد بأن لغتنا العربية تميل الى الوضوح والبيان ، وتمكين مراد المتكلم فى نفس المخاطب .

والفصل الرابع : جعلته فى الأحكام النحوية التـى أشـرط فى جوازها واثباتها أمن اللبس .. بمعنى أن الحكم النحوى فى مسائل هذا الفصل معلق بأمن اللبس من ذلك مثلا : جواز انابة المفعول الثانى من باب كسا بشرط أمن اللبس قال (ابن مالك) :

وباتفاق قد ينوب الثان من   باب كسا فيما التباسه أمن .

فنقول مثلا أعطى خـالدارهم فان لم يؤمن اللبس تعين انابة الأول فنقول مثلا أعطى خالد حامدا .

وفى الفصل الخامس : تناولت المسائل النحوية التى خالفت

نظائرها بسبب اللبس .

وفى الفصل السادس والاخير .. جعلته فى توضيح دور الالباس فى توجيه صياغة الكلمة ، وفى توجيه استعمالها على وجه متعين أوعلى وجه مرجح .

وفى الخاتمة أجملت خلاصة البحث ونتائجه التى أهمها مايلى :

أولا : النحاة القدامى لم يفرقوا بين اللبس والاجمال ، والمتأخرون من النحاة فرقوا بينهما وبينوا حد كل منهما .

ومن المتأخرين من زاد المسألة تفصيلا فجعل الاجمال على قسمين قسم يقصده المتكلم قصدا وله مقاماته ، وهو مقبول وهو من مقاصد البلغاء .

والقسم الثانى اجمال معيب اذا جاء فى مقام البيان والايضاح ، وهذا ملحق بالالباس ، وعلى المتكلم أن يتحاشاه ويزيله من أسلوبه .

ثانيا : أجمع النحاة المتقدمون والمتأخرون على منع اللبس وحظر وقوعه فى الأسلوب العربى ، واهتموا ـ رحمهم الله ـ اهتماما كبيرا بالمحافظة على سلامة اللغة العربية لغة كتاب الله العزيز ، وبينوا طرقا ووسائل من شأنها دفع اللبس وتخليص اللفظ وقائله من سبة العى بسببه .

ثالثا : فى اللغة العربية مواقع اجمال كثيرة . . لا حرج على المتكلم فى أن يستعملها فى أسلوبه اذا قصد الاجمال قصدا ولم يرد الايضاح والتعيين .

أما الالباس فليس فى العربية مواقع الباس يقرها النحو العربى ، وانما فيه التزامات اذا ما خولفت وقع اللبس فى الكلام .

وهذه الالتزامات على أنواع ستة هى :

التزام التقديم أو التأخير ، والتزام المطابقة أوعدمها والتزام الابقاء أو الحذف ، والتزام التنكير أو التعريف ، والتزام وجه خاص فى الاعراب أو البناء ، والتزام التعبير بالضمير أو ابرازه .

وقد تناولت تحت كل التزام المسائل النحوية المتعلقة به والتى أهتديت اليها .

رابعا : فى النحو العربى مسائل كثيرة علقت أحكامها على أمن اللبس، كما فيه مسائل أخرى كثيرة خالفت نظائرها بسبب اللبس والفرق بين النوعين هو :

أن الالباس فى المسائل الأولى وارد ومتوقع حدوثه ، بينما هو فى الأخرى غير واقع .

لذا فى الحكم النحوى فى الاولى محتمل للثبوت وعدمه .. فان أمن اللبس ثبت الحكم ، وان لم يؤمن امتنع الحكم .

على حين أن الحكم النحوى فى المسائل الثانية لا يعدل عنه وهو متقرر لا مناص منه ، والمسألة تخالف نظائرها .

واضرب مثلا للتوضيح :

(الموصول) اذا خالف لفظه معناه جاز فى العائد وجهان :

مرعاة اللفظ كقوله تعالى فى سورة محمد (١٦) : (ومنهم من يستمع اليک) ومراعاة المعنى كقوله تعالى فى سورة يونس (٤٢) : (ومنهم من يستمعون اليک) وشرط ذلک الجواز أمن اللبس .

فان حصل معه الباس وجبت مراعاة المعنى نحو (اعط من سألوک) وهم جماعة ومن سألک وهو مفرد . اذا كان الغرض بيان وتوضيح الجمع من المفرد .

ومن المسائل الأخرى مثلا (التوكيد) الأصل فيه اذا أكدت الجملة توكيد لفظيا بجملة مثلها فالأجود أن يفصل بين الجملتين بثم نحو قوله تعالى (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) وقوله تعالى { وما ادراك ما يوم الدين ثم ما ادراك ما يوم الدين) .

ولكنهم في مثل : ضربت محمدا ضربت محمدا لا يفصلون بين الجملتين بثم لان الفاصل يوهم تعدد الحدث وانهما ضربان تراخى أحدهما عن الآخر وهذا خلاف المراد وهو لبس .

خامسا : للالباس دور هام فى توجيه صياغة الكلمة العربية سواء ، بالنسبة لصياغتها فى أصل الوضع أو صياغتها صياغة جديدة من ذلك مثلا (كسر الهمزة) من افعال مصدر أفعل نحو أجمل اجمالا ـ اذ لوفتحت الهمزة وقلنا أجمالا لالتبس المصدر بجمع جمل . ومنه كذلك: ما اشترطه النحاة من شروط عند الاتيان بصيغة التعجب وعند الاعلال بالنقل وغير ذلك .

كما أن للالباس دورا هاما في توجيه استعمال الكلمة العربية على وجه التعيين أو الترجيح من ذلك مثلا نحو (حمزة) ، يتعين جمعها على (حمزات) حتى لايلتبس جمع المقرون بالتاءبجميع ما يجرد منهما لو قلنا : (حُمزون) ولكيلا يجتمع فى الكلمة علامتا تذكير وتأنيث اذا قلنا : (حمزتون) .

سادسا : ألقرآن الكريم كان مرآة صافية تجلى فيها الاجمال بأسمى صورة . . فالاجمال مقصد من مقاصد البلغاء ،

ولا غرو فالقرآن سنام البلاغة وذروتها .

وقد أوردت خلال البحث كثيرا من الآيات الحكيمة الشاهدة

بذلك . ومن ذلك مثلا : قوله تعالى :

(قل من يرزقكم من السماوات والارض قل الله ، وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) ولا يخفى ما (لأو) هنا من التعبير عن المقصود فى اجمال بليغ فمعنى الآية : وان أحد الفريقين من الذين يوحدون الرازق من السموات والارض بالعبادة ،

ومن الذين يشركون به الجماد ، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال.

قال الزمخشرى (الكشاف ٢ / ٢٨٨) - رحمه الله - وهذا من الكلام المصنف الذى كل من سمعه من موال أومناف قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك .

هذا وفى درج الاجمال بعد ما تقدمه من التقرير البليغ (قل الله) دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو فى الضلال المبين .

ولكن التعريض والتورية أولى بالمجادل للغلبة مع تقليل شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا .

ونحو قول الرجل لصاحبه : علم الله الصادق مني ومنك وان أحدنا لكاذب . هذا وقد عملت فى نهاية البحث فهارس لما ورد فيه من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والشواهد الشعرية . ثم فهرست المراجع والموضوعات . وفى الختام أرجو المولى القدير أن يحظى بحثى هذا بالقبول والرضا من أساتذتى الأجلاء بعد أن بذلت فيه جهد المقل سائلا اياه تعالى أن يجعله خاصا لوجهه الكريم .

الـــدعـوة الاسـلامية ، وآفاق المستقبل

الدكتو ر التهامى نقـرة

الدعـوة الى الاسـلام :

ان تفتح الاسـلام على الحياة نابع من منهجـه الشامـل الـذى يستوعب كل ألوان النشاط ، ماديا كان أم فكريا ، كما أن الدعـوة المستمرة اليه تفرضها رسالته التى توجت رسالات السماء ، وانتهت بها اليها .

فالمؤمنون برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، خلفاؤه فى الدعوة الى دينه الحنيف ، وبث تعاليمه فى قلوب الذين لم تبلغهم رسالته ، أو لم يعرفوا حقيقتها ، كما قال فى خطبته عند حجة الوداع : (ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب) .

والمشاهدة التى توجب الاعلام ، تشمل من حضر عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وأشرقت عليه أنواره بلقائه ، ومن علم بماجاء فى القرآن ، وبعلمه صارت النبوة بين جنبيه ، فقد شاهد الرسول بقلبه ، وان لم يشاهده بعينيه ، فكان عليه التبليغ ، ليعم هذا الوجود الاعلام به .

وقد توعد الله الذين يكتمون ما أنزل الله من علم الكتاب فى قوله عـزوجل :((ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم الـلاعنون)) .

(سورة البقـرة : ١٥٨) وفى الحديث ما يحث على نقل أقوال الرسول الى الاجيال من بعده ، حتى تعم هدايته بالرواية عنه ، وتبليغ شرعه (١).

فقد روى الشافعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((نضـر الله عبدا سمع مقالتى ، فحفظها ووعاها وأداها ، فـرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه . ثلاث لايغل عليهن قلب مسلم : اخلاص العمل لله ، والنصيحة للمسلمين ، ولزوم جماعتهم فان دعوتهم تحيط من ورائهم)) .

ثم ان الاسـلام بوصفه رسالة الله الى الانسانية مابقيت الحياة ، يمثل بمبادئه العالمية ، وبقرآنه الخالد : وبشخصية رسوله المثالية ، فكرة حية فى ضمير الزمن ، فلن ينطفـئ نوره ، وان تألبـت عليـه الطواغيت ، وقوى الشـر ، لأنه انسانى الخصائص والوجهة ، أقيمت دعائمه على مبادى ثابتة ، وكليات لاتتبدل وكانت فيه مع ذلك مرونة التجديد ، وقابلية التطور ، وتفتح الاجتهاد فى اطار مبادئه وكلياته .

يقول (قوت) المفكر الألمانى : ((ان هذا القرآن سيبقى الى الأبد منيرا للفكر الانسانى ، قوى التأثير)) .

وجدة القرآن الكريم لاتزال باقية ماثلة أمام كل تقدم فكرى بلغته الحياة حتى اليوم ، وهو كما كان جديدا على عقل انسان القرون الأولى، عند نزوله ، فانه باشراقه ، وبما أتى به فى مجال العقيدة والشريعة ، وبناء الحياة على أقوم الأصول ، وأرسخ الدعائم ، سيظل جديدا على مر العصور والأجيال (٢)

لذلك أوجب الله أن تعيش الدعوة اليه . وأن يكون الداعى ترجمة حية لتعاليمه ، وأنموذجا كاملا لهدايته ، حتى تنعكس آثارهـا علـى

القلوب النقية . التى خصها الله بالقابلية ، ولاسيما فى هذا العصر الذى شاعت فيه عادات وأخلاق ، وظهرت سبل ومنعرجات ، وتفشى الجهل بأحكامه ، فاشتبهت الطرق ، وتنوعت الفتن والمغريات ، وانتشرت المذاهب الفلسفية والاجتماعية والاخلاقية ، وأدخلت الحضارة المادية مفاهيم جديدة فى الحياة ، فزيف الملحدون قيمه فى نفوس المسلمين ، للحيلولة دون بعث اسلامى جديد ((يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون)) (سورة التوبة : ٣٢) .

انه الانتخاب الطبيعى الذى تقوم به الحياة ، والاستجابة الطبيعية لنداء الفطرة السليمة ، واليقظه الاسلامية الرائعة فى المشرق والمغرب، وانجاز وعد الله الصادق بعزة كتابة ، وسيادة دينه فى الأرض .

ألا فليعلم الدعاة الى الله ، أن من أشد الدعوات الاسلامية تأثيرا حال المسلمين أنفسهم فى سلوكهم ومعاملاتهم ، وتفكيرهم وثقافتهم ، وتطورهم وحضارتهم . ودعوتهم الى الاسلام بأخلاقهم وأعمالهم ، أبلغ من دعوتهم اليه بخطبهم ومقالاتهم .

ثم ان أساليب الدعوة يجب أن تكون لها صبغة المعاصرة ، حتى لاتعيش فى غربة ولايكفى استعمال ماظهر فى هذا العصر من وسائل الاعلام ، وأساليب الدعاية فى كتب منشورة ، وصحف سيارة ، واذاعة مرئية ومسموعة ، وأفلام معروضة وخطب حماسية اذا لم يخاطب الناس بلغة العصر التى يتأثرون بها ، ويتجاوبون معها ولم تنشر حقائق الاسلام بين أهله ، وفى ربوع الذين لم يدخلوا فيه بمنجية وذوق وفن وموضوعية ، تنفى عنه تحريف المغالين فبه ، وتحامل الجافين عنه ،

وتنصفه من تعصب المحبين ، وافتيات الحاقدين .

فان من أشد الاساءات الى الاسلام أن تلصق به تشويهات زرية ، أو يلبس أثوابا مزورة تطبعه فى نفوس البسطاء من أدعياء التطور والثورية ، بطابع السذاجة والرجعية ، دون تمييز بين الأصل والدخيل ، ولابين الحقيقة والزيف ، حتى ترسخ فى الأذهان صور عنه منفرة ، كما نرى ذلك أحيانا فى تمثيل شخصية المأذون والمؤدب والقاضى الشرعى على المسرح ، أو على الشاشة ، مايجعل منهم أضحوكة وسخرية للعابثين ، الذين ينتمون شكلا الى الاسلام ولكن علاقتهم به واهية ، لاروح فيها لا قداسة .

وما أكثر المسلمين الذين يعيشون اليوم بين غربة روحية ، وازدواج فى الشخصية ، وانفصام عن الذاتية .

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :((بدأ الاسلام غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء)) (أخرجه البخارى عن أبى هريرة) .

فقد كان الرجل فى الجاهلية ـ اذا أسلم ـ غريبا بين أهله وعشيرته الذين يجفونه ويتوعدونه ، كما صار المسلم اليوم غريبا بين أقوام يتهافتون على الدنيا ، وقد طغت عليهم أهواؤهم ، فضلوا وأضلوا ، ولم يجد الدين منفذا الى قلوبهم ، مثلما وجدت الحضارة المادية المعاصرة

ويعجبنى فى هذا الصدد ما ذهب اليه الشيخ المراغى فى تفسيره للحديث عند تقديمه لكتاب محمد حسين هيكل (حياة محمد صلى الله عليه وسلم) (ان غربة الاسلام فى بدئه أنه ظهر وقوى فى المد ولم تكن دار الاسلام الأولى ، بل هى دار غربة له ، بالنسبة الى مكة

وغربته في آخر الزمان : أن يعتريه ضعف بعد أن ظهر ، ثم يعود الى الظهور بين أقوام غرباء عنه من غير أهله ، فيقيض الله له أمة قوية تدين به وتحميه ، ويعود بها الى الظهور من جديد .

وسواء فسرنا غربة الاسلام في آخر الزمان بقلة مايعمل به المسلمون من تعاليمه ، أو بضعف المسلمين وهوانهم ، أو بضعف الوازع الديني في ضمائرهم ، أو بغرابة مبادئه على النفوس ، فانها لاتخرج في مجموعها عن غربة الاسلام الروحية والفكرية في نفوس بعض المسلمين مما نشاهد بعضه اليوم من تنكر لمبادئه ونظمه وأحكامه وتشريعاته ، رغم ما نراه في الوقت ذاته من اقبال على اعتناقه في أوروبا وأمريكا وأفريقيا .

وقد قال المطران الأنقليزي ((دافيد براؤن)) وهو ممن عرف بدراساته الاسلامية : (الاسلام دين يعتنقه اليوم مليون شخص من مواطنينا البريطانيين) (٣) .

وفي السنة الماضية اعتنق الاسلام
معظم سكان قرية بانكلترا

وكان مما يلفت النظر اهتمام الصحف والمجلات في الغرب ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية بتحليل عوامل اليقظة الاسلامية وأبعادها وأهدافها ، في خضم هذا الصراع الفكري والعقدي الحاد ، الذي تميز به العصر ، خصوصا حول قضايا المجتمع الاقتصادية والثقافية والسياسية ، على تفاوت بين الكتاب والباحثين من حيث الموضوعية والنزعات الشخصية ، ومن حيث التجرد والنزاهة ، والأحكام المسبقة والدس ...(٤).

وقد تجلت ظاهرة الاهتمام الغربى بالاسـلام ومستقبله بعد أحداث ثورة ايران ، وانتصاراتها ، وبعد دعوة المؤتمر الاسـلامى كافة الأقطار الاسـلامية لـلاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر ، واعداد برامج لهذه الاحتفالات تحفز الهمم ، وتحيى العزائم ، وتبعث الروح النضالية من أجل مستقبل أفضل ، وهذا الاعداد سيعطـى نفسـا جديـدا للدعـوة الاسـلامية ، يكفل استمـرار جهود التـوعية والاحيـاء والتنمية ، بل سيضاعفها ويزيد فى دعمها وتطويرها ، تبعا لتطور الفن الاعلامـى بالصورة والكلمة ، كما أوصى بذلك المؤتمر الاسـلامى فى احتماع اللجان الوطنية بمكة المكرمة سنة ١٩٧٣ م .

لقـد أضحـى الاعـلام فى هذا العصـر وسـيلة توجيـه لـلافـراد والجماعات بالغة الأثر ، حتى أصبح ـ أوكاد ـ أداة استلاب واستيلاء على الأفكار والعواطف ، فى ترويج النظريات والمذاهب ، بل وترويج البضائع والمنتجات لـلاستهلاك ، فكيف لاتتطور وسائل الدعوة الى الاسـلام .

ثم ان تأثير الداعى بشخصيته اللامعة ، وصحته النفسية ، واشعاعه العلمى والروحى ، وبما يملك من قدرة على التحليل والبيان والاقناع ، ومن عمق فى التفكير ، والمام بمشاكل العصـر وقضاياه ، واطلاع على الثقافات المعاصرة ، وما يروج فيه من مذاهب فلسفية ، وايديولوجيات اجتماعية ، كل ذلك من أقوى العوامل الأساسية التى تمكنه من أداء رسالته على النحو المأمول ، وتفتح له آفاق الدعوة ، وتشق له طريق النجاح ، كما فتحتها من قبل لعلماء أعلام لمعت أسماؤهـم قديمـا وحديثا ، مثل : الغزالى ، والبصرى والافغانى والمودودى وغيرهم ممن

أحيوا الضمائر وأيقظوا المشاعر ، وأنعشوا روح الايمان فى اعماق الوجدان ، وجعلوا من الاسلام بسلوكهم وبتفانيهم فى خدمته ترجمة حية له ، وصورة ناطقة عنه .

ومن هنا فانه لايكفى لأجيالنا الصاعدة الحماس الفياض وحده ، ان لم نجعل نحن من الاسلام نبراسا نسير على هديه فى يومنا الراهن، وفى غدنا المرجو، والا أصبح هتافات نفسية عابرة ، وهزات عاطفية خاطفة ، فاقدة لكل أثر ايجابى ، أو نفع عملى فى حاضرنا المشهود ، ومستقبلنا المنشود (٥).

عقبات فى طريق الدعوة :

والعقبات التى تعترض طريق الدعوة ونجاحها وتأثيرها كثيرة ومتنوعة : منها مايتصل بالهيئة السياسية والاجتماعية ، ومنها مايرجع الى شخصية الداعى ومواقفه من قضايا العصر .

فالمجتمعات التى اخذت الحضارة المادية من اصالتها وتقاليدها كل مأخذ و أذابتها فى بوتقتها ـ فسرى فيها داء التفسخ والانحلال ، لم يجد الدين منفذا الى قلوب ابنائها . لانهارانت عليها الاهواء والنزوات ، واستبد بها حب الدنيا فاعرضت عن تعاليم السماء واخلدت الى الارض .

وقد نجد فى هذه المجتمعات التى آفسدها زيف الحضارة ، وشغلها القشر عن اللباب ، علوما وخبرات لدى بعض أبنائها ، ولكنها المساومات الأجنبية وللمكاسب الشخصية ، وكم تركت هجرة الأدمغة عن البلاد النامية من فراغ ، رغم ما أنفقته من جهود وأموال فى تكوينها .

كما نجد فى هذه المجتمعات قوة وشوكة ، ولكن للبغى وقهر المستضعفين ومقاومة حرية الانسان الاساسية ، وقد تكون فيها ثروات، ولكن للترف والتفاخر والاستعلاء وقد يكون فيها ذكاء ، ولكن للمؤامرات والاحتيالات ، بحيث لاتوجه هذه الطاقات الحية وجهة سليمة ، تنفع الأمة وترفع من شأن الوطن .

وفى مثل هذه المجتمعات المترفة ، أو المبهورة بحياة الغرب ، أو المجذوبة بتيارات العصر ، سيجد الداعية عقبات فى الطريق ، فلابد له من التحلى بالصبر والأناة والثبات والمثابرة ، والاعتزاز بقيم الاسلام الخالدة ، ونشرها بين الناس حتى يرسخ فى أذهانهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم :((ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس)) .

ومصاعب الدعوة فى أوساط المترفين المتحللين ، أنهم يطلقون لأهوائهم العنان ، ويرخصون القيم العلياء التى لاتعيش المجتمعات الراقية الا بها ولها ، ويعيثون فى الأرض فسادا ، ويحولون النفوس بتأثير العدوى والاغراء الى أدوات تستهلك ولاتنتج ، وتتمتع ولاتتعب.

وطبيعة هذا المرض الذى يكون من أعراضه اللهو والفراغ والاسراف ، أنه يفقد القلوب تلك الحساسية التى بها تتلقى وتتأثر وتستجيب ، فتضيق بحياة الكدوالجد ، لأن المترف مريض بالنعيم والرخاء لايستطيع أن يخوض غمرات الحيات على ماهى عليه من عسر ويسر ، ورجل الحياة هو الذى يلابسها كما هى فى جميع أوضاعها وتقلباتها .

وقد أدرك المربون فى الأمم الغنية المتقدمة ضرورة مقاومة

أمراض الترف لدى أبناء الاثرياء ، فحاولوا علاجه بالجندية ، وبالرياضة العنيفة ، وبالرحلات الشاقة ، والمغامرات فى مجاهل الأرض وأعماق المحيطات (٦) .

ومن تناقضات بعض المجتمعات الاسلامية أنه يوجد فيها الى جانب هؤلاء المترفين طبقة بائسة شل تفكيرها شعورها بالهوان والحرمان ، يستنزف جهدها ويجف عودها ، وتستغل طاقاتها ، ثم يرمى بها حطاما فى زحمة الحياة .

ان هؤلاء التعساء تائهون عن حاضرهم ، فضلا عن غدهم . وهيهات أن يؤدى الدين رسالة ، أوتثمر تعاليمه فى جو خانق ، وفى بيئة عقيمة . وكيف يستطيع الواعظ أن يملأ قلب انسان بالهدى ، اذا كانت معدته خالية من الغذاء ، أو يكسوه بلباس التقوى اذا كان بدنه عاريا ؟ بل الواجب قبل كل شى أن يؤمن على مايقيم أوده كانسان ، ثم ينتظر بعد ذلك أن تغرس فى قلبه مبادى الايمان .

يقول الشيخ محمد الغزالى :(كثيرا ما عالجت وعظ الناس فى بيئات صرعها الفقر والمرض والجهل ، فكنت أحار ... ماذا أقول لهم

هل أقبح لهم الدنيا كما يظن أنه مفروض على علماء الدين ؟ والدنيا لن تكون أقبح مما هى عليه فى أعين هؤلاء التعساء ، وحاجتهم الى من يعرفهم أركان الحياة ، أمس من حاجتهم الى من يعرفهم أركان الاسلام ، وجمهورهم لايدرى الأ ساليب الصحيحة للزراعة والصناعة والتجارة ، فضلا عن أن يعرف كيف يعامل ربه واخوانه وحكامه .

أعرفهم بالله عزوجل ؟ ومعرفة الله لاسبيل اليها الا بعد معرفة

النفس ، فان من عرف نفسه ، عرف ربه ، وهؤلاء التعساء ذاهلون عن أنفسهم (٧).

وإذا لم يكن الداعى ملما بالمشاكل الاجتماعية القائمة فى بلده ، لايهتدى الى طريق العلاج والحل ، ولايكون موضوعيا فى دعوته ، ولايحسن اختيار الموضوعات الحية ولاترتيبها بحسب الأولويات ، وبحسب الظروف . فقد يكون فى التذكير والتعريف بمبادى العدالة الاجتماعية فى الاسلام كالتكافل الاجتماعى وتكافؤ الفرص بين الجميع ، والتخطيط الاقتصادى الذى يقرب الى العدل في توزيع الثروة واستثمارها ، مافيه تبصرة لأولى الأمر الذين لايستغنون عن التذكير والنصح ممن لاينتصب الى زعامة ، ولايدخل فى خصومات ولايثير الفتن .

وقد قال على كرم الله وجهه : (ان للقلوب شهوات واقبالا وادبارا، فائتوها من قبل شهواتها واقبالها ، فان القلب اذا أكره عمى عن الحقيقة) .

فالداعى مصلح بالتوعية ، والتوجيه ، وليس الاصلاح تعنيفا ، ولا اساءة ، ولا اثارة أحقاد ، كما أنه ليس من الحكمة في الدعوة فصلها عن هموم المجتمع وشواغله ، وعزلها عما يستأثر باهتمام الأمة ، والا انفصل الدين عن الحياة ، واضحت الدعوة اليه عملا هامشيا ، قليل الجدوى ، لايمد ضياء ولا يحل مشاكل .

فالحكومات الاسلامية التى ترى فى الزحف الأحمر خطرا عليها وعلى الاسلام ، يجب تبصيرها بأن شرارة الخطر ، انما تنقدح من الداخل ، قبل أن تأتى من الخارج ، وذلك عند انتشار البطالة والفقر

والحرمان ، وتفاقم الثراء والترف عند طبقة محظوظة ، وانعدام مايكفل حاجات المواطن الضرورية ، وما يصون وجهه وكرامته في بلد تدر عليه ثروته الطبيعية مالا تدره على بلد أوروبى ، ويرتفع فيه الدخل القومى للفرد ارتفاعا يدعو الى المقارنة والتساؤل والبحث عن مصدر العلة .

فاصلاح الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى الداخل كفيل بتحقيق الرقى والاستقرار ، ودعم الأمن ، والوقاية من الانتفاضات ، التى تهدر الطاقات ، وتسيل الدماء ، وتشل حركة التنمية ، وتوقف سير الحضارة .

ولاننسى أن من الحلقات المفقودة فى أنظمتنا الاجتماعية ، الوعى العام اليقظ الحارس للقيم المعنوية فى الجماعة ، الذى يشكل بدوره رأيا عاما يرهبه الحاكم والمواطن على السواء ، ويجعل كل باغ على حق غيره ، وكل خائن لأمانته ، وكل معتد على الفضيلة ، وكل أنانى مهمل لواجبه ، وكل خارج من الآداب فى صورة من الصور ، يشعر بالحرمان من عطف المجتمع وتقديره ، وبخزى الضمير ، تحت نظرات السخط والمقت ، وبسهام النقد لتصرفاته اللامسؤولة تصوب نحوه ، حتى يراجع نفسه ، ويعدل من سيرته ، ويصلح ما أفسد ، ويتدارك مافات .

وللرأى العام الواعى دوره الخطير فى التصدى لسلوك الرعونة والطيش ومواقف الاثم والبغى ، وتصرفات الباطل والفساد ، فنحن فى حاجة الى رأى عام أخلاقى له نفوذه واحترامه فى نفوس كل الأفراد ، بحيث يشعر كل أمرئ أن اساءته دقت أو جلت ، ولاسيما المسؤولون ،

ستلاقى جوابا سريعا علينا فى سلوك المجموع بازائه (٨).

ومن يستطيع تكوين الرأى العام وتربيته فى البلاد الاسلامية غير الدعاة الى الحق والمثل العليا ، أولئك الذين يبدؤن النصيحة بالحسنى لكل من زلت به قدمه ، فيذكرونه كلما نسى ، وينبهونه كلما غفل ؟

وياليتنا حين نجأر بالشكوى فى الخفاء ، نضعها فى موضعها دون تحامل أو مغالاة ، بل دون مغالطة أو مجاملة نخدع بها المسؤول ، فيتمادى فى ضلاله ، ولا نجرؤ على مواجهته ومكاشفته بما لايدع مجالا للشك فى نزاهتنا وصدقنا ، وحبنا للخير والاصلاح .

فلاجبن ولاتهور ، ولا استكانة ولا تمرد ، ولاتملق ولاصلف . ومن معوقات الدعوة ، ما نرى بين الدعاة أنفسهم من اختلاف فى الرأى والحكم اختلافا يثير الشك والبلبلة ، أكثر مما يعبر عن تنوع وجهات النظر فى قضية من القضايا الدينية ، اذ ليس منشؤه النظر والاجتهاد ، بل منشؤه شخصية الداعى ، ومايتسم به من تفتح أو تزمت ، ومن اعتدال أو تطرف ، ومن التزام حرفى بالنص ، ومن تصرف فى حدود بحسب الظروف والأوضاع . وكثيرا مايزج بنفسه فيما ليس من اختصاصه فينتصب للافتاء ، ويحكم بالتحليل والتحريم بصورة مطلقة فيما يحتاج الى تفصيل وتقسيم ، وكل ذلك مما يؤدى الى خصومات سياسية تعرض الدعوة الى الشك وسوء التأويل ، حتى لنسمع من الساسة من يصرح بمثل هذا القول : لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة .

والحقيقة التى لا مراء فيها ، أن السياسة فى الدين تقوم على

تنبثق عنه من قيم روحية : فكر دخيل روجته الحضارة المادية المعاصرة، يطـــرق النفوس فى عنف القوى ، ومغالطة المسيطر ، وتستخدم فى شيوعه مختلف الوسائل الحضارية الفنية المعزية التى تتلقفها القوى المحلية الاعـلامية ، فلا تترك مجالا لتأثير التوجيه الدينى أو تدع الداعين ، الى القيم الاسـلامية فى مظهر الضعيف المتخلف الـذى لايقوى على الحياة ، فضلا عن المواجهة (١٠).

وليست الدعوة فى هذا العصر خطبا حماسية تمجد الاســلام ، وتندد بكل ما جاءت به حضارة العصر جملة وتفصيلا ، وتنقم علـى الناس ، وتتهمهم بالمروق والفكر تارة ، بالانحراف ، والجاهلية أخرى، ولاهى قائمة من الأوامر والنواهى ومطالب الاصـلاح والتغيير ، فان هذا المنهج قد يفسد ولايصلح ، وقد يقطع أوامر الود مع الناس ، لأنه يحقر أعمالهم ، ويجعل الذين لايوالونهم ولاينتمون اليهم خارجين عن الجماعة الاسـلامية على اعتبار (من ليس منا ، فهو خصم لنا) ، بل ان الاتصال بهؤلاء فى الدعوة أوكد لمحاولة كسبهم والافادة منهم، ولايجوز بحال التعالى عليهم ، فان مزالق الغلو والغرور والصلف تنأى بأصحابها عن تأليف القلوب ، وتقريب النفوس ، ولعل أصـل الانحراف هنا هو تصور جماعات قليلة العدد ، لاحجة لها فى شى ، ولا طاعة لها على أحد ، بأنهم ـ وحدهم ـ جماعة المسلمين .

ان عناصر المجتمع ازاء الدعوات والأفكار ثلاثة أصناف : مؤيد ، ومحايد ومعارض . منهج الدعوة فى مضمونه الحركى يقوم على ولاء الموالين ، ومحاولة كسب المحايدين والمترددين ، والسعى الى تحييد المعارضين ، ومن هنا فان الداعى لايجوز له أن يتجاهل الناس من

حوله ، أو يقصـر علاقاته على الموالين وحدهم . (١١) .

المـقومات الأساسية للدعوة ، معرفة ، وفن ، واخلاص . وهيهات أن ينهض بأعبائها فى هذا العصر من افتقد أحد مقوماتها أو جلها ، انه قد يسىء اليهاوالى الاسـلام من حيث لايشعـر .

ولماذا يتصدى للدعـوة من لم تكن له قدم راسـخة فى العلـوم الاسـلامية ، أولم تكن له خبرة بطرق العرض العصرية ،وأساليـب الاقناع والتأثير ، فى حين يقعد العلماء الاكفاء القادرون عن أداء هذا الواجب ؟

أليست الدعوة الاسـلامية فريضة دينية ترجع الى قاعـدة الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

أليست تدرجا فى معاملة النفوس بالحسنى ، واقترابا من واقـع الناس طلبا لهدايتهم ؟ فقد قبل النبى صلى الله عليه وسلم من ثقيف اسـلامهم ، واشترطوا ألا صدقة عليهم ولا جهاد .

روى عن وهب قال : سألت جابرا عن شأن ثقيف اذ بايعت ، فقال: اشتـرطت على رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا صدقة عليها ولا جهاد ، وأنه سمع رسول الله يقول بعد ذلك : ((سيتصدقون ويجاهدون ان اسلموا)) .

وسألوه مع ذلك ألا يصلوا وألا يكسـروا أصنـامهم بأيـديهم ، والايعشـروا ولايحبوا ، ولايستعمل عليهم غيرهم . فقبل صلى الله عليه وسلم منهم وقال : ((أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك ، وأما الصـلاة فلاخير فى دين لاصلاة فيه)) .

ثم أمر عليهم واحدا منهم ، وكان من أحدثهم سنا ، وهو عثمان

الحفاظ على تراث الأمة ومقدساتها ، وقيمها الروحية وتزكيتها ، ودفعها الى الانشاء واحياء الطاقات المبدعة فى حكمة واتزان ، كما أن الدين فى السياسة يقوم على أخلاقية السياسية ذاتها ، حتى تتجه فى طريق حميد العواقب ، يكتنفه الأمن والعدل والوفاء بالحقوق الفردية والاجتماعية للامة ، ويجنبها المزالق والمغامرات والاخطار ، بما يسديه الدعاة الى الحق من نصح الذين تولوا أمر المسلمين ، عملا بالحديث النبوى الشريف ، وما انتشر الاسلام الا بأصالة المنهج الذى سار عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسن فهمهم للاسلام، وتطبيق تعاليمه بالقدرة ، والدعوة اليه بالحكمة ، كما أمر القرآن .

واذا كانت الكليات الأساسية والمبادئ العامة فى الدين هى موضع اتفاق فى الغالب ، ينتهى فيها الجدل بعد أن قال الله كلمته الحاسمة ، فان الرأى المبنى على الاجتهاد ، لايجوز أن يتحول الى عقيدة تسمو عن النقاش ، فان آراء الناس تختلف اختلافا كبيرا فى الشؤون الاجتماعية والسياسية فى هذا الخضم الهائل من الصراع الأممى والايديولوجى ، وتنازع النفوذ الدولى فما يصلح لقوم ، قد لايصلح لآخرين ، وما يصلح لهم فى وقت قد لايصلح لهم فى وقت آخر (٩). ومحاولة التغيير الكلى السريع كثيرا مايتوء بالفشل الذريع ، وتفت فى العزائم ، وتبعث على اليأس والتشاؤم .

فالمصالح الدنيوية المتداخلة تتفاقم ، ومشكلات العصر المعقدة تتراكم ، والمجتمعات الاسلامية لها خصائصها ومشاكلها التى تتفاوت فى أهميتها من زمن الى زمن ، ومن بلد الى بلد ، وبعضها مايزال يتأرجح بين فكر أصيل موروث ، هو الفكر الاسلامى ، وما

بن أبى العاص الذى قال :((آخر ما عهد الى رسول الله حين استعملنى على الطائف ان قال : ((واذا أممت قوما فخفف بهم الصلاة ، فانه يقوم فيها الصغير والكبير والضعيف والمريض وذو الحاجة))(١٢).

فأين هذا التيسير ممن تغالوا ، فنفروا وكفروا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ((يسروا ولا تعسروا وسددوا وقاربوا)). ونهى أصحابه عن قولهم لمن شرب الخمر : أخزاه الله ، وعلمهم قائلا :((لاتقولوا هكذا ، ولا تعينوا عليه الشيطان))

يروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابيا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم يستعينه فى شى ، فاعطاه ، ثم قال : أحسنت اليک ؟ قال : لا ولا أجملت . فغضب المسلمون وقاموا اليه . فاشار عليهم أن كفوا ، ثم قال فدخل منزله ، ثم ارسل الى الاعرابى ، فدعاه الى البيت، فزاده شيئا ، فرضى . فقال صلى الله عليه وسلم :((انک جئتنا فسألتنا فاعطيناک ، وقلت ما قلت ، وفى أنفس المسلمين شى من ذلک فان أحببت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدى ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليک)) قال : نعم فلما كان الغداة جاء . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان صاحبكم هذا كان جائعا ، فسألنا فأعطيناه، فقال ماقال ، وانا دعوناه الى البيت فأعطيناه فزعم أنه قد رضى، أكذاک ؟)) .

قال الاعرابى : نعم فجزاک الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : الا ان مثلى ومثل هذا الاعرابى كمثل رجل كانت له ناقة ، فشردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها الا نفورا .

فناداهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي ، فأنا أرفق بها . فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض ، فجاءت فاستناخت ، فشد عليها رحلها واستوى عليها واني لوتركتكم حين قال الرجل ما قال فقتلتمــوه ، دخل النار)) (١٣) .

وصدق رسول الله ، فانه يؤخذ باللين والرفق ، مالا يوخذ بالشدة والعنف وقد أورد الامام البخارى جملة من الأحاديث النبوية رد بها على الخوارج الذين قالوا بكفـر من ارتكب كبير بين المسلمين .

وما أكثر أن نقـرأ ونسمع وصف مجتمع اسـلامى بأنه (مجتمـع جاهلى) ، أو (جاهلية هذا القرن) ، أو نحو ذلک من الاوصاف التى تكال جـزافا .

فالنبى ، صلى الله عليه وسلم لم يقل لأبى ذر حين فعل خطأ ما يفعله أهل الجاهلية : انک من أهل الجاهلية ، بل قال له :((انک امـرؤ فيک جاهلية)) . كما لايجوز أن نطلق وصف الكفر على الذين أقـروا بالشهادتين ومهما بلغت معـاصيهـم وانحرافاتهم ، فلاتخـرجهم عن الايمان ، ولاتزيل عنهم أخوة الاسـلام ، ولا تجعلهم مطرودين من رحمة الله . فحسب الدعاة الى الله على بصيرة أن يدعوهم الى الحق ويزينوه لهم ، ويرغبوهم فيه ، ويصـدوهم عن الباطل وينفروهم منه . وما عليهم بعد ذلک من حسابهم فى شئ ، وانما حسابهم على الله .

قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم :((فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطـر)) (سورة الغاشية : ٢) .

ورحم الله الحسن البصـرى اذ يقول : « العامل على غير علم كالسالک على غير طريق وأن قوما طلبوا العبادة ، وتركوا العلم ، حتى

خرجوا باسيافهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو طالبوا العلم، لم يدلهم على مافعلوا)) .

فمن التصورات الخاطئة أن نصدر أسباب بعدنا عن الاسـلام ، اننا طبعنا حياتنا كلها بطابع العمر ، وتنكبنا عن منهج السلف ، ناسين ماترِدينا فيه من جهل وغفلة ، واستبداد ، ونفاق ، وتنافر ، واطماع وعبث بالقيم الروحية ، واهـدارلكرامة الفرد ، واحتكام للقوة ، ومصادرة للحريات الأساسية ، وظلم اجتماعى فى توزيـع الثـروات القـومية ، وخلافات تهز الوحدة من جذورها ، تبعية اجنبية ماحقة للذاتية ، رغم وثائق الاستقلال وممارسة مظاهره ، وتقدمية جارحة ، الغت الدين لتحل محله تحت ستار الثورة .

ان هذا الركام الــذى ارتكـس فيه المسـلمـون ، وكان حجة على الاسـلام ، وقف عائقا بينه وبين من يلتمس الحق فيه ، وهو يحتاج فى تصفيته الى مخططات وجهود ، حتى لايتهم الاسـلام بالجمـود والانعزالية ، أو بعد القدرة على الحركة الهادفة المنظمة ، لمتـابعة الاحداث المتجددة ، والعكوف على مسائل ثانوية أو هامشية أو جزئية بالنسبة لقضايا الاسـلام الكبرى فى هذا العصـر ، تلك التى تفجر فى الامـة طاقات القدرة على العطاء والاختـراع والابـداع ، وتحريـك التاريخ ، وتقديم الحلول العملية الواضحة . فان الصحوة الاسـلامية لن يعد يتسع صدرها للنزعة الدفاعية ، أو الاعتذارية التى ينكفى اصحابها على جوانب العظمة فى ماضيهم ، ويكثرون على مسامع الدنيا ، أنهم جديرون بالتقدير والاعتبار شعورا بنقص دفين ، وبالعجز عن مواجهة المنافسين والخصوم بالمثل ، وهى فى جوهرها مسلك سلبى هروبى

عن الحاضر والمستقبل ، ولا للنزعة الهجومية التى تكتفى بلعن الزمان، وادانة الجميع ، وتحريم كل شئ والمطالبة بالغاء هذا النظام ، أو الحجر على ذاك السلوك .

ذلك أن الحياة لابد أن تستمر وأن تسير . وحركتها سنة من سنن الله ، لايملك أحد أن يقف فى وجهها ، أو يردها الى الماضى ، وانما يحتاج الناس من دعاة الاسلام أن يقدموا لهم بديلا حقيقيا مما هم فى حاجة اليه ، ويطلب منهم الغاءه . وهذا هو التحدى الحقيقى الذى يواجه دعاة الاسلام . وليسوا وحدهم يتحملون المسؤولية . وانما يشاركهم فيها جميع العلماء والمجتهدين وأهل الذكر فى علوم الدين والدنيا على السواء .

اما اذا بقى المسلمون عاجزين عن تقديم السلوك البديل ، والنظام البديل والمنهج البديل ، فان الدعوة الى الاسلام لن تستقل بعقول الناس وقلوبهم ، الا بقدر مايكتشفون العجز الذى يعانيه المسلمون عند البناء والممارسة والتطبيق (١٤).

الدعوة ومستقبل الاسلام

فالدعوة الاسلامية تواجه مشاكل وتحديات من الداخل والخارج لايمكن تجاوزها الا بمضاعفة جهود علماء الدين وعلماء الحياة وتضافرها على حل الأزمات ، ووضع مخططات عملية طويلة النفس ، يداخل فيها تنظيم علاقات المجتمع وعلاقات الدول الاسلامية نفسها، ثم علاقاتها بغيرها من الدول ، ولا سيما الدول الكبرى التى قل أن تمنح شيئا بلا ثمن ولاهدف ذاتى .

فنعمل على تحقيق الاكتفاء الذاتى ما أمكن ، حتى لاتذلنا الحاجة،

أو تنحـــنى رؤسنا أمام الرغبة الملحة ، فنقبل كل معونة مشـروطة ، ونسلم زمام أمورنا ونستسلم الى مايراد منا أن نفعل .

فتقدم الغرب علينا فى ميادين الصناعية والفلاحة والتجارة والنقل والمواصلات ووسائل الاعلام ، وفى سائر المهارات والعلوم التقنية ، وتخلفنا عنه فى هذه الميادين لمما يوسع الهوة الفاصلة بيننا وبينه ، ويضاعف شعوره بغرور التفوق وشعورنا بالنفس ازاءه .

وكفى ما دأبنا على ترداده دائما ، من أن حضارة الغرب المادية آيسة الى الوهن والافـلاس ، وأن مستقبـل الاسـلام رهيـن بمصيـر المسلمين فى المجال الحضارى ، وفى كل ماله اتصال بحياتهم المادية والـروحية ، علـى اعتبـار أن ذلك فى طليعة المقومـات الاساسـية للشخصية ، لما له من ارتباط وثيق بالعقلية ، وبالارضية التى يعيش عليها الاسـلام وينطلق منها .

فنحن نرى اليوم رغم ماقيل وما يقال من حضارة الغرب ، ورغم الثنائية فيها بين رجل الدنيا ورجل الدين ، وبين التعاليم المسيحية والقوانين الوضعية وبين الكنيسة والدولة ، وبين العلم والعقيدة ـ أن المسيحية أكتست هالة من التقديم رغم ذلك كله ـ بفضل تقدم ابنائها علميا وحضاريا ، حتى صارت جزءا لايتجزأ من مقومات الشخصـية الأوروبية ، وناهيك بأثر الاحزاب المسيحية الغربية فى الحياة العامة ، وبدور الحركات التبشيريا فى بلدان أسيـا وأفريقيـا ، فى حيـن أن الانفصام والثنائية والازدواجية فى حياتنا أشد وأقوى .

ولم يقوى احساسنا بأن الاسـلام الذى ننتمى اليه ، ليس جزءا من مشوهات . شخصيتنا لما نعيش فيـه أحيانـا ، من غربة وتناقضـات

وسلبيات ، وفراغ روحى ومادى . فهل ارتفعت الأمية والفقر والأمراض الناتجة عن سوءالتغذية وانعدام النظافة عن جماهير الشعوب الاسلامية

وهل زال التراشق بالتهم والشتائم بين حكوماتهم عن طريق وسائل الاعلام الحديثة ؟ وهل خرجوا حقا من عصور الظلام والتخلف والفوضى ، ونظموا صفوفهم لمواجهة الخطر الصهيونى والأمبريالى الماحق ، بعد أن يأمن بعضهم بعضا ؟ وهل أزلنا ما أرثنا الاعداء من نيران العداوة بين العروبة وبين الاسلام ؟ الذى لايستطيع أن يفصم روابطه بها روحيا ، لأن منها بيئة الاولى ونبيه وأبطاله وقرآنه وحديثه، حتى امتزجت كلمة (عربى) بكلمة (مسلم) فى اذهان الملايين من المسلمين ؟

وهل أخذنا من العلوم الصحيحة حظنا ، وتفتحنا على الحضارات ، لاقتباسماينفعنا فى الصناعة والفلاحة والعمران ، وتركنا القشور ، وما يتنافى مع أخلاقنا وتقاليدنا ؟

وهل غيرنا ما بأنفسنا ايمانا منا بأن حالة الأمم فى عقائدها ومعارفها وعلومها وأخلاقها وطرق عملها ، هى الأصل فى تغيير مابها من ضعف وفقر وتخلف ؟

هل خرجنا من طور الخطب والتوصيات والقرارات ، الى طور التنفيذ والعمل والتطبيق ؟ وهل ، وهل ، وهل الخ ...

جملة طويلة من التساؤلات تفرض نفسها على نفس كل مسلم يتوق الى غد أفضل وحياة أسعد . والمؤسف أن أكثر ماتكون الاجابات عليها بالنفى .

ان الصحوة الاسلامية تفرض على المسلمين وحكامهم حيثما

كانوا ، أن يعتبروا عن أخلاصهم للاسلام بالعمل قبل القول ، والايتركوا لأعدائهم ثلمات ينفذون منها اليهم لأن الصليبية المقلعة ، والامبريالية الجائرة ، والصهيونية الباغية ، كلها متحالفة عليهم لابطال أعمالهم ، وافساد مخططاتهم ، وتريق صفوفهم ، وتشويه ثورتهم . فاينما التفتنا رأينا الخلافات والنزاعات ، ان مقاومة الخطر الذى قد يأتينا من الداخل ، أشد من مقاومة العدو الخارجى .

ولكم يعز علينا أن نرى جهود الثورة الايرانية تتبعثر فى تيار الخلافات والنزاعات الداخلية ، التى تحرك خيوطها وتعمل على تصعيدها يد أجنبية خفية ، حتى يتسائل الصديق فى حيرة والعدو فى مكر : الى أين أنتهت هذه الثورة الاسلامية ، وما هو مصيرها ، وما مستقبل الجمهورية الاسلامية الايرانية ؟

ولاشك أن تمييع هذه الثورة العظيمة التى انتصرت على قوى البغى والطغيان . وابراز مايشوهها من فوضى ، وتنازع على السلطة ، وعصريات داخلية ، وانتهاكات للقوانين الدولية ، وحركات رجعية ، وهو من مخططات الامبريالية التى يسؤها مثل هذه الانتصارات التاريخية ، انها تحاول دوما أن تقيم الدليل على عجزنا عن تسيير شؤوننا بأيدينا ليبرروا تدخلهم ، أو ليحملونا على اللجؤ الى من يحمينا، ويتولى أمرنا ، والدفاع عن حقوقنا ، بصورة تلجمنا عن مصارحته أحيانا بكلمة حق ، فيها نصح الصديق المخلص ، وتنبيهه فى لطف الدخطر التمادى فى الاعتداء على بلاد اسلامية ذات سيادة . فأين ماتم الاتفاق عليه فى مؤتمر القمة الرابع للبلدان غير المنحازة ، الذى انعقد بعاصمة الجزائر فى سبتمبر ١٩٧٣ م ؟

وكيف تهون هذه الحقائق والمبادى في نفوس المسلمين ؟

اجتمع مؤتمر للتبشير بالقدس ، فقيل لكبير المبشرين : ان النفقات على التبشير كثيرة ، ولكنا لم نجد من خرج من الاسلام الى المسيحية؛ فأجاب قائلا : نعم ان المبشرين لم ينجحوا فى ادخال المسلمين للمسيحية ، ولكنهم نجحوا فى تهوين الحقائق الاسلامية فى نفوس الكثيرين منهم .

ولعل أكثر مافى أوضاعنا السياسية والاقتصادية والثقافية ايلا ما ، أنا نعيش بعواطفنا ، وبعقول أعدائنا ، لابعقولنا . فنحن نمارس حياتنا كما يريدون ، لاكما نريد نحن ، كما أن من أشد الأخطار علينا أن يتزلزل ايماننا بديننا وتراثنا وتاريخنا ، لأنا اذا خسرنا ديننا ، خسرنا معه كل شئ ، اذا سلم لنا ديننا وخسرنا كل شئ ، استطعنا أن نسترد كل ماخسرناه بفضل الايمان (١٥) .

ولعل من أوكد واجب الدعاة الى الاسلام فى القرن الهجرى الجديد ، أن يولوا عناية خاصة بتكوين رأى عام اسلامى عالمى ، يكون له وزنه في التأييد والانكسار ، ويقف شوكة فى وجوه كل المسيئين الى الاسلام وأهله وضد كل الاعمال التخريبية التى تتخذ شكل الثورة ، لتنقض على الماضى بلاهوادة ، وتخرب المقدسات وتدوس القيم العلياء

وأن يعملوا على افهام الغرب الذى عرف الاسلام فى القرون الوسطى كعدو ألد ، وخطر داهم ، أنه دين الحضارة والتفتح والسلام ، اذ ليس حتميا أن يستمر لون من العداء الخفى أو العلنى المتعصب بين المسيحيين والمسلمين فى القرن العشرين ، اذ باب الحوار بينهما مفتوح ،للتفاهم فى كثير من القضايا رغم اختلافهما فى بعض القضايا

العقائدية التى لايمكن التقاؤهما فيها ، حتى يبقى المسلم مسلما ، والمسيح مسيحيا .

يقول القس (جاك اندروز) من رجال الكنيسة المتجددة المتحدة في بريطانيا ((ان المسيحيين عندما يقتربون من المسلمين بتلك الروح التى يختص بها الدين وحده ، سيلقون ترحيبا حتى من أشد الفئات تطرفا .... وأن المسيحيين الذين عرفوا الاسلام ، وعاشوا فى البلاد الاسلامية قد اكتشفوا أن عيسى القرآن وعيسى الانجيل ، يمكنهما الاتفاق اذا هما وقفا وجها لوجه))(١٦).

وعلى المنظمات الاسلامية أن ترعى شؤون جالياتنا الاسلامية فى أوروبا وأمريكا ومساعدة المجلس الاسلامى الأوروبى الذى يعمل جاهدا على حماية الحياة الدينية والثقافية للمسلمين فى أوروبا ، والمحافظة عليها ، وتعزيزها والتنسيق بينه وبين المراكز الثقافية الاسلامية ، وبين المنظمات الاسلامية الأخرى فى المانيا الغربية وسويسرا وفرنسا والنمسا وايطاليا وبلجيكا وهولاندا والبلدان الاسكندنافية ، للتعاون على حل أزماتهم السكنية ، والتربوية المتعلقة بتعليم أطفالهم العربية والتربية الدينية والوطنية، حتى يعيشوا فى أوروبا مسلمين ، لاكقوم مغربين ثقافيا ودينيا ، لأنهم لايستطيعون أن يندمجوا فيهم اندماجا كليا ، ولا أن يسايروهم فى جميع أمورهم ، فيعترفون لهم بحقوقهم الاجتماعية لمساهمتهم فى ازدهار اقتصادهم الوطنى ، وبحقوقهم الدينية فى أعيادهم وأداء فرائضهم ، حتى ينزع الاسلام عن نفسه فى بعض البلدان الأوروبية صفة الدين الاجنبى ، سيما وللاسلام اليوم أتباع كثيرون فى أوروبا يتجاوز عددهم ستة ملايين

فى بلدان السوق الأوروبية المشتركة ، وهم من العرب والاسيويين والأفارقة والأتراك .

وكذلك الشأن بالنسبة للاقليات الاسلامية الذين يمتحنون فى دينهم فى بعض البلاد الأجنبية ، وسيوف القهر والقمع مسلطة فوق رؤسهم ، فمن يرعى دينهم ، ويغذى أرواحهم ، ويدافع عن حقوقهم غير الحكومات والمنظمات الا الاسلامية ، كما ترعى الأحزاب والحكومات الشيوعية حقوق الأقليات الشيوعية وحرياتهم الأساسية فى مختلف بلدان العالم .

لقد شيد دعائهم الأمة الاسلامية فى فجر تاريخها أهل الدعوة الأولى : وحملة الدين الى الناس ، فانشأت حضارة متينة الأركان ، مزدهرة العمران .

ومن حقق الاسلام على دعاته فى هذا العصر ان يعلوا مناره ويرفعوا لواءه ، وينشروه فى جميع الاصقاع ، حتى يعم خيره وفضله وينتشر أمنه وعدله ، والله من وراء القصد .

مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية
باللغة العربية

الرسائل القشيريه للامام أبى القاسم القشيرى

تحقيق : الدكتور بير محمد حسن (مع الترجمه الأرديه)

⁕

معدن الجواهر فى تاريخ بصرة الجزائر لاشيخ نعمان

تحقيق : الجائه الدكتور حميدالله

⁕

الكندى و آراؤه الفلسفيه

للدكتور عبدالرحمن شاه ولى

⁕

مقصودالمؤمنين لبايزيد الأنصارى

نحقيق : الدكتور ميرولى خان

⁕

كتاب الانفعال للامام الصغانى

تحقيق : الأستاذ أحمد خان

★ ★ ★ ★

AL-DIRĀSĀT AL-ISLĀMIYYA

ARABIC JOURNAL

OF THE

ISLAMIC RESEARCH INSTITUTE, ISLAMABAD, PAKISTAN

Vol. [illegible]II No: 5 September-October 1982

* * * * *

	Inside Pakistan	Outside Pakistan	
Annual Subscription	Rs. 30 00	$15.00	or £7.50
Single Copy	Rs. 6.00	$3 00	£1.50

* * * * *

All business correspondence
should be addressed to :
The Circulation Manager
Islamic Research Institute
ISLAMIC UNIVERSITY
ISLAMABAD - PAKISTAN

Printed at Islamic Research Institute Press,
Published by Muhammad Sami'ullah for the Islamic Research Institute, Islamabad

مجلة اسلامية علمية

تصدر بعد كل شهرين

وتبحث في الدين والثقافة والتاريخ والآداب

مجمع البحوث الاسلامية

الجامعة الاسلامية

اسلام آباد ، الباكستان

::::::::

نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٢ م   محرم - صفر ١٤٠٣ هـ

العدد السادس   المجلد السابع عشر

هيئة التحرير

المحتـــوى

ضيــوف العــــدد

* الدكتور الشيخ ابراهيم القطان *

من كبار فقهاء الأردن ورئيس القضاء الشرعى

بالمملكة الأردنية الهاشمية

*****

* الأستاذ الدكتور طه جابر العلوانى *

أستاذ الشريعة ، بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ،

الرياض ، المملكة العربية السعودية

*****

* الأستاذ الدكتور عبد الحميد أحمد أبو سليمان *

استاذ الفكر السياسى بجامعة الرياض ، والأمين العام

للندوة العالمية للشباب الاسلامى بالرياض ، سابقا

كلمـة العـــدد
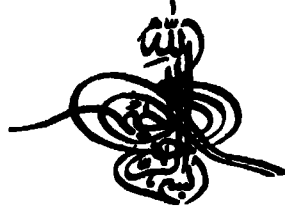
لايخفي على كل من كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد وله أدنى بصيرة فى شئون العالم المعاصر الفكرية والثقافية أن المـدنية الحديثة التى هى فى الحقيقة امتـداد للحضـارة الاوربية المسـيحية الالحادية قد باءت بالفشل فشلا كاملا فى اقرار السلام السياسى و الاطمينان النفسى والروحى فى هذا العالم المضطرب الحائـر علـى مفترق الطرق . فلا زال الصراع الفكرى بين الامم والشعوب يزداد كل يوم شدة وتهديدا للكيان البشرى فى هذا الكوكب الأرضى .

فالفلسفات الشيوعية والاشتراكية التى ظهرت على وجه الأرض بدعاوى عالية و بصرخات كبيرة لصالح الانسانية وفلاح البشرية جاءت بأكثر بكثير مما جاءت بها الرأسمالية المادية من مصائـب ومتاعـب وكوارث .

وهذا ، ولاشك ، يجعل الانسان المفكر المعاصر يميل عن جميع هذه الفلسفات الضالة والأنظمة الفاسدة والنظريات الفاشلة وبدأ يلفت نظره إلى فلسفة جديدة ونظام حى ونظرية شامله للحياة تحميه من نتائج ما اعتنقـه من قبل من دين ونظام وفلسفة ، وتقيه من أن يقع فى هاوية الهلاك وتحفظ مبانى المدنية وجدران الحضارة و أسس الانسانية من أن تنقض .

ومنذ أن استولى الغرب علـى العالـم الاسلامـى فكرا وسيـاسة وحضارة تســـلل الفكر الغربى اللادينى فى الكيان العقلى والثقافى الاسلامى . وأصبحت المبادئ الاسلامية الثابتة عرضة ـ بــل أضحية ـ لما يسمى بالاستعراض النقدى أو الانتقاد العلمى . وكان من نتيجة هذا الواقع المر أن بدأت الفوضى الفكرية التى ذاقها الغرب واجتازها طوال القرون تتسرب الى البلاد الاسلامية تسربا هائلا . ومن المعلـوم أن الفوضى الفكرية التى أتى بها الغرب وأوردها فى العالم الاسلامـى تتبعها ردة فكرية واختلال فى النظام الفكرى والثقافى .

ولايخفى على كل من له علم وبصيرة فى تاريخ العلوم وتطـور النقافة فى أوربا أن الحضارة الغربية بجميع نواحيها وبجميع مافيها من العلوم والفــنون والنهضة العلمية مطبعة بطابع علمانــى خالص ومتسربة بروح المادية البحتة . „ وكانت هذه الحضارة بمعناها الواسع ـ كما استعرضها العلامة ابو الحسن الندوى ـ مجموعة عقائد ومناهج فكرية ، وفلسفات ونظم سياسية وافتصادية ، وعلوم طبيعية وعمـرانية واجتماعية ، وتجارب خاصة مرت بها الشعوب الاوربية التى تزعمت هذه الحضارة فى رحلتها الطويلة ، وكانت مظهر تقدم العلم البشرى وعُلوم الطبيعة ، وعلم الآلات والعلوم الرياضية ، ومجموع نتائج جهود علماء وباحين عبر القرون . فكانت مزيجا غريبا من أجزاء لايكون الحكم عليها واحدا متشابها . كانت مزيجا من السليم و السقيم ، ومن الصواب والخطاء فى النتائج والأحكام ، ومن البديهيات فى العلم التى لاتقبل الجدال والشك ، ومـن التخمينـات و التحكمـات فى الآراء والدعاوى التى تقبل المناقشة الطـويلة فى دور التجـربة والاختبـار والنشؤ والارتقاء ، ومما لايختص باقليم أو عنصر من علـوم تطبيقية

وبالعكس مما تجلت فيه الطبيعة الاوربية واثرت فيه البيئة الغربية وولدته حوادث تاريخية خاصة اكتوت بنارها هذه الامم ، و مما له صلة قوية عميقة بالدين و العقائد ، و مما لاصلة له بالدين مطلقا . وذلك الذى زاد فى تعقد هذه المشكلة وخطورتها وأحرج مركز العالم الاسلامى » .

وكان كل ذلك بالاضافة إلى ماعليها هذه المدنية والحضارة من طبيعة متغيرة لاثبات لها ولاقرار . وتتجلى طبيعتها المتغيرة فى جميع نواحى حياتها ، فنراها فى آدابها واخلاقها ومظاهر حضارتها وازيائها.

واصبحت ثقافتها متغيرة ـ تتغير دائما وتنقلب من صورة إلى صورة ، وذلك لأن الثقافة الغربية ليست لها مبادئ أبديه خالدة تثبت اقدامها فى عالم التغير المستمر وتقيها من الاخفاق فى علوم السياسة والاجتماع وتنظم حياتها الفردية والجماعية وتضبط امورها . فنرى الغرب تظهر فيه كل يوم نظرية جديدة وفكر جديد يضيف إلى فوضاه الفكرية ويزيد فيها بواعث جديدة لاختلالها وانهيارها .

*ـ*ـ*ـ*

علاقة الفرد بالدولة كانت ولاتزال من أهم قضايا الفكر السياسى التى شغلت أذهان المفكرين وقرائح العلماء فى جميع العصور والدهور.

وعمل كل على شاكلته وقدّم حلا لهذه المسئلة حسبما أفتاه علمه وفكره . فمنح بعضهم الأسبقية والأفضلية للفرد وبعضهم للدولة أو المجتمع . زعم بعض المفكرين أن الدولة شر لامفر منه ، فلا نستطيع إلا أن نحصر نشاطاتها فى أصغر دائرة ممكنة ونحدد مجال عملها فى أضيق حدود . وهناك آخرون ينزلون الدولة منزلة الالٰه ، ويوسعون فى مجال نشاطاتها على جميع مجالات الحياة التى يمكن توسيعها فيها .

ويخضع هؤلاء المفكرون الفرد للدولة اخضاعا تاما ويزعمون أن ليس للفرد حق تجاه الدولة سوى ماتسمح به الدولة نفسها .

وبما أن الدولة هى مصدر لتلك الحقوق جميعا عند هؤلاء المفكرين ، فليس للأفراد فى رأيهم حقوق طبيعية أو فطرية يحترمها كل انسان ، وتحترمها الدولة ويحترمها المجتمع . ويعتقد كثير من علماء السياسة الغربيين ومن حذا حذوهم أن الطبيعة أو الفطرة لاتمنح أى حق لأى فرد ، فلايتمتع الأنسان بأى حق لمجرد كو نه انساناً ، و انما هو المجتمع السياسى المنظم الذى يمنحه حقوقه المدنية وحقوقه السياسية . وهذا المجتمع السياسى المنظم هو الذى يعطيه حريته ، وهو مصدر واجباته تجاه نفسه ، وتجاه أبناء مجتمعه ، وتجاه البشرية جمعاء.

ومن العجب العجاب أن يكون مجتمع من المجتمعات الانسانية الكثيرة مصدراً لواجبات المرء تجاه البشرية وتجاه الكون بأسره . فان المصدر لشئ لابد أن يكون أعم منه وأقوى . وأما المجتمع فانما هو جزء من الكيان البشرى الكبير ، فكيف يمكن أن يكون الجزء مصدرا للكل !

وتزداد مسئلة الحقوق المدنية والسياسية التى يجب أن يتمتع بها كلُ انسان بصفته انسانا وبمجرد كونه مواطنا لدولة من دول العالم خطورة واهمية بتطور الثقافة والمدنية والحضارة . فلما كانت الثقافة والحضارة فيمامضى لم تبلغ الى الحد الذى بلغته اليوم لم تكن هذه المسئلة من رؤوس المسائل واكبرها أهمية . ولعل السبب فى ذلك هو تغير مكانة الاخلاق فى المجتمع الحديث ، فكانت القيم الاخلاقية فى الماضى تحتل مكانة كبرى فى المجتمع الانسانى ، وكان لها أثقل الوزن فى ميزان المعاملات بين الناس ، سواء كانت هذه المعاملة بين

فرد وفرد أو بين طبقة وطبقة . حتى ونرى فى المجتمع الجاهلى قبل نزول القرآن الكريم أنه كان لدى العرب أهمية كبيرة للمثل الاخلاقية فى المعاملات بين الناس والمعاشرة فيما بينهم .

ولكن الآن فقد اختل المجتمع البشرى واضطربت المثل الاخلاقية ، وتهددت القيم الأدبية ، وأوشكت المدنية والحضارة على الانهيار، فاضطرت الامم الغربية الى أن تجمع الحقوق التى تعدها هذه الامم من الحقوق الاساسية للانسان بصفته انسانا وتدونها فى مجموعات ووثائق ، يجب اطاعتها واتباعها على الحكومات والدول ـ واخيرا حاولت هيئة الامم المتحدة أن تجمعها فى وثيقة خاصة تعرف باسم الاعلان العالمى لحقوق الانسان . واقرت الجمعية العامة للامم المتحدة هذه الوثيقة فى العاشر من ديسمبر ١٩٤٨م . وليست هذه الوثيقة الا اعتراف ورجوع الى ما أعلنه الاسلام من كرامة البشر وأن للانسان حقوقا ثابتة لايجوز لأحد أن يغتصبها .

ولو قادننا بين الحقوق التى يمنحها الاسلام للبشرية بأسرها والتى يعتبرها من مقاصد شريعته الغراء و بين « المثل الأعلى المشترك الذى ينبغى أن تصل اليه كافة الشعوب والأمم » لاتضح لنا أن هذا المثل الأعلى لم يبلغ حتى الآن الى نصف ماجاءت به الشريعة الاسلامية قبل أربعة عشر قرنا ، بل قبل ذلك بكثير حين نادى دين البشرية كلها ــ دين الاسلام ــ بكرامة الانسان وخلافته يوم بزغ فجرالانسانية على هذه الكرة الأرضية . فهل من مدكر ؟

محمود احمد غازى

*****

الشـريعـة الاســلامية صالحــة لكل زمـــان ومـــكان

ابراهيم القطان

الاســـلام الدين الفطـــرى لانه لايكلف الانسان الا بما هو سهل وهين وممكن ، ولا يجيئـه من العقائد الا بما لايقف حجـر عثـرة فى سبيل تقدمه ورقيه ، لان غـرضه الاول تخليص النفس الانسانية من تلك الاوهام التى اتت بها سدنة المعابد ، ورؤسـأ الـــدين الـــزاعمين بان لهم حق الوساطة بين المخلوق والخالق ، وليطهر القلوب والافئـدة مما ران عليها من آثار الوراثات والتقليد الاعمى ، وما تراكم علـى قلوب الناس من مظاهر التعصب والجمـود .

كان الناس من جهة الدين فى غيابة من الوهم ، وظلمات الجهل ، يقدسون أساطير جمعت من مخلفات الماضين ، ووساوس المتقدمين ، وخرافات الوثنية ، وعادات الجاهلية والجاهليين . فكانوا فى حيرة من امرهم .

وكان جو العالم الأرضى مكفهراً بسحب الاضطرابات الوحشية فى كل مكان وكان اعتماد الناس على وسائل الشر اكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان اجمع الروسـاء للثقة والطاعة اشدهم صيحة فى اصلاء نيران الحروب والمعارك ، ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرا حادا ، الا شئ واحد هو الغنم وسلب الأمم والشعوب ،

والاستيلاء على المدن والاعيان ، والفقراء المزارعين حتى بسطاء المتسولين ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق فى بعض صوامع المتعبدين ، وبعض المبادئ الفلسفية التى كانت بمعزل عن اعاصير تلك المشاغب ، وانتقلت من روح الى روح اخرى ، بوساطة بعض اصحاب الجرأة من رسل الرقى ، لكانت البربرية أسرعت خطاها ، مقودة بغطرسة زعماء البهيمية ، وإستحالت الى وحشية محضة .

فعلى هذه الاحوال الحالكة ، وفى وسط هذا الخضم الشديد الظلمة ، ولدى الهدى وعم نوره الكون ، وجاء الاسلام مبشرا الناس بقوله تعالى : (يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ، وانزلنا اليكم نورا مبينا ، فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه ، ويهديهم اليه صراطا مستقيما) .

كانت النفوس حيرى فى معنى الدين ، لاتعرف من آثاره غير الظلم والاهانة والسلب والنهب من القائمين عليه ومن يلوذ بهم ، فقررلهم الاسلام بان الدين ضالة الارواح ، وانشودة العواطف ، وبلسم جراح الحياة ، ونسيم الراحة والطمأنينة ، ومهب نفحات الحق ، هو دين واحد فى اصوله وعقائده بعث الله به كافة الانبياء والمرسلين الى الأمم، رفعاً لما طرأ عليهم من الظلم والخلاف ، وحسما لما نالهم من روح النزاع (كان الناس امة واحدة فاختلفوا) .

لقد عاش الناس آمادا طويلة متفرقين شيعا ، ومتخالفين اصولا ومبادئ وكان العقل الانسانى لايزال يرزح ببقايا السذاجة الاولى ، يتخذ من هذا التشيع والتخالف عاملين قويين على توسيع شقة الانقسام البشرى ، وقد اتخذوا الاديان بواعث للمضى فى هذا التناحر الى

اقصى حد ، وما زالو على هذه الحال من الفرقة والاختلاف حتى تمهدت سبل الاتصال بين الشعوب ، وتسهلت وسائل التعارف بينها ، ونجحت حاجات حيوية تدعوها لتبادل الثمرات ، وتداول المنافع ، فبدأ العالم يتصل بعضه ببعض عن طريق التجارة ، فكانت وسيلة للتفاهم ، فكان هذا عهدا جديدا فى حياة الامم ما زال تدفع عوامله بالشعوب بعضها نحو بعض ، ممهدا لاكبر عهد من عهود البشرية ، الا وهو القيام على اصل جامع يؤلف بين الناس فى حظيرة واحدة .

ولد هذا الشعور فى العالم للحاجة اليه ، ولكنه ولد خيالا يطوف ببعض الرؤس ، وكان يزاداد على مر الايام قوة ، الى عهد خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم .

فى هذا العهد اراد الله تعالى ان يجعل من هذا الشعور الخيالى حقيقة واقعة ، فشرع للناس الاسلام ، وارسل رسوله بالهدى ودين الحق ، ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، وافتتح به عهدا نهائيا للبشرية لم تحلم به او تتخيله من ناحية الدين قط .

فقد كانت الأمم متناحرة بسبب الاديان ، وكل ينادى بان دينه هو الصحيح ، وباقى الاديان مزورة ، حتى ان بعض الفلاسفة كان يتخيل ان الوحدة العالمية يمكن ان تتم بالتخلى عن الاديان .

فكيف حل الاسلام هذه المعضلة الخطيرة فى حدود العقل ومنطق الاشياء وسوغها للاذهان الى حد ان صار ليس بين خصم الاسلام وقبوله والتحمس له الا ان يسمعها بينة من الداعى اليه ، وان يفهمها حق الفهم .

حق ان هذه المعجزة لدين يعلن انه آخر الاديان الالهية ، وانه

الديـن العـام لمجمـوع البشـرية ، فاعلن الاسـلام انـه فى اصولـه الاعتقادية ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الاول الذى اوحاه الى نوح ثم تابع وحيه الى جميع المرسلين من بعده ، فاذا كان الناس يرون امام أعينهم اديانا مختلفة فى هذه الاصول ، فانما حدث ذلك من تحريف قادتها لها ، وتحميلها مالا تحتمله من اهوائهم واوهامهم ، بغيا بينهم .

وقد ارسل الله به نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم فى آخر الزمان ، خالصا من كل ما ادخل اليه مما ليس منه ، ليقوم الناس على اصل جامع ، فينعموا بمزايا الوحدة ، ويتوجهوا بجملتهم لتحصيل الكمال الذى وعدت به البشرية ، وهذا ما يشير اليه قوله تعالى :(شرع لكـم من الدين ما وصى به نوحا ، والـذى اوحينا اليك ، وما وصينـا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الـدين ولا تتفرقوا فيه ، كـبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب ، وما تفـرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت مـن ربك الى اجل مسمى لقضى بينهم ، وان الـذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ، فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع اهواءهم ، وقل آمنت بما انزل الله من كتاب ، وامرت لاعدل بينكم ، الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم ، لاحجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا واليه المصير) .

وقوله تعالى :(ان الدين عند الله الاسـلام ، وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الامن بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ومن يكفـر بآيات الله فان الله سريع الحساب) .

هـذا هوالدين الجامع للناس ، الدين الخالد ، ولو ادرک الناس

كافة معنى الاسـلام وفقهوا كنه ما يرمي اليه لما بقي على وجه الارض من يدين بدين آخـر ، لانه مطلوب كل روح ، ومرمـى كل قابلية ، ومطمأن كل احساس ، ومنتهي كل علـل من معنى الدين والايمان ، وهذا سر قوله تعالى :((وما ارسلناک الا كافة للناس بشيرا ونذيـرا ولكن اكثر الناس لايعلمـون)).

ولولا ان الاسـلام دين ينطبق على كل قابلية واستعداد ، ويلائم كل عاطفة واحساس ، لما كلف الله به عموم خلقه من انس وجن ، وهو سبحانه وتعالى القائل بلسان الرحمة ((لايكلف الله نفسا الا وسعها))

والذى ضمن للدين الاسـلامي الخلود امران : الفطـرة الانسانية وسلطان العقل الكامل ، والناس جميعا يتفقون فى مقتضيات الفطـرة ، فما يراه انسان بفطرته حسنا يراه كل الناس حسنا ، وما يراه قبيحا يراه كافة الناس قبيحا .

واما سلطان العقل الكامل ، فهو الامـر الواضح فى احكام هذا الدين واوامـره ونواهيه ، فانه قبس من نور الله ، ونفحة من حكمته .

اعتمد الاسـلام هذين الأمرين الطبيعيين ، اعتماد البناء على ركنيه الركينين فقال تعالى عن الفطـرة الانسانية :(فاقم وجهک للدين حنيفا فطـرة الله التى فطـر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ، ذلک الدين القيم ، ولكن اكثر الناس لايعلمون).

فاالله جل شأنه يبين للناس ان الدين هو ما جبلت عليه النفوس من الفـطـرة الالهية ، ولكن بشـرط ان لاتشاب بتعاليم تتحكم فيها وتوجهها غير وجهتها الطبيعية ، وهذه الفطـرة الخالصة من كل شائبة هى الاسـلام .

الا ان هذا الموقف يحتاج لمقوم يقومه ، فان الناس يختلفون فى الفرائز الطبيعية ، وفى الصفات الوراثية ، فمنهم المتثبت والمتسرع ومنهم البعيد النظر وقصيره ، ومنهم الكثير العلم والقليله ، فكان لابد من حكم يرضى الناس جميعاحكومته ، ولايشذ عنها الا مفتون او متعنت ، وهذا الحكم هو العقل . ولما كان هذا العقل مناط التكليف ، وفيصل التفرقة بين الحق والباطل ، وجب ان يكون بحيث يصلح لهذه المهمة الخطيرة . فلذلک حث الله تعالى على تكميله ، بالنظر فى هذا الكون الواسع وما فيه من اعلام نصبها فيه ، ليقوى على ما هو بصدده، ويأمن العثار فى حكمه ، ولايلتبس عليه الباطل فى تلونه .

فهذا الجمع بين حكم الفطرة المعدلة بحكم العقل الكامل ، هو الأساس الدينى الذى بعث الله خاتم انبيائه صلى الله عليه وسلم لوضعه ونشره واعلانه بين الامم ، لتتوحد فى اديانها وعقائدها ، كما هى متوحدة فى انسانيتها وفطرها وعقولها .

وبما ان الاسلام جاء لتوحيد الامم فى عهد جديد للبشرية ، كانت عقائده على هذا الأصل الجامع ، فامر الآخذين به ان يعتقدوا بجميع رسل الله ، وان لا يفرقوا بينهم ، وان يصدقوا بما ارسلوا به من الكتب ، جاعلا ذلک اساس الايمان لتكون صبغته عالمية من كل وجه ، فقال تعالى :((قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما اوتى موسى وعيسى، وما اوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون .

الشريعة

يراد بالشريعة : كل ما شرعه الله للمسلمين من دين ، سواء اكان

بالقرآن الكريم ، ام بسنة رسول الله من قول او فعل او تقرير ، فهى لهذا تشمل اصول الدين ، اى ما يتعلق بالله وصفاته والدار الاخرى وغير ذلك من بحوث علم التوحيد وغيره ، كما تشمل ما يرجع الى تهذيب المرء نفسه واهله ، وما يجب ان تكون عليه العلاقات الاجتماعية ، وما هو المثل الاعلى الذى يجب ان يعمل لبلوغه او مقاربته ، وما هى الطرق التى بها يصل الى هذا المثل او الغاية من الحياة ، وذلك كله هو ما يعرف باسم علم الاخلاق ، وبذلك تكون الشريعة شاملة احكام الله لكل من اعمالنا ، من حل وحرمة وكراهة وندب ، واباحة ، وذلك ما يعرف باسم الفقه المرادف لكلمة قانون فى عرف المحدثين .

يقول الشيخ محمد على التهانوى فى كتابه العظيم : ((كشاف اصطلاحات الفنون)) مادة شريعة الجزء الاول :((الشريعة ما شرع الله تعالى لعباده من الاحكام التى جاء بها نبى من الانبياء صلى الله عليهم وعلى نبينا وسلم سواء كانت متعلقة بكيفية عمل ، وتسمى فرعيه وعمليه ، ودون لها علم الفقه ، او لكيفية الاعتقاد وتسمى اصلية واعتقادية ، ودون لها علم الكلام ، ويسمى الشرع ايضا بالدين والملة)) .

فالفقه اخص من الشريعة ، لانه جزء منها وبعض ما تشتمل عليه

ويقول الجرجانى فى((كتاب التعريفات)): الفقه هو فى اللغة عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه ، وفى الاصطلاح : هو العلم بالاحكام الشريعة العملية من ادلتها التفصيلية ... وهو علم مستنبط بالرأى والاجتهاد ، ويحتاج فيه الى النظر والتأمل ...) .

فالاسلام يتناول حياة المسلم كلها دينية ام دنيوية ، فلا فرق

فی الاسـلام بین امور الدین وبین غیرها من الامور القانونیة والسیاسیة وذلک انه منذ عصـر النبی علیه الصلاة والسـلام وعصـر الخلفـاء الراشدین اخذت السلطة الدینیة شکل الدولة السیاسی ، وبقـی هذا الامـر مستمرا الی الوقت الحاضـر فی المبدأ علی الاقل .

وهکذا البـس الدین کل شی من امور المسلمین ثوب التشـریع ، واخذت الاجیال المتعاقبة فی تنمیة التشـریع ، وتـطـور فی الازمنة المتوالیة حتی وصل الی بنـاء هائـل منظـم لکل انـواع المعامـلات والعلاقات الانسانیة للمسلمین تنظیما دقیقا ، واصبحت القوانین کلها تبعا لهذا المبدأ الذی لایفـرق بین امور الدین وامور الدنیا فقهـا ودینـا الهّیا .

وهذا الفقه بهذا المعنی الشامل هو فی الحقیقة الناحیة التی تمثل لنا الروح الاسـلامیة علی اصلها ، وتصـور ها لنا فی جوهرها الاساسی، کما انه یمثل لنا الطابع الحقیقی للتفکیر الاسـلامی ، فالذین یعنون بمعرفة الـروح الاسـلامیة والتفکیـر الاسـلامـی فی مهدهمـا وعلـی حقیقتهما ، علیهم ان یدرسوا ذلک فی الفقه الاسـلامی الذی لم یتأثر بمؤثرات اجنبیة ، ولم یدخله دخیل فی الفکـر او الطـریقة وقد اثر الفقه الاسـلامی فی کثیر من القوانین الغربیة ، فقـد دخل فرنسا عن طریق الاندلس قدیما والمغـرب والجزائر حدیثا . وهـو مصـدر من مصـادر التشـریع فی انجلترا وغیرها .

ولایزال الفقة الی الآن العامل الاساسـی فی الکفـاح الفـکری للاسـلام ضد الغـرب . فالغـربیون مع انهم نهلوا من فقهنا ، واخذوا منه الکثیر ، فانهم یریدون منا ان نبتعد عنه ونترکه کلیا ، وقد نجحوا کثیرا

فى ان جعلونا نتخذ قوانينهم ونطبقها فى حياتنا ، وابعـدونا عن فقهنا واسـلامنا . واوهمونا بان حياتنا الدينية معناهـا التـأخـر ، وان عدم مسايرتنا للمدنيه الحالية فيها نوع من التاخر والجمود والرجعية عن التمدن .

ولما كان الفقه هو الذى يمثل هذه الناحية فى حياة المسلمين ، كان هو خط الدفاع الاول لـلاسـلام ضد هذه الهجمات المتواصلة من قبل المدنية الغـربية ، ومن هنـا كانـت حركات الاصـلاح والتقـدم الاسـلامى التى يحـاول بهـا المصلحـون المسلمون التجديد تبتدى من الفقه . فهو يمثل عند دعاة الاصـلاح الاسـلام التاريخى ، وهم يريدون الرجوع الى الاسـلام الاول ، ويرون فيه حياة صالحة ، وقدرة على التطور الاجتماعى والقانونى .

فاننا نريد ان نصل من الاسـلام نفسه ، ومن قواه الخاصة الى نظام عملى مستعمل فى الحياة القانونية ، ولايكون هذا الا باعادة النظـر فى الفقه وتطوراته فى العصور الاخيرة والتمسك منه بما نراه حيا صحيحا قابلا للتطبيق العملى ، وبنـاء الاسس الجديـدة علـى ما كان عليـه الاسـلام فى عهـده الاول ، وعهـد نهضة المسلميـن الفقهية وايـام الاجتهاد .

هذا ما نريده من دراسة الفقه الاسـلامى ، والحض على الاجتهاد ونحن فى زمن توافرت فيه المصادر والوسائل واصبحت بين ايدينـا بكثـرة لم تتوافـر للناس من قبل ، وما علينا الا ان نعمل بجد وامانة واخـلاص .

الغـرض من دراسـة الفقـة الاســلامى :

الشريعة الاسـلامية ، والفقه احد اقسامها الكبـرى ، صالحة لكل زمان ومكان ، هذه قضية صحيحة مسلمة بلاريب ، يلهج بها المسلمون جميعا ، وحق لهم ذلك ، فأرى فرضا علينا ان نبيـن صحة هذه القضية التى اصبحت جزءا من عقيدتنا الدينية ، وان نعمل على دعمها بالبرهان والدليل .

ولايكون هذا بمحاولة ايجـاد ضروب من المشـابهة بيـن بعض النظـريات والآراء فى القانون والفقه الاســلامى ، ولا بتبيين كثير من التشريعات الرسمية فى القانون المدنى وغيره من فـروع القانون . انما يكـون ذلـك بالعمــل علـى انشاء قانون من هذا الفقه ، باسلوب واضح مبسط ، له طابعه الخاص ومبادئه واصوله الخاصة ، ويـكون محققا لحاجات العصـر وحالا لمشاكله العديدة المختلفـة ، وان فى فقهنا المادة الطيبـة الواسعة القادرة على ذلك كله .

وقد عرف علماء القانون فى الغرب لهذه الشريعة قدرها ، واقروا فى بعض مؤتمراتهم القانونية صلاحيتها لتكون اساسا للتشريع ، ومن هذه المؤتمرات موتمر القانون المقارن الذى عقد فى (لا حـــاى) فــى اغسطـوس عام ١٩٣٨ وكان من قراراته ما يلى :

١ـ اعتبار الشـريعة الاسـلامية مصدرا من مصادر التشـريع .
٢ـ اعتبـارهـا حية صالحة للتطــور .
٣ـ اعتبـارها قائمة بذاتها غير مأخوذة من غيرها .

وبعد ذلك علينا واجب خطير لنصل الى الغاية التى نر ـد ، وهى جعل فقهنا الاسـلامى المصدر الاول لتشريعنا الحديث ، هذه الغاية التى

يعتبر بلوغها امنية كل مسلم محب لدينه وامته ووطنه الذى يجب ان يكون مستقلا فى كل شئ وفى التشريع بخاصة .

ان علينا بيان هذا الفقه فى مراجعه الاولى الاصلية ، وهذا لا يتأتى الا بنشر المراجع نشرا علميا ييسرها للراغبين والباحثين ثم بعد ذلك نشرامهات الكتب الفقهية الاخرى التى جاءت فى العصور التالية ، ولانقتصر من ذلك على مذهب واحد ، ولا على المذاهب الاربعة المعروفة ، ، بل علينا ان ننشر المذاهب الاخرى كمذهب الزيدية والامامية من مذاهب الشيعة ، والمذاهب الظاهرى ، والاباضى ، ففى هذه المذاهب الاخرى كنوز من الثروة الفقهية وفيها كثير مما ينفعنا فى نهضتنا الاجتماعية والتشريعية .

ومتى تم لنا معرفة هذه المذاهب المختلفة ، علينا دراستها على نحو جديد غير النحو الذى يدرس عادة دراسة تقليدية ، فاننا نعنى الدراسة المقارنة ، بينها وبين بعضها وبعض من ناحية ، وبينها وبين القوانين الحديثة من ناحية اخرى فان فضل الدراسة المقارنة فى كل نواحى المعرفة فضل معروف غير منكور .

وقد ادرك ذلك كله الاستاذ الكبير المرحوم الدكتور عبدالرزاق السنهورى فقال فى كلمته الافتتاحية لكتاب : النظرية العامة ، للالتزامات .الجزء الاول فى نظرية العقد) قال : (فاذا قدر لنا ان نستقل بفقهنا ، وان نفرغه فى جو مصرى (هكذا) يشب فيه على قدم مصرية وينمو بمقومات ذاتية ، يقتضى علينا ان نخطو الخطوة الاخيرة ، فنخرج من الدائرة القومية الى الدائرة العالمية ، ونؤدى قسطا مما تفرضه علينا الانسانية ضريبة فى سبيل تقدم الفقه

العالمى ، اوما اصطلح الفقهاء على تسميته بالقانون المقارن . ومن اهم الوسائل فى الوصول الى ذلك ، العناية بالشريعة الاسلامية ، شريعة الشرق ووحى الهامه وعصارة اذهان مفكريه ، نبتت فى صحرائه وترعرعت فى سهوله ووديانه ، فهى قبس من روح الشرق ، ومشكاة من نورالاسلام ، يلتقى عندها الشرق والاسلام ، فيضئ ذلك بنورها هذا ، ويرى فى هذا روح ذاك ، حتى ليمتزجان ويصيران شيئا واحدا.

هذه هى الشريعة الاسلامية ، لو وطئت اكنافها ، وعبدت سبلها ، لكان لنا فى هذا التراث الجليل ما ينفتخ روح الاستقلال فى فقهنا وقضائنا وفى تشريعنا ثم لاشرفنا نطالع العالم بهذا النور فنضئ به جانبا من جوانب الثقافة العالمية فى القانون) .

وبعد هذه الكلمة الطيبة نرى الاستاذ نفسه يعمل فى القانون المدنى الجديد على الافادة حقا من الفقه الاسلامى ، فيأخذ عنه كثيرا من احكامه فى نواح مختلفة ، وبهذا صار من المصادر الرسمية للقانون، وان كان لم يأخذ مكانه الجدير به بعد ، ثم نراه يقول بعد ذلك :((اما جعل الشريعة الاسلامية هى الاساس الاول الذى يبنى عليه تشريعنا المدنى ، فلا يزال امنية من اعز الامانى التى تختلج بها الصدور وتنطوى عليها الجوانح ولكن قبل ان تصبح هذه الامنية حقيقة واقعه ، ينبغى ان تقوم نهضة علمية قوية لدراسة الشريعة الاسلامية فى ضوء القانون المقارن . ونرجو ان يكون من وراء جعل الفقه الاسلامى مصدرا للقانون الجديد ما يعاون على قيام هذه النهضة)).

وحين يحين الوقت الذى يمكن فيه جعل الفقه الاسلامى هو المصدر الاول عندنا للقانون ، ونرجو ان يكون ذلك قريبا بفضل الله

وعونه ، علينا ان نعمل على تقنيتـه وتدوينـه في مواد باسلوب سهل تتضمن خير الاحكام التي توافق العصـر . حتى لايضل الباحث بين الآراء المختلفة في مـراجـعه وكتبه التي لايكاد يحصـرها الانسان .

وقد خـرج القانون المدني عندنا في الاردن بعـون الله وبفضـل عدد من الباحثين الافاضل ، في ثوب قشيب ، ومواد واضـحـة من الشـريعة الاسـلامية ونرجو ان يتبعـه غيره من القوانين ان شاء الله .

طبيعـة الفقـه الاســلامي

ليس من الممكن استيعاب خصائص الفقه الاسـلامي التي يتميز بها عن كل ما عرفه العالم من ضـروب الفقه حتـى اليـوم ، بهـذه الصفحات القليلة ، ولكن يمكن تعرفها باجمال مما يأتي .

١ـ الفقه يرجع في اسسه العامة الى وحي الله تعالى .

٢ـ تمهيد الشريعة لاحكامه بوازع الدين والاخـلاق .

٣ـ جـزاؤه دنيوي واخـروي معا .

٤ـ نزعتـه جماعيـة .

٥ـ قبوله للتطور حسب بيئات الزمان والمكان .

٦ـ تأثره اوعدم تأثره بالقوانين الاخـرى .

٧ـ غايته تنظيم الحياة الخاصة والعامة ، وتيسيرها ، واسعاد العالم كله .

جاء الاسـلام بعد ان استنفد كل من الاديان السابقة غايتـه ، وصارت الانسانية مستعدة لتقبله ، واحست بالحـاجة الملحة لرسـالة سماوية تكون خاتمة الرسالات جميعا ، وتشوقت لدين جديد يسيربها اقـدماً الى حياة العـز والكرامة والسعادة ، لافرق بين جنس وجنس ، ولابين امة واخرى .

وكان جو العالم مكفهرا بسحب الاضطـرابات الوحشية فى كل مكان وفى هذا الجو المكفهر بظلمات الفتن ، اوحى الله الى محمد صلى الله عليه وسلم ان يرفع علم الألفة العالمية العامة ، وان يضع للناس على ضوء نور الوحى اساسها ، وذلك بقوله تعالى :((يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم)) .

فكانت وسيلة الاسـلام لذلك ، بيان العقيـدة الحقة ، بعـد ان اختلفت فى ذلك جميع الملل اختلافا كبيرا مزق العالم الـى فـرق كثيرة متعادية ، ووضع النظم والقوانين الصالحة لحياة الفـرد والجماعة .

فأساس هذا الفقه هو الوحى من الله تعالى ، هذا الوحى الذى نجده فى كتابه الكريم ، وسنة رسوله العظيم الذى لاينطق عن الهوى ، ففى هذين المصدرين ، نجد جماع ما نعرف اليوم من اقسام القانون الحديث المختلفة ، المدنى ، والتجارى ، والعقوبات ، والدستورى ، والدولى .... الى آخـر فـروع القانون .

وكل فقيه مقيد بنصوص هذين المصدرين او الاصلين الاساسيين ما ساعفته النصوص ، والا فهو مقيد باستلهام روح الشريعة ومبادئها واصولها ومقاصدها ، وفى ذلك مجال كبير للاجتهاد بلايب وهذا ما سيأتى توضيحه .

هذا فى حين ان القانون الوضعى على اختلافه باختلاف الأمـم وعلى تعدد مذاهبه واقسامه ، من عمل الانسان ، ولذلك لانجد له من القداسة مانجده للتشريع الذى اساسه الوحى الالهـى الـذى لايأتيـه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، لانه تنزيل من حكيم حميد .

ولاتتحقق الغاية المرجوة من القانون بحسن وضعه واحكامه فحسب وانما تتحقق مع ذلك بتنفيذه ممن شرع لهم ، على ان يكون هذا التنفيذ بوازع من انفسهم وقلوبهم . وهذا الوازع يجئ من ايمانهم بعدالة هذا القانون ، ورضاهم به واعتقادهم المثوبة من المشرع راضين على تشريعاته واحكامه.

فالتشريعات الاسلامية كما نعرفها فى القرآن والسنة النبوية ، قد بلغت الكمال ، اذ قامت جميعها على اعتبارات من الدين والاخلاق تجعلها تبلغ غاية الرضا والايمان ممن وجهت اليهم من المؤمنين .

فالله سبحانه وتعالى يعلم ما طبعت عليه النفس الانسانية من انانية واثرة ، وهو لذلك يؤكد فى التشريع على الناحية الخلقية والعاطفية فمثلا يؤكد حقوق الجار على جاره الى درجة انه قرنه بالامر بعبادة الله وعدم الشرك به ، فقال :(واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب).

ونجد الرسول صلى الله عليه وسلم يتناول هذا المعنى فيوكده فى احاديث كثيرة منها : قوله (مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت انه سيورثه).(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره) الى احاديث كثيرة .....

وفى الزكاة نجد القرآن الكريم يغرس فى نفس المؤمن ان اداء هذه الزكاة ، خير للمتصدق نفسه فيقول :(خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) ومن ثم يحث الرسول الكريم على الصدقة باحاديث كثيرة يبين فيها تغليظ عقوبة من لايؤدى الزكاة وبعد ذلك

يؤكد للمتصدق ان الله سيعوضه عما انفق خيرا كثيرا ، من ذلك قوله :
(مامن يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان فيقول احدهما : اللهم اعط منفقا خلفا ويقول الآخر : اللهم اعط ممسكا تلفا) .

والجهاد والذود عن الوطن والعقيدة من مقاصد الاسلام ،ولهذا كتب الله الجهاد على المسلمين ذيادا عن الوطن ، ودفاعا عن العقيدة ، ونشرا للدين ، لكنه لم يأمر بذلك امرا مجردا فحسب ، بل رغب فيه وبين فضائله وثمراته ، فان الله يعلم ان اكثر النفوس فطرت على الضنى بالنفس كما فطرت على الضن بالمال ، ولهذا رغب فى الجهاد بضروب الترغيب المختلفة ، وبين انه خير من الدنيا وما فيها ، وان جزاءه فى الدنيا الغنيمة والنصر ، وفى الآخرة الجنة ، ورد فى ذلك فى كثير من الآيات والاحاديث . من ذلك قوله تعالى :

(فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه اجرا عظيما) .

وقوله تعالى :(ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون الخ ...).

والى جانب ذلك احاديث كثيرة منها قوله عليه الصلاة والسلام:
(تكفل الله لمن جاهد فى سبيله ، لايخرجه من بيته الا الجهاد فى سبيله وتصديق كلماته ، ان يدخله الجنة او يرده الى مسكنه بما نال من اجراوغنيمة). .

وقوله :(لغدوة فى سبيل الله او روحة خير من الدنيا وما فيها).
وكان لهذا المنهج فى التمهيد لتشريع الجهاد وتحبيب بذل النفوس فى سبيل الله ، اثره الكبير فى قلوب المؤمنين ، ففى يوم بدر واول ما تلاقى

المسلمون والمشركون من قريش وقف النبى صلى الله عليه وسلم يحض المسلمين على الثبات ويرغبهم فى الجنة فقال عمير بن الحمام وفى يده ثمرات يأكلها اما بينى وبين دخول الجنة الا ان يقتلنى هؤلاء يا رسول الله ، ثم القى الثمرات من يده وأخذ سيفه واقتحم الصفوف وقاتل حتى استشهد فى سبيل الله .

والمثل كثيرة وظاهر فيها التمهيد فى التشريع الاسلامى بالدين والاخلاق كما جاء فى تحريم الربا ، وبتشاريع الطلاق والميراث ، والامر بالشهادة وعدم كتمانها ، ونحو ذلك ، وسيطول بنا البحث لواسترسلنا بايراد الامثلة .

فالقانون السماوى وهو فى اسمى صوره الفقه الاسلامى بين انه يثيب ويعاقب فى هذه الحياة وفى الدار الاخرى ايضا ، والجزاء الاخروى اعظم دائما من الجزاء الدنيوى ، ومن اجل ذلك يحس المؤمن بوازع نفسى قوى بضرورة العمل باحكامه واتباع اوامره ونواهيه .

فالتشريع الاسلامى يرمى الى صلاح الفرد والمجتمع فالنزعة فيه هى النزعة الجماعية ، وهذه النزعة ، اوالطابع الجماعى للفقه الاسلامى نجده واضحا فيما جاء به الاسلام من عبادات كما هو واضع فيما اتى من احكام المعاملات التى نراها فى الحياة العملية ، فكل هذه التشريعات فى هاتين الناحيتين تهدف الى تهذيب الفرد وصالحه والصالح العام للمجتمع باسره ، والامثال على ذلك واضحة ندركها وتكفينا فيها الاشارة طلبا للايجاز ، وخوفا من التطويل الممل . نشير مثلا ، الى حكمة شرعية الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وحل

البيع وتحريم الربا ، والامر برعاية اليتيم ، والجار ، والوفاء بالعقود وتحليل الزواج لانشاء الاسرة الصالحة التى هى اساس بناء المجتمع، وتحريم الزنا ،واقامة الحدود صيانة للمجتمع ، الى آخر ما نعرف من الاحكام التى جاءت بالامر والنهى والحل والحرمة بالترغيب تارة والترهيب تارة .

والامثلة على ذلك كثيرة تحتاج الى مجلدات ، وانما نكتفى بقليل منها : فمن حق الزوج ان تكون زوجته فى طاعته ، لتكون سكنا له ، وليثمر الزواج ثمراته المنشودة منه ، ولكن هذا الحق مقيد بان لايكون فى استعماله ضرر للزوجة ، والا منع منه او حد القاضى من استعماله ، حتى ليكون للزوجة فى بعض حالات الضرر طلب التفريق بينها وبينه، ولذلك يقول الله تعالى :(فامسكوهن بمعروف او سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا) .

ومن حق الحكام ان تسمع لهم الرعية ويطيعهم الشعب ، ولكن ذلك مشروط بان يصدروا فى حكمهم وسياستهم للامة عن المصلحة العامة ، وفى هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :(السمع والطاعة على المرء المسلم فيما احب او كره ، مالم يؤمر بمعصية ، فان امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة).

وهو كما نرى ، اصل من اصول الحكم له خطره الكبير ، اذ انه يحدد فى دقة تامة سلطان الحاكم وحقوق المحكوم ، وفى اتباعه مصلحة الامة جميعا .

فالفقه الاسلامى يحفظ الحق لصاحبه بلاريب ، ويبيح له استعماله كما يريد ، ويحميه من اعتداء الغير ، ولكن بجانب ذلك

كله ، يعمل التشريع الاسلامى من ناحية اخرى ، على ان لايضار الغير باستعمال صاحب الحق حقه ضررا يكون اكبر من ضرر الحد من حرية صاحب الحق ، وذلك تطبيقا للقاعدة الشرعية العظيمة :(لاضرر ولا ضرار) دفعا لاكبر الضررين بالاخف منهما ، فهذه القاعدة تحكم استعمال الحقوق ، وفى تطبيقها تحقيق صالح صاحب الحق وصالح الغير معا .

وفى هذه الامثلة الكفاية لاثبات الطابع الجماعى للفقه الاسلامى هذا الطابع الذى نجد فى القرآن الكريم وسنة الرسول واحكام وآراء الجلة من الصحابة المصدر الاصيل له وذلك ، كما قلنا لان الشريعة الاسلامية لم تأت لصالح الفرد وحده ، بل لصالح المجتمع كله فى اكبر حدوده .

والفقه الاسلامى له من كل ما ذكر ما جعله خالدا يتطور مع الزمن، ولو استعرضنا تاريخه من بدء لتبين لنا كيف كان فى زمن الخلفاء الراشدين ، وكيف نما وترعرع على ايدى السلف الصالح من العلماء المجتهدين ، واصبح تراثا هائلا ، وثروة لاتقدر ، ولو ان العلماء استمروا بالاجتهاد ، وقاموا بعليه كما يجب ولم يجمدوا على القديم ، لما كانت الامة الاسلامية بحاجة مطلقا للجوء للقوانين الغربية تأخذ منها تشريعاتها وقوانينها .

وهكذا صرنا الى حالة مؤلمة من الاخذ عن الغرب فى كل شئ ، حتى كأننا امة ليس لها مقوماتها الذاتية ، وتراثها العظيم ، وتقاليدها الطيبه ونرجو ان نعود الى شريعتنا ننهل منها ما تغطى حاجاتنا ، ونعمل على استقلالنا فى التشريع الاسلامى ، وهذا بفضلكم انتم وتشجيعكم ،

والسير الى الامام على هذا الصـراط المستقيم .

ووسائل التطور فى الفقه الاسـلامى كثيرة ، واهمها : الاجماع ، والقياس ، ومبدأ الاستحسان ، والمصالح المرسلة ، ورعاية العرف على شروط خاصة ، وسيأتى الكلام على ذلك كله بعد الكلام على الاجتهاد ومصادر التشريع فى الاسـلام ان شاء الله .

وبعد هل تأثر الفقه الاسـلامى بالقانون الرومانى ؟ هذا القانون الذى كان معمولا به فى كثير من البلدان التى فتحهـا المسلمـون ، وخصوصا الشام والعراق ، قال بهذا التأثر بعض المستشرقين المغرضين، الذين كتبوا فى العقليةالعربية وخصائصها ، واسسها التى قامت عليها، وما نالها من تأثرات مختلفة وقد غلا بعض المستشرقين الى درجة جعل القانون الرومانى مصدرا من مصادر الفقه الاسـلامى ، وذلك عن غير بينة او دليل ، بل عن عدم فهم للفقه نفسه واصوله ، وذلك كله من التعصب الاعمى ، والغرور والجهل الكبير ..

ومن اولئك المستشرقين الذين قالوا بالتأثر الى حد كبير ((جولد تسيهر)) المستشرق المجرى اليهودى ، وبعضهم يكتب اسمه ((كولد صهر)) وكذلك المستشرق الهولندى ((دى بور)) الذى يقول :((بعد ان فتح المسلمون بلادا ذات مدنيات قديمة نشأت حاجات لم يكن لـلاسـلام بها عهد وحلت محل شئون الحيـاة العـربية البسيـطة عادات وانظمة لم يرشد الشرع ارشادا دقيقا الى وجه الحق فيها ، ولم يرد فى السنة بالنص ولا بالتأويل ما يبين الطريق الى معالجتها ، ثم اخذ عدد الوقائع الجزئية يزداد كل يوم ، وهى وقائع لم تردفيها نصوص ولم يكن للمسلمين يد من الحكم فيها ، اما بما يتفق مع العرف ، واما

بما يهديهم اليه ادراكهم لمعنى الخير ، ولابد ان يكون القانون الرومانى قد ظل زمنا طويلا يؤثر تاثيرا كبيرا فى هذا الاتجاه فى الشام والعراق ، وهما من ولايات الامبراطورية الرومانية القديمة)) . تاريخ الفلسفة فى الاسلام .

ومن الذين غلوا كبيرا فى هذه الناحية ، الى درجة تدعوا الاستخفاف والزراية بآرائهم المجردة من الدليل العلمى الصحيح الذى يتطلب هذا البحث التاريخى ((المستشرق آموس)) الذى زعم : بان الشرع المحمدى ليس الا القانون الرومانى للامبراطورية الشرقية ، معدلا وفق الاحوال السياسية فى الممتلكات العربية)) .

ان اصحاب هذا الرأى لايستندون الا الى ما رأوه من التشابه بين بعض احكام الفقه الاسلامى والقانون الرومانى ، ثم الى ما يحدثه بلاريب التقاء الحضارات والعادات والاعراف القانونية بعضها فى بعض ، ولكن هل مجرد هذا التشابه ان كان موجودا حقيقة ، يدل على التأثر الذى يزعمون ، بل على ان الفقه الاسلامى ليس الا القانون الرومانى مع شئ من التعديل هنا وهناك كما يزعم هذا الآموس فى جرأة عجيبة على الحق والتاريخ ، بدون خجل ولا حياء ولا دليل .

وان هذا التشابه فى الاحكام القانونية او فى غير ذلك من النظم المختلف امر طبيعى بين الامم جميعا ، والانسان هو الانسان فى كل مكان وزمان لافرق بين المسلمين والرومان او غيرهم من الامم والشعوب المختلفة ، ونجد ذلك ماثلا واضحا فى الفلسفة ومناحى التفكير عامة .

ولا نستطيع لمجرد بعض هذا التشابه ، الزعم بان هذه الامة هى

التى اخذت عن تلك وليس العكس ، بل قد يكون مرجعه الى ما نعرف من ان العقل الانسانى السليم يتشابه فى كثير من الوان التفكير ، دون حاجة لتفسير هذا الشبه بالاخـذ والتقليد ، وكل هذه امور بديهيـة لاتحتاج فى فهمها وتسليمها الى عناء كبير فى التفكير .

وبعد ذلك هل عـرف المسلمون القانون الرومانى ، كما عرفوا الفلسفة اليونانية ؟ الجواب بالنفى بلا ريب ، فان المسلميـن نقلـوا للعربية فلسفة اليونان ، وافادوا منها ، وهم يفخـرون بذلك بجهودهم الفلسفية التى اضافوا الى جهود فلاسفة اليونان ، وغيروا بها غير قليل من نظرياتهم وآرائهم الفلسفية وقد فعلوا ذلك لحاجتهـم الـى تلك الفلسفة .

اما من ناحية القانون ، فلم يحسوا الى حاجة للأخذ عن غيرهم لان لديهم من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصـلاة والسـلام ، مايغنيهم عن الاستعانة بغيرهم فى هذا السبيل ، ولو كان الامـر غير هذا لحفظ لنا التاريخ كتابا واحدا او رسالة واحدة نقلوها الى العربية من قانون الرومان كما نقلوا كثيرا من تراث الفـرس الأدبى والعلمـى بجانـب التراث اليونانى .

بل ان التشريع الرومانى قد افاد من الفقه الاسـلامى ، فيما زيد عليه ايام النهضة الاوربية ، عن طريق الثقافة والعلوم الاسـلامية التى كانت من عوامل هذه النهضة كما هو معـروف ، وقد يستطيع الباحث المدقق ان يجد لهذا التأثر امثلة غير قليلة . انظـر فلسفة التشريع فى الاسـلام للدكتور صبحى المحمصانى ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

وانه لمن المؤسف حقا ان يتأثر بعض كتاب العرب والمسلمين

بهذه الآراء المزيفة ويصدقوها ، وما ذلك الا لجهلهم ، وقلة معرفتهم بالفقة الاسـلامى والشريعة الاسـلامية ، ومن جهل شيئا عاداه .

الاجتهـــاد

الاجتهاد : هو بذل الوسع فى استنباط الحكم الشرعى من الادلة الشرعية وتطبيقها . وباب الاجتهاد من اعظم مزايا التشريع الاسـلامى، واكـــبرها لما فيه من الفوائد العظمى ، التـى تنيـر الطريـق امـام المشرعين من العلماء،ولانه يجعل الفقه الاسـلامى فقها حيا صالحا لكل زمان ومكان .

والاجتهاد يكون فى المسائل والوقائع التى لم يرد فيها نص او دليل صريح قطعى ، فاذا كانت الواقعة التى يراد معرفة حكمها قد دل على الحكم الشرعى فيها دليل صريح من كتاب او سنة ، فلا مجال للاجتهاد فيها ، ولذلك قيل ((لامجال للاجتهاد فى مورد النص)) .

اما اذا كانت الواقعة التى يراد معرفة حكمها قد ورد فيها نص ظنى الورود والدلالة ، او احدهما ظنى فقط ففيهما للاجتهاد مجال ، لان المجتهد عليه ان يبحث فى الدليل الظنى الورود من حيث سنده ، وطريق وصوله الينا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودرجة رواته من العدالة ولضبط والثقـة والصدق ، وفى هذا يختلف تقدير المجتهدين للدليل . فمنهم من يطمئن الى روايته وياخذ به ، ومنهم من لا يطمئن الى روايته ولا ياخذ به ، وهذا باب اختلف فيه المجتهدين فـــى كثير من الاحكام .

فاذا اراه اجتهاده فى سند الدليل الى الاطمئنان لرواية ، وصـدق رواته ، اجتهـد فى معرفة مايدل عليه الدليل من الاحكام ، وما

يطبق فيه من الوقائع ، لان الدليل قد يدل ظاهره على معنى،ولكنه ليس هو المـراد وقد يكون عاما ، وقد يكون مطلقا ، وقد يكون على صيغة الأمـر او النهى .

فالمجتهد يصل باجتهاده الى معرفة ان الظاهر على ظاهره او هو مؤول وان العام باق على عمومه او هو مخصص ، وكذلك المطلق على اطلاقه اوهـو مقيد ، والامـر للوجوب او لغيره ، والنهى للتحريم او لغيره ، والذى يهديه فى اجتهاده القواعد الاصولية واللغوية ، ومقاصد الشارع ومبادئه العامة ، وبهذا يصل الى ان هذا النص الذى بين يديه يطبق فى هذه الواقعة او لايطبق .

وكذلك اذا كانت الواقعة لانص على حكمها اصلا فعليها مجال متسع للاجتهاد ، لان المجتهد يبحث ليصل الى معرفة حكمها بواسطة القياس ، او الاستحسان اور الاستحصحاب او مراعـاة العـرف ، او المصالح المرسلة ، وسيأتى تفسير هذه الادلة بالتفصيل .

فالخلاصة ان مجال الاجتهاد امران : مالا نص فيه اصلا ، وما فيه نص غير قطعى .

ولامجال للاجتهاد فيما فيه نص قطعى . كما تقدم .

المجتهـد :يشترط لمن يكون اهلا للاجتهاد اربعة شـروط .

الاول : ان يكون المجتهد على علم باللغة العربية وطرق دلالة عباراتها ومفرداتها ، وله ذوق فى فهم اساليبها اكتسبه من الحذق فى علومها وفنونها وسعة اطـلاع على آدابها وآثار فصاحتها من شعـر ونثر وغيرها،

لان اول وجه للمجتهد هى النصـوص فى القـرآن والسنة وفهمها . كما يفهما العربى الذى وردت هذه النصوص بلغتـه .

الثـــانى . ان يكون على علم بالقـرآن ، والمـراد ان يكون عليمـا بالاحكام الشرعية التى جاء بها القرآن ، وبالآيات التى نصت على هذه الاحكام ، بحيث اذا عرضت واقعـة كان ميسورا له ان يستحضـر كل ما ورد فى موضوع هذه الواقعه من آيـات الاحـكام فى القـرآن . ولا يشترط ان يكون حافظا للقرآن جميعه .

وآيات الاحكام فى القرآن ليسـت كثيـرة ، وقـد خصهـا بعض المفسريـن بتفسير خاص، كتفسير آيات الاحكام للجصاص ، ولابـن العربى وغيرهما ، ويوجد فهارس مفصلة لآيات القرآن علـى احـرف الهجاء وعلى المواضيع ، والأمر اصبح ميسورا جدا لمن يريد ان يبحث ويستنبط اكثر من ذى قبل .

الثـــالث : ان يكون على علم بالسنة كذلک . وكتب الحديـث قد جمعت ورتبت ومحصت واصبح الصحيح المعتمد معـروفا منها ، وقد ادى العلماء للسـنة النبـــوية خدمات جليلة ، وكفونا مؤونة البحث فى الاسانيد وصار معروفا لدينا فى كل حديث أنه متواتر او مشهور ، او صحيح او حسن او ضعيف .

. وعنى العلماء عناية كبيرة فى احاديث الاحكام مجموعها ورتبوها على ابواب الفقه وعمال المكلفين ، بحيث يتيسر للانسان الباحث ان يرجع الى ما ورد فى السنة الصحيحة من احكام البيع او الطـلاق او الزواج او العقوبات او غيرها من سائر المعاملات .

ومن احسن الكتـب فى هذا الموضـوع : ((نيـل الاوطـار)) للشوكانى وسبل السـلام للصنعانى ، والتاج الجامع للاصول الخمسة ((البخارى ومسلم وابى داود ، والترمذى ، والنسائى)) .

الرابع : ان يعـرف وجـوه القيـاس ، وذلك بأن يعـرف الـحكـم التشـريعـية التى شرعت من اجلها الاحكام ، ويعرف المسالك التى مهدها الشارع لمعرفة علل احكامه ، ويكون خبيرا بوقائع احوال الناس، ومعاملاتها ومعاملاتهم حتى يعرف ما تتحقق فيه علة الحكم من الوقائع التى لانص فيها ، ويكون خبيرا ايضا بمصالح الناس وعرفهم ، وما يكون ذريعة الى الخير والشـر فيهم ، حتى اذا لم يجد فى القياس سبيلا الى معرفة حكم الواقعة ، سلك سبيلا اخرى من السبل التـى مهدتها الشريعة الاسـلامية للوصول الى استنباط الحكم الذى لانص فيه .

والمجتهد مأجور ، ان اصاب فله اجران ، اجر على اجتهاده ، واجر على اصابته الصواب ، وان اخطأ فله اجر واحد على اجتهاده .

ذلك لان الله تعالى ما ترك الناس سـدى ، بل شـرع لكل فعل من افعال المكلفين حكما ، ونصب لكل حكم دليلا يدل عليه ، وطلب من اهل النظـر فى هذه الادلة ان ينظـروا فيها ليهتـدوا الى حكمه ، فمن توافـرت فيه اهلية النظـر فيها ، واجتهـد حتى وصل الى الحكم الذى اداه اليه اجتهاده فهو مأجور على هذا الاجتهاد ، والواجب عليه ان يعمل فى قضائه وافتائه بما اداه اليه اجتهـاده ، لانه حكم الله حسب ظنه الراجـح ، ويجوز للعـامة الذيـن ليسـت لهـم ملـكة الاجتهـاد واستخـلاص الاحكام من نصوصها ، ان يتبعـوا المجتهـدين ويقلدوهم لقوله تعالى :((فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لاتعلمون)) وقـد شـرح السيد السنـوس شـروط الاجتهاد شـرحا وافيا فى كتـابة المسائـل العشـر .

وان الاجتهاد لاينقـض بمثله ، فلـو اجتهـد مجتهـد فى واقعـة وحكم فيه بالحكم الذى اداه اليه اجتهاده ، ثم عـرضت عليه صورة من هذه الواقعـة فاداه اجتهاده الى حكم آخـر ، فانه لا يجوز له نقض حكمه السابق . فقد ورد ان عمـر بن الخطاب رضى الله عنه قضى فى حادثة بقضاء ، ثم تغير اجتهاده، فلم ينقض ما قضى به اولا ، بل قضى فى مثل هذه الحادثة بالحكم الاخـر الذى اداه اليه اجتهاده الثانى ، وقال : ذلک على ما قضينا ، وهذا على ما نقضى .

وكذلک لايجوز لمجتهد آخـر خالفه فى اجتهاده ان ينقض حكمه لانه ليس اجتهاد احد المجتهدين باحق ان يتبع من اجتهاد الآخر ، ولان نقض الاجتهاد باجتهاد آخر يؤدى الى ان لا يستقـر حكم ، والى ان لاتكون للشئ المحكوم به قوة .

وقد قضى ابوبكر فى مسائل وخالفه عمـر بعده فيها ولم ينقـض احكام ابى بكر رضى الله عنهما . وعلى هذا المعنى ينبغى ان يفهم قول سيدنا عمـر بن الخطاب فى عهده المشهور الى ابى موسى الاشعرى حـين ولاه القضاء :((لايمنعنک قضاء قضيته اليـوم فراجعـت فيـه نفسک ، وهديت فيه لرشدک ان ترجع الى الحق ، فان مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل)) .

يقول الشاطبى فى الموافقات فى الصفحة ٢٣٠ ـ٢٣١ من الجـزء الرابع المطبعة الرحمانية بمصـر . يقول ما يلـى :(خرج ثابـت فى الدلائل عن عبد الصمد بن عبد الوارث قال وجدت فى كتاب جدى : (اتيت مكة فاصبت بها ابا حنيفة وابن ابى ليلى وابن شبرمه ، فاتيت ابا حنيفة فقلت له ما تقول فى رجل باع بيعا واشترط شرطا ؟ قال ابو

حنيفة : البيع باطل والشـرط باطل

واتيت ابن ابى ليلى فقال : البيع جائز والشـرط باطل . واتيت ابن شبرمة فقال : البيع جائز والشـرط جائز .

فقلت سبحان الله . ثلاثة من فقهاء الكوفة يختلفون علينا فى مسألة ، فاتيت ابا حنيفة فاخبرته بقولهما ، فقال لا ادرى ما قالا ، حدثنى عمـر و بن شعيب عن ابيه عن جده ان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع وشـرط .

فاتيت ابن ابى ليلي فاخبرته بقولهما فقال لا ادرى ما قالا ، حدثنا هشام بن عـروة عن ابيه عن عائشة ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (اشترى بريرة واشترطى لهم الولاء ، فان الولاء لمن اعتق) . فاجاز البيع وابطل الشـرط .

فاتيت ابن شبرمة فاخبرته بقولهما فقال : ما ادرى ما قالا ، حدثنى مســعود بن حكيم عن محارب بن دثار عــن جـابر بن عبدالله قال : (اشترى منى رسول الله جملا فشرطت حملانى ، فاجاز البيع والشرط) .

فهؤلاء العلماء الافاضل افتى كل واحد منهم بما اعتمد عليه فى الحديث الذى رواه ، ولم ينكـر على غيره الذى خالفه .

وقد ذهب جمهور علماء المسلمين الى ان القياس حجة شـرعية على الاحكام العملية ، ومذهب الظاهرية ، والنظامية من المعتـزلة ، وبعض فرق الشيعة ان القياس ليس بحجة .

وقد عـرض ابن القيم فى الجزء الاول من كتابه العظيم (اعلام الموقعين) مسألة القياس عرضا وافيا ، وبيـن ادلة القائليـن به وادلة الآخرين الذين يرفضونه ، وتكلم على عدم احاطة النصوص او احاطتها،

ومعنى هذا الحاجة للقياس ... وأتى بكلام واف وشرح مفصل ، ولم ينس ان يعرض لمسألة كون احكام الله معللة . والقياس فى نظرى شى مهم ودليل عظيم نحن بحاجة اليه .

وقد أثبت الجمهور حجية القياس بالقرآن الكريم والسنة وعمل الصحابة فمن القرآن الكريم قوله تعالى :(يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ، فان تنازعتم فى شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلک خير واحسن تأويلا).

ووجه الاستدلال بهذه الآية ان الله سبحانه وتعالى امر المؤمنين ان تنازعوا واختلفوا فى شئ ، ليس لله ولا لرسوله ولا لأولى الامر منهم فيه حكم ، ان يردوه الى الله والرسول ، ورده وارجاعه الى الله والى الرسول يشمل كل ما يصدق عليه انه رد اليهما لان فيه متابعة لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فى حكمه .

واما السنة فاظهر ما استدلوا منها حديث معاذ بن جبل المشهور ، وذلک ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اراد ان يبعثه الى اليمن ، قال له كيف تقضى اذا عرض لک قضاء ؟ قال : اقضى بكتاب الله ، فان لم اجد فبسنة رسول الله ، فان لم اجد اجتهد رأى ولا آلو . فضرب رسول الله على صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله بما يرضى الله ورسوله .

ووجه الاستدلال بهذا الحديث ان رسول الله عليه الصلاة والسلام أقر معاذا على ان يجتهد اذا لم يجد نصا يقضى به فى الكتاب والسنة .

والاجتهاد بذل الجهد للوصول الى الحكم . وهو يشمل القياس لانه نوع من الاجتهاد والاستدلال .

وهناك آيات اخرى ، وعدة احاديث ، وعمل الصحابة واقوالهم واصولا الاجتهاد والقياس لما نما التشريع وازدهر الفقه الاسلامى ؛ كما وصل الينا بهذه الحالة من الكثرة والازدهار .

فقد كانوا يجتهدون فى الوقائع التى لانص فيها ، ويقيسون مالا نص فيه على ما فيه نص ويعتبرون بنظيره .

وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى عهده الى ابى موسى الاشعرى :(ثم الفهم فيما ادلى اليک مما ورد عليک مما ليس فيه قرآن ولا سنة ثم قايس بين الامور عند ذلک ، واعرف الامثال ثم اعمد فيما ترى احبها الى الله واشبهها بالحق).

وقال على بن ابى طالب رضى الله عنه :(ويعرف الحق بالمقايسة عند ذوى الالباب) وقد عرض ابن القيم فى كتابه العظيم :(اعلام الموقعين) مسألة القياس عرضا وافيا فى الجزء الاول ، ونقل فى الجزء الثانى عدة فتاوى لاصحاب رسول الله افتوا فيها باجتهادهم بطريق القياس .

وما انكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته على من اجتهد من صحابته الكرام وما انكر بعض الصحابة على بعض اجتهاد الرأى وقياس الاشباه على الاشباه .

ثم ان نصوص القرآن والسنة محدودة ومتناهية ، ووقائع الناس واقضيتهم غير محدودة ولا متناهية ، فلا يمكن ان تكون النصوص المتناهية وحدها هى المصدر التشريعى لما لا يتناهى ، فالقياس هو

المصدر التشـريعي الذى يساير الوقائع المتجددة فى كل زمان ومكان ، ويكشف حكم الشريعة فيما يقع من الحوادث ويوفق بيـن التشريـع والمصالح .

وان الله تعالى ما شـرح حكما الا لمصلحة ، وان مصالح العباد هى الغاية المقصـودة من تشـريع الاحكام . فاذا ساوت الواقعة التى لا نص فيها الواقعة المنصوص عليها فى علة الحكم التى هى مظنة المصلحة قضت الحكمة والعدالــة ان تساويها فى الحكم تحقيقا للمصلحة التى هى مقصود الشارع من التشـريع .

وان القياس دليل تؤيده الفطـرة السليمة والمنطق الصحيح ، فان من نهى عن شراب لانه سام يقيس بهذا الشـراب كل شـراب سام ، ومن حـرم عليه تصـرف لان فيه اعتداء وظلماً لغيره يقيس بهذا كل تصـرف فيه اعتداء وظلم لغيره .

ولايعـرف بين الناس اختلاف فى ان ما جرى على احد المثلين يجرى على الآخر ما دام لافـارق بينهما والله الموفق للصواب .

٦ـ ولا حاجة فى الاطالة فى بيان مصـادر التشـريـع كالكتـاب والسنة والاجماع فى هذه العجالة فانها مشـروحة مفصلة فى كتـب اصول الفقه . وانما اريد ان اتعـرض لاربعة مصادر هامة نحتاج اليها فى زماننا هذا وفى كل زمان وهى : ١ـ الاستحسان . ٢ـ المصالح المرسلة . ٣ـ الاستصحـاب . ٤ـ العـرف والعـادة .

هذه مصادر لها قيمتها من حيث التشـريع ، وهى عون كبير لنا فى سد حاجاتنا مما يجد من وقائع لا نص فيها ، ويجد المشـرع والمجتهد والحكام مطلوبهم فيها والاستعانة بها ، وهى معين لا ينضب ، ومفخـرة

من مفاخر التشريع الاسلامى .

١ـ الاستحسان : فى اللغة عد الشئ حسنا .

وفى اصطلاح التشريع : هو عدول المجتهد عن مقتضى قياس خفى ، او عن حكم كلى الى حكم استثنائى لدليل انقدح فى عقله رجح لديه هذا العدول .

وقال الكرخى من علماء الحنفية :((الاستحسان هو العدول فى مسألة عن مثل ما حكم به فى نظائرها الى خلافه ، لوجه اقوى)) وفى المبسوط للسرخسى :((الاستحسان قياس خفى قوى اثره)) .

وقد يقال ان الاستحسان : هو العدول عن قياس ظاهر جلى الى قياس خفيت علته .

فاذا عرضت واقعة ولم يرد نص بحكمها ، وللنظر فيها وجهتان مختلفتان ، احداهما ظاهرة تقتضى حكما ، والاخرى خفية تقتضى حكما آخر وقام بنفس المجتهد دليل رجح وجهة النظر الخفية ، فعدل عن وجهة النظر الظاهرة فهذا يسمى شرعا : الاستحسان

وكذلك اذا كان الحكم كليا ، قام بنفس المجتهد دليل يقتضى استثناء جزئيه من هذا الحكم الكلى والحكم عليها بحكم آخر فهذا ايضا يسمى شرعا الاستحسان .

ومن تعريفه يظهر انه نوعان : احدهما ترجيح قياس خفى على قياس جلى بدليل ، وثانيهما استثناء جزئيه من حكم كلى بدليل .

وهذا المعنى هو الذى يريده الاحناف والمالكية والحنابلة من هذا الاصل الذى اخذوا به . فهو ليس قولا بالرأى والهوى .

فالاستحسان اذا دليل أو أصل من أصول الفقه ، ويجئ فى المرتبة

بعد الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وكثيرا ما انتفع به الفقهاء فى التشريع فنراهم يقولون مثلا : هذا الشئ يجوز استحسانا لاقياسا ، وذلك الامر محظور قياسا ، مباح استحسانا ، ويروى عن الامام مالك رضى الله عنه انه كان يقول :((الاستحسان تسعة اعشار العلم)) .

ويستدلون بحجيته بقوله تعالى :((فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه)) . وقوله :((فخذها بقوة وامر قومك يأخذوا باحسنها)) . وفى الحديث :((ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن)) رواه احمد في كتاب السنة والبزار والطيالسي والطبراني وابو نعيم عن ابن مسعود .

والامثلة عن الاستحسان كثيرة منها : لايصح بيع المعدوم ، ولكن اجيزت الاجارة استحسانا ، مع انها بيع لمنافع الشئ المستأجر ، وهذه المنافع معدومة لعدم وجودها عند عقد الاجارة ، فكان القياس بطلان هذا العقد ولكنه اجيز استحسانا .

نص فقهاء الحنفية على ان الوقف اذا وقف ارضا زراعية يدخل حق المسيل وحق الشرب وحق المرور فى الوقف تبعا بدون ذكره استحسانا . والقياس انها لاتدخل الا بالنص كالبيع . ووجه الاستحسان : ان المقصود من الوقف انتفاع الموقوف عليهم ، ولا يكون الانتفاع بالأرض الزراعية الا بالشرب والمسيل والطريق ، فتدخل فى الوقف بدون ذكرها لان المقصود لا يتحقق الا بها كالاجارة .

نهى الشارع عن بيع المعدوم والتعاقد على المعدوم ، ورخص استحسانا فى السلم والاجارة والمزارعة والمساقاة والاستصناع وهى كلها عقود ، المعقود عليه فيها معدوم وقت التعاقد كما مر بالاجارة ،

ووجه الاستحسان حاجة الناس وتعارفهم .

وقد قال الامام الشاطبى فى الموافقات : من استحسن لم يرجع الى مجـرد ذوقه وتشهيه ، وانما رجع الى ما علم من قصـد الشارع فى الجملة فى امثال تلك الاشياء المعـروضة ، كالمسائل التى يقتضـى القياس فيها امرا الا ان ذلك الأمـر يؤدى الى تفويت مصلحة من جهة او جلب مفسدة كذلك .

٢ـ المصالح المرسلة ، أو المصلحة المرسلة بالافـراد ، ومعنـى المرسلة : المطلقة . ومعنى المصلحة المرسلة : المصـلحة التـى لم يشـرع الشارع حكما لتحقيقها ، ولم يدل دليل شـرعى على اعتبارها أو الغائها ، وسميت مطلقة لانها لم تقيد بدليل اعتبار ، او دليل الغــاء .

واكثر الفقهاء اخذا بهذا المصدر من مصادر الاحكام ، هو الامام مالك ابن انس امام اهل المدينة . وحسنا فعل ذلك بانه لو وقفنا فى التشريع عند المصالح التى امر الشارع باعتبارها ، لتعطلت كثير من المصالح الحقيقة للناس وللأمــة .

هذه المصالح التى تختلف وتتجدد فى كل زمان ومكان ، ولعجـزت الشـريعة الاســلامية عن مسايرة التطور الذى لانعلم له مدى ينتهى اليه ، بل هو دائم ما دام الزمن .

ومن امثلتها : المصـلحة التـى شـرع لاجلهـا الصحـابة اتخـاذ السجــون ، وضـرب النقود ، وابقاء الارض لزراعية التى فتحوها فى ايدى اهلها ووضع الخـراج عليها ، وغير ذلك مـن المـصالـح التـى اقتضتها الضـرورات ، او الحاجات او التحسينات ولـم تشـرع لهـا احكام ، ولم يشهد شاهد شـرعى باعتبار ها او الغائها .

ويشتـرط لاعتبار المصالح المرسلة مصدرا من مصادر التشـريع ثلاثـة شــروط :

١ـ ان يكون ذلک فی مسائل المعاملات لا العبادات . لان هذه ثابتـة لاتتغـــير .

٢ـ ان لا تعارض هذه المصلحة مقصدا من مقاصد الشـريعة ولا دليلا من ادلتها المعـروفـه .

٣ـ ان تكون مـصلحـة حقيقية ضـرورية للمـجتمـع ، او علـى ، الاقـل ان يكون فيه تحصيل نفع او دره ضـرر حقيقـى ، ولا تكون لمصلحة شخصية .

فمن استقـرأ تشريع الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين ، يتبين انهم شـرعوا احكاما كثيرة لتحقيق مطلق المصلحة ، لالقيام شاهـد باعتبارهاء ،

فابوبكر رضى الله عنه جمع الصحف المفرقة التى كانت مدونا فيها القرآن ، حـارب مانعى الزكاة ، واستخلف عـمر بن الخطاب ، وعمـر امضى الطـلاق ثلاثا بكلمة واحدة ، ومنع سهم المؤلفة قلوبهم ، ووقف تنفيذ حد السرقة فى عام المجاعة ، وعثمان جمع المسلميـن علـى مصحف واحد ، وحـرق ما عـداه . وورث زوجة من طلـق زوجتـه للفـــرار من ارثهـا .

والاحنـاف حجـروا علـى المفتـى الماجـن والطبيـب الجاهـل والمكارى المفلس والمالكية اباحـوا حبس المتهـم وتعزيـره توصـلا لاقـراره ، والشافعية اوجبوا القصاص من الجماعة اذا قتلوا الواحد ، ومن ذلک جواز ان يفرض الامام العادل على الاغنياء من المال ما لابد

منه لتكثير الجند ، واعداد السلاح ، وحماية البلاد .

وجميع هذه المصالح التى قصدها بما شرعوه من الاحكام هى مصالح مرسلة ، وقد شرعوا بناء عليها لانها مصلحة ، ولانها لا دليل من الشارع على الغائها . وقال ابن عقيل :((السياسة كل فعل تكون معه الناس اقرب الى الصلاح ، وابعد عن الفساد وان لم يضعه الرسول ، ولانزل به وحى ، ومن قال : لاسياسة الا بما نطق به الشرع فقد غلط وغلط الصحابة فى شريعتهم .

٣ـ العــــرف :

العرف : هو ما تعارفه الناس وساروا عليه ، من قول ، او فعل ، او ترك ، ويسمى العادة . وفى اصطلاح الشرعيين : لافرق بين العرف والعادة . فالعرف العملى : مثل تعارف الناس البيع بالتعاطى من غير صيغة لفظية .

والعرف القولى : مثل تعارفهم اطلاق الولد على الذكر دون الانثى وتعارفهم على ان لا يطلقوا لفظ اللحم على السمك .

والعرف يتكون من تعارف الناس على اختلاف طبقاتهم عامتهم وخاصتهم ، بخلاف الاجماع فانه يتكون من اتفاق المجتهدين خاصة . ولادخل للعامة فى تكوينه .

العرف : نوعان : عرف صحيح ، وعرف فاسد .

فالعرف الصحيح هو ما تعارفه الناس ، ولا يخالف دليلا شرعيا ولايحل محرما ولايبطل واجبا ، كتعارف الناس عقد الاستصناع ، وتعارفهم تقسيم العهد الى مقدم ومؤخر ، وتعارفهم ان ما يقدمه الخاطب الى خطيبته من حلى وثياب هو هدية لامن المهر .

والعرف الفاسد : هو ما تعارفه الناس ولكنه يخالف الشرع او يحل المحرم او يبطل الواجب . مثل كثير من الأمور المنكرة التى يتعامل الناس بها كالربا والمقامرة وغير ذلك من المفاسد .

اما العرف الصحيح فيجب مراعاته فى التشريع وفى القضاء ، وعلى المجتهد مراعاته فى تشريعه ، وعلى القاضى مراعاته فى قضائه لان ما تعارفه الناس وساروا عليه صار من حاجاتهم ومتفقا مع مصالحهم ، فما دام لا يخالف الشرع وجبت مراعاته .

وقد راعى الشارع الصحيح من عرف العرب فى التشريع ، ففرض الدية على العاقلة ، وشرط الكفاءة فى الزواج ، واعتبر العصبية فى الولاية والارث .

ولهذا قال العلماء : العادة شريعة محكمة ، والعرف فى الشرع له اعتبار ، والامام مالك بنى كثيرا من احكامه على عمل اهل المدينة ، وابوحنيفة واصحابه اختلوا فى احكام بناء على اختلاف اعرافهم ، والشافعى لما هبط مصر غير بعض الاحكام التى كان قد ذهب اليها فى بغداد ، لتغير العرف ، ولهذا له مذهبان قديم وجديد ، وفى فقه الحنفية احكام كثيرة مبنية على العرف . منها اذا اختلف المتداعيان ولا بينة لاحدهما فالقول لمن يشهد له العرف . ومن حلف لا ياكل لحما واكل سمكا لا يحنث بناء على العرف .

ومن العبارات المشهورة المعروف عرفا كالمشروط شرطا ، والثابت فى العرف كالثابت بالنص . وقد الف ابن عابدين رسالة سماها :

((نشر العرف فيما بنى من الاحكام على العرف)) .

والاحكام المبنيةعلى العرف تتغير بتغيره زمانا ومكانا ، والعرف عند التحقيق ليس دليلا شرعيا مستقلا ، وهو فى الغالب من مراعاة المصلحة المرسلة . وهو من الادلة الهامة ، والمصادر التى يجب ان تراعى ويؤخذ بها لما فيها من الفائدة للناس والمجتمع ، ولتكون الشريعة حية صالحة لكل زمان ومكان .

٤- الاستصحاب : وهو الحكم على الشئ بالحال التى كان عليها من قبل ، حتى يقوم دليل على تغير تلك الحال .

او جعل الحكم الذى كان ثابتا فى الماضى باقيا فى الحال حتى يقوم دليل على تغيره .

فاذا سئل المجتهد عن حكم عقد او تصرف ، ولم يجد نصا فى القرآن او السنة ، ولا دليلا شرعيا يطلق على حكمه ، حكم باباحة هذا العقد او التصرف بناء على ان الاصل فى الاشياء الاباحة ، فمالم يقسم دليل على تغيرها فالشئ على اباحته الاصلية .

واذا سئل المجتهد عن حكم حيوان او جماد او نبات او اى طعام او اى شراب او عمل من الاعمال ، ولم يجد دليلا شرعيا على حكمه ، حكم باباحته . لان الاباحة هى الاصل ولم يقم دليل على تغيره .

وانما كان الاصل فى الاشياء الاباحة ، لان الله سبحانه وتعالى قال فى كتابه الكريم :((هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا)) وصرح فى عدة آيات بانه سخر للناس ما فى السماوات وما فى الارض ، ولا يكون ما فى الارض مخلوقا للناس ومسخرا لهم الا اذا كان مباحا لهم . لانه لو كان محظورا ما كان لهم .

والاستصحاب آخر دليل شرعى يلجا اليه المجتهد لمعرفة حكم ما

عرض له ، وهو طريق فى الاستدلال قد فطـر الناس عليه وسـاروا عليه فى جميع تصرفاتهم واحكامهم . وعلى الاستصحاب بنيت المبادئ الشـرعية الآتية :

الاصل بقاء ما كان على ما كان حتى يثبت تغيره ، الاصل فى الاشياء الاباحة ما ثبت باليقين لايزول بالشك ، الاصل فى الانسان البراءة .

باب الاجتهاد مفتوح

بعد هذه الجولة الموجزة فى مزايا التشريع الاسلامى وتفسير الاجتهاد والمجتهد والادلة الحية التى فصلناهـا بايجـاز ، اريـد ان اتحدث عن ضرورة الاجتهاد ، ان باب الاجتهاد ، وان الاجتهاد مفتوح لم يغلق ، وانما طرأ ركود على الاشتغال بالشريعة الاسلامية ، وفترت همة الناس ، واتكلوا على ما خلفه لهم اسلافهم الطاهرون .

والاجتهاد اليوم اسهل منه فى الزمن الماضى ، حيث كان العالم يضطر احيانا ان يقطع آلاف الاميال ، ويضرب اكباد الابل كما يقولون فى طلب حديث واحد ، او مقابلة عالم ليأخذ عنه ، او فى طلب كتاب لينسخه وغير ذلک من الصعوبات والعقبات .

واليوم الكتب متوافرة ، والمصادر كثيرة والحصول عليها سهل جدا، والوسائل ميسرة ، والعالم اصبح صغيرا جدا بسبب تيسير المواصلات وسهولتها .

والاجتهاد فى كل عصر فرض من فروض الكفاية ، حتى ذهب كثير من العلماء والمحققين الى انه لا يجوز شرعا خلو الزمـان من

مجتهد قائم بحجج الله يبين للناس مانزل اليهم .

وما احسن ما قاله العلامة الشوكانى رحمه الله : ((لا يخفى على من له أود فى فهم ان الاجتهاد قد يسره الله للمتأخرين تيسيرا لم يكن للسابقين لان التفاسير للكتاب العزيز قد دونت ، وصارت فى الكثرة الى حد لا يمكن حصره ، والسنة المطهرة قد دونت ، وتكلمت الامة على التعديل والتجريح والتصحيح والترجيح ، بما هو زيادة على ما يحتاج اليه المجتهد ، وقد كان الواحد من السلف يرحـل للحديـث الواحد من قطر الى قطر ، فالاجتهاد على المتأخرين ايسر واسهل من الاجتهاد على المتقدمين ، ولا يخالف هذا من لهم فهم صحيح وعقل سوى)) ارشاد الفحول .

وكذلک فان الاجتهاد سهل ميسور على الباحث المجد ، يقول ابن رشد فى كتابه العظيم ((بداية المجتهد)) فى الصفحة ١٨٤ـ ١٨٥ من الجزء الثانى فى كتاب العرف طبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٣٣٩هـ .

((فان هذا الكتاب انما وضعنـاه ليبلـغ المجتهـد فى هذه الصناعة رتبة الاجتهاد اذا حصل ما يجب له ان يحصل عليه من القدر الكافى له فى علم النحو واللغة وصناعة اصول الفقه ، ويكفى من ذلک ما هو مساو لجرم هذا الكتاب او اقل ، وبهذه الرتبة يسمى فقيها ، لابحفظ مسائل الفقه ولو بلغت فى العدد اقصى ما يمكن ان يحفظه انسان ، كما نجد متفقهة زماننا ، يظنون ان الافقه هو الذى حفظ مسائل اكثر ، وهؤلاء عرض لهم شبيه ما يعرض لمن ظن ان الخفَاف هو الذى عنده خفاف كثيرة ، لا الذى يقدر على عملها ، وهو بين ان الذى عنده

خفاف كثيرة سيأتيه انسان بقدم لا يجد فى خفافه ما يصلح لقدمه فيلجا الى صانع الخفاف ضرورة ، وهوالذى يصنع لكل قدم خفا يوافقه .

فهذا هومثال اكثر المتفقهة فى هذا الوقت)) .

فابن رشد هو العالم الفيلســـوف الذى كان يعيش فى الاندلس والمغرب فى القرن السادس الهجرى يقول ان الاجتهاد ضرورى وهو ممكن فى وقته فكيف الآن .

وفى زماننا والمصادر متوافرة ، والوسائل موجودة ، والاتصال بين العالم سهل .

وهذه الثروة الضخمة التى بين ايدينا من المراجع التى تحتوى على كنوز من تراثنا العظيم ، وفقهنا الذى يمثل الفكر العربى الاسلامى النير ، وما خلفه لنا اسلافنا من قواعد وآراء وافكار تنير لنا الطريق ، وتسهل علينا مهمة البحث والتقص والاجتهاد .

من ذلك قولهم : ((العبرة فى العقود للمقاصد والمعانى لا للالفاظ والمبانى . اليقين لا يزول بالشك ، القديم يترك على قدمه ، الضرر لا يكون قديما ، الاصل براءة الذمة ، الاجتهاد لا ينقض بمثله ، المشقة تجلب التيسير يعنى ان الصعوبة تصير سببا للتسهيل ويلزم التوسيع فى وقت الضيق ويتفرع على هذا الاصل كثير من الاحكام الفقهية ، وهو اصل عظيـم ، كذلك : الامـر اذا ضاق اتسـع . الضـرورات تبيـح المحظورات ، الضرورات تقدر بقدرها . ماجاز لعذر بطل بزوالـه . الضرر لا يزال بمثله . درء المفاسد اولى من جلب المصالح ، الاضطرار لا يبطل حق الغير ، يتفرع على هذه القاعدة انه لواضطر انسان من الجوع فاكل طعام الاخر يضمن قيمته ، العادة محـكمة ، استعمـال

الناس حجة يجب العمل بها .لا ينكر تغير الاحكام بتغير الازمان . وغير ذلك من القواعد الجليلة الكثيرة التى تملأ الكتب ، ممانفخر به وتكون عونا لنا فى ابحاثنا وتشريعاتنا .

فالدين سرع ليكون دستورا فى العبادات والمعاملات للأمم ، فاما العبادات فرسوم مقررة توحى الى الرسول عليه الصلاه والسلام فيبلغها الى اصحابه ثم يتناقلها اتباعهم جيلا بعد جيل لا يصح فيها الزيادة ولا النقصان ، بل كلما كانت بحالتها الاولى اشبه ، كانت الى حقيقتها اقرب .

واما المعاملات فهى رسوم قانونية تابعة لأصول اولية وضعت للتوفيق بين مصالح الناس وحسم النزاع الذى يقوم بينهم ، ولحماية مصالحهم وانفسهم واموالهم واعراضهم ، ليعيشوا عيشة راضية طيبة فى ظل شرع الله .

ولما كانت هذه المصالح تتغير وتتنوع على حسب الحاجات ، وباختلاف الزمان والمكان ، ووجوه النزاع تتباين الى غير حد تقف عنده وليس لهذه المنازعات من نهاية ، فلا يعقل احد وخصوصا فى عصرنا الحاضر ان توجد قوانين مقررة تصلح لكل زمان ومكان ، ولكل امة فى كل حال من احوال المجتمعات .

لذلك يجب وجوبا قاطعا ان يكون هناك اجتهاد ، ومجتهدون يبحثون وينقبون ويحققون لنا ما يتطلبه الناس فى هذا العصر المعقد لكثرة متطلباته ومشكلاته ، من التشاريع التى يقتضيها روح العصر ، وحاجة الزمان والمكان وليعرف الناس ان شريعتنا الغراء شريعة حية صالحة لان تعيش فى كل زمان ، وتساير روح العصر ، وتسد حاجات

اهله وتحقق رغباته فى حل النزاعات بينهم بالعدل والاحسان .

فاذا اردنا ان يعود الى شريعتنا شبابها ، وان تكون كما كانت دستور الامم الاسلامية فى معاملاتها وجب علينا ان نعترف بدوام انفتاح باب الاجتهاد ، وان يوكل امر التشريع الى جماعة من الاكفاء الباحثين المتفرغين ، واقول الى جماعة لا الى فرد ، ذلك ان الفرد مهما كان متضلعا من العلم والفقه لا يستطيع ان يحيط بحاجة المجتمع .

وهذه الجماعة تتفرغ للبحث والتنقيب والعمل على مد الامة بالتشريع اللازم لها حسب حاجاتها ، مستمدة من الاصول الاولية للدين الحنيف ، الدين الفطرى الاصيل ، ومن روح المجتمع .

فاذا تسنى لنا نحن المسلمين ان نحقق شيئا من هذا حلت شريعتنا الغراء محل كل شريعة سواها واكتسبت بخدمة العقول النيرة المخلصة لها جلالا على جلالها .

اما كيف تتكون هذه الجماعة المؤمنة ، وكيف تنظم وكيف تجتمع فان هذه امور جديرة بالبحث ، والدرس والتنظيم .

يقول الاستاذ حسن احمد الخطيب فى كتابه القيم ((فقه الاسلام)) صفحة ٣٦١ ـ ٣٦٣ :

((عرفنا مما تقدم حكم الاجتهاد والتقليد ، وان الرأى السديد الراجح عدم جواز خلواى عصر من العصور عن الاجتهاد ، وثبت وقوع الاجتهاد من صاحب الشريعة صلوات الله وسلامه عليه ، ومن صحابته والتابعين ومن تلاهم من الائمة والحكام والقضاة والعلماء .

فيابنى قومى وعشيرتى من علماء المسلمين فى مصر وسائر الاقطار الاسلامية : انصروا شريعتكم ، وقوموا عليها قيام السدنة

المخلصين وامنحوها ما وهب الله لكم من عقول مستبصرة فاحصة ، وافئدة بنور العلم والعرفان وهدى الدين مستضئية مشرقة ، واتبعوا سلفكم الصالح الذى عرف واستيقن ان هذه الشريعة لايكفل بقاؤها الذى اراده الله لها الى يوم الدين الا بالاجتهاد المشروع الذى تراعى فيه اصول الشريعة القيمة ، وقواعد الدين الحنيف ولا تقولوا اننا لم نبلغ مبلغ اسلافنا فى اهلية الاجتهاد .... وانى اقول لاعذر لكبار علمائنا فى تهيب الاجتهاد ، وقد فتح لهم الغزالىوابن القيم بابه على مصراعيه فانهما سوغا تجزئة الاجتهاد ـ ......

اما حكومات البلاد الاسلامية ، وفى صدرها الحكومة المصرية فان عليها واجبا لايقل عما يجب على علمائنا ، وهو تحقيق ذلك المقصد الجليل ، وتنفيذ هذا الرأى السديد الذى طالما تضاه المصلحون من تأليف لجنة دائمة أو مجمع للفقه الاسلامى يختار اعضاؤه من ائمة المذاهب الاسلامية وعلمائها من جميع الاقطار الاسلامية . ومن اعلام القانون الوضعى الذين عرفوا لشريعة الاسلام قدرها ، واطلعوا على اسرارها ومزاياها وهم بحمد الله كثيرون على ان يناط به امران :

الأول :ترتيب الفقه الاسلامى على مختلف المذاهب وتجميعه فى بنود مرتبة ، منسقة فى جميع بحوثه .

الثانى : ان يبحثوا ويجتهدوا لوضع احكام لماجد من الوقائع والحوادث والمعاملات .... وبذلك تستطيع كل دولة اسلامية عند وضع قوانينها او تغيير شىء منها ـ ان تستقى من الاحكام التى يقرها ذلك المجمع الفقهى الاجتهادى، وفقنا الله ورزقنا حسن النظر والاعتبار ، والبصر بمحاسن شريعته انه اكرم مسئول ، واعظم مأمول)) .

٨ـ واختم حديثى بما بدأته بان الاسلام دين انسانى عالمى عام ، يخاطب الامم جميعا ، فلايفرق بين امة وامة بفارق الجنس او اللون او اللغة ، فكل انسان فى هذا العالم اهل لأن يأوى الى هذه الاخوة الانسانية حيث شاء ، ((وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا)) .

هكذا اعلنها القرآن الكريم دعوة عامة منذ الــف واربعمائة سنة ، وهكذا اعلنها النبى عليه الصلاة والسلام ، وخلفاؤه الراشدون وتابعوهم الابرار فى صدر الاسلام ، ولم يمض ربع قرن من التاريخ الهجرى حتى قامت بينات الواقع على حقيقة هذه الدعوة الاسلامية الانسانية ، فدان بالاسلام اناس من جميع الاقوام والسلالات .

وهذه هى البينة العلمية على عمومية هذا الدين ، وهى بينة ينفرد بها الاسلام بين جميع الاديان .

هذه الخاصة الانسانية باقية فى صميم الاسلام يواجه بها الحضارة العصرية كما واجه بها حضارات العصور الاولى ، وهى التى صبغت تلك الحضارات الاسلامية ، وهى التى جعلت تاريخ العالم من القرن السادس للميلاد الى القرن الخامس عشر تاريخ الفكر الاسلامى والآداب الاسلامية ، ولم ينفصل التاريخان بعد ذلك ، لان الاسلام فقد خاصته التى لازمته عدة قرون ، ولكنهما انفصلا لان المسلمين تخلفوا عن الركب ، واصبحوا غير مسلمين الا باللقب والعنوان .

فامام الاسلام الآن مطلبان ضروريان لا يحتملان التسويف والتهاون ، وهما حماية الذات امام المطالع الاجنبية ، والتعاون على تحصيل وسائل التقدم والرقى .

والامة التى تهمل وسائل التقدم والرقى فى العصر الحاضر تحتاج الى حماية ذاتها ولاتجد وسيلة الحماية .

والمطامع الاجنبية التى تواجه الشعوب الاسلامية كثيرة وهى على درجات فى القوة وفى الخطر .

فمنها المقصور على السيادة والسياسة وما يتصل من السيطرة على موارد البلاد ومرافقها الزراعية والصناعية والتجارية وغيرها من الموارد والمرافق .

ومنها ما يتجاوز السيادة والسياسة وتوابعها الى السيطرة على العقائد والاخلاق والعادات والنظم الاجتماعية وهو شر ضروب الاستعمار كافة .

وقد خرج الاستعمار مشكلا من البلاد العربية والاسلامية ، ولكنه لايزال يتمثل فى الاخلاق والثقافة والعادات ونظم التعليم والاقتصاد والقوانين .

وكل هذه الاخطار تحتاج الى التعاون بين الامم الاسلامية تعاونا وثيقا حتى يدرأُوا هذه الاخطار التى تغلغلت بين صفوفهم ، وعششت فى عقول الكثيرين ممن يوصفون بالمثقفين .

فالعالم الاسلامى فى العصر الحاضر امام اخطار مشتركة تتطلب منه ان يشترك فى مقاومتها واتخاذ الحيطة التامة منه .

ومن اهم هذه الاخطار التخلص من قوانينه التى الزمنا بها ، والرجوع الى شريعتنا الغراء ننهل من مواردها المذبة ،ونفك رقبة التقليد الاعمى من اعناقنا ، ونحافظ على كياننا ولغتنا وديننا ومواردنا الهائلة فاننا من اغنى الامم ، ولكن ثروتنا تهرب من بلادنا الى الغرب

وتتكدس الاموال هناك والمواطنون يعانون من الجهل والجوع والفقر .

فاشتراک الامم الاسلامية فی هذه الاخطار یوجب علیها الاشتراک والتعاون فی دراستها والاتفاق علی الوسائل المستطاعة لاجتنابها والتغلب علیها . ومحاربة الضعف والتخلف والجمود ، والأخذ بوسائل التقدم والارتقاء ، والسیر قدما نبنی ونثری الحضارة کما بنی اسلافنا الطاهرون الابرار ، والله من وراء القصد ، وهو الهادی الی الصراط المستقیم . وقل اعملوا فسیری الله عملکم ورسوله والمؤمنون»

المصادر

١ـ الموافقات للشاطبی . والاعتصام له ایضا .

٢ـ المقارنات التشريعية بين القوانين الوضعية المدنية والتشريع الاسلامی . سید عبدالله علی حسین . داراحیاء الکتب العربیة ـ عیسی البابی الحلبی

٣ـ بدایة المجتهد ، لابی الولیدابن رشد . طبع مصطفی البابی الحلبی .

٤ـ مصادر الحق فی الفقه الاسلامی . الدکتور عبدالرزاق السنهوری .

٥ـ دائره المعارف . محمد فرید وجدی .

٦ـ مجلة الازهر من مقالات محمد فرید وجدی .

٧ـ الاسلام فی عصر العلم محمد فرید وجدی .

٨ـ الموسوعة العربیة المیسرة .

٩ـ الاسلام والحضارة الانسانیة . عباس محمود العقاد . منشورات المکتبة العصریة صیدا .

١٠ـ علم اصول الفقه ـ عبدالوهاب خلاف ـ دار القلم .

١١ـ المسائل العشر للاستاذ محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الادريسى شركة الطباعة الفنية .
١٢ـ الاحكام السلطانية للماوردى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى .
١٣ـ اصول الفقه للاستاذ محمد ابوزهرة ـ دار الفكر العربى .
١٤ـ تاريخ التشريع : للاستاذ الخضرى . طبع عيسى البابى الحلبى
١٥ـ النظم الاسلامية ـ الدكتور حسن ابراهيم حسن ـ على ابراهيم حسن .
١٦ـ ارشاد الفحول للامام الشوكانى طبعة محمد علـى صبيـح مكتبة النهضة المصرية .
١٧ـ فقه الاسلام ـ حسن احمد الخطيب ـ مطبعة سيد على حافظ .
١٨ـ التعريف بالاسلام ـ عبدالكريم الخطيب ـ دار الكتب الحديثة .
١٩ـ الاموال ونظرية العقـد فى الفقه الاسلامى ـ الدكتـور محمـد يوسف موسى ـ دار الكتاب العربى
٢٠ـ التاج الجامع للأصول ـ للشيخ منصور على ناصيف ـ المـكتبة الاسلامية .
٢١ـ تفسير الطبرى ، وتفسير المنار ، وتفسير المراغى ، وعـدد من التفاسير .
٢٢ـ احياء علوم الدين لامام الغزالى ـ لجنة نشر الثقافة الاسـلامية .

****

الامام الشافعي ودوره في تدوين الفقه الاسلامي

د. طه جابر العلواني

ولد الامام الشافعي سنة (١٥٠هـ) ، وهي السنة التي توفي فيها الامام أبو حنيفة ، وكان قد تفقه أول الامر في مكة على بعض رجال العلم من أهل الحديث فيها ، كمسلم بن خالد الزنجي (ت ١٧٩هـ) ، وسفيان بن عيينة (ت ١٩٨هـ) ثم ذهب الى امام دار الهجرة ، ومقدم أهل الحديث مالك بن أنس ، فلزمه وروى عنه الموطأ ، وكان يعترف بفضله عليه ، فعن يونس بن عبد الاعلى أنه سمع الشافعي يقول : « اذا ذكر العلماء فمالك النجم ، وما أحد أمنّ علي من مالك ابن أنس (١) كان ذلك منه ـ رضي الله عنه ـ بعد دراسة اللغة والشعر والادب ، وبعض العلوم الرياضية والطبيعية وأخبار الناس .

ولم يكن يعجبه كل ماعليه من عرفهم من أهل الحديث فأخذ عليهم عملهم « بالمنقطع » وقال : « ... المنقطع ليس بشيء » كما أخذ عليهم عملهم « بالمرسل » مطلقا ، واستثنى مراسيل سعيد فقط . وأخذ على بعضهم التشدد في التزكية ، ولما ذهب الى العراق ـ قاعدة أهل الرأي ـ لاحظ تحامل أهل الرأي على « أهل المدينة » وفي مقدمتهم استاذه مالك فانبرى للدفاع عن استاذه ومذهبه ومنهجه . روى عنه أنه قال : « ..... قال لي محمد بن الحسن صاحبنا (يعني أبا

حنيفة) أعلم من صاحبكم (يعنى مالكا) وما كان على صاحبكم أن يتكلم ، وما كان لصاحبنا أن يسكت ، قال الشافعي : فغضبت ، وقلت ناشدتک الله من كان أعلم بسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مالک ، أو أبو حنيفة ؟ قال : مالک ، لكن صاحبنا أقيس ، فقلت : نعم ، ومالک أعلم بكتاب الله تعالى وناسخه ومنسوخه ، وسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أبى حنيفة ، فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله كان أولى بالكلام » . (٢)

ثم انصرف ـ رحمه الله ـ لدراسة كتب محمد بن الحسن وغيره من كتب العراقيين ، ولازم محمد بن الحسن ، فكان كثيرا مايرد عليه ، ويناقش آراءه انتصارا للسنة وأهل الحديث ، ثم ترک بغداد ـ بعد ذلک ـ لكنه عاد اليها سنة (١٩٥هـ) وكان فى جامعها الكبير نيفا وأربعون أو خمسون حلقة فما زال يقعد فى حلقة حلقة ، يقول لهم : قال الله وقال الرسول ، وهم يقولون : قال أصحابنا حتى مافى المسجد حلقة غيره . (٣)

واختلف الى حلقة درسة كبار أهل الرأى كأبى ثور والزعفرانى والكرابيسى وغيرهم فانتقلوا عن مذهب أهل الرأى الى مذهبه ، كما ارتاد الامام أحمد بن حنبل حلقته ، ويروى عنه أنه قال : « ما أحد من أصحاب الحديث حمل محبرة الامام شافعى عليه منّة ، فقلنا : ياأبا محمد كتبت ذلک ؟ قال : ان اصحاب الرأى كانوا يهزأون بأصحاب الحديث حتى علمهم الشافعى واقام الحجة عليهم » . (٤)

واستجابة منه لطلب أهل الحديث وضع كتاب « الحجة » فى بغداد ليرد على أهل الرأى فيما خالفهم فيه (٥)

وبعد ذلك غادر الى مصر ، فوجد أكثر الناس قد أخذوا وتشبثوا بكل ماكان يراه مالك أو يذهب اليه دون تمييز . فأخذ ينظر فى أقوال مالك نظرة الفاحص الناقد ، فوجده فى بعض الامور « ... يقول بالاصل ويدع الفرع ، ويقول بالفرع ويدع الاصل » .

كما وجده ترك بعض الاخبار الصحيحة ليأخذ بقول واحد من الصحابة ، أو بقول واحد من التابعين ، أو برأى فقيه .

وأحيانا يترك قول الصحابى لرأى بعض التابعين أو لرأى نفسه ، وذلك أنه يدعى الاجماع وهو مختلف فيه .

كما وجد أن القول بحجية « اجماع أهل المدينة » قول ضعيف (٦) وصنف كتاب « اختلافه مع مالك » وأحصى فيه المسائل المشار اليها .

فمالك ـ فى نظر الشافعى ـ قد أفرط فى ملاحظة المصالح المطلقة المرسلة غير المستندة الى شواهد الشرع مع توفرها ـ وأبو حنيفة قصر نظره فى الجزئيات والفروع والتفاصيل من غير مراعاة للقواعد والاصول فى الكثير الغالب . (٧)

ولذلك رأى ـ رحمه الله ـ أن أهم ماينبغى توجيه العناية اليه ـ هو : جمع أصول الاستنباط الفقهى ، ولم قواعدها ، وتحويل هذه القواعد الى منهج بحث يستخلص الفقه به من أدلته ، ويكون الفقه تطبيقا عمليا لقواعده ، ليظهر بذلك فقه جديد بديل لفقه المدرستين فى أصوله وقواعده ، فوضع كتابه « الرسالة » وبنى على القواعد التى جمعها فيها فقهه ومذهبه ، يقول الامام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ : « لم نكن نعرف الخصوص والعموم حتي ورد الشافعى » (٨)

وكان يقول للامام أحمد ـ رحمهم الله ـ : « ... أما أنتم فاعلم

بالحديث والرجال منى ، فاذا كان الحديث صحيحا فأعلمونى ، وان يكن كوفيا أو بصريا أو شاميا أذهب اليه اذا كان صحيحا » (٩)

وذلك يدل بوضوح على مدى اهتمامه بتقعيد القواعد أكثر من اهتمامه بالفروع والجزئيات .

ولقد أطبق أهل العلم ـ من الكاتبين فى تاريخ « أصول الفقه » على أن أول مؤلف فيه هو الامام الشافعى ، وأول مؤلف هو « الرسالة »(١٠)

وقد عقد الزركشى(٧٩٣هـ) فى كتابه « البحر المحيط » فصلا فى هذا جاء فيه : ... الشافعى أول من صنف فى أصول الفقه ، صنف فيه كتاب الرسالة وكتاب أحكام القرآن ، واختلاف الحديث ، وابطال الاستحسان ، وكتاب جماع العلم ، وكتاب القياس الذى ذكر فيه تضليل المعتزلة ، ورجوعه عن قبول شهادتهم ، ثم تبعه المصنفون فى علم الاصول .

وقال الجوينى فى شرحه للرسالة : « .. لم يسبق الشافعى أحد فى تصانيف الاصول ومعرفتها ، وقد حكى عن ابن عباس تخصيص عموم ، وعن بعضهم القول بالمفهوم ، ومن بعدهم لم يقل فى الاصول شيئا ، ولم يكن لهم فيه قدم فانا رأينا كتب السلف ـ من التابعين وتابعى التابعين وغيرهم ، وما رأيناهم صنفوا فيه » (١١)

منهج الشافعى فى الرسالة :

١ـ بدأ الشافعى الرسالة بوصف حال الخلق عند بعثة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبين : أنهم كانوا صنفين .

أهل كتاب حرفوه وبدلوا أحكامه ، وكفروا فخلطوا باطلهم بالحق الذى أنزله الله تعالى .

ومشركين كافرين اتخذوا من دون الله أوثانا آلهة . ثم ذكر : أن الله ـ جلت قدرته ـ استنقذ الناس كلهم بخاتم رسله ، وأنزل عليه كتابه ليخرجهم به من الكفر والعمى الى النور والهدى ، « وانه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (١٢)

ثم أفاض في بيان منزلة القرآن العظيم من الاسلام واشتماله على ماقد أحل الله وما حرم ، وما تعبد الناس ، وما أعد لاهل طاعته من الثواب ، وما أوجب لاهل معصيته من العقاب ، ووعظه ـ جل شأنه ـ لهم بالاخبار عمن كان قبلهم

ثم بين الامامماينبغي لطلبة العلم بالدين من بلوغ غاية جهدهم فى الاستكثار من علم القرآن العظيم ، واخلاص النية لاستدراك علمه نصاو استنباطا .

ثم ذكر في ختام مقدمته للرسالة أنه : « ... ليست بأحد من أهل دين الله نازلة الا وفى كتاب الله ـ جل ثناؤه ـ الدليل على سبيل الهدى فيها . قال الله تعالى : « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » (١٣) ، وقال : « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون » (١٤) ، وقال : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (١٥)

، وقال : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله » (١٦)

ثم عقد بابا للكلام عن « البيان » فعرفه ، وبين مراتب البيان الذى جاء به القرآن الكريم للاحكام وهى خمسة :

الاول : ما أبان الله تعالى فى كتابه نصا جليا لايتطرق اليه التأويل وهذه النوع لايحتاج فى بيانه لغير القرآن .

الثـــانى : ما أبانه القرآن بنص يحتمل أوجها ، فدلت السنة على تعيين المراد منه من بين هذه الاوجه .

الثـــالث : ما أتى القرآن فيه على غاية البيان ، فى فرضه ، وبين رسول الله : كيف فرضه ، وعلى من فرضه ، ومتى يزول فرضه ويثبت .

الرابع : مابين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما ليس لله فيه نص حكم وقد فرض الله فى كتابه طاعة رسوله ، والانتهاء الى حكمه ، فمن قبل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبفرض الله قبل .

الخامس : مافرض الله على خلقه الاجتهاد فى طلبه ، وهو القياس، والقياس ـ عنده ـ ماطلب بالدلائل على موافقة الخبر المتقدم من الكتاب أو السنة .

وبعد أن أجمل « مراتب البيان » الخمس أخذ يوضحها ويبين لها الامثلة والشواهد فى أبواب خمسة . وقد رتب الرسالة فى الابـواب التالية :

باب بيان مانزل من الكتاب عاما ، يراد به العام ويدخله الخصوص.

باب بيان مانزل من القـرآن عام الظاهـر ، وهـو يجمـع العـام والخصوص .

باب مانزل من الكتاب عام الظاهر ، يراد به كله الخاص .

باب الصنف الذى يبين سياقه معناه .

باب الصنف الذى يدل لفظه على باطنه دون ظاهره .

باب مانزل عاما فدلت السنة خاصة على أنه يراد به الخاص . وقد

تعرض - فى هذا الباب - لبيان حجية السنة ومنزلتهـا من الديـن ، ولذلک فقد وضع بعد هذا الباب الابواب التالية :

باب بيان فرض الله تعالى فى كتابه اتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

باب فرض الله طاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - مقرونة بطاعة الله - جل ذكره - ومذكورة وحدها .

باب ماأمر الله به من طاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

باب ماأبان الله لخلقه من فرضه على رسوله اتباع ماأوحى اليه ، وما شهدله - من اتباع ماأمر به ، ومن هداه ، وانه هاد لمن اتبعه .

وفى هذا الباب أكد الامام القول بأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سن مع كتاب الله ، وبين فيما ليس فيه - بعينه - نص كتاب ، وأثبت وجود السنة المستقلة عن الكتاب ، وحاجج المخالفين فى ذلک، ثم قال : « .. وسأذكر ماوصفنا من السنة مع كتاب الله ، والسنة فيما ليس فيه نص كتاب بعض مايدل على جملة ماوصفنا منه ان شاء الله تعالى » .

فأول مانبدأ به - من ذكر سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع كتاب الله ذكر الاستدلال بسنته على الناسخ والمنسوخ من كتاب الله - عزوجل - .

ثم ذكر الفرائض المنصوصة - التى سن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - معها .

ثم ذكر الفرائض الجمل - التى أبان رسول الله عليه وسلم - عن الله كيف هى ، ومواقيتها . ثم ذكر العام مـن أمـر الله تعالى، الذى أراد

به العام ، والعام الذى أراد به الخاص .

ثم ذكر سننه فيما ليس فيه نص كتاب .

ثم عقد فصلا للكلام عن « ابتداء الناسخ والمنسوخ » ، ذكر فيه أن الله ـ سبحانه ـ جعل النسخ للتخفيف والوسعة . ثم ذكر أن الكتاب انما ينسخ بالكتاب ، وأن السنة انما تنسخ بالسنة .

ثم تحدث عن الناسخ والمنسوخ ـ الذى يدل الكتاب على بعضه ، والسنة على بعضه ـ .

وعقد بابا للحديث عن فرض الصلاة ـ الذى دل الكتاب ، ثم السنة على من تزول عنه بالعذر ، وعلى من لاتكتب صلاته بالمعصية .

كما عقد بابا آخر للكلام عن الناسخ والمنسوخ ـ الذى تدل عليه السنة والاجماع .

ثم تحدث عن الفرائض ـ التى أنزلها الله ـ تعالى ـ نصا فى باب خاص .

ثم تكلم عن الفرائض المنصوصة ـ التى سن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معها .

وتحدث بعد ذلك عن الفرض المنصوص ـ الذى دلت السنة على أنه انما أراد به الخاص .

ثم تحدث عن « حمل الفرائض » ـ التى أحكم الله ـ تعالى ـ فرضها بكتابه وبين كيف فرضها على لسان نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتحدث فى الصلاة والزكاة والحج ، وعدد النساء ، ومحرمات النساء ، ومحرمات الطعام .

ثم عقد بابا للكلام عن « العلل فى الاحاديث » تعرض فيه الى

مايكون بين الاحاديث من اختلاف ينشأ عن أسباب متعددة تعرض لبعضها : كالاختلاف بسبب النسخ ، وبسبب الغلط فى الاحاديث ، وبين بعض ماينشأ عنه الغلط فى الحديث كما تعرض لكثير من الاسباب الاخرى التى ينشأ عنها الاختلاف .

ثم تحدث ـ رحمه الله ـ عن أبواب النهى وأقسامه ، وأوضح أن الاحاديث يوضح بعضها بعضا .

ثم عقد بابا « للعلم » فبين : أنه نوعان ، هما : علم عامة لايسع بالغا غير مغلوب على عقله جهله ، وأكد : أن هذا الصنف ـ من العلم ـ موجود كله نصا فى كتاب الله تعالى ـ وموجودة تفاصيله بشكل عام عند جماهير المسلمين تتناقله أجيالهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم لايتنازعون فى حكايته ، ولا فى وجوبه عليهم ، وهذا العلم العام لايمكن فيه الغلط من الخبر ولا التأويل .

أما الصنف الثانى ـ فهو : مايثوب العباد من فروع الفرائض ، وما يخص به من الاحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا فى أكثره نص سنة الا من أخبار الخاصة (أى : خبر الواحد) . وقد مهد بهذا البحثين جاء بهما ـ رحمه الله ـ بعد ذلك ، وهما :

باب خبر الواحد ، فبين المراد به ، وشروطه وتعرض للفرق بين الشهادة والرواية ، وذكر مايقبل فيه خبر الواحد من الامور ، ومالايكتفى به ـ وحده ـ فيه . ثم انتقل ـ عليه رحمة الله ـ للكلام عن حجية خبر الواحد والاستدلال عليها ، ورد جميع الشهادات التى أوردها المخالفون باسلوب استدلالى فى غاية القوة والصانة .

ثم انتقل الى باب « الاجماع » فبين حقيقته ، ولماذا كان حجة .

وبعد ذلك تكلم عن « القياس » فأوضح معناه ، وماهيته ، والحاجة اليه ، وأنواعه ، ومن له أن يقيس ، ومن ليس له ذلك .

ثم عقد « للاجتهاد » بابا ، بين الاصل فيه من الكتاب ، ثم من السنة ثم تحدث عن الصواب والخطأ فى الاجتهاد .

ثم تحدث عن « الاستحسان » أوضح فيه أنه لايحل لاحد من المسلمين أن يستحسن على مايخالف الحديث ، وأكد أنه ليس لاحد أن يثبت حكما شرعيا الا بكتاب أو سنة أو اجماع أو قياس . وبين الفرق بين القياس والاستحسان .

ثم عقد بابا للاختلاف بين أهل العلم ، فبين : أن هذا الاختلاف نوعان :

نوع محرم ، وآخر ليس كذلك ، فالاختلاف المحرم ، هو : كل اختلاف فيما أقام الله به الحجة فى كتابه ، أو على لسان نبيه منصوصا بينا .

وأما الاختلاف الجائز ، فهو الاختلاف فيما يحتمل التأويل ويدرك قياسا ثم استدل لما ذكره ، ومثل للاختلاف الجائز ، وذكر بعض اسبابه ، وتناول نماذج مما اختلف فيه علماء الصحابة كالعدة والايلاء والمواريث .

وفى هذا الباب تعرض ـ رحمه الله ـ الى مذهبه فى أقوال الصحابة اذا تفرقوا .

ثم ختم الرسالة فى بيان مذهبه فى « مراتب الادلة » المذكورة ، فقال : « .. نحكم بالكتاب والسنة المجتمع عليها ـ الذى لااختلاف فيها ، فنقول : لهذا حكمنا فى الظاهر والباطن .

ويحكم بالسنة قد رويت من طريق الانفراد لايجتمع الناس عليها ، فنقول : حكمنا بالحق فى الظاهر ، لانه قد يمكن الغلط فيمن روى الحديث .

ونحكم بالاجماع ، ثم القياس ، وهو أضعف من هذا ، ولكنها منزلة ضرورة لانه لايحل القياس والخبر موجود .

ولقد ظهر من خلال ماكتبه الامام الاصول المتفق عليها والاصول المختلف فيها فى هذا العصر :

أما المتفق عليها من نص الكتاب والسنة على الجملة .

وأما المختلف فيها ، فهى السنة لدى البعض ، أو « خبر الآحاد » أو « الخاصة » كما يسميه الشافعى على وجه الخصوص . والمذهبان قد تولى الشافعى وغيره مناقشتهما وردهما بما لامطمع بمزيد عليه فى الرسالة ، وفى « جماع العلم » وغيرهما .

٢ـ الاجماع ، والخلاف فى حجيته ، وفى بعض أنواعه ، وفيمن يعتبر اجماعهم ، وفى الامور التى يعتبر فيها الاجماع حجة ، وفى امكانية العلم به عند وقوعه .

٣ـ اختلفوا فى كل من القياس والاستحسان اختلافا تناول مفهوميهما ، وحقيقة كل منهما ، وحجيته ، وامكانية العمل به ، وطريقته والامثلة التى يمكن أن ترجع الى أى منهما من عمل الصحابة .

٤ـ كما كان الاختلاف بينا فى مفاهيم « الامر والنهى » ودلالة كل منهما وأثره فى سائر الاحكام الفقهية . ويلاحظ فى هذا المجال ـ أن الائمة الاربعة فى هذا العصر لم يكن استعمال المصطلحات المحددة كالتجريم والايجاب وغيرهما شائعا فى لغاتهم وتعابيرهم ، بل حدث

ذلك بعدهم كما يؤكد ابن القيم (١٧)

٥ـ أما الادلة الاخرى فيما يذكره الاصوليون ضمن الادلة المختلف فيها فكذلك لم ترها عند الائمة فى هذا العصر ظاهرة فى تعابيرهم كالعرف والعادة والاستصحاب وغيرها .

أصول الفقه بعد الامام الشافعى :

لقد سيطرت رسالة الامام الشافعى منذ ظهورها على الدراسات الاصولية وانقسم العلماء الى فريقين : فريق تقبل الرسالة ، وحولها الى قاعدة حجاج عن مذهبه ، وهم جمهور أهل الحديث . وفريق رفض معظم ماجاء فيها ، وأدرك أن عليه أن يرد على صاحبها ماأورده مما يخالف مذهبه ـ قبل أن يتأثر الناس بما جاء فيها ، وهذا ينطبق على جمهور أهل الرأى ، والمخالفين فى الامور التى تعرض لها الامام فى رسالته .

وقد ذكر ابن النديم فيما كتب بعد الرسالة ـ فى علم « أصول الفقه» فنسب للامام أحمد بن حنبل (ت ٢٣٣هـ) كتاب « الناسخ والمنسوخ » وله كتاب « السنة » وهو أقرب الى كتب التوحيد والعقائد من كتب الاصول ، طبع فى مكة سنة (١٣٤٩هـ) والكتاب جاء بصيغتين : كبرى ، وهى المشار اليها ، ولها نسخ خطية فى دار الكتب المصرية وفى الظاهرية . كما طبعت بالقاهرة بدون تاريخ . .

أما « السنة » فى صيغته الصغرى ـ فهو فى اعتقاد أهل السنة ، طبع بالقاهرة بدون تاريخ . وله كتاب « طاعة الرسول » صلى الله عليه وآله وسلم نقل عنه ابن القيم فى اعلام الموقعين (١٨) ، ويبدو أنه كان يمتلك نسخة منه وقد بحثنا عن الكتاب فى كثير من المكان فلم نعثر

عليه ، وظاهر مما نقل ابن القيم عنه أنه كتاب أصولى هام فى مباحث السنة ، فلعله فقد بعد ذلك التاريخ ، أو أنه أدمج أثناء التجليد مع أى كتاب من الكتب الاخرى أو ضاعت منه ورقة العنوان فلم يعد من الممكن العثور عليه الابطريق الاستقراء والتتبع .

كما نسبت المصادر لداود الظاهرى (ت ٢٧٠هـ) كتاب الاجماع » و « ابطال التقليد » و « خبر الواحد » و « الخبر الموجب للعلم » و « الخصوص والعموم » و « المفسر والمجمل » و « الكافى فى مقالة المطلبى » ـ يعنى الشافعى ـ وكتاب « مسألتين خالف فيهما الشافعى » .

وفى هذه الفترة عكف علماء الحنفية على دراسة رسالة الشافعى للرد على ماخالفهم فيه ، ولاستخلاص أصول لفقههم من خلال فتاوى الامام أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ فى المسائل الجزئية التى عرضت له :

فكتب عيسى بن أبان (ت ٢٢٠هـ) كتابا فى « خبر الواحد » وكتاب « اثبات القياس » و « اجتهاد الرأى » .

وكتب البرزعى (ت ٣١٧هـ) « مسائل الخلاف » ، له نسخة فى الزيتونة بتونس فى (٢٣٦) ورقة وهو برقم (١٦١٩) .

وكتب أبو جعفر الطحاوى (ت ٣٢١هـ) « اختلاف الفقهاء » الذى اختصره الجصاص (ت ٣٧٠هـ) ، له نسخة فى القاهرة وجاد الله (راجع لمعرفة أوصافها فهرس معهد المخطوطات (١ ـ ٣٢٩) كما طبع .

وكتب الكرابيسى الحنفى (ت ٣٢٢هـ) كتابه « الفروق » له نسخة خطية فى أحمد الثالث وفيض الله فى استانبول .

كما نسب لابن سماعة (ت ٢٣٣هـ) كتب أصولية لم تذكر

أسماؤها . (١٩) وكتب الكنانى (ت ٢٨٩هـ) كتاب « الحجة فى الرد على الشافعى » كما صنف على بن موسى القمى الحنفى (ت٣٠٥ هـ) كتاب « ماخالف فيه الشافعى العراقيين فى أحكام القرآن » و « اثبات القياس » و « الاجتهاد » و « خبر الواحد » .

وكتب الكرخى (ت ٣٤٠هـ) « أصوله » المعروفة والمطبوعة بالقاهرة ضمن مجموعة بدون تاريخ .

وكتب أبو سهل النوبختى(٣١٠ هـ)من الامامية كتاب « نقض رسالة الشافعى » و « ابطال القياس » و « الرد على ابن الراوندى فى بعض آرائه الاصولية » .

كما كتب ابن الجنيد (ت٣٨١ هـ)من الزيدية كتاب « الفسخ على من أجاز النسخ لما تم شرعه وجل نفعه » و « الافهام لاصول الاحكام».

أما الشافعية ـ فقد كتب أبو ثور (ت ٢٤٠هـ) منهم كتاب « اختلاف الفقهاء » . ولابى عبدالله محمد بن نصر المروزى (ت ٢٩٤هـ) كتاب فى « اختلاف الفقهاء » أيضا . وكتب أبو العباس بن سريج (ت ٣٠٥هـ) فى الرد على عيسى بن أبان ، وناظره محمد بن داود الظاهرى فيما خالفوا فيه الشافعى . وكتب ابراهيم بن أحمد المرزوى (٣٤٠ هـ) كتابى « العموم والخصوص » و « الفصول فى معرفة الاصول » (٢٠) . كما عكف بعضهم على شرح « الرسالة » فشرحها أبو بكر الصيرفى (ت ٣٣٠هـ) ، وأبو الوليد النيسابورى (ت ٣٤٩هـ) ، والقفال الشاش الكبير (ت ٣٦٥هـ) أو (٣٦٣هـ) ، وأبو بكر الجوزقى (ت ٣٨٨هـ) ، وأبو محمد الجوينى (والد امام الحرمين) ، ونسبوا لخمسة آخرين شروحا للرسالة أيضا ، وهم : أبو زيد الجزولى ،

ويوسف بن عمر وجمال الدين أفقهي ، وابن الفاكهاني ، وأبو القاسم : عيسى بن ناجي . ولم يظهر لحد الآن أي من هذه الشروح التي كان العلماء ينقلون عن بعضها الى مابعد القرن السابع الهجري . وقد ذكر الشيخ مصطفى عبدالرازق (٢١) أن المكتبة الاهلية بباريس تحتفظ بنسخة من شرح الجويني على الرسالة ، ونقل منها بعض النصوص ، وحاولنا العثور عليها هناك فلم نوفق ، فا' 'ها وضعت ضمن كتب علم آخر ، أو باسم مغاير فتحتاج الى استقراء بطريق تصفح المخطوطات المحفوظة مما لايتيسر الا نادرا ، ويحتاج الى فترة زمنية كافية ، يقضيها الباحث في المكتبة .

تطور علم أصول الفقه بعد الشافعي :

ان ماذكرنا من العسير أن يعتبر تطورا حقيقيا في هذا العلم ، فانه ـ كما رأينا ـ يدور في الكثير الغالب حول الرسالة نقضا أو تأييدا أو شرحا يكاد لايخرج عن ذلك ، وبقي الامر كذلك حتى دخل القرن الخامس ، وفيه بدأ فيه مايمكن اعتباره تطورا لهذا العلم بعد وضعه وجمعه .

ففي هذه الفترة انبرى القاضي الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) ، والقاضي عبدالجبار الهمداني (ت ٤١٥هـ) لاعادة كتابة موضوعات الاصول جميعها ، يقول الزركشي في كتابه « البحر » : « حتى جاء القاضيان قاضي السنة أبو بكر الطيب ، وقاضي المعتزلة عبدالجبار ، فوسعا العبارات ، وفكا الاشارات وفصلا الاجمال ، ورفعا الاشكال » (٢٢).

ومن هنا استحق القاضي الباقلاني لقب « شيخ الاصوليين » (٢٣) بعد ان كتب كتابه « التقريب والارشاد » ، وهو كتاب لم يظهر لحد الآن

فلعله فى بعض خزائن المخطوطات ، فالاصوليون ظلوا ينقلون عنه الى القرن التاسع الهجرى .

كما كتب القاضى عبدالجبار كتابه « العهد » أو « العمد » وشرحه.

وقد اختصر « تقريب القاضى » امام الحرمين (ت ٤٧٨هـ) بكتاب سماه « التلخيص » أو « الملخص » تحتفظ بعض خزائن المخطوطات بأوراق منه والاصوليون الذين جاءوا بعده نقلوا عن ملخصه الكثير من آراء القاضى .

كما ألف كتابه « البرهان » على نحو كتاب « القاضى » من حيث شموله لكل المباحث الاصولية ، وتحرره فى منهجه ، وسيره مع الدليل حيث كان ، حتى أنه وهو الاشعرى الشافعى قد خالف امامیه الاشعرى والشافعى فى مسائل كثيرة جعلت أصحابه الشافعية ينصرفون عن شرحه ، وايلائه من العناية مايستحق وان كانت كتبهم تكثر النقل عنه . وشرحه عالمان من علماء المالكية ـ هما الامام أبو عبدالله المازرى (ت٥٣٦ هـ) وأبو الحسن الابيارى (   ) ، ثم جمع بين الشرحين مالكى ثالث هو أبو يحيى (   ) ، وكل هؤلاء قد تحامل على امام الحرمين لما رأوا من جرأته فى الرد على الامام الاشعرى فيما خالفه فيه ، ورده على الامام مالك فى مسألة « المصالح المرسلة » (٢٤)

كما أن امام الحرمين قد وضع لكتابه مقدمات خلت من معظمها رسالة الامام فقد بدأ بالكلام على مايجب على من يريد الخوض بعلم من معرفة مصادره ، ومعناه فأوضح أن مصادر « أصول الفقه » ـ هى الكلام والعربية والفقه ، ثم تعرض الى الاحكام الشرعية والتكليف والاهلية وعوارضها ، ثم فصل الكلام فى مدارك العلوم وبيان مايدرك

بالعقل ، وبين مدارك العلوم في الدين ، وذلك كله قدم به على مباحث « البيان » التي بدأ الامام الشافعي بها رسالته .

وحين انتقل الى « البيان » وبعده الموضوعات الاخرى التي وردت في الرسالة لاحظنا أنه قد نزع الى تحديد « البيان » بشكل أدق من تحديد الامام الشافعي له : فبين ماهيته ، والاختلاف فيه ، ومراتبه ، ومسألة أخرى لم تأخذ من اهتمام الامام الشافعي شيئا ، تلك هي مسألة « تأخير البيان الى وقت الحاجة » واختلافهم فيه ، ولكنه في الكلام عن « مراتب البيان » نقل المراتب الخمسة التي ذكرها الامام الشافعي وأيدما أورده عليه أبو بكر بن داود الظاهري . ثم ذكر « مراتب البيان » عند بعض الفقهاء . واختار : أن « البيان » عنده هو الدليل ، وهو نوعان : عقلي وسمعي . فأما الدليل السمعي فالمستند فيه المعجزة فكل ماكان أقرب الى المعجزة فهو أولى بالتقديم ، ومابعد في الرتبة أخر : فالاول الكتاب ، والسنة المتواترة ، ثم الاجماع ، ثم خبر الواحد والقياس .

ثم تطرق الى اللغات وأوضح : أن الاصوليين يعتنون من مباحث اللغات بما أهمله أئمة العربية ـ من كلام على الاوامر والنواهي والعموم والخصوص ، وغيرها مما تعرض له الامام الشافعي .

وقد أشار خلال ذلك الى بعض ماذكره القاضي الباقلاني مما يشير بوضوح الى أن هذه الاضافات على منهج الامام الشافعي قد سبقه بها القاضي الباقلاني .

وامام الحرمين من أبرز شيوخ الامام محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) ومن الطبيعي أن يتأثر الغزالي بشيخه ، وللغزالي في الاصول كتب أربعة'

أولها „ المنخول » وهو كتاب متوسط الحجم ، مطبوع كأنه ألفه للمبتدئين في الاصول ، أو المتوسطين فيه ، وكتاب ، آخر أحال عليه في المستصفى (٢٥) ولا تعرف عنه غير عنوانه الذى ذكره ، وهو „تهذيب الاصول » و „ شفاء العليل فى بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل » الذى حقق وطبع فى بغداد سنة (١٣٩٠هـ - ١٩٧١م) وموسوعته الاصولية وخاتمة كتبه فى هذا العلم „ المستصفى » الذى طبع عدة مرات فى مصر وغيرها . وقد ألفه بعد أن خرج من خلوته ، بدأه بمقدمة أتى بها على معظم مباحث علم المنطق الارسطى الذى كان شديد الاهتمام به فأتى على الحد وشروطه وأقسامه وتكلم عن الدليل وأقسامه ، ثم بدأ بالكلام على أقطاب الكتاب الاربعة التى أتى بها على جميع المباحث الاصولية التى عنى بها شيخه امام الحرمين وسابقوه كالقاضى الباقلانى ، واذا كان لشيخه آراء قد انفرد بها ، وخالف اماميه الشافعى والاشعرى ، فان للغزالى - أيضا - آراء خاصة تفرد بها عن سابقيه ارتضاها البعض وأخذها عليه الاخرون .

هذه أهم جوانب التطوير التى يمكن تسجيلها للشافعية فى هذا العلم .

أما الفريق الثانى الذى ساهم فى هذا التطوير - فهم المعتزلة - فبعد أن كتب القاضى عبدالجبار كتابه „ العهد » أو „ العمد » وشرحه ، وسجل بعض آراءه الاصولية فى موسوعته - التى عثر على بعض أجزائها ، وطبعت ، وهو „ المغنى » حيث أفرد الجزء السابع عشر منه للمباحث الاصولية .

وكما اهتم امام الحرمين بكتب القاضى الباقلانى فقد اهتم أبو

الحسين البصرى المعتزلى (ت ٤٢٥هـ) بكتب القاضى عبدالجبار فشرح كتابه « العهد » أو « العمد » ، ولما شعر بطول هذا الشرح قام بتلخيصه فى كتابه المعروف « المعتمد » وهو مطبوع متداول .

وفى هذه الفترة كتب الشيخ أبو اسحاق الشيرازى (ت ٤٧٦هـ) كتابيه ـ « اللمع » و « التبصرة » وكلاهما مطبوع متداول .

كما كتب القاضى أبو يعلى الفراء الحنبلى كتابه الاصولى « العدة فى أصول الفقه » الذى حققه ونشره الدكتور أحمد المباركى سنة (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م) . وكتب ابن عقيل البغدادى ـ من الحنابلة أيضا ـ « الواضح فى الاصول » ، وكتب أبو الخطاب (ت ٥١٠هـ) كتابه الاصولى الشهير « التمهيد » وقد قام بعض الباحثين فى الآونة الاخيرة بتحقيقه ، ولم يطبع لحد الآن .

والكتب التى ألفها المالكية ـ فى هذه الفترة ـ « عيون الادلة فى مسائل الخلاف بين فقهاء الامصار » له نسخة فى القرويين بفاس (٢٦)، اعتبره الشيرازى أفضل كتب المالكية فى الخلاف ، ألفه ابن القصار البغدادى (ت ٣٩٨هـ) و « مقدمة فى أصول الفقه » لها نسخة فى مكتبة الازهر لنفس المؤلف .

وقد سارت كتب الشافعية والحنابلة والمالكية والمعتزلة على نمط متقارب فى التبويب والتنظيم غلب عليها اسم « طريقة المتكلمين » .

★★★★★★

المــــراجع

(١) الانتقاء (ص ٢٣) .
(٢) الانتقاء (ص ٢٤) .
(٣) تاريخ بغداد (٢/٦٨)
(٤) الانتقاء ص (٨٦)
(٥) المراجع السابقة
(٦) انظر مناقب الشافعى للفخر الرازى ص (٢٦)
(٧) مغيث الخلق لامام الحرمين
(٨) البحر المحيط للزركشى مخطوط
(٩) الانتقاء ص (٢٥)
(١٠) لم يشذ عن هذا الاتفاق الا شذوذ من المتعصبين لبعض المذاهب ليس لهم سند علمى يدل لما ذهبوا اليه : من كون الشافعى مسبوقا بالكتابة فى هذا العلم
(١١) عن كتاب « تمهيد فى تاريخ الفلسفة » (٢٣٤)
(١٢) فصلت (٤١ ـ ٣٢)
(١٣) ابراهيم (١)
(١٤) النحل (٤٤)
(١٥) النحل (٨٩)
(١٦) الشورى (٥٢ ـ ٥٣)

(١٧) اعلام الموقعين (١ / ٣٢)
(١٨) ايضاً
(١٩) راجع الفهرست لابن النديم (٢٨٤)
(٢٠) الفهرست (٢٩٩)
(٢١) فى كتاب تمهيد لتاريخ الفلسفة
(٢٢) البحر المحيط للزركشى . مخطوط .
(٢٣) كما فى نفائس القرافى فى مواضع متعددة منها (١ / ١٩ ـ آ)
(٢٤) قد طبع البرهان فى قطر طبعة نفيسة وحقق
(٢٥) راجع (١ / ١٨٧)
(٢٦) وانظر بروكلمان الملحق (٢ / ٩٦٣ رقم ٤٩) .

*****

اسـلامية العلـوم السيـاسية

عبدالحميد أحمد أبوسليمان

اذا أخذنا ميدان العلوم السياسية كنموذج للقضايا والمصاعب الذى يواجهها الفكر الاسلامى والتى تواجه الدارس المسلم فى ميدان المعرفة والثقافة فى هذا العصر نجدها واضحة وملموسة .

فهذا العلم علم اجتماعى لم يوله المسلمون عظيم اهتمام كأثر مباشر لانفصام القيادة الفكرية عن القيادة السياسية للامة تاريخيا ولان انعدام الخبرة بميدان السياسة والحكم من ناحية وسيطرة الفكر النظرى القانونى الشكلى كان له أسوأ الاثار السلبية فى ميدان الدراسة السياسية الاسلامية وقدرة الفكر الاسلامى على تقديم التصورات والحلول والبدائل التي تواكب الحركة والتغير فى بناء وامكانات وتحديات المجتمعات الاسلامية عبر حركة الزمان والمكان والتاريخ .

ولعل من المفيد تصوير آثار هذا القصور فى مجال العلوم السياسية بان نضرب مثلين لفقيهين من الفقهاء الاجلاء اصحاب القدرة والباع فى اختصاصهم الفقهى ولكن آثار المنهج حين يتعرضون لقضايا الفكر السياسى لا تخفى على نظر المختص .

والمثل الاول هو للفقيه الفيلسوف القاضى ابوالوليد محمد بن

احمد بن رشد القرطبى الاندلسى فى كتابة الجليل فى الفقه الاسلامى المقارن „ بداية المجتهد ونهاية المقتصد » فى باب الجهاد حين نعرض لخلاف الفقهاء حول جواز قطع الشجر فى الحرب وكان السبب لهذا الخلاف هو نشوء الظن ان ابابكر رضى الله عنه حين منع قطع الشجر قد خالف فعله فعل الرسول عليه السلام الذى تبت انه حرق نخل بنى النضير ، وكان وجه التوفيق حيث انه „ لايجوز على ابى بكر ان يخالف الرسول مع علمه بفعله „ انما كان على احد وجهين اولهما الظن بان فعل ابابكر هذا „ انما كان لمكان علمه بنسخ ذلك الفعل منه صلى الله عليه وسلم . „ والثانى ان ذلك الفعل من الرسول عليه الصلاة والسلام انما » كان خاصا ببنى النضير لغزوهم » .

ويعقب ابن رشد على ذلك بقوله فيما يراه الفقهاء فى الامر „ ومن اعتمد فعله عليه الصلاة والسلام ولم ير قول احد ولا فعله جحةً عليه فال بتحريق الشجر » .

ومن هذا المثال الذى يتعلق بسياسات ومعارك حربية تمت فى أوقات ومواضع مختلفة بكل ما تمثله المعارك العسكرية والسياسية من دينا ميكية وحركية تستوجب على القيادة التيقظ والمبادرة على مقتضى الحال ، وهذا لا يعنى عدم الالتزام الخلقى والانسانى بمفهوم الاسلام وعدم التصرف بروح الشريعة الا اننا نجد الفكر النظرى القانونى السكلى غير المختص يقيم قضايا ويعقد مقارنات وهمية ويلجأ الى الفرضيات والظنون للوصول الى حل التعارضات الوهمية الى أوجدها .

ان فكرة البحث عن النصوص والكلمات عند النظر فى طبيعة الموافف والسياسات التى تأخذ بها القيادات امام المشاكل والتحديات

والمعارك السياسية والعسكرية التى يواجهونها هو فى حد ذاته تفكير نظرى لا تستطيع القيادات القولبة فى اطاراته .

ان التفكير الموضوعى العملى يوجب الانطلاق فى كل حالة وقضية من معطياتها المتكاملة وظـروفها الزمانية والمكانية الخـاصة لمعـرفة طبيعة التصرف والسياسة الاسـلامية المسئولة السليمة التى يقتضيهـا الموقف .

ولو انطلقنا من هذا المنطلق العملى الكلى الشامل لرأينـا انـه لامجال للمقارنة والموازنة بين موقعة بنى النضير على بداية قيام دولة المدينة او ما اسميه العهد المدنى الاول والمسلمون قلة يحيط بهـا الاعداء وبين معارك جيوش الفتح على عهد ابى بكر رضى الله عنه فى بلاد العراق والشام .

فمعركة بنى النضير تمت والمدينة محدودة القوة والقدرة يحيط بها الاعداء فى كل الجزيرة العربية وبنو النضير قبيلة يهودية متمـاسكة مزارعة فى منطقة المدينة التى تتميز بالابار الكثيرة والمياه السطحية وتتوفر للقبيلة من زراعتها التمور التى تتميز بقدرتها علـى البقـاء وصلاحها للاكل لمدد طويلة ، ومعنى كل ذلك عسكريا حصار طويل مرهق ومجمد لقوى جيش الرسول عليه الصـلاة والسـلام .

ولذلك فان الامر بقطع النخيل الذى يأخذ نموه وانماره عددا من السنين فيه القضاء على موارد رزق وعيش قبيلة بنى النضير وبذلك كانت خطة سديدة محـكمة انهـت المعـركة لصالحهـم دون خسائـر للمسلمين وطلب بنو النضير الخروج من المدينة بانفسهم والمنقول من متاعهم .

اما جيوش ابى بكر فانها خرجت تقارع جيوش الامبراطوريات المعاصرة فى فارس والروم التى تهدد سلامة الدولة الاسلامية وتقبع فى العراق والشام على اطراف الجزيرة العربية تهدد المسلمين وتتحكم فى رقاب ابناء العراق والشام وتستنزف خيرات بلادهم وثمارهم .

ولذلك كانت خطة ابى بكر انطلاقا من روح الاسلام فى مقاومة التعسف والاستبداد وتوفير حرية العقيدة للبشر ، خطة سديدة جعلت من جيوش الفتح جيوش تحرير وحماية يتعاطفو يتعاون معها ابناء الارض المفتوحة وكانت لهم بمثابة جيوش انقاذ وتحرير ، اما لو ان تلك الجيوش الفاتحة قد دمرت موارد عيش ابناء تلك البلاد فلاشك انهم كانوا سيقفون الى جانب جلاديهم من الفرس والرومان لانهم سيكونون ارحم بهم على اى حال من جيوش الغزو والتدمير .

وهكذا فان المشكلة الاساسية هنا هى مشكلة فى منهج النظر والدراسة اكثر منها فى اى أمر آخر .

والمثال الثانى هو ما أورده العالم الجليل الفقيه المعاصر الذى يلقى كتابه قبولا فى الدائرة الاسلامية وتعتبر من افضل المعروض فى ميدانه وهو الشيخ سيد سابق فى كتابه فقه السنة فى باب الجهاد حين يتحدث فى فصل من فصول الكتاب عن « التبييت » وهو مهاجمة العدو ليلا .

ويتطرق الاستاذ الفاضل للموضوع من وجوهه المختلفة والاسباب التى تستدعى الهجوم والتى يخشى منها كقتل اسرى المسلمين او من لايقصد قتله بسبب الظلام ويستشهد باقوال السلف من العلماء توضيحا وتوثيقا ودعما لما يصل اليه من الرأى والذى قال

به فى النهاية وهو جواز التبييت .

والقضية التى يواجهها الدارس المختص والقارئ من القيادات السياسية او العسكرية فى موضوع الجهاد والسياسة والحرب فى الاسلام هى ليست فى سلامة ما أوزرده العالم الفاضل فى حد ذاته وتوثيقه ولكن فى اطار الدراسة الشاملة وعلاقة الموضوع ومنهج تناوله ودراسته فيما يختص بعمل هؤلاء وما يواجهونه من قضايا وتحديات .

فالتبييت لاشك قضية هامة وكبرى فى حروب العصور الماضية التى يحارب فيها السيف والرمح وعلى ظهور الخيل وتظل ضحاياها فى حدود العشرات او المئات .

اما فى الحروب الحديثة وامكاناتها الهائلة وطبيعة اسلحتها واسعة التدمير التى لاتعرف استخداماتها ليلا ولا نهارا ولا رجلا ولا امرأة والتى تعد ضحاياها بالالوف ومئات الالوف والتى يتقرر مصيرها فى الساعات والدقائق والتى تستهدف المواقع لاهميتها الاستراتيجية وليس لنوعية النازلين او العاملين او المحيطين بها فلا معنى ولا علاقة لهذا النوع من المعارك والحروب . والمشكلة هنا ايضا مشكلة منهج ومنطلق فى الدراسة والبحث والعرض والفكر والنظر . ولعله بعد هذا لايصبح قياس القاضى الماوردى فى كتابه „ الاحكام السلطانية “ عقد الخلافة على عقد النكاح فى انعقاده باثنين أمرا مستغربا .

قصور الدراسات السياسية الاسلامية :

واذا ادركنا طبيعة المشاكل التى يعانى منها الفكر الاسلامى فى المنهج اصبح من السهل علينا معرفة السبب خلف قصور الدراسات الاسلامية السياسية وما يبدو عليها من التعارض والبساطة والمحدودية

رغم جلال وسمو المبادئ التى تقوم وترتكز عليها هذه الدراسات فى الخلافة والشورى والعدل والمسئولية .

ولعل من المفيد ان نتناول هنا بعض القضايا الهامة التى تطرح نفسها فى مجال الدراسة السياسية الاسلامية ويقصر المنهج فى تناولها وتوجد بذلك ازمة فكر سياسى لدى الامة يحول بينها وبين التنظيم السليم والمشاركة العامة من الامة فى تبنى قضاياها الهامة وبذل الجهد المطلوب لانجاحها .

ووجوه القصور التى تعانى منها الدراسات الاسلامية السياسية مرجعها الى نوعين من القصور :

الاول : هو قصور ينعكس على فهم النماذج والنصوص الاسلامية الاولى التى تعتبر مصدرا للغاية الاسلامية وموجها للفكر والاجتهاد الاسلامى .

الثانى :هو قصور ينعكس فى فهم مبسط غير مختص فى الفكر السياسى الغربى والاجنبى تدفعه الرغبة فى مقاومة هذا الغزو الاجنبى والانبهار به لدى جمهور المثقفين وينتهى فى كثير من الاحيان الى تبنى مصطلحات ونظم لاتعكس حقيقة الغاية والمفهوم الاسلامى وتترك ساحة الفكر الاسلامى اكثر اضطرابا وبلبلة وتزيد من صعوبات الخلاص ووضوح الرؤية .

الفرد المطلق والمستبد العادل :

ففى المجال الاول : نرى مفهوم كثير من الدارسين والكتاب فى حقل الدراسة السياسية الاسلامية للخلافة الراشدة على انها نظام حكم فرد مطلق حتى جاء من القيادات الفكرية الاسلامية من يتحدث عن

المستبد العادل وتركزت الدراسات الاسلامية على شكليات الشروط فيمن يتولى الخلافة وولاية العهد والبيعة وواجبات السلطان فى اتباع الشريعة وحق طاعته على الرعية .

اما جوهر العملية التنظيمية والسياسية والعوامل والقوى المؤثرة فى بنائها واستقرارها واجراءاتها فى اختيار كوادر القيادة السياسية والاجتماعية وتحديد ادوارها ونقل السلطة من قيادة الى اخرى ومن جيل الى آخر واسلوب اتخاذ القيادة لقراراتها واسلوب وحدود ممارسة القيادة لسلطاتها والرقابة عليها .

كل ذلك لا نجد له صدى ولا عناية فى هذه الكتابات كما سبق ان قلنا لانعدام الخبرة والاختصاص وبالتالى النظر السطحى المبسط للانظمة والتاريخ .

ولاهمية الخلافة الراشدة فى الفكر الاسلامى ولتباعد الزمن مع عهدها وتغير الظروف تغيرا كبيرا كانت دراستها وحسن فهمها وفهم مدلولات مكوناتها امرا غير يسير على غير المختص المجرب .

ومن المعروف فى دراسة الانظمة السياسية انه لايمكن الاكتفاء بدراسة المؤسسات والوثائق والانظمة الرسمية لنظام الحكم ولذلك لابد من دراسة تشمل الانظمة والاجهزة والعوامل المؤثرة فى نظام الحكم الرسمية وغير الرسمية حتى يمكن فهم النظام واسلوب عمله .

والخلافة الراشدة سيجد الدارس لها الحد الادنى من المؤسسات والانظمة الرسمية والمكتوبة .

وليس ذلك عن نقص فيها ولكن طبيعة البيئة العربية البدائية البسيطة التى نشأت فيها والتى تقم بها حكومات اوامبر اطوريات ونظم

معقدة ولكن كانت قبائل مبعثرة متناثرة لايجمعها نظام ولادولة قبل الاسلام ولان حكومة الخلافة الراشدة كانت تواجه تحديات هائلة فى عالمها المعاصر مع ضئالة الامكانات البشرية .

ولان الاصحاب بقيادة الرسول عليه السلام هم الذين انشأوا دولة المدينة وهم الذين مارسوا العمل حول الرسول عليه السلام طيلة ثلاثة وعشرين عاما .

لذلك لايجد الدارس تنظيما او اجراءات لاختيار القيادة وتحديدها فالاصحاب هم القيادة كأمر واقع بحكم انشائهم للدولة والنظام الاجتماعى .

كذلك لن يجد الدارس تنظيما ولا اجراءات لتحديد ادوار القادة لان قدراتهم ومواقعهم محددة على عهد الرسول عليه السلام ويعرف الاصحاب قدرات بعضهم البعض ولذلك فاختيارات الخليفة على اى الاحوال لم تكن اعتباطية ولا عشوائية .

اما الرقابة فكانت تتم تلقائيا من خلال الباب المفتوح فى المسجد بين كوادر القيادة وبينهم وبين الرعية ولطبيعة التربية العقائدية المتينة للاصحاب .

اما تنظيم واجراءات نقل السلطة من جيل القيادة جيل الاصحاب الى الجيل الذى يليه من ابناء الامة وعلى اساس من الغاية الاسلامية فى الالتزام والكفاءة فللاسف فان انهيار الخلافة الراشدة وهى ما تزال فى دائرة الجيل الاول لم تسمح بقيام تلك الاجراءات وبلورتها .

ولهذا فان دراسة الخلافة الراشدة ومعرفة طبيعتها واساليب عملها لابد فيه من النظر المختص المثمن قبل القفز من الوهلة الاولى الى

القول بالفرد المطلق والمستبد العادل رغم ان القرآن ينفى فى اول ما انزل من الوحى „ ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى „ ٩٦ : ٥ وقبل القول باجراءات وتصورات اخرى فى التنظيم والشورى والسلطات والرقابة وسواها من شئون الحكم وممارسته فى مجتمع او آخر قياسا واستلهاما واقتداء بنظام الخلافة الراشدة .

الشـو رى والـردة :

ومن قضايا المجال الاول قصر مفهـوم الشورى الاسـلامية فى علاقات الحكم على مجـرد سماع الخليفة او السلطان للاراء وان قرار حرب الردة الذى اتخذه الخليفة الاول ابوبكر رضى الله عنه كان مجرد انقاذ لمفهوم حكم النص فى قتال المرتد .

وتتلخص النظرة بهذا الاسلوب ان ابابكر قد اتخذ القرار واصر عليه رغم اعتراض عمر بن الخطاب ومن أيده فى ذلك من الصحابة .

والعجيب ان القائلين بهذه الاراء لايرون من الامر الا نصوصا او نتفا من نصوص جاءت ضمن جدال وحوار بين الاطراف .

ولا يرون القضية فى صورتها الكبرى ، وكيف ان قضية اخضاع القبائل العربية الوثنية الهمجية البدائية قد كانت موضع وحى وقرارات نبوية توجب اخضاعهم للسلطة والنظام الاجتماعى الاسـلامى واظهار شعائر وأداء واجبات الاسـلام بغض النظر عن ايمانهم (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم) ١٤ : ٤٩ فلا يقبل منهم الا خضـوع للاسـلام وسلـطة الـدولة الاسـلامية والافالحـرب والقتال والاذعان عنوة للسلطة الاسـلامية .

وعجيب الايروا قدر ابى بكر وهو صاحب العقل الراجح والجنان

الثابت والرأى المتزن السديد والقلب الرحيم الذى ما كان ليتخذ قرارا خطيرا كهذا فى غمرة احداث لاجديد فيها حيث ان الردة والعصيان قد ظهرا قبل وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لظهور مسيلمة وسجاح والاسود العنسى ، دون فكر ولا روية .

وعجيب الايدركوا الوقت والجهد والادوار التى تمر بها القرارات السياسية عموما والهامة على وجه الخصوص قبل ان يتم تبنيها واقرارها.

ونستطيع ان نرى فى قضية الردة قضية سياسية هامة فى بناء المجتمع والسلطة وتنظيم الجزيرة العربية وليس مجرد صراع لغوى قانونى حول الكلمات والعبارات والنصوص كما نستطيع ان نرى فيها صورة حية لاتخاذ القرارات السياسية ومعاناتها وشروط حمل المسئولية القيادية السياسية ولذلك يهدد عمر الخليفة ابابكر بترك المسئولية والرئاسة اذا لم يتخل فى النهاية عن آرائه التى لم تتقبلها الجماعة كما نرى الخليفة ابابكر يبسط وجهة نظره ويوضحها ويدافع عنها وفى النهاية تقتنع الجماعة برأى الخليفة وترى رؤيته وتقر قراره ويأتى التصويت بالثقة من عمر ذاته قبل سواه بعد ان سمع لابى بكر وهو اعرف الناس بقدراته وحكمته ويرجع الى نفسه ليقول والله ما ان رأيت اصرار ابى بكر حتى شرح الله صدرى وتابعت القيادة القائد وتوجه الجيش الى أداءالمهام الموكولة اليه طواعية وقناعة ضميرية لم يكن لابى بكر سلطان عليهم سواها خاصة بعد ان سمعنا عمر وهو يقرر وجوب تنحى الخليفة اذا لم يذعن للجماعة وقد علمنا التاريخ من قولة الاعرابى لابى بكر « والله لورأينا فيك اعوحاجا قومناه بسيوفنا » .

فكيف يمكن للدارس ان لايرى معنى الشورى ومداها فى

الممارسة الاسلامية على عهد الخلافة الراشدة وكيف له ان يرى فى ذلك مجالا للاستبداد او اطلاق السلطة .

لابد ان تهتز رؤية الدارسين غير المختصين حين يفكرون فى شئون الحكم لايفرقون بين الشئون التنفيذية والادارية التى تحتم تحديد المسئولية وبين القرارات الكبرى وشئون الرأى والسياسات العامة التى تكون مجال الشورى ويكون للشورى فيها فائدة تمحيص الرأى واكتماله وسداده باضافة الاراء الى بعضها كما هى اجراءات تعليمية للامة وقياداتها بشأن هذه السياسيات والقرارات كما انها تعنى الانتماء الى هذه القرارات وبالتالى الحرص على انجاحها وتقويم التضحيات اللازمة لها عن رضا وقناعة .

الفلسفات والمصطلحات الاجنبية :

ومن قضايا المجال الثانى التى يعانى الدارسون والكتاب الاسلاميون منها خوضهم فى قضايا الانظمة والمصطلحات السياسية الاجنبية بدراية محدودة وبمعيار قانونى شكلى ولعل ذلك بتأثير مزدوج من منهج دراستهم اصلا من ناحية ولعدم تمكنهم من الالمام الشامل بخلفيات واسس تلك الانظمة .

وفى غمرة الحاجة الى الملاحقة والاستجابة للضغوط الحضارية تأتى الدراسات والفوائد قاصرة عن المطلوب بل مصدرا اضافيا لضباب الرؤية واضطراب الفكر وصعوبة التمييز .

الديمقراطية والسيادة :

هذان المصطلحان هما من المصطلحات ذات الاصول الاجنبية والتى تناولتها اهتمامات الكتاب الاسلاميين وتبناها بعضهم كمفاهيم توافق

طبيعة الاسـلام ويتوجب تبنيها فى الفكر والنظم الاسـلامية .

ولاشـك ان هنـاك اسبابـا من التشابهـات الظاهـرة بيـن هذه المصطلحات والغايات والمفاهيم الاسـلامية الا ان المؤسف ان لهذه المصطلحات والمفاهيم جذورا وجوانـب خاصة لم يتنبـه لهـا هؤلاء الكتاب ولم يعيروها الاهتمام الكافى مما أورث الفكر الاسـلامى مزيدا من القضايا الفكرية الزئبقية المتلونة التى يجر الجانب الظاهـر منهـا جوانب وقضايا غير موغوبة ولا مطلوبة ولا مفهومة ولكنها تؤدى الى اضطراب الفكر وعتمة النظر .

فالديمقراطية مبدأ ومفهوم واجراءات لها جذور قديمة فى التاريخ والفكر والفلسفة الغربية لاتقف عند كونها ـ من الناحية العامة ـ قضية اجرائية فى اختيار القيادات السياسية فى الغرب ولكنها فى الواقع الترجمة العملية السياسية للفلسفة المادية الفردية التـى تؤلـه الفـرد وتجعله غاية وهواه قانونا للوجود وكل شى وسيلة لهذا الوجود .

ولذلك كانت الديمقراطية فى النهاية ائتلافا وتجمع افراد ينالون قوة الاغلبية ليحكموا فكرتهـم ومصالحهـم الخـاصة بالحـد الادنـى المناسب من التنازلات فى مواجهة الاقليات .

ولذلك فمهوم الاغلبية والاقلية واهمية التصويت وغيـاب فكـرة العـدل والحق كحقيقة موضوعية يطلبها الفرد والمجتمع لاوجود لها فى مفهوم الديمقراطيات ولا وجود الالما هو سياسى بمعنى التدبير الذى يتمكن القوى ان يحقق به اكثر قدر من المصلحة كما يحددها لنفسه .

ولاشك ان لهذه الاسس والخلفيات الفلسفية والتاريخية والنفسية آثارها على بناء الانظمة والاجراءات والممارسات الغربية .

ولمثل هذه الاسباب يأتى التخبط فى الفهم وفى التطبيق عند المسلمين من محاكاتهم لنظم ومصطلحات وتجارب غيرهم دون ان يدركوا تلك الاسباب ولا تلك المؤثرات .

ان الشورى ليست الديمقراطية رغم انها تهدف الى اختيار وانتشار القيادات والوصول الى القرارات التى يقبل بها ويساندها جمهور الامة .

ولكن الفرق ان الشورى كما يدل اسمها تصدر عن فهم فلسفى مغاير ينبنى على ايمان المسلم بان الحق والعدل حقيقة موضوعية يسعى الى بلوغها بعض النظر عن هواه وميله الخاص وان عملية الشورى هى اجراءات يجلسون فيها الى بعضهم بغرض تبين وجه الحق واتباعه دون حتمية شرط ولا فرض مسبق من مصلحة بعينها ولا عدد من الاصوات بعينه ، وليس من بأس من التصويت والاغلبية والاقلية اذا كان الامر مجال رأى وتفضيل لايهضم حقا ، او اذا غمت الروءية ولا مناص من مقياس لاتخاذ القرار المطلوب .

ان مفاهيم الخلفية الفلسفية اذا تركز الوعى عليها فلاشك انها سوف تترك اثارها على طبيعة التنظيم الاسلامى السياسى واجراءاته فى اسلوب الوصول الى القرارات وتنفيذها على غير ما يجرى فى المجتمعات والانظمة الاجنبية .

وكذلك مصطلح السيادة فرغم ان بعض الكتاب قد تبناه على اساس ان البيعة انما تعطى السيادة للامة كما هى فى الانظمة الغربية الديمقراطية فان البعض قد رفضها على اعتبار ان الوحى هو شريعة المسلمين ولامجال للتشريع من قبل احد من المسلمين فذلك مرده

الى الله .

والقضية التى يثيرها مثل هذا المصطلح فى الفكر الاسلامى بالرفض او القبول قضية زائفة لاتزيد الرؤية الاسلامية الا تعتيما واهتزازا .

فالسيادة مصطلح غربى له جذوره التاريخية فى الصراع على من يسند اليه القرار السياسى فى المجتمع وقد استخدم هذا المصطلح ليضع سلطة القرار السياسى ومن ذلك القرار التشريعى فى يد الملك ضد السادة الاقطاعيين كقوة موحدة فى ابان نشأة الدول القومية ، ثم استخدم بعد ذلك ليضع القرار السياسى والتشريعى فى يد ممثلى الشعوب باسم الامة بعد ان اتسعت دائرة المشاركة السياسية ونمت قوة الطبقات الجديدة صاحبة القوة فى المجتمعات التجارية الصناعية الجديدة .

وتبنى قضية مصطلح السيادة او رفضه انما يعنى ان الوعى على الطبيعة الدستورية للمجتمع الاسلامى غير واضحة وان التفرقة بين مختلف مستويات القرارات فى النظم الاسلامية غير واضحة .

فغير صحيح ان سلطة المجتمع المسلم فى الشئون التشريعية مطلقة كما انه غير صحيح ان المجتمعات والسلطات الاسلامية التشريعية لاوجود لها .

من المهم ان نعلم اولا طبيعة المستويات التشريعية حتى يمكن ان نحدد الاختصاصات فى المجتمعات المسلمة .

فالقيم والمبادئ والتشريعات الدستورية الاساسية كما جاءت فى الوحى ليست موضع جدل ولا اختصاص لاحد فيما وراء ما نزل منها .

اما التشريع على المستويات الدنيا وفيما لم يرد فيه وحى ولا نص

ولا توجيه فهو اختصاص الامة بحسب الحال والا فيم كان الاجتهاد والرأى والترجيح ؟ واذا لم يكن هذا من الناحية الفنية قرارا وتشريعا فماذا يكون ؟

ان كثيرا من الحقوق والدماء تتقرر فى مثـل هذا الاختصـاص وبسبب هذه الاجتهادات والترجيحات التشريعية .

ان الاطار الاسـلامى على هذا المستوى ليس فيه صراع علـى تحديد مصدر القرار ولامجال فيه للانتصار بفئة على فئة .

وان هذا الخلط وهذه المحاكاة لن تؤدى الا الى صعوبة تحديد الاختصاصات بمفهوم اسلامى وفق المنطلق والاطار الاسـلامى .

ولذلك فاما انكار لكل القرار على الامة واما وضع مطلق القرار فى يدها على غير مايقضى بها بناؤها الاسـلامى .

ان مصطلع السيادة لا مجال له فى الاطار الاسـلامى التنظيمى السياسى فهو فى مدلول الاختصاصات التشريعية الاساسية مستقر .

والمشكلة ليس فى تحديـد مصادر القـرار هل هو الوحى المنزل او الامة .

ولكن القضية التى يفرضها الاطار الاسـلامى هى الكيفية التـى تنظم ممارسة الامة لاختصاصاتها وسلطاتها بالشكل السليم الذى يمثل الغاية والروح الاسـلامية .

الدين والدولة والخـلافة :

ومن القضايا التى يقع فيها المسلمون فى غمرة ضيعة المعـرفة الاسـلامية الناضجة فى مجال العلوم السياسية قضية هل الاسـلام دين و دولة ؟ وما فى المطالبة باقامة نظام الخلافة فى العصر الراهن فى بلاد

المسلمين من حرج .

وهاتان القضيتان تمثلان نجاح الفكر المعادى فى ارباك فكر الكتاب المسلمين .

فطرح قضية الدين والدولة بغض النظر عن التفاصيل والنصوص التى يتبادلها الاطراف لاثبات وجهة نظر كل منهم من مؤيد ومعارض فان القضية تمثل نجاحا في ارباك الفكر الاسلامى وخلطه للقضايا الاساسية وصرف النظر عن القضايا الهامة لضياع المنهج السليم .
فالنظر الكلى الاسلام يرفض اصلا وجود قضية دين ودولة فى الاسلام لالنص فى النصوص التفصيلية والجزئية ولكن لان مفهوم الاسلام اصلا وقضاياه الايديولوجية الكبرى فى الذات الالهية والخير والشر والاخرة انما يقصد منها السلوك الانسانى فى الحياة والمجتمع ولامعنى ولا اسلام والايمان اذا لم يكن للالتزام الاسلامى انعكاس على السلوك والتنظيم الاجتماعى للانسان .

ولكن خلط مفهوم الدين بالمعنى المسيحى من ناحية واحساس المسلمين المستمر فى العصر الراهن بازمة الانظمة الاجتماعية الاسلامية ورغبتهم فى مخرج سهل من الازمة جعلهم ينصتون ويشاركون فى حوارات فكرية سياسية من هذا النوع .

وانتهى الامر بالعدو ان بلغ غايته فى صفوف كثير منهم بدعوى تمجيد الاسلام كتراث وقبوله كمسلمات غيبية تتجاهل توجهاته الاجتماعية ليملا بعد ذلك فكره ولبه بمفاهيم الاستعلاء والعنصرية والقومية والتنظيمات العلمانية واليسارية المنافية للاسلام وغايات الاسلام ومبادئه وقيمه .

اما قضية الخلافة فهى قضية تمثل الخلط بين الاسلام كقيم وغايات ومثل ومبادئ وبين التطبيقات التاريخية المادية فى حياة المجتمعات الاسلامية التاريخية .

ولما كان من الصعب-ان لم يكن من المستحيل ـ اعادة تطبيق النظم التاريخية بحذافيرها كان واذا عرفت الخلافة بانها الصورة المادية للتنظيمات السياسية الاسلامية فان اعادة تطبيقها والامل فى تبنيها اكثر صعوبة بغض النظر اذا كان قد تم تبنى هذا النوع من التعاريف بشكل واع كما هو الشأن ببعض المستشرقين او كان بشكل غير واع ولا مقصود اذا تم من بعض الكتاب والدارسين المسلمين .

ان الخلافة ليست الا مصطلحا اسلاميا قصد منها اقامة النظام الاجتماعى السياسى عند المسلمين على اساس الاسلام واقامة شريعة الاسلام خلافة لدور الرسول عليه السلام فى قيادة المجتمع الاسلامى لتلك الغاية .

ولذلك فالخلافة فكرة وغاية ومصطلح لطبيعة النظم السياسية الاسلامية .

واى نظام مهما كان تركيبه اذا التزم الحدود والغاية والقيم الاسلامية وقصد الى رعاية شئون الامة الدينية والدنيوية على اساس الشريعة و وفقا لها فهو نظام خلافه .

ولايمكن للمسلم ان يسلم باقامة النظام السياسى فى مجتمعه غير ذلك الاساس ولا لتلك الغاية .

ان نظام الخلافة غاية ولكن اذا جردنا ذلك المصطلح من سوء الفهم الذى يجعلنا نقصد من ورائه صورا مادية تاريخية او من سوء

الغاية التى ترمى الى تنكرنا لشخصيتنا ونفض اليـد من البحـث فى ذاتيتنا لبدء مسيرة قادرة اصيلة .

واقع الدراسات الجامعية السياسية الاسـلامية :

ولكى تخطو محاولات اسلامية العلوم السياسية خطواتها بنجـاح علينا ان نعرف واقع هذه الدراسات فهى فى مجملها لا تعدو ان تكون مجمـوعة من الكتـب عن الاراء والتصورات والاجتهـادات الفـردية والكتابات الوصفية التاريخية والقانـونية الدسـتورية الشكلية لانـظمة الحكم والادارة فى الاسـلام او فى السير واحكام الحرب والسـلام .

ومن الواضح ان مجالات الـدراسة التحليلية فى ميادين الفكـر السياسى وتتبع الظاهرة السياسية فى التاريـخ الاسـلامـى وطبيعتهـا واهتماماتها وقضاياها ومصطلحاتها والاصيل منها والوافد عليها والثابت والمتغير فيها وكذلك مفهوم العلاقات الدولية فى الاسـلام والعوامل المؤثرة على مسيرته التاريخية وحصيلة تجربة علاقات الامة التاريخية وكذلك دراسات نظم الحكم وحصيلة تجاربها والدروس المستفادة منها فى سبيل تنظيم مجتمع افضل الى جانب دراسات التاريخ السياسى الموضوعية للامة . كل هذه الدراسات غائبة فى محيط الجامعة فى البلاد الاسـلامية .

وليس بالمستغرب ان يتخرج الطالب من معاهد الدراسة الجامعية السياسية فى البلاد الاسـلامية مؤهلا فى العلوم السياسية وهو يجهل الوجه والغاية والانجاز والواقع الاسـلامى فى كل هذه الحقـول الا النزر اليسير ان تيسر له وفى الغالب فى مجال نظم الحكم والادارة بمفهومها الوصفى القانونى التاريخى المحدود الذي لايسمن ولا يغنى

من جوع .

والمطلوب هو العناية والالتفات الى وجوه النقص الهائلة فى هذه الميادين وميادين العلوم الاجتماعية وتكوين المراكز والحلقات والوحدات الدراسية للبحث والدرس فى هذه المجالات من قبل اصحاب الاختصاص .

وهذه الجهود لابد ان تكون مضنية فى البداية حيث تمتد الى دراسة واعية شاملة تحليلية للتاريخ والتراث الاسلامى فى كافة مصادره من قرآن وسنة وكتب الفقه والتاريخ والادب حيث تعالج هذه القضايا بتبويب ومسميات ومصطلحات غير ما ألف الدارسون المعاصرون .

كما ان عليهم النظر الشامل فيما بين يديهم من قدر هائل من العلوم والمناهج الاجنبية مع كل ما تمثله من قدرة وانجاز فيه قدر عظيم من الفائدة الا انه يصدر عن منطلقات وغايات ومصالح وعلاقات لاتمثل ولا تنطبق على منطلقاتنا ولا غاياتنا ومصالحنا وعلاقاتنا ودوافعنا النفسية والمعنوية .

ولذلک لابد من البحث والتنقيب والنظر الثاقب المحلل قبل بلوغ مرحلة الهضم والعطاء .

ولقد مضى وضاع وقت طويل وعلى مؤسسات التعليم والمعرفة الجادة ان تضع هذا النوع من العمل والانجاز على رأس قائمة اولوياتها وان توفر له الموارد الضرورية وتفرغ له الكوادر العلمية المؤهلة الملتزمة القادرة حتى يتغير وجه المعرفة والمنهج الاسلامى فى هذه العلوم بما يعيد الى المسلمين قدرتهم ويضع حدا لغيابهم

الثقافى والحضارى القيادى فى العالم .

خاتمة : لايزال الخير في اتباع غاية الاسلام :

وفى نهاية هذا البحث أود أن أقدم مثالين للامال الانسانية التى ترتجى من بعث الاسلام حيا قياديا فى حياة البشرية منقذا لها من الافات والمخاطر الرهيبة التى تتهددها بانفتاح آفاق العلم المادية المثمرة والمدمرة فى آن واحد .

النظام السياسى ونظام الاسرة الاسلامى :

اذا تأملنا فى واقع العالم الاسلامى وواقع العالم الغربى للفت نظرنا ظاهرتان متناقضتان للامن والاستقرار مع انعدام الامن والاستقرار فى كل من العالمين .

ففى العالم الاسلامى نجد الحياة على المستوى الفردى آمنة مطمئنة بشكل عام لايقلقها ولا يفزعها العنف والجريمة على عكس ما يحدث فى البلاد الغربية حيث ان الحياة على مستوى العلاقة الفردية تتسم بالعنف والخوف وانعدام الامن .

اما على المستوى السياسى ففى الوقت الذى ينعم الغرب الديمقراطى بالامن والاستقرار فى النظام والحكم وممارسة السلطة والمعارضة وتوارثها ، الا اننا نجد العالم الاسلامى الذى تتسم نظمه السياسية بالاستبداد يعانى من العنف والخوف وعدم الاستقرار .

واذا نظرنا الى كلا المجتمعين لوجدنا ان العالم الاسلامى على المستوى الفردى يتمسك بشكل عام بنظام الاسرة وقانون الاحوال الشخصية الاسلامى رغم تعاقب الازمان (وهو قانون يتسم بالعلاقة الاخلاقية وروح المسئولية والتكامل والتعاون المتين بين افراد الاسرة)

يحقق احساسا بالرضا والاحترم والتعاطف بين افراد المجتمع ولا يدع مجالا لروح الحقد والضغينة وامراض الطفولة النفسية بالنمو ، ولذلك حتى حين تشتد الحاجة فى بعض المجتمعات الاسلامية بالافراد نجد ظاهرة السرقة بالنشل شائعة ولا تكاد تعرف السرقة المصحوبة بالعنف والدماء .

اما فى الغرب حيث يتسم نظام الاسرة بالانحلال وعكس كل مايمثله نظام وقانون الاسرة الاسلامية وما يستتبع ذلك من انعدام روح المسئولية والتكافل وما ينتج عنه من تفكك الاسرة وتفشى الامراض النفسية لدى الاطفال والشباب كانت النتيجة هى الحقد والجريمة والعنف وانعدام الامن فى شوارع الحواضر الغربية الكبرى .

اما على مستوى النظام السياسى فاننا نجد العكس فان العالم الغربى فد التزم فى نظامه السياسى مفهوم الانتخاب والاختيار للقيادات السياسية مما اساع الرضا .الاستمرارفى العلاقات السياسية ووفر الامن ولذلك فان الصراع السياسى لامحال له فى تنظيم اختيار تحسمه الامة فى صناديق الاقتراع ولا يحسمه السلاح فى ميادين المعارك .

اما فى العالم الاسلامى الذى يقوم مفهومه فى التنظيم السياسى واختيار القيادة على الالتزام الاسلامى والكفاءة والذى انحرفت مسيرتها عنه بانهيار الخلافة الراشدة والتزم بذلك نظام الملك المستبد الذى يقوم على الاستئشار بالسلطة لاصحاب القوة والعصبية لذلك انعدم الاستقرار السياسى واصبحت مقاليد السلطة والحكم تحسم على حد السلاح وليس فى ضمير الامة واخيارها للعناصرالملتزمة المؤهلة .

ان من الواضح ان التزام الامة للنظام الاسلامى فى الاحوال

الشخصية أورثها امنا كما ان انحرافها عن النظام الاسلامى فى الميدان السياسى والحياة العامة أورثها الاضطراب والعناء .

وليس للغرب فى رأيى من سبيل الى السلام على المستوى الفردى الا باصلاح نظام الاسرة فيه على نسق المفهوم والنظام الاسلامى للاسرة

كما لن يحقق العالم الاسلامى السلام والاستقرار فى حياته ونظامه السياسى مالم يعد الى مفاهيم وغايات الاسلام فى التنظيم السياسى فى الشورى والاختيار على اساس الالتزام الاسلامى والكفاءة الوظيفية .

فلسفة السلام العالمى :

من الواضح ان الانسانية بامكانات الدمار الذرية ودروس التاريخ البشرى تواجه خطر الدمار الشامل .

ومن الواضح ان فلسفة الغرب المادية بشقيها القومى وصراع الطبقات الماركسى هى فلسفات مواجهة ومناجزة ولايمكن الاطمئنان الى نظام دولى تقوم نظرة اعضائه ومفهومهم للحياة على المواجهة ولا تمدنا التجربة البشرية الابخبرة حتمية الحرب بين المتواجهين المتناجزين المتعادين مهما طال الزمن ومهما حكم العقل فى مضمار الحرب ومخاطرها ولم تغن المؤسسات الدولية قط فى درء الحروب حين تتوفر اسبابها فى العداء والخوف وانعدام الثقة .

والاسلام يقدم مفهوما اساسيا فى النظرة والعلاقة بين البشر انطلاقا من وحدة اصلهم من نفس واحدة وان تفرعهم شعوبا وقبائل واختلاف ألسنتهم والوانهم هو لغاية ايجابية لايجاد الظروف البشرية

الموضوعية للتفاعل والتعارف فيما بينهم ، كما ان رعاية حق العشيرة والاقارب واهل الحوار واجب وغاية يتطلبها الاسلام من الانسان بل ويتطلب الاسلام من المسلم العدل والاحسان الى غير المسلم الذى تربطه به صلة السلم .

اما المعتدى فعلى الجميع صد عدوانه وللمعتدى عليه حق رد العدوان بمثله وان كان الاسلام يدعو الى الصفح والعفو ما كان ذلك ممكنا وفى طاقة المعتدى عليه .

وهذا المفهوم وهذه الفلسفة هى قانون والزام ربانى للمسلم بحكم اسلامه لاخيار له فيه ولا رجعة عنه .

وهذه الفلسفة وهذا المفهوم الذى يشبه علاقات الدوائر المتداخلة يمثل فلسفة ونظرة انسانية اصيلة للسلام فى المجتمع الانسانى المعاصر ويمثل نظرة ايجابية تركز على وحدة الوجود والمصلحة الانسانية المشتركة ودون هذه الفلسفة وهذا الالتزام لن يكون أمل وقاعدة حقيقية للسلام الانسانى تنمو وتزدهر عليها مختلف الجهود والتنظيمات الدولية الوظيفية .

ان فى نماء وازدهار الفلسفة والايديولوجية والمفهوم الاسلامى الربانى فى الحياة الانسانية أملا وغاية نبيلة ليس لمصلحة وترقية ما يزيد على خمس البشرية فقط بل ولمصلحة الانسانية جمعاء بنظرة انسانية مستقبلية واعية .

والله أسأل ان يكلل جهود العاملين المخلصين بالنجاح وان يثيبهم خير الثواب وان يوفق المسلمين الى جادة الحق والصواب وان يهدى الناس الى الصراط المستقيم . وبالله التوفيق وعليه قصد السبيل .

****

مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية
باللغة العربية

الرسائل القشيرية للامام أبى القاسم القشيرى

تحقيق : الدكتور بير محمد حسن (مع الترجمة الأردية)

*

معدن الجواهر فى تاريخ بصرة الجزائر للشيخ نعمان

تحقيق : البحاثة الدكتور حميدالله

*

الكندى و آراؤه الفلسفية

للدكتور عبدالرحمن شاه ولى

*

مقصودالمؤمنين لبايزيد الأنصارى

تحقيق : الدكتور ميرولى خان

*

كتاب الانفعال للامام الصغانى

تحقيق : الأستاذ أحمد خان

★ ★ ★ ★

# AL-DIRĀSĀT AL-ISLĀMIYYAH

Arabic Journal

OF THE

ISLMIC RESEARCH INSTITUTE ISLAMABAD

PAKISTAN

Vol. XVII No. 6 November-December 1982

* * * * *

	Inside Pakistan	Outside Pakistan	
Annual Subscription	Rs. 30 00	$15.00	or £7.50
Single Copy	Rs. 6 . 00	$ 3.00	£1.50

* * * * *

All business correspondence

should be addressed to :

The Circulation Manager

Islamic Research Institute

ISLAMIC UNIVERSITY

ISLAMABAD - PAKISTAN

Printed at Islamic Research Institute Press,
Published by Muhammad Sami'ullah for the Islamic Research Institute, Islamabad